تاريخ المصريين ٦٣

موسوعة تاريخ مصر عبر العصور

تاريخ مصر الإسلامية

بقلم
أ.د. سيدة إسماعيل كاشف
أ.د. جمال الدين سرور
أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور
أعدها للنشر
أ.د. عبد العظيم رمضان





رئيس مجلس الإدارة
د. سمير سرحان

رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

الاخراج الفنى : مراد نسيم

اهداءات ٢٠٠١

اد. اسمت محمود غنيم

التاريخ بآداب الإسكندرية

تاريخ المصريين

٦٣

لجنة التاريخ والآثار

موسوعة

تاريخ مصر عبر العصور

تاريخ مصر الإسلامية

بقلم

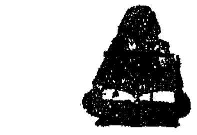
أ.د. سيدة إسماعيل كاشف

أ.د. جمال الدين سرور

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

أعدها للنشر

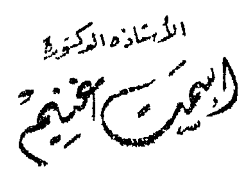
أ.د. عبد العظيم رمضان



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣





تقـــديم

منذ سنوات عديدة فكرت لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة فى عمل موسوعة تاريخية تتناول تاريخ مصر عبر العصور · ويقوم بتأليفها نخبة من أبرز المؤرخين المصريين المتخصصين ، بعد أن مضت سنوات عديدة على صـــدور كتاب « المجمل فى التاريخ المصرى » الذى صدر عن جامعة القاهرة سنة ١٩٤٢ ، وباتت الحاجة ماسة الى دراسات جديدة تشتمل على ما جد فى حقل الدراســـة التاريخية عن مصر منذ ذلك الحين · وقد نفذت بالفعل هذه الفكرة ، وأسندت هذه المهمة الجليلة الى عدد من المؤرخين المصريين المرموقين، وفقا لتخصصاتهم المختلفة عبر العصور التاريخية المتعاقبة · وقام عدد كبير منهم بالفعل بتقديم دراساتهم فى الموضوعات التى طلب اليهم البحث فيها · على أن هذه الدراسات ظلت قابعة فى أرشيف لجنة التاريخ والآثار دون أن ترى النور ، فى انتظار الاعتمادات اللازمة الطبع ·

وعندما تولت اللجنة الجديدة الأمر ، وهى اللجنة التى أشرف برئاستها ، كان من أهم الموضوعات التى رأينا بعثها من مرقدها ، هذه الموسوعة الهامة ، وقد تبين أن هناك بعض الفترات التاريخية

لم تقدم فيها دراسات بعد ، فطلبنا من بعض الأساتذة المختصين الكتابة فيها لاستكمال الموسوعة ، وتبينا أن الجزء الخاص بتاريخ مصر الاسلامية مستكمل بالفعل ، وهو الذى يشتمل على تاريخ مصر من بداية الفتح العربى الاسلامى حتى نهاية دولة سلاطين المماليك على أيدى العثمانيين ، وقد ألفه ثلاثة من أساطين التاريخ الاسلامى فى مصر ، وهم الأساتذة : الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ، والمرحوم الدكتور جمال الدين سرور ، والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ٠

وقد كان الأمر أمامى اما الانتظار حتى تستكمل دراسات الموسوعة ، فتصدر تباعا وفقا للترتيب الزمنى للعصور : أى يصدر الجزء الخاص بمصر القديمة أولا ، ويتبعه الجزء الخاص بمصر الاسلامية كجزء ثان ، والجزء الخاص بمصر الحديثة كجزء ثالث ٠ أو تصدر أجزاء الموسوعة وفقا لما يستكمل منها ٠

وقد رأيت أن الترتيب الزمنى فى اصدار المجموعة لا معنى له ، فالقارىء لا يقرأ التاريخ من أول ظهور البشرية ، وانما يقرأ ما يحب قراءته من عصور مصر المختلفة دون ترتيب ٠ كما أن التاريخ – بالذات – ليس مركبا فوق بعضه مثل الرياضة ، وانما هو أحد فروع المعرفة الانسانية القابلة للاختيار والانتقاء دون ترتيب زمنى ٠

ومن هنا قررت أن أبدأ باصدار الجزء الخاص بمصر الاسلامية أولا ، وأتبعه بما تستكمل دراساته من الجزءين الآخرين ٠

على أنه بقيت مشكلة تمويل طبع هذا الجزء ليصدر من المجلس الأعلى للثقافة ، وقد رأيت أن أحل مشكلة التمويل عن طريق اصدار الموسوعة فى سلسلة « تاريخ المصريين » التى تصدر عن هيئة الكتاب خصوصا والهيئة هى فرع من فروع وزارة الثقافة مثلها فى ذلك مثل المجلس الأعلى للثقافة ٠

ومن هنا عمدت الى اعداد هذا الجزء للنشـر فقسـمته الى أبواب : الباب الأول ، ويشتمل على تاريخ مصر الاسلامية من الفتح العربى الى نهاية الدولة الاخشيدية ، وقد كتبته الأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ، ويتناول : مصر فى عصر الولاة • ومصر فى عصر الطولونيين ، ومصر بعد الطولونيين وقبيل الأخشيديين ، ومصر فى عصر الاخشيديين •

أما الباب الثانى : فيشتمل على تاريخ مصر الاسلامية فى عصر الفاطميين ، وقد كتبه المرحوم الأستاذ الدكتور جمال الدين سرور • ويتناول تاريخ مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين ، والحضارة فى عصر الخلفاء الفاطميين •

أما الباب الثالث : فيشتمل على تاريخ مصر فى عصر الأيوبيين والمماليك ، وقد كتبه الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، ويتناول ، مصر فى عصر الأيوبيين ، ودولة سلاطين المماليك •

وقد حرصت على تبويب موضوعات الموسوعة تبويبا رقميا ، بحيث يأخذ كل عنوان فرعى رقما مسلسلا ، توحيدا للشكل الاكاديمى، بعد أن وجدت أن الأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف قد اتبعت هذا التبويب الرقمى ، دون الأستاذين الدكتور جمال الدين سرور وسعيد عبد الفتاح عاشور • ولأن التبويب الرقمى يساعد على حصر الموضوعات التى تناولتها كل دراسة بطريق التحديد لا التقريب •

وسوف يرى القارىء العزيز أن هذه الموسوعة قد غطت أهم النقاط فى تاريخ مصر الاسلامية ، وبشكل موسوعى • فقد تناولت النظم السياسية والادارية والمالية والقضائية والحربية والاقتصادية، كما تناولت العلاقات الخارجية لمصر الاسلامية فى العهود المختلفة ،

وتناولت أيضـــا الحياة الاجتماعية والدينية والعلمية والثقافية ، وغطت الحركات السياسية والدينية ، فضلا عن الحروب المختلفة التى خاضتها مصر الاسلامية ، خصوصا ضد التتر والصليبيين ٠

وفى النهاية لا أملك الا أن أحيى لجنة التاريخ والآثار لاهتمامها بعمل هذه الموسوعة التاريخية الهامة ، وأشكر أســـتاذى الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور المشرف على مجموعة العصر الاسلامى ٠

وأملى أن يجد القارىء العزيز فى هذه الموسوعة القيمة ما ينشد من فائدة علمية ومتعة فكرية ٠

والله الموفق ،،،

مصر الجديدة فى ١٣/١/١٩٩٣

مقرر لجنة التاريخ والآثار

ورئيس تحرير سلسلة تاريخ المصريين

أ ٠ د عبد العظيم رمضان

الباب الأول

مصر الاسلامية

من الفتح العربى الى نهاية الدولة الاخشيدية

(٢٠ هـ ـ ٣٥٨ هـ / ٦٤١ م ـ ٩٦٩ م)

الأستاذة الدكتورة / سيدة اسماعيل كاشف

أستاذة التاريخ الاسلامى

كلية البنات ـ جامعة عين شمس بالقاهرة



أولا : مصر فى عصر الولاه

(٢٠ ـ ٢٥٤ هـ = ٦٤١ ـ ٨٦٨ م)



أولا : مصر في عصر الولاة
٢٠ ـ ٢٥٤ هـ = ٦٤١ ـ ٨٦٨ م

مقدمة :

لعلم أعظم ما قدمته مصر للبشرية منذ فجر التاريخ هو تلك الحضارة العظيمة التى نشأت وازدهرت فى وادى النيل . ولعل وادى النيل كان ولايزال ، من أعظم أجزاء المعمورة اتصالا بالأحداث الجليلة فى التاريخ العام ، وأوفرها نصيبا فى التيارات المختلفة المتباينة . وقد كتب المستشرق الفرنسى المعاصر الأستاذ فيت فى مقال له عن السلطان الظاهر بيبرس ، عبارة كتبها السائح الفرنسى جان جاك أمبير Jean Jacques Ampère فى القرن التاسع عشر تعكس رأى هذا السائح عن مصر بقوله :

« ان الذى يعبر هذا البلد العظيم الشأن ليلقى فى طريقه الكتاب المقدس وهوميروس والفلسفة والعلوم والاغريق والرومان والمسيحية والمذاهب التى خرجت عليها والرهبنة والاسلام والحروب الصليبية

والثورة الفرنسية ، بل انه ليكاد يلقى فيها كل ما كان خطير الشأن في تاريخ هذا العالم ·· وأنى لنا أن نجد مدينة كالاسكندرية شيدها الاسكندر ودافع عنها قيصر ثم فتحها نابليون !! » ·

والذى نقصده فى الصفحات التالية أن نلم بتاريخ مصر الاسلامية العربية ، فى ايجاز ، منذ فتحها العرب بقيادة عمرو بن العاص وفى فترة تزيد على ثلاثة قرون ، وبنصيب مصر فى الحضارة الاسلامية التى ازدهرت فى العالم الاسلامى وكانت أساسا للحضارة الأوربية فى العصر الحديث ·

والمعروف أن تاريخ مصر ارتبط بشبه الجزيرة العربية منذ الألف الرابع قبل الميلاد حين وفدت أعداد كبيرة من شبه الجزيرة الى مصر واختلطوا بالمصريين القدماء · واستمرت تلك الصلة العربية المصرية سياسيا وثقافيا واقتصاديا واجتماعيا وذلك عن طريق البحر الأحمر ، أو عن طريق شبه جزيرة سيناء ووديان الصحراء الشرقية ، حتى ان المؤرخ والجغرافى اليونانى سترابون Strabon المتوفى نحو سنة خمس وعشرين بعد الميلاد قال عن مدينة قفط Koptos فى الصعيد انها مدينة نصف عربية(١) ·

وكما ارتاد العرب مصر منذ أقدم العصور للتجارة أو للاستيطان أو لأسباب أخرى ، فقد وفد عليها للتجارة ، زمن الجاهلية ، عدد من الشخصيات العربية التى اشتهرت فى الاسلام نذكر منهم عمرو

---

(١) انظر : wiet : Art, Kibt, Encyclopaedia of Islam, Vol : II, P. 991 (Leyden — London, 1927).

ابن العاص(٢) قائد فتح مصر ، وعثمان بن عفان(٣) ثالث الخلفاء الراشدين ، والمغيرة بن شعبة(٤) أحد أبطال الاسلام والدهاة السياسيين المبرزين ٠

وتذكر المصادر التاريخية أن عمرو بن العاص زار الاسكندرية فى الجاهلية وأعجب بعظمة المدينة وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخير ٠ وتسترسل القصة التاريخية فتقول انه وافق دخول عمرو الاسكندرية عيدا عظيما يجتمع فيه الملوك والعظماء ويترامون بكرة من الذهب يتلقونها بأكمامهم ، وكانوا يعتقدون أنه اذا استقرت الكرة فى كم أحد لم يمت حتى يملك مصر ٠ وتذكر القصة انه حين جلس عمرو بن العاص فى ذلك المجلس رمى رجل منهم بالكرة فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو ، فعجب القوم وقالوا ان الكرة لم تكذبهم الا هذه المرة وقالوا : « أترى هذا الاعرابى يملكنا !! هذا ما لا يكون أبدا »(٥) ٠

ولنترك هذه القصة ــ ان صحت ــ وهذه النبوءة ، وقد تحققت فعلا بعد ظهور الاسلام وأصبح عمرو بن العاص قائد فتح مصر الذى خلصها من سيطرة البيزنطيين وأصبح أميرها بعد الفتح ، ولنعرف ما حدث بين مصر وبين شبه جزيرة العرب بعد ظهور الاسلام ٠

المعروف من المصادر التاريخية أن الرسول عليه الصلاة والسلام

---

(٢) ابن عبد الحكم ! فتوح مصر وأخبارها ٠ ص ٥٣ (طبعة تورى نيوهافن Torry ١٩٢٢ م) ، والكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ٠ Gibb Memorial Series). ص ٦ ــ ٧ (طبعة بيروت ١٩٠٨ م

(٣) السيوطى ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٩٢ (القاهرة ١٣٢٧ هـ)

(٤) المرجع السابق : ص ٩٩ ٠

(٥) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٥٠ (طبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩١٤ م) ٠

أرسل فى السنة السـادسة للهجرة (٦٢٧ م) الكتب الى الملوك والأمراء يدعوهم الى الدخول فى الاسلام ، وكان قد أمر فصنع له خاتم من فضة نقش عليه « محمد رسول الله » وذلك حتى يختم رسائله(٦) ٠

وكان ممن أرسل اليهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، حاكم مصر من قبل الروم « المقوقس عظيم القبط »(٧) ٠

وتجمع المصادر القديمة على أن المقوقس أحسن استقبال رسول النبى عليه الصلاة والسلام ورده بهدية الى النبى صلى الله عليه وسلم كان منها مارية القبطية وأخت لها وشىء من خيرات مصر ٠ ومارية القبطية هى التى ولدت للرسول عليه الصلاة والسلام ابنه ابراهيم ٠

وحين اتجه الرسول عليه الصلاة والسلام الى توحيد شبه الجزيرة العربية تحت لواء الاسـلام وتحت زعامة المدينة المنورة حاضرة الدولة الاسلامية الناشئة ، اصطدمت الجيوش العربية الفتية بالدولتين الكبيرتين حينذاك ، دولة الفرس ودولة الروم ، اللتين كانتا تسيطران على العرب وعلى الأراضى العربية فى شمالى شبه الجزيرة فضلا عن تحريضهما لمشركى العرب ولأهل الكتاب منهم ضد الدولة الاسلامية ٠

---

(٦) انظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى ج٢ ص ٢٣ (طبعة القاهرة ١٣٥٨ هـ) ٠

(٧) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر واخبارها ٠ ص ٤٢ (طبعة المعهد العلمى الفرنسى) ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك : ج٣ ص ٨٧ (طبعة المطبعة الحسينية بالقاهرة ـ القاهرة ١٣٢٦ هـ) ٠

ولم تنقض بضع سنين على وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام فى سنة ١١ هـ (٦٣٢ م) حتى استطاع العرب الذين ألف الاسلام بين قلوبهم ووحد صفوفهم ودفعهم الى التحمس والاستشهاد فى سبيله ، أن يهزموا الدولتين الكبيرتين وأن يندفعوا فى فتوحاتهم لتأمين أراضيهم ، وكانت مصر من بين تلك البلاد المفتوحة ·

والفترة التى سنؤرخ لها منذ أن فتحت مصر البيزنطية على يد العرب بقيادة عمرو بن العاص فى سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) ، الى أن فتحت على يد جوهر الصقلى باسم الخليفة الفاطمى المعز لدين الله فى سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) تزيد على ثلاثة قرون · وتنقسم هذه الفترة الى فترتين رئيسيتين : الفترة الأولى وتمتد أكثر من قرنين وربع من الزمان من سنة ٢٠ هـ الى سنة ٢٥٤ هـ (٦٤١ ــ ٨٦٨ م) ، وقد اصطلحنا على تسميتها باسم « عصر الولاة » ، لأن مصر كانت حينذاك ولاية تابعة للخلافة الاسلامية يحكموا ولاة من قبل الخلفاء ، فكانت الخلافة تبعث بالولاة من مقرها فى المدينة المنورة ، زمن الخلفاء الراشدين ، ومن الكوفة حين اتخذها على بن أبى طالب عاصمة له ، ومن دمشق عاصمة الأمويين ، وأخيرا من بغداد وسامراء زمن العباسيين ·

أما الفترة الثانية فتمتد من سنة ٢٥٤ هـ الى سنة ٣٥٨ هـ (٨٦٨ ــ ٩٦٩ م) أى مدة قرن من الزمان · وهذه الفترة تضم أول دولة اسلامية عربية فى مصر المستقلة وهى الدولة الطولونية ، وبعدها الدولة الاخشيدية ، وتخلل الدولتين فترة ثلاثين عاما من الاضطراب

وعدم الاستقرار وضياع الاستقلال · ونود أن نشير هنا الى أن استقلال الدولة لا يتأثر باختلاف جنس الأسرة الحاكمة عليها عن جنس شعبها ، فالحاكم المستقل ، أيا كان جنسه ، هو رمز للبلاد التى يستقل بحكمها ، وهو الممثل لاستقلالها وكرامتها وعظمتها · وليس تاريخ انجلترا ببعيد ، فقد أغار عليها النورمنديون من فرنسا بقيادة وليم الفاتح فى سنة ١٠٦٦ م وملكوها ، ومع ذلك لم يقل أحد من المؤرخين ان انجلترا لم تكن دولة مستقلة ذات سـيادة منذ سنة ١٠٦٦ م الى يومنا هذا ·

١ ـ فتح العرب لمصر

فقدت مصر البطليموسية استقلالها منذ موقعة اكتيوم فى سنة ٣١ قبل الميلاد التى انتصر فيها أغسطس قيصر على كليوبترا آخر من تربع على عرش دولة البطالسة فى مصر • وبعد اكتيوم استولى أغسطس قيصر على مصر فى سنة ٣٠ قبل الميلاد وأصبحت مصـــر ولاية رومانية تتبع روما عاصمة الدولة الرومانية • ولم يدع الرومان وسيلة الا ابتكروها لاستغلال موارد البلاد الى اقصى حد ممكن(١) • وأصبحت مصر ، بعد أن فقدت اســـتقلالها ، تعانى من الاحتلال الرومانى معاناة شديدة ، واستسلم المصريون أحيانا وثاروا أحيانا أخرى ، لكن المحتل الغاشـــم كان يقضى على المقاومة والثورات المصرية دون هوادة ولم يلبث أن ظهر عامل جديد فى الأفق حول الشعب المصرى من شعب مسالم فى معظم الأحيان ، الى شعب عنيد مقاوم ، ذلك العامل هو ظهور المسيحية فى مصر وانتشارها فيها • فقد كانت مصر فى طليعة البلاد التى تسربت اليها الديانة المسيحية فى القرن الأول الميلادى وأخذت فى الانتشار تدريجيا فى جميع أنحاء

(١) انظر : Johnson : Roman Egypt. Vol. II. P 484 (Baltimore 1936).

مصر منذ القرن الثانى الميلادى . لكن أباطرة الدولة الرومانية الوثنيين ناصبوا المسيحية العداء ، وأصبحت المسيحية فى مصر تلقى اضطهادا كثيرا وتسامحا قليلا الى أن ولى عرش الامبراطورية دقلديانوس Diocletiorus (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) فبلغ فى عهده اضطهاد المسيحيين أقصاه . وقابل المصريون ذلك الاضطهاد من جانبهم بقوة واصرار . وتولدت من تلك المقاومة حركة قومية أخذت فى النمو فيما بعد ، وليس أدل على ذلك من أن الكنيسة القبطية بدأت تقويمها الذى سمته « تقويم الشهداء » ـ وهو التقويم القبطى ـ بالسنة الأولى من حكم دقلديانوس أعنى سنة ٢٨٤ م نتيجة لما ترك هذا الاضطهاد من وقع أليم فى نفوس الأقباط(٢) . وأصبحت مصر منذ ذلك التاريخ أيضا ولاية يونانية رومانية تتبع القسم الشرقى من الدولة الرومانية ، أى الدولة البيزنطية أو الدولة الرومانية الشرقية ، وهى دولة الروم التى اصطدمت بها الدولة الاسلامية الفتية فيما بعد .

ولم تلبث المسيحية أن أحرزت نصرا مبينا لاعتراف الامبراطور قسطنطين الأول (٣٢٣ ـ ٣٣٧ م) بالمسيحية دينا مسموحا به ضمن الديانات الأخرى فى الدولة الرومانية . ثم أصبحت المسيحية الدين الرسمى الوحيد فى جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية وذلك فى عهد الامبراطور تيودوسيوس الأول (٣٧٩ ـ ٣٩٥ م) الذى أصدر مرسوما بذلك فى سنة ٣٨٠ م ولم يلبث أن حرم العبادات الوثنية فى مرسومين أصدرهما سنتى ٣٩٢ و ٣٩٤ م(٣) .

على أن مصر المسيحية لم تنعم بهذا النصـــر الذى أحرزه

---

(٢) انظر : Munier : L'Egypte Byzantine. PP. 9 — 10 (Précis de l'histoire d'Egypte. T. II. Le Caire 1932), Milne : A History of Egypt under Roman Rule. P. 218 (London 1924)

(٣) انظر : Munier : L'Egypte Byzantine, PP. 37 — 39.

المسيحيون ، اذ ثار النزاع والجدل بين المسيحيين حول صـــفات المسيح وطبيعته من أيام الامبراطور قســـطنطين الأول ، وتدخل قسطنطين ومن آتى بعده من الأباطرة فى هذه المنازعات الدينية البحتة وعقدوا من أجل ذلك المجامع الدينية ، الا ان أغلب الأباطرة اتخذوا سياسة دينية مناوئة لمذهب المسيحيين فى مصر · وبلغ النزاع الدينى بين كنيستى الاسكندرية والقسطنطينية أقصاه منذ منتصـــف القرن الخامس الميلادى حينما اختلفت الكنيستان حول طبيعة المســـيح · فذهبت الكنيسة المصرية الى القول بأن للمســـــيح طبيعة واحدة Monophysite أما كنيسة القسطنطينية فقالت بأن للمســيح طبيعتين Duophysite · ودعا الامبراطور مرقيان Marcian (٤٥٠ ــ ٤٥٧ م) من أجل ذلك الى مجمع دينى فى خلقدونية فى آسيا الصغرى Chalcedon سنة ٤٥١ م · وأقر ذلك المجمع ما ذهبت اليه كنيسة القسطنطينية (بيزنطة) بأن للمسيح طبيعتين ، وقرر أن مذهب الكنيسة المصرية كفر وخروج على الدين الصحيح ، كما قرر حرمان ديسقورس Dioscorus بطرك الاسكندرية من الكنيسة · ولم يقبل البطرك الاسكندرى ولا مسيحيو مصر ما أقره مجمع خلقدونية وأطلقوا على أنفسهم « الأرثوذكسيين » وهى كلمة يونانية معناها « أتباع الديانة الصحيحة » ولايزال سواد أقباط مصر يعرفون بذلك الاسم الى يومنا هذا · أما اتباع الكنيسة البيزنطية فقد عرفوا بعد الفتح العربى لمصر باسم الملكانيين وذلك لاتباعهم مذهب الملك أو الامبراطور · ومما يدل على أن المسألة الدينية فى مصر تطورت الى مسألة قومية أو امتزجت بها ، ما يذكره المؤرخ المصرى ساويرس بن المقفع أسقف مدينة الأشمونين ، عن رهبان أحد الأديرة المصرية بأنهم لم يحيدوا عن المذهب الأرثوذكسى ولم يقبلوا المذهب الخلقدونى لأنهم مصريون(٤) ·

---

(٤) انظر : ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ص ٤٩٨ الجزء الأول من مجموعة الآباء الشرقيين
(Patrologia Orientalis T. I. Paris 1907).

وقد أطلق مسيحيو الشرق على الأقباط الأرثوذكس أيضا اسم اليعاقبة ، كما أطلقوا على الكنيسة القبطية الأرثوذكسية اسم الكنيسة اليعقوبية ، وذلك نسبة الى يعقوب البرادعى Jacob Baradeus أسقف مدينة الرها Edessa (أورفة الحالية فى تركيا) الذى كان يقول بمذهب الطبيعة الواحدة فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى والذى زار مصر ضمن بلاد الشـــرق التى زارها لتنظيم الكنائس المونوفيزيتية ، أى القائلة بمذهب الطبيعة الواحدة · ولكن اتضح لنا من خلال قراءتنا لحوليات الكنيسة القبطية للأســـقف ساويرس بن المقفع ، أن أقباط مصر لم يطلقوا على أنفسهم اسم يعاقبة ·

وقد قابل المصريون الاضطهاد الرومانى ثم البيزنطى ، بالمقاومة الايجابية أحيانا وما يستتبعها من الثورة ضد المحتل المستبد ، ولكن الغالبية من الشعب المصرى لجأت الى المقاومة السلبية وذلك بالفرار الى المعابد والأديرة ، وبهجر مزارعهم وقراهم مما أدى الى نقص الموارد الغذائية والى انتشار الفوضى فى البلاد فضلا عن الاضطراب فى جميع مرافقها ·

وفى وسط تلك الفوضى الضاربة أطنابها غزا الفرس مصر سنة ٦١٦ م فى عهد ملكهم كسرى الثانى ولم يخرجوا من مصر الا بعد أن حارب هرقل ، امبراطور الروم ، بلاد الفرس نفسها سنة ٦٢٩ م فاضطروا للجلاء عنها ·

وقد فرح المصريون بثورة هرقل ضـــد الامبراطور فوقاس Phocas (٦٠٢ ــ ٦١٠ م) وساعدوا قائده نيقتاس الذى وكل اليه الاستيلاء على مصر لقطع الغلة عن القسطنطينية ·

وفرح الشعب المصرى أيضا عندما تم تتويج هرقل امبراطورا فى سنة ٦١٠ م ورحبوا بمقدم جنوده · ولعل المصريين كانوا يعتقدون

أن حكم هرقل (٦١٠ ــ ٦٤١ م) سيكون أخف وطأة من حكم من سبقه من الأباطرة وأنه سيكون خاتمة للاضطهادات وسفك الدماء وامتصاص أموال المصريين . على أن هرقل بعد أن أنقذ الدولة من الفرس رأى أن ينقذها من الخلاف الدينى ، فأصدر أمرا أو « صورة توفيق » Mono Thelma ، تقضى بأن يمتنع الناس عن الكلام فى طبيعة المسيح وصفته وان يعترفوا جميعا بأن له ارادة واحدة . ولم يفطن هرقل الى أنه فرض بذلك مذهبا جديدا ، ووقع كذلك فيما وقع فيه الامبرطور جستنيان (٥٢٧ ــ ٥٦٥ م) من اسناد الرئاسة الدينية والسياسية لشخص واحد هو قيرس(٥) الذى يعرف عند مؤرخى العرب باسم المقوقس(٦) . وقبل أن يصل قيرس الى الاسكندرية فى سنة ٦٣١ م ، هرب البطرك القبطى « بنيامين » توقعا لما سيحل به وبالأقباط من الشدائد من جراء فرض المذهب الجديد . وصدقت نبوءة الأب بنيامين ، اذ أخذ قيرس المصريين بأحد أمرين . اما الدخول فى مذهب هرقل الجديد واما الاضطهاد . وفاق اضطهاد قيرس كل اضطهاد حتى تحول كثير من المصريين ، بل تحول بعض الأساقفة الى المذهب الجديد ، وقطع قيرس بذلك الخيط الرفيع الذى كان يربط مصر بالدولة البيزنطية . وأصبح المصريون يتطلعون الى الخلاص من الظلم والاستبداد الذى عانوه منذ ستة قرون حين فقدوا استقلالهم على يد الرومان والبيزنطيين . وأصبحت مصر تتهيأ لهذا

---

(٥) يقول ساويرس : « وأنفذ (يعنى هرقل) واليا الى أرض مصر يدعى قيرس ليكون بطركا وواليا معا . » انظر ساويرس بن المقفع سير الأباء البطاركة ص ٢٢٦ (Patr. Orient. T. I.)
Milne : Op. Cit., P. 115.

(٦) لاحظ أن العرب أطلقوا لقب المقوقس على حكام مصر البيزنطية قبل الفتح العربى لها . وطبيعى أن « المقوقس » هذا ليس هو « المقوقس » الذى أرسل له النبى عليه الصلاة والسلام يدعوه الى الاسلام فى سنة ٦ هـ (٦٢٧م) .

الحادث الكبير ، وهو الخلاص من استبداد البيزنطيين والدخول فى حكم العرب ٠

وبعد أن أزال العرب تقريبا ملك الأكاسرة فى العراق وايران عقب انتصارهم فى موقعة القادسية (أواخر سنة ١٦ هـ / ٦٣٧ م) واستيلائهم على « المدائن » عاصمة الفرس ، وبعد فتح العرب لبلاد الشام وفلسطين كان لابد من التفكير فى فتح مصر(٧) ٠

وذكرت المصادر القديمة الأسباب المختلفة لفتح مصر وغيره من فتوحات العرب الجديدة ، لكنا نرى الأسباب التى ذكرها المؤرخون القدامى تقريرا لواقع تم ، أو قصصا حول الفتوحات تذكر العرض ولا تبين الجوهر ٠ أما الأسباب التى ذكرها المستشرقون ومن لف لفهم أو أخذ عنهم ، فهى تركز على رغبة العرب فى نشر الاسلام أو التطلع الى البلاد الغنية الخصبة ٠ وبين المؤرخين القدامى والمحدثين نفتقد التركيز على السبب الجوهرى الذى من أجله اصطدم العرب بحجافل الفرس والروم ألا وهو توحيد شبه الجزيرة العربية تحت لواء الاسلام وتخليصها من التدخل الفارسى الرومى ٠

أما فتح مصر فيظهر فى المصادر العربية القديمة حين قدم الخليفة عمر بن الخطاب الجابية بالقرب من دمشق فى سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) للاشراف على ما تم من فتوح بلاد الشـــام وفلسطين ولتسلم مفاتيح بيت المقدس من بطركها ٠ وهنا تظهر لأول مرة فى المصادر العربية فكرة فتح مصر كأنها فكرة طارئة عنت لعمرو بن العاص ـ وكان من قواد فتح فلسطين والشـــام ـ وعرض فكرته وحسنها للخليفة عمر بن الخطاب ٠ وورد فى هذه المصادر أيضا أن

---

(٧) انظر : دكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٧ (القاهرة ١٩٤٧ م ـ الطبعة الأولى) ٠

عمر بن الخطاب نفسه هو صاحب فكرة فتح مصر وأنه أمر عمرو بن العاص بالمسير الى مصر • وورد فى هذه المصادر أيضا أن عمرو بن العاص خرج سرا الى مصر مع جيش صغير بدون استئذان الخليفة • وورد فى المصادر القديمة أيضا أن الخليفة عمر بن الخطاب تردد فى فتح مصر بدليل انه قال لعمرو انه مرسل اليه كتابا ان أدركه قبل دخوله فى حدود مصر رجع ثانية وان كان قد دخل فى حدودها استمر فى سيره (٨) •

ولكن مهما نسج خيال الرواة والقصاصين من روايات وقصص وأساطير ، فمن المؤكد أن فتح مصر أصبح ضرورة بعد فتح الشام وفلسطين وذلك لتأمين الفتوح الاسلامية بالشام ولتأمين المدينة المنورة نفسها عاصمة الخلافة لأنها قريبة من القلزم(٩) ولا يبعد أن يرسل الروم حملة من تلك الناحية تنتقم لما حل بممتلكاتها فى الشام •

ولا يعقل أبدا أن فتح مصر كان بهذه السهولة وبهذا الاستخفاف مهما كانت الظروف السيئة الاقتصادية والدينية والسياسية والادارية التى كانت تجتازها مصر حينذاك • ولو لم يفكر الخليفة عمر بن

---

(٨) راجع . ابن عبد الحكم فتوح مصر وأخبارهــا ص ٥١ ـ ٥٣ (طبعة المعهد العلمى الفرنسى) ، وتاريخ اليعقوبى ج٢ ص ١٦٨ ـ ١٦٩ (طبع ليدن ١٨٨٣ م) ، والبلاذرى : فتوح البلدان ص ٢١٢ (ليدن ١٨٦٦ م) والكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٧ ـ ٨ (بيروت ١٩٠٨ م) ، وسعيد بن بطريق (المعروف باسم اوتيخا) : كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ج٢ ص ١٩ ، المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ج١ ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) ، وأبو المحاسن بن تغرى بردى الأتابكى : النجوم الزاهرة ج١ ص ٦ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م) •

(٩) القلزم . بضم القاف وسكون اللام وضـــم الزاى ، هى السويس الحالية •

الخطاب فى فتح مصـــــر لكان غريبا ، ولو تردد ترددا جديا لكان أغرب !! ومهما كان من أمر ، فقد أرسل الخليفة عمر بن الخطاب قائده عمرو بن العاص لفتح مصر ، وسار عمرو من قيسارية بفلسطين الى مصر على رأس جيش قيل انه كان مكونا من أربعة آلاف محارب او ثلاثة آلاف وخمسمائة وذلك فى سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) · وقد سلك عمرو بن العاص الطريق الذى سلكه أغلب غزاة مصر وفاتحيها، والذى سلكه الأنبياء والتجار والحجاج والسائحون ، وهو طريق سيدنا ابراهيم الخليل وطريق يوسف الصديق وسيدنا يعقوب وآل يعقوب وطريق قمبيز والاسكندر ، فاخترق الصحراء الشرقية مساحلا للبحر الأبيض ثم مبتعدا عن فروع نهر النيل فوصل الى العريش فى شبه جزيرة سيناء ومنها الى الفرما(١٠) فلقى أول مقاومة هناك من الجنود البيزنطية استوقفته شهرا ولكنه تغلب عليها فى أوائل سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) · وواصل عمرو بن العاص السير متغلبا على ما صادفه من مقاومة حتى بلغ أم دنين(١١) حيث نشب قتال شديد بين العـــــرب وبين البيزنطيين الذين تحصـــــنوا فى حصـــــن بابليون Babylon (١٢) ·

---

(١٠) الفرما : هى مدينة بلوز أو بلوزيم القديمة Pelusium على ساحل البحر المتوسط شرقى مدينة بور سعيد الحالية ·

(١١) كانت « أم دنين » تقع تقريبا مكان حديقة الأزبكية الآن ، وكانت أم دنين قرية تقع شمال حصن بابليون الذى توجد بقاياه الآن فى مصـــــر القديمة بجوار كنيسة مارجرجس والمتحف القبطى الآن ·

وأم دنين ذكرها المؤرخ المصرى حنا النقيوسى الذى عاش فى القـــرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) باسم تندوينا وتندونياس ·

راجع : تاريخ النقيوسى ص ٥٥٧

(Chronique de Jean, évèque de Nikiou. Paris 1883).

(١٢) حصن بابليون : هو الحصن الذى بناه الامبراطور الرومانى تراجان (٩٨ ـ ١١٧ م) وسماه العرب ، قصر الشمع أو الحصـــــن أو القصر ·

وكانت المقاومة البيزنطية شديدة وعنيدة فى الحصن ، وكانت أعداد البيزنطيين تفوق أعداد العـــرب كثيرا ، فكانت عدة الجيش البيزنطى فى مصر زمن الفتح العربى حوالى ٣٠ر٠٠٠ جندى ، فضلا عن أنه كان من السهل على الدولة البيزنطية ارسال الامدادات من بيزنطة الى مصر بحرا عن طريق الاسكندرية ، وغيرها من الثغور المصرية التى تقع على البحر المتوسط ٠

وأرسل عمرو بن العاص يستنجد بالخليفة عمر بن الخطاب الذى أمده بقوة كبيرة قيل ان عدتها كانت أربعة آلاف رجل وقيل اثنا عشر ألفا من الرجال ، وكان على رأسهم أربعة من مشاهير الصحابة ، قال الخليفة ان الواحد منهم بألف رجل وهم : الزبير بن العوام ، وعبادة بن الصامت ، والمقداد بن الأسود ، ومسلمة بن مخلد ٠

حاصر العرب حصن بابليون بضعة أشهر ، واختلفت السفراء بين الروم والعرب ، وكان العرب فى فتحهم لمصر يحاربون الروم لا المصريين ، وأصر العرب على ألا يقبل من الروم الا الدخول فى الدين الاسلامى ، أو دفع الجزية للعرب ، أو القتال ، شأنهم فى ذلك شأن كل البلاد التى يفتحونها ٠ ولكن الروم المحاربين رفضوا تلك الشروط فاستؤنفت الحرب ٠

وبعد المفاوضات واستبسال العرب فى القتال وبسالة الزبير بن العوام الفائقة فى تسلق الحصن ، فتح العرب حصن بابليون عنوة ٠ وبعدها عقد العرب مع المصريين معاهدة فى أوائل سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) أورد نصوصها من المؤرخين القدامى المؤرخ الطبرى(١٣) فى تاريخه ، ومن نقل عنه من المؤرخين مثل ابن خلدون والقلقشندى

---

(١٣) انظر . الطبرى . تاريخ الأمم والملوك ج٤ ص ٢٢٩ (الطبعــة الأولى بالمطبعة الحسينية بمصر) ٠

وأبى المحاسن بن تغرى بردى وغيرهم · وهذه المعاهدة كان لها أهمية بالغة بالنسبة للعرب ، ولأهل مصر ، وللروم أى البيزنطيين ، فلم تكن بابليون حاضرة مصر ولكنها كانت قلب مصر وعاصمتها الحقيقية ، ولو أن العاصمة منذ عصر البطالسة الى أن تم فتح مصر على يد العرب كانت مدينة الاسكندرية ··

وحوادث التاريخ ترينا أنه اذا سقط قلب الدولة كان ذلك معناه سقوط الدولة كلها مثل سقوط روما سنة ٤٧٦ م الذى كان ايذانا بسقوط الدولة الرومانية الغربية فى أيدى البرابرة ، وسقوط باريس فى سنة ١٨٧٠ م الذى كان ايذانا بسقوط فرنسا فى أيدى الألمان ·

ونلاحظ أن معاهدة بابليون الأولى هذه حددت مركز المصريين ، أما فيما يتعلق بالبيزنطيين أو الروم فقد اشترط قيرس (أو المقوقس) ضرورة موافقة الامبراطور هرقل ، والا عادت الحالة بين الروم والعرب الى ما كانت عليه ·

وبمقتضى هذه المعاهدة أصبح المصريون أهل ذمة يؤدون الجزية للعرب ، وقد وافق الخليفة عمر بن الخطاب على هذه المعاهدة، ولكن جاء جواب هرقل يلوم قيرس ويوبخه على تخاذله ويطلب منه أن ينهض هو والروم لمحاربة العرب ، تلك الفئة القليلة · واستجاب الروم لنداء الامبراطور واستعدوا استعدادا عظيما للقتال ، وتجمعت حاميات الروم بالاسكندرية لمحاربة العرب فى معركة فاصلة ·

وسار عمرو بن العاص لمحاصرة الاسكندرية ، وأخذ فى هدم المقاومات التى صادفها فى طريقه حتى وصل الى الاسكندرية وألقى عليها الحصار · وبرغم استبسال العرب وقوتهم المعنوية وروح التضحية والجهاد التى كانت تسيطر عليهم فى هذا الدور من تاريخهم

الا أن فتح الاسكندرية كان من الصعوبة بمكان ، اذ كان الروم مسيطرين على البحر بأساطيلهم وكان المدد يأتى اليهم عن هذا الطريق ، ولم يكن من السهل على الروم الانسحاب من مصر كما اضطروا الى التخلى عن الشام بعد هزيمتهم أمام العرب • وقيل ان الامبراطور هرقل استعد للخروج لمباشرة حرب الاسكندرية بنفسه ، ولكن وفاته فى ١١ فبراير ٦٤١ م (٢٠ هـ) حالت دون تحقيق أمنيته •

وعلى قدر استبسال العرب كانت مقاومة البيزنطيين عنيدة مما دعا عمر بن الخطاب أن يرسل مستفسرا ومستبطئا الفتح •

وفى وسط هذه الحرب الضروس انبثق رأى من العاصمة البيزنطية ومن الاسكندرية يطالب بانهاء الحرب مع العرب حتى يتفرغ الروم لمشاكلهم الداخلية التى جدت عقب وفاة الامبراطور هرقل • فذهب المقوقس لمقابلة عمرو بن العاص ـ الذى كان فى بابليون آنذاك ـ يطلب عقد الصلح •

واستجاب العرب وعقدت معاهدة ثانية فى بابليون فى أواخر سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) اصطلحنا على تسميتها « معاهدة بابليون الثانية » تمييزا لها عن « معاهدة بابليون الأولى » أو « معاهدة الاسكندرية » لأنها كانت خاصة بأهل الاسكندرية وحاميتها • ونصت هذه المعاهدة على عقد هدنة بين الروم والعرب مدتها أحد عشر شهرا تنتهى فى أول شهر بابه القبطى (يوافق هذا التاريخ ٢٨ سبتمبر سنة ٦٤٢ م وأواخر سنة ٢١ هـ) يكف فى اثنائها الروم والعرب عن القتال ، كما يتم خلالها جلاء حامية الروم عن الاسكندرية حاملين أمتعتهم وأموالهم • واشترط فى هذه المعاهدة ألا يعود جيش رومى ثانية الى الاسكندرية • كذلك كان من شروط هذه المعاهدة ألا يستولى العرب على كنائس المسيحيين فى الاسكندرية وألا يتدخلوا

فى أمورهم ، وأن يباح لليهود الاقامة فى الاسكندرية وألا يتدخل العرب فى أمورهم • ولكى يضمن العرب تنفيذ شروط المعاهدة نصت المعاهدة على أن يحتفظ العرب بمائة وخمسين من الجند وخمسين من غير الجند رهائن(١٤) •

وعقب معاهدة الاسكندرية ، امتد نفوذ العرب تدريجيا الى سائر الاقاليم فى مصر • وأثبت مؤرخو مصر الاسلامية بصفة خاصة ابتداء بابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ حوادث الفتح العربى لمصر(١٥) •

والثابت فى المصـــــادر القديمة أن فريقا من المصريين قدموا العون للعرب فى حربهم ضد البيزنطيين ، واعتبروهم منقذين لهم من الحالة المتردية التى وصل اليها الشعب المصرى على يد البيزنطيين ومن قبلهم الرومان ، ووقف فريق آخر موقف الحياد ، وهناك أقلية من الشعب المصرى حاربت فى صفوف البيزنطيين ظنا منها بأن النصر سيكون حتما للبيزنطيين وليس للعرب(١٦) •

وبعد فتح مصر أراد العرب تأمين هذا الفتح فسار عمرو بن

---

(١٤) ذكر حنا النقيوسى شروط هذه المعاهدة • انظر : تأريخ حنـــا النقيوسى • ص ٥٧٥ •

(١٥) من الكتب التى ألفت فى العصر الحديث عن فتح العرب لمصـــر كتاب المستشرق الانجليزى بتلر Butler :

انظر Butler (Alfred) : The Arao Conquest of Egypt. Oxford 1902).

وقد عربه المؤرخ والكاتب المصرى الاستاذ محمد فريد أبو حديد بعنوان « فتح العرب لمصر » القاهرة ١٩٣٣م

(١٦) انظر : دكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ١٨٣ ـ ١٨٧ •

العاص الى برقة(١٧) غربى مصر ففتحها وفرض عليها الجزية ٠ ثم غزا عمرو طرابلس(١٨) ٠ وذكر الرواة والمؤرخون القدامى انه فكر فى غزو بلاد المغرب كلها لكن الخليفة نهاه عن ذلك ٠ ولا ريب أن عمر بن الخطاب تخوف من تفرق المسلمين فى بلاد كثيرة شرقا وغربا ولما تثبت أقدامهم فيها بعد ، وكان فتح برقة خاتمة لفتح وادى النيل كله اللهم الا اذا تذكرنا تأمين حدود مصر الجنوبية ٠ فان عمرو بن العاص لم يغفل تأمين هذه الحدود فبعث عبد الله بن سعد بن أبى سرح على رأس حملة الى النوبة فى سنة ٢٠ هـ أو فى سنة ٢١ هـ ٠ وكانت النوبة فى ذلك الحين مملكة قوية مستقلة استعصى غزوها على عبد الله بن سعد فكتب اليه عمرو يأمره بالرجوع ٠ لكن عبد الله بن سعد عاد ثانية الى غزو النوبة فى سنة ٣١ هـ أثناء ولايته على مصر من قبل الخليفة عثمان بن عفان ، ووصلت حملته الى دنقلة(١٩) واشتدت فيها وطأة القتال من الجانبين . وانتهت هذه الحملة بعقد هدنة بين مصر وبين ملك النوبة عرفت بالبقط(٢٠) ٠ وكان البقط عبارة عن معاهدة سياسية وتجارية بين مصر وبين مملكة النوبة المسيحية كان أهم نصوصها ألا تعتدى احداهما على الأخرى، وأن تؤدى النوبة الى مصر عددا معينا من الرقيق كل سنة وأن تؤدى مصر الى النوبة قدرا معينا من القمح والعدس وغيره من منتجات مصر كل سنة أيضا(٢١) ٠

---

(١٧) كانت « برقة » تسمى فى العهد العربى باسم « انطابلس » ٠

(١٨) كانت طرابلس تعرف فى العهد العربى باسم « اطرابلس » ٠

(١٩) كانت « دنقلة » تعرف فى العهد العربى باسم « دمقلة » ٠

(٢٠) الراجح ان كلمة « بقط » من كلمة Pactum اللاتينية ومعناها عقد او اتفاق ، وقيل انها كلمة مصرية قديمة تعنى العبد . وقيل أيضا انها كلمة عربية بمعنى نبذة و قطعة أو فرقة ٠

(٢١) انظر ٠ ابن عبد الحكم . فتوح مصر وأخبارها ص ١٨٨ ــ ١٨٩ (طبعة تورى) ، والكندى : الولاة والقضاة ص ١٢ ــ ١٣ . والمقريزى : الخطط : ج١ ص ١٩٩ ــ ٢٠٠ ٠

ولم يتمسك الروم بمعاهدة الاسكندرية طويلا ، ويبدو أنها كانت حلا مؤقتا لجأ اليه الروم ريثما تتم مشاكل العرش البيزنطى ، اذ نقض الروم معاهدة الاسكندرية وأرسل الامبراطور قنسطانز الثانى ـ حفيد هرقل ـ أسطولا كبيرا الى الاسكندرية هدفه اجلاء العرب عن مصر اجلاء تاما وذلك فى سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م) ٠ وتم استيلاء الجيش البيزنطى على الاسكندرية وزحف من بعدها الى ما يليها من بلاد الوجه البحرى ٠ وتحرج مركز العرب فى مصر ، وكان واليها حينذاك هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح من قبل الخليفة عثمان بن عفان ٠ وفى هذه المرة نرى المصريين يتكاتفون للابقاء على العرب وطرد الروم ، فبعث أهل مصر الى الخليفة عثمان بن عفان يسألونه أن يرسل عمرو بن العاص لمحاربة الروم لأن له معرفة وخبرة بحربهم ٠ وفعلا جاء عمرو بن العاص ، وتم اجلاء الروم عن مصر على يديه واستولى عمرو بن العاص فى هذه المرة على الاسكندرية عنوة وليس صلحا ٠

وهكذا تم فتح العرب لمصر وبدأت مصر تدخل فى الفلك العربى الاسلامى وسرعان ما تبوأت مركزا ممتازا فى الدولة الاسلامية العربية كما ساهمت بنصيب كبير فى الحضارة الاسلامية ٠

٢ ــ عمرو بن العاص وعودة البطرك بنيامين

كان معظم المصريين حين فتح العرب مصر من الأقباط الأورثوذكس والذين تسميهم بعض المراجع « اليعاقبة » • وكان هناك بعض المصريين الذين يتبعون المذهب الخلقدونى أو الملكانى(١) •

ويما عدا ذلك كانت مصر تحوى طوائف وأفرادا ينتسبون الى عدة شعوب وأقوام كان أهمها قبيل الفتح العربى طائفة الروم الملكانيين الذين كانوا يتبعون المذهب الخلقدونى ، وطائفة اليهود •

وكان العرب فى فتحهم لمصر يحاربون البيزنطيين لا المصريين • وكان المصريون اذ ذاك قد أنهكتهم الأعباء المالية والاضطهادات الدينية حتى أن المؤرخين المصريين المسيحيين فى العصور الوسطى يشعروننا بأن انتصار المسلمين هو غضب من الله تعالى على الروم ،

(١) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ص ٢٢٦ ــ ٢٢٧ •
(Patr. Orient. T.I.)

فيقول حنا النقيوسى(٢) ان جميع الناس يذكرون ان سبب انتصار المسلمين على الروم هو استبداد هرقل والاضطهادات التى أنزلها بالأرثوذكس والتى كان قيرس الأداة المحركة لها ٠

كذلك يذكر ساويرس أسقف الاشمونين(٣) أن الله كان يخذل جيوش الروم أمام المسلمين بسبب عقيدتهم الخلقدونية الفاسدة ٠

لهذا لا نعجب اذ رحب المصريون بالعرب واعتبروهم منقذين لهم من حكم البيزنطيين الجائر ٠ على أننا لا نجد فى المصادر القديمة ما يشير اليه بعض الكتاب المحدثين مثل السيدة بوتشر(٤) ٠ الى ان الأقباط استنجدوا بعمر بن الخطاب لينقذهم من ظلم الروم ٠

أما فيما يختص بترحيب المصريين بالعرب ففى المصادر القديمة روايات كثيرة تفيد هذا المعنى ٠ فكتب حنا النقيوسى(٥) أن المصريين الذين تركوا الدين المسيحى وأسلموا صحبوا جيوش العرب أثناء الفتح ٠

ويذكر ابن عبد الحكم(٦) ومن نقل عنه من المؤرخين مثل

---

(٢) انظر : تاريخ حنا النقيوسى : ص ٥٨٤

(٣) انظر : ساويرس بن المقفع أسقف الاشمونين
سير الآباء البطاركة : ص ٢٢٨ ــ ٢٢٩ (Patr. Orient. T.I.)

(٤) انظر : السيدة بوتشر Butcher تاريخ الأمة القبطية وكنيستها ج٢ ص ١٠٤.
Butcher (Mrs. E.L.) The Story of the Church of Egypt. 2 Vols. London 1897.

تعريب اسكندر تادرس في ثلاثة اجزاء ٠ القاهرة ١٩٠٠ . ١٩٠١ ، ١٩٠٦ م ٠

(٥) انظر ٠ تاريخ حنا النقيوسى . ص ٦٥٠ ٠

(٦) انظر : فتوح مصر ٠ ص ٥٣ ــ ٥٤ (طبعة المعهد الفرنسى) ٠

المقريزى(٧) وأبو المحاسن(٨) والسيوطى(٩) انه كان « بالاسكندرية أســـقف للقبط يقال له أبو ميامين(١٠) فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص الى مصر كتب الى القبط يعلمهم أنه لاتكون للروم دولة وان ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقى عمرو فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ أعوانا لعمرو » ٠

كذلك تذكر المصادر القديمة انه بعد فتح حصن بابليون وعقد الصلح مع المقوقس ، خرج عمرو بن العاص الى الاسكندرية مع المسلمين حين أمكنهم الخروج ، « وخرج معه جماعة من رؤساء القبط وقد أصـــلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجســور والأسواق وصارت لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم »(١١) ٠

هذه الروايات وأمثالها تدل على أن أقباط مصر وقفوا ، بوجه عام ، موقف الترحيب بالعرب حين قدموا لفتح مصر ٠

أما ما ذكره المؤرخ ابن عبد الحكم عن الأسقف أبو ميامين فلعله رئيس دينى كان يشرف على الأقباط من الاسكندرية ، ولعله كان البطرك بنيامين ولو أن البطرك بنيامين كان فى ذلك الوقت مختفيا فى الصعيد وليس فى الاسكندرية ٠

---

(٧) المقريزى : الخطط ج١ ص ٢٨٩

(٨) أبو المحاسن ٠ النجوم الزاهرة ج١ ص ٧

(٩) السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ٤٦

(١٠) يقصد بالأسقف « أبوميامين » هنا البطرك بنيامين الذى كان معاصرا للفتح ٠

(١١) انظر : ابن عبد الحكم ٠ فتوح مصر وأخبارها ص ٦٦ (طبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة) ٠

اما العرب فنراهم يتحببون الى الأقباط ، أهل البلاد ، منذ أن جاءوا لفتح مصر وبعد أن تم انتصارهم على البيزنطيين • ويذكر الرواة أن الرسول عليه الصلاة والسلام أوصى بقبط مصر فى عدة أحاديث نذكر منها قوله : « ان الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لهم منكم صهرا وذمة » • اذ كانت السيدة هاجر زوج سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام وأم ولده سيدنا اسماعيل مصرية ، كما كانت مارية القبطية زوج الرسول عليه الصلاة والسلام وأم ولده ابراهيم منهم أيضا(١٢) •

وهذا الحديث يشهد بموقف المسلمين من القبط فى فجر الاسلام فى مصر وحين جمعت الأحاديث •

وبعد أن تم استيلاء عمرو بن العاص على الاسكندرية ودخول الجيش العربى فيها نقل عميد الأقباط فيها حينئذ واسمه سانوتيوس(١٣) الى عمرو بن العاص قصة بطرك القبط بنيامين الذى اختفى هربا من اضطهاد الروم • ولما كان الموضع الذى اختفى فيه الأب بنيامين غير معروف بالضبط ، فقد كتب عمرو بن العاص الى جميع اقاليم مصر كتابا يقول فيه : « الموضع الذى فيه بنيامين بطرك النصارى

---

(١٢) راجع أيضا : المقريزى : الخطط ج١ ص ٢٤ ـ ٢٥ ، وابو المحاسن النجوم الزاهدة ج١ ص ٣٣ •

(١٣) يقول ساويرس فى سير الآباء البطاركة ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ (Patr. Orient. T.I.) عن سانوتيوس « سانوتيوس التكس المؤمن » والتكس يعنى بها الدوق وسانوتيوس هذا كان عميد الأقباط يوم دخول العرب مصر ، وقد تولى ادارة شئون الكنيسة القبطية منذ اختفاء البطرك بنيامين وأحسن ادارتها وجمع كلمة الأمة بعد ان كانت الحوادث قد جعلتها أشتاتا •

القبط له العهد والأمان والسلامة من الله فليحضر آمنا مطمئنا ويدير حالة بيعته(١٤) وسياسة طائفته »(١٥) ٠

وكانت هذه هى الوسيلة الاعلامية فى ذلك العهد لكى تصل تلك الدعوة الى الأب بنيامين ٠

وعندما علم الأب بنيامين بدعوة عمرو بن العاص والأمان الذى بذله له ، عاد الى الاسكندرية مسرورا بعد غيبة دامت ثلاثة عشر عاما أمضى منها عشر سنين أثناء حكم هرقل وواليه قيرس ، وثلاث سنوات أثناء الفتح العربى الى أن فتح العرب الاسكندرية ٠

وقد طرب أهل مصر جميعا لعودة راعيهم ٠ ولما أبلغ سانوتيوس ، عمرو بن العاص بمقدم بنيامين ، أمر عمرى باحضاره اليه معززا مكرما ، فلما مثل بين يدى عمرو أكرمه وبالغ فى حفاوته وأعطاه الحرية ليشرف على الكنائس ويرعى أحوال الأقباط ٠ وكان من نتائج عودة بنيامين الى كرسى البطركية أن رجع كثير من الأقباط الى المذهب الأرثوذكسى بعد أن كانوا نبذوه نتيجة لاضطهاد هرقل ، كما عاد الذين كانوا قد اختفوا خوفا من هذه الاضطهادات ٠

وبعد أن تم للأب بنيامين جمع قومه من القبط ولم شعثهم اتجه الى بناء ما كان هرقل قد هدمه من الكنائس والأديرة ٠

ولا عجب اذ عم السرور والفرح أهل مصر جميعا ٠ ونحن لا نستبعد أن يكون الأقباط قد وقفوا من وراء راعيهم يشدون أزر العرب ضد الروم حينما أغاروا على الاسكندرية فى سنة ٢٥ هـ

---

(١٤) البيعة : الكنيسة أو المعبد الدينى ٠

(١٥) انظر : ساويرس : سير الآباء البطاركة ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ ٠

(T I.)

(٦٤٥ م) ٠ وقد ذكرنا سابقا أن أهل مصر ألحوا على عثمان بن عفان فى سنة ٢٥ هـ أن يرسل عمرو بن العاص اليهم لطرد الروم لأنه أعلم الناس بحربهم ومدافعتهم ٠

وكتب المقريزى(١٦) أنه كان بوادى هبيب(١٧) مائة دير للنصارى وانه خرج منه سبعون ألف راهب(١٨) فلقوا عمرو بن العاص بالطرانة بالقرب من الاسكندرية وسألوه الأمان لأنفسهم وأديرتهم فكتب لهم بذلك أمانا بقى عندهم ٠

وعلى أية حال فقد أعاد عمرو بن العاص ، البطرك بنيامين الى كرسى البطركية فى مصر ٠ وكفل العرب للأقباط الحرية التامة فى اقامة شعائر دينهم وفى اصلاح ما تهدم من كنائسهم وفى بناء كنائسهم ٠ كذلك ترك العرب مقاليد الأمور فى يد أهل مصر من الأقباط محتفظين لأنفسهم بالسيادة العليا وتنفيذ أحكا مالدين ٠

ولا يمكننا أن نفسر سياسة عمرو بن العاص والعرب مع **الأقباط بأنها مسألة من دروب السياسة ، لكن تسامح المسلمين واقامة العدل بين الأقباط واطلاق حريتهم الدينية والمدنية فى بلدهم كان نابعا من الدين الاسلامى نفسه ومن تسامح الاسلام ٠**

---

(١٦) انظر : المقريزى : الخطط ٠ ج١ ص ١٨٦

(١٧) يقع واد هبيب بين مربوط والفيوم ويعرف ايضا باسم وادى النطرون وهو الاسم الحالى له ٠

(١٨)يبدو أن هذا العدد مبالغ فيه ، أى ان كل دير كان يسع حوالى ٧٠٠ راهب ، ومع ذلك فلا شك أن الرهبان قديما كانوا أكثر بكثير من الرهبان الحاليين ٠ وكانت كثرة عدد رهبان الأديرة حينذاك ترجع الى فرارهم من الاضطهادات البيزنطية ، كما أن المسيحية كانت هى السائدة فى مصر حينذاك والرهبنة كما نعلم من أصول المسيحية الأولى ٠

٣ ـ الفسطاط
وجـــامع عمرو بن العاص

كان الفاتحون العرب أقلية عددية فى مصر ٠ ويمكننا أن نقدر عدد الجند العربى فى مصر بعد الفتح بنحو ستة عشر ألفا من الرجال على أكثر تقدير ٠ وذكر ابن عبد الحكم(١) أنه كان هناك أكثر من ستة ملايين رجل من أهل مصر ممن تجب عليهم الجزية ، أى باستثناء الشيوخ والنساء والأطفال ٠ وقد اختط عمرو بن العاص مدينة عربية اسلامية فى وسط المحيط المصرى القبطى ٠ وكان تخطيط المدن من أهم الظواهر التى سارت جنبا الى جنب مع الفتوحات العربية ٠ فنرى العرب يختطون البصرة والكوفة على اثر فتح بلاد العراق وايران ، اوختطوا القيروان على أثر فتح افريقية ٠

وقد أراد العـــرب بتخطيط تلك المدن اتخاذها مراكز ادارية وحربية ودينية وثقافية لهم فى هذه البلاد المفتوحة ٠

---

(١) ابن عبد الحكم . فتوح مصر ٠ ص ٥٦ (طبعـــة المعهد العلمـى الفرنسى بالقاهرة) ٠

أسس عمرو بن العاص مدينة الفسطاط فى سنة ٢١ هـ (٦٤٢م) بجوار حصن بابليون بعد أن فتح الاسكندرية فتحها الأول · أما عن كيفية اختيار موقع الفسطاط ، فيذكر المؤرخون القدامى أن عمرو بن العاص لما أراد التوجه لفتح الاسكندرية بعد استيلائه على حصن بابليون أمر بنزع فسطاطه (يعنى خيمته) فاذا فيه يمام قد فرخ فقال عمرو : لقد تحرم بنا وتركه · ولما عاد المسلمون من الاسكندرية وقالوا أين ننزل ؟ قال : الفسطاط ، لفسطاطه الذى كان قد خلفه(٢) · وقد ذكر أدباء ومؤرخو العرب أن الفسـطاط اسم عربى · فقال الجوهرى : الفسطاط بيت من شعر ، قال : ومنه فسطاط مدينة مصر وذكر ابن قتيبة أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط · وقال الزمخشرى : الفسطاط اسم لضرب من الأبنية ، والذى عليه الجمهور انه يسمى بذلك لمكان فسطاط عمرو بن العاص رضى الله عنه يعنى خيمته(٣) ·

على أن الروايات التى أوردها بعض الكتاب والمؤرخين القدامى عن اختيار موقع الفسطاط وعن اسمها أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة وظاهر فيها العنصر القصصى · فقد عرف المصريون القدماء ومن أتى بعدهم مزايا موقع منف (ممفيس) والمنطقة المحيطة به وذلك لتوسط هذا الموقع بين مصر السفلى ومصر العليا ، فضلا عن أن هذا الموقع له عدة مزايا تجارية وسياسية وحربية · وكان حصن

---

(٢) انظر : ابن عبد الحكم فتوح مصر وأخبارها · ص ٩١ (طبعة تورى) ، وابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج٤ ص ٢ (طبعة بولاق مصر ١٣٠٩ هـ) ، والقلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ج٣ ص ٣٣٠ (المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٩ م) ، والمقريزى : الخطط ج١ ص ٢٩٦ ، والسيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ٥٧ ·

(٣) راجع : ابن دقماق · الانتصار ج٤ ص ٢ ، والقلقشندى : صبح الأعشى ج٣ ص ٣٣٠ ، والمقريزى : خطط ج١ ص ٢٩٦ ·

بابليون يقع قريبا من منف ، وبالرغم من أن بابليون لم تكن العاصمة الا أن الرومان والبيزنطيين اهتموا بحاميتها اهتماما كبيرا لأهمية موقع الحصن .

أما اسم فسطاط فالراجح أن أصله غير عربى وأنه مشتق من اللفظ اليونانى « فساطن » ، ذلك اللفظ الذى اشتق من اللفظ اللاتينيى Fossatum « فساطم » الذى كان يطلقه الرومان على معسكراتهم الحربية . وقد احتفظ العرب بتلك التسمية بعدما احتلوا المعسكر الحربى ، ولا غرو فان الحضارة الاسلامية أثبتت مرونة اللغة العربية وقدرتها على التعبير فى صوره المختلفة ، فاشتق العرب ألفاظا من اللغات الأخرى وعربوها كما اكسبوا بعض الألفاظ العربية معانى جديدة .

ويذكر المقريزى(٤) ان موضع الفسطاط كان فضاء ومزارع فيما بين النيل وجبل المقطم الذى يقع فى شرقى مصر ، ولم يكن فيه من البناء والعمارة سوى حصن بابليون أو قصر الشمع ، فلما فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية فتحها الأول ، اتخذ داره بجوار هذا الحصن واختط جامعه ، واختطت قبائل العرب من حوله فصارت مدينة عرفت بالفسطاط . وقد تنافست القبائل فى المواضع فانتدب عمرو بن العاص من خطط الخطط ، كل خطة تسكنها قبيلة . ومن تلك الخطط خطة تجيب وخط لخم وجذام وغيرهم من قبائل العرب . ومن الخطط خطط الحمراوات والفارسيين ، ذلك أنه دخل مع عمرو ابن العاص قوم من غير العرب يقال لهم الحمراء والفارسيون ، فاما الحمراء فقوم من الروم ، وأما الفارسيون فقوم من الفرس وزعموا أن فيهم قوما من الفرس الذين كانوا بصنعاء .

---

(٤) انظر : المقريزى : الخطط ج١ ص ٢٨٦

ونشأت مدينة الفسطاط صغيرة بسيطة ولكنها مالبثت أن اتسعت وكثر العمران فيها • وبعد أن كان البناء فى أول الأمر باللبن (الطوب النىء) والدار من طبقة واحدة ، لم ينته عصر الولاة الا ومعظم أبنيتها من الطوب ومن طبقات متعددة • ويدلنا على بساطة بناء الفسطاط فى امارة عمرو بن العاص أن خارجة بن حذافة بنى غرفة فيها (أى غرفة علوية أو بناء مرتفعا) فبلغ ذلك الخليفة عمر بن الخطاب ، فكتب الى عمرو بن العاص : « سلام • أما بعد فانه بلغنى ان خارجة بن حذافة بنى غرفة ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه فاذا أتاك كتابى هذا فاهدمها ان شاء الله والسلام »(٥) •

على أن العرب سرعان ما تخطوا عهد البساطة فى مصر وفى غيرها من البلاد المفتوحة • فنرى والى مصر فى خلافة عثمان بن عفان ، وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، يبنى فى الفسطاط قصره الكبير الذى عرف بقصر الجن • ولفخامة ذلك القصر آنذاك قال له المقداد بن الأسود : ان كان من مال الله فقد أسرفت وان كان من مالك فقد أفسدت !!

فقال عبد الله بن سعد : لولا أن يقول قائل : أفسد مرتين لهدمتها(٦) • وبنى فى الفسطاط الى جوار الدور ، الحمامات والأسواق والقيساريات وأثبتت الحفائر الحديثة فى أطلال الفسطاط أن بيوتها كانت غنية بوسائل الترف وعلى رأسها المياه الجارية(٧) •

(٥) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٠٤ (طبعة تورى) •

(٦) ابن عبد الحكم . فتوح مصر ص ١١٠ (طبعة تورى) •

(٧) انظر : على بهجت بك والبير جبريل . كتاب حفريات الفسطاط (القاهرة ١٩٢٨ م) •

وهكذا استقر معظم العرب فى مصر بعد الفتح فى الفسطاط ، قاعدة العروبة والاسلام الأولى فى مصر ·

وعنى العرب منذ تخطيط الفسطاط ببناء مسجد جامع لهم · وكان تأسيس المساجد الجامعة يسير جنبا الى جنب مع تخطيط المدن فى البلاد المفتوحة · فبنى عمرو بن العاص المسجد الجامع فى الفسطاط سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) وكان بناؤه باللبن وطوله خمسين ذراعا وعرضه ثلاثين ·

ولما كان هذا المسجد أول مسجد جامع بنى فى مصر الاسلامية فقد عرف باسم تاج الجوامع ، والجامع العتيق ، وجامع عمرو بن العاص ، ولم يكن جامع عمرو بن العاص مركزا للشعائر الدينية فقط ، وانما كان مدرسة دينية علمية ، وكان مركزا للقضاء ، كما كان يخطب فيه فى كل ما يهم شئون المسلمين الحربية والسياسية والاجتماعية والدينية · وبمرور الزمن بنيت فى مصر المساجد والجوامع العديدة الا أن جامع عمرو بن العاص ، وهو أقدم جامع فى مصر ، ظل موضع عناية ورعاية حكام مصر فى عصورها المختلفة ، فاهتموا بتوسيعه واقامة المنابر والمحاريب له وتزيينه بشتى الزخارف المعمارية الى غير ذلك مما يبين لنا تطور الفن الاسلامى فى مصر وعنايتها بأول مسجد جامع أقيم فيها ·

وكان بجامع عمرو بن العاص بابا فى شرقى المسجد يقابلان دار عمرو بن العاص ، وكان بينه وبين دار عمرو بن العاص سبع أذرع · وكان للجامع أيضا بابان فى شماليه وبابان فى غربيه ·

وظل جامع عمرو بن العاص المسجد الجامع الوحيد فى مصر فى عصر الولاة الى أن بنى الفضل بن صالح بن على العباسى فى ولايته على مصر من قبل الخليفة العباسى المهدى جامع العسكر فى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) فى مدينة العسكر ·

والمعروف أن العباسيين الذين جاءوا الى مصر فى سنة ١٣٢ هـ بقيادة صالح بن على العباسى وأبى عون لمطاردة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، اختطوا عاصمة جديدة لمصر فى الصحراء الواقعة شمال شرقى الفسطاط وسموها العسكر وذلك فى سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) .

وكان اختطاط العسكر ، اما لرغبة العباسيين فى ان يتخذوا لأنفسهم مقرا جديدا لم يسبق اليه غيرهم ، واما لأن مروان بن محمد كان قد أضرم حريقا خرب جانبا كبيرا من الفسطاط كما يقال فى بعض الروايات(٨) . وكان ذلك الجزء من الصحراء يعرف باسم الحمراء القصوى ، ولم يكن به من العمائر الا عدة أديرة وكنائس ، وأمر أبو عون أصحابه بالبناء فيها ، فبنوا المحال والأسواق والدور العديدة ثم شيد صالح بن على العباسى دارا للامارة . ولم تكن مدينة العسكر فى الحقيقة الا امتدادا للفسطاط أو ضاحية لها .

واذا كنا نتكلم عن أول مدينة عربية اسلامية فى مصر بل وفى شمال افريقيا كلها وهى مدينة الفسطاط ، فنذكر انه عندما اختطت القبائل الفسطاط نزلت قبيلة همدان موضع الجيزة . وكتب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب بذلك فكتب اليه عمر : « كيف رضيت أن تفرق أصحابك ولم يكن ينبغى لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر (يعنى نهر النيل) لا تدرك ما يفجؤهم ، فلعلك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم ما تكره ، فاجمعهم اليك فان أبوا عليك وأعجبهم موضعهم بالجيزة وأحبوا ما هنالك فابن عليهم من فىء المسلمين حصنا » . فلما عرض عليهم عمرو بن العاص رأى أمير المؤمنين فضلوا البقاء بالجيزة . فبنى لهم عمرو بن العاص

---

(٨) انظر الدكتور زكى محمد حسن . الفن الاسلامى فى مصر ج١ ص ٥٦ (مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٣٥ م) .

الحصن بالجيزة فى سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) وفرغ من بنائه سنة ٢٢ هـ (٦٤٣ م) واختطوا فى الجيزة خططا عرفت بهم مثل خطط الفسطاط(٩) ٠

وفى زمن مبكر أيضا من عصر الولاة أيام حكم الأمويين ، بنى أمير مصر عبد العزيز بن مروان مدينة حلوان ٠

وتذكر المصادر التاريخية أن سبب سكنى عبد العزيز لحلوان هو مرضه بالجذام أو أن الطاعون وقع بمصر فى سنة ٧٠ هـ (٦٨٩ م) فخرج عبد العزيز من الفسطاط الى حلوان وسكنها ٠٠ ونحن نرجح أن عبد العزيز بن مروان أراد أيضا أن يكون له مقر آخر غير الفسطاط على عادة الخلفاء الأمويين ، وهو ابن خليفة وأخ لخليفة وولى عهد الخلافة ٠

ويقال ان عبد العزيز بن مروان نزل فى صحراء حلوان فى موضع يقال له ، أبو قرقورة ، وهو رأس العين التى احتفرها ذلك الأمير وساقها الى نخيله التى غرسها فى حلوان ٠ وقد بنى عبدالعزيز الدور والمساجد فى حلوان وعمرها أحسن عمارة وغرس فيها الأشجار والنخيل وأنفق فى بنائها المال الكثير ٠ وقيل انه أنشأ بركة كبيرة فى حلوان ساق اليها الماء من العيون القريبة من جبل المقطم على قناطر معلقة Aqueducts وأصبح لعبد العزيز بن مروان ميناء للسفن بحلوان يركب منها اذا ما شاء الذهاب الى الفسطاط أو الى الاسكندرية ٠

والحق أن الجيزة وحلوان والعسكر لم تكن فى الحقيقة الا ضواحى للفسطاط ، وظلت الفسطاط المركز الأعظم للحياة المصرية ٠

---

(٩) انظر ٠ ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٢٨ ـ ١٢٩ (طبعة تورى) ، وخطط المقريزى ج١ ص ٢٠٦ ، والسيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ٥٩ ٠



٤ ـ الاسكندرية بعد الفتح العربى

مر بنا أن الاسكندرية فتحت مرتين : فتحت صلحا بمقتضى معاهدة بابليون الثانية ٢٠ هـ (٦٤١ م) أو معاهدة الاسكندرية ، وفتحت عنوة فى سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م) ·

وكانت الاسكندرية عاصمة القطر المصرى قبل الفتح العربى كما كانت أهم مركز فى الشرق تشع منه الثقافة اليونانية الرومانية فضلا عن أنها كانت مدينة عظيمة تحميها الحصون المنيعة والغياض والبحيرات وترعة الاسكندرية ·

وقيل ان عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية أول مرة ورأى بيوتها وبناءها ، هم أن يسكنها وقال : مساكن قد كفيناها · وكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك ، فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بينى وبين المسـلمين ماء ؟! قال : نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى النيل · فكتب الخليفة الى عمرو : انى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف !! فتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط ·

أى أن المؤرخين والرواة العرب يرجعون عدم اختيار الاسكندرية عاصمة لمصر بعد فتح العرب لها الى خوف الخليفة عمر بن الخطاب من ركوب البحر ·

ووقف الخليفة نفس هذا الموقف مع سعد بن أبى وقاص حين نزل فى العراق بمدائن كسرى فتحول سعد من المدائن الى الكوفة(١) ·

والحق أن خوف الخليفة الثانى - عمر بن الخطاب - من البحر وارتياده أو الحرب فيه ، هذا الخوف الذى يظهر من خلال نصوص كثيرة ومواقف معينة ، لا يعنى أن الاسكندرية تستطيع أن تكون قاعدة مناسبة للعرب فى مصر كما كانت فى العصر البيزنطى · فقبل مجىء العرب الى مصر كانت الاسكندرية بحكم موقعها هى والدولة البيزنطية على البحر الأبيض المتوسط ، تتصـــــل بالدولة الحاكمة بحرا · وكانت الاسكندرية حين فتح العرب مصر مدينة بيزنطية ، أى رومية أو يونانية ، فكان معظم سكانها من الروم ، وكان يسيطر على مجتمعها العادات والتقاليد والثقافة اليونانية ·

وهذا يفسر لنا اعجاب العرب بمدينة الاسكندرية ثم رفضهم اتخاذها عاصمة لهم فى مصر · وسرعان ما اختط العرب مدينة الفسطاط التى تتوسط الوجهين البحرى والقبلى ·

ويذكر المؤرخون أن قوما من العرب نزلوا فى الاسكندرية عقب الفتح ·

على أن الاسكندرية لم يكن فيها خطط ، وانما كانت « أخائذ » ، أى من أخذ منزلا نزل فيه ·

---

(١) انظر : ابن عبد الحكم . فتوح مصر وأخبارها ص ٩١ (طبعــة تورى) ، والمقريزى : الخطط ج١ ص ٢٩٦ . والسيوطى : حسن المحاضرة . ج١ ص ٥٧ (طبعة القاهرة ١٣٢٧ هـ)

ويقال ان الزبير بن العوام اختط بالاسكندرية(٢) أى أن العرب الذين اســــتقروا فى مصر بعد الفتح العربى ، ومعظمهم من عرب الجنوب أو اليمنية ، استقروا فى الفسطاط أو الجيزة أو الاسكندرية، وقد حرم عليهم عمر بن الخطاب الاشتغال بالزراعة أى امتلاك الأرض فلم يكونوا يعنون بغير السياسة والحكم والحرب · وبينما كانت الفسطاط مدينة عربية اسلامية وسط المحيط المصرى القبطى ، كانت الاسكندرية ماهولة بسكانها من الروم واليهود والأقباط ·

ويقدر المؤرخ الفرنسى « مونيه » Munier عدد سكان الاسكندرية فى العهد البيزنطى بنحو ٣٠٠ر٠٠٠(٣) ·

أما المؤرخ ابن عبد الحكم ، فيعطينا احصاء لمن خرج من الاسكندرية من الروم وعدد من بقى من أهل الاسكندرية ممن تجب عليهم الجزية فقال : « وكان عدة من بالاسكندرية من الروم مائتى ألف من الرجال فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن ، وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار فحمل فيها ثلاثون ألفا مع ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل ، وبقى من بقى من الأسارى ممن بلغ الخراج فأحصى يومئذ ست مائة ألف سوى النساء والصبيان »(٤) ·

والمعروف ان اتخاذ العرب للفسطاط عاصمة لهم بعد الفتح ، أثر الى حد ما على مركز الاسكندرية ، العاصمة السابقة ، وخاصة

---

(٢) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها · ص ١٢٨ ـ ١٢٩ (طبعة تورى) ، والسيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ٥٨ ·

(٣) انظر : Munier (Henri) : L'Egypte Byzantine P. 84 (Précis de l'histoire d'Egypte T. II. Le Caire 1932).

(٤) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٧٤ (طبعة المعهد العلمى الفرنسى) ·

بعد أن فتح العرب الاسكندرية وهدموا جزءا من سورها وأجلوا قسما كبيرا من سكانها من الروم ٠

ولكن الاسكندرية سرعان ما اخذت تستـــترد ما كان لها من ازدهار ونشاط ، وبدأت دور صناعة السفن تستعيد نشاطها وتساهم فى صناعة السفن منذ خلافة عثمان بن عفان وولاية عبد الله بن سعد بن أبى سرح ٠ كذلك استأنفت مصانع النسج نشاطها ، كما عاد للاسكندرية نشاطها التجارى القديم بين الشرق والغرب ٠ ولم يقض الفتح العربى على الحياة العلمية فى الاسكندرية ولاسيما فى العلوم العقلية وذلك بالرغم من أن معظم علماء الروم غادروها بعد الفتح ٠

أما ساويرس بن المقفع أسقف مدينة الأشمونين ومؤرخ كتاب سير الآباء البطاركة ، فانه يعنى بالتأريخ للاسكندرية عناية خاصة وليس هذا بمستغرب فالاســكندرية كانت مقرا لبطركية الأقباط الأرثوذكس ٠ ولذا نرى ساويرس يسميها فى معظم الأحيان « المدينة العظمى » ، ويذكر ساويرس أن الاسكندرية كانت تعرف أيضا باسم مدينة قيسرون ، ويقول أيضا انها تســمى باللغة العبرانية مدينة آمون(٥) ٠

ومنذ الفتح العربى اهتم عمرو بن العاص بانشاء مسجد فيها كما أنشأ مسجدا فى الفسطاط عاصمة البلاد ، اذ يشير ابن عبد الحكم الى مسجد عمرو بن العاص الكبير(٦) ٠

---

(٥) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ٠ ص ١٠٥ ـ ١٠٦ (Patr. Orient. T.I.)

(٦) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٠ ص ٣٦ (طبعـــة المعهد العلمـــى الفرنسى فى القاهرة) ٠

والحق أنه كما كانت الفسطاط عاصمة مصر ومقر حكومتها ، فقد كانت الاســـكندرية عاصمة مصر الثانية وميناءها الهام ومقر البطركية الارثوذكسية ·

وظلت مدينة الاسكندرية تحتفظ بمكانتها الخاصة التى كانت لها منذ عصر البطالسة فى القرن الرابع قبل الميلاد حتى عصر الاخشيديين فى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى ، اذ كانت تعتبر فى معظم الأحيان جزءا مستقلا عن مصر حتى فى القضاء ، كما كانت تعتبر قسما مستقلا بجبايته ·



٥ ـ النظام الادارى فى مصر فى عصر الولاة

جرى العرب على سياسة ادارية حكيمة فى معظم البلاد التى فتحوها والتى كانت تتمتع بحضارات عريقة ، وهى الابقاء على النظم الادارية لتلك البلاد ، وعلى الموظفين من أبناء تلك البلاد ، واحتفظوا هم بالمناصب الرئيسية للاشراف على الادارة بوجه عام ولتنفيذ ما يتطلبه الاحتلال العربى الجديد ·

فكان يمثل الخليفة فى مصر ، الوالى أو العامل أو الأمير · وكان مقر الوالى فى مصر هو «دار الامارة » · وبنى عمرو بن العاص دارا للامارة فى الفسطاط فى الجهة البحرية من الجامع عرفت بالدار الكبرى ، تمييزا لها عن دار ابنه عبد الله التى كانت فى غربى الجامع وعرفت بالدار الصغرى ·

ونعرف أن أمير مصر عبد العزيز بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ / ٦٨٥ ـ ٧٠٥ م) أمر ببناء دار للامارة فى الفسطاط فى سنة ٦٧ هـ/ ٦٨٦ م عرفت بدار عبد العزيز وكانت هذه الدار تطل على النيل وكان يعلو هذه الدار قبة مذهبة · وكانت هذه الدار فى سوق

الحمام غربى المسجد الجامع ، وبلغ من عظمة وفخامة هذه الدار انها كانت تدعى « المدينة » ٠

وفى أوراق البردى اليونانية التى كشفت فى مصر كان لقب الوالى هو « سيمبولس »(٧) ٠ وكان الوالى يؤم المسلمين فى المسجد الجامع فى صلاة الجمع والأعياد بوصفه نائبا عن الخليفة ، ولذا كان يطلق عليه « أمير الصلاة » ويقال عن ولايته « ولاية الصلاة » ٠ واذ كان المسلمون يعتبرون أن امامة الصلاة مما يختص به الخلفاء ، ويطلقون على الخليفة لفظ « امام » ، كانت امامة الوالى فى الصلاة نيابة عن الخليفة تدل على عظم سلطة الوالى وعلى رياسته العليا السياسية فى الدولة ٠ ولم يكن الوالى مسئولا أمام أحد عن عمله الا أمام الخليفة ٠

وكان الوالى يجمع أحيانا الى سلطته ادارة المالية المعبر عنها « بالخراج » مما يجعله مطلق التصرف فى الولاية ٠ وأحيانا يسند الخليفة عمل الخراج الى شخص آخر يكون مسئولا فى الشئون المالية أمام الخليفة مباشرة لا أمام الوالى ، وقد يحد صاحب الخراج من سلطة الوالى اذ يصبح الوالى عاجزا عن التصرف فى الأمور المالية كما يشاء ٠ ولذا كان لعامل الخراج أهمية كبيرة وكثيرا ما يكون منافسا للوالى مع أن الوالى هو الرئيس الأعلى للولاية ٠ وحسبنا دليلا على أهمية عامل الخراج ، انه عندما هزم عمرو بن العاص الروم وطردهم من الاسكندرية فى سنة ٢٥ هـ أراد الخليفة عثمان بن عفان أن يولى عمرو بن العاص على الحرب (أى يوليه على الصلاة) وأن يولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح على الخراج فقال عمرو : « أنا اذا كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها »(٨) ٠ ورفض عمرو

---

(٧) انظر : Grohmann (Adolf) : Arabic Papyri in the Egyptian Library. vol. III. P. 62 (Cairo 1938).

(٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٠ ص ١٧٨ (طبعة تورى) ٠

ما أراد عثمان وترك ولاية مصر ٠ وكان بيد الوالى أيضا « الحرب » أى الرياسة على الجيش فىالولاية ولأهمية ذلك كان يقال أحيانا « ولى فلان الحرب » كناية عن ولايته لمصر(٩) ٠

فوالى مصر كان يشرف على شئون الجند فى مصر ، وكان يقود هو نفسه الجيش فى الحملات التأمينية لمصر ، أو لصد الأعداء عنها ، أو يرسل من يقود الجيش نيابة عنه ٠ ومثل تلك الحملات كانت بوجه خاص فى السنوات الأولى بعد الفتح العربى لمصر ، فقد قاد عمروبن العاص الحمــلات لفتح برقة وطرابلس ، كما أرســـل عبد الله بن سعد لفتح النوبة ، وكذلك خرج عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى أثناء ولايته على مصر على رأس الحملات التى سارت لغزو أفريقيــا والنوبة ، كما انتصـــر على الروم فى غزوة ذى الصوارى ٠

وكان لوالى مصر أيضا الاشراف على الشرطة ٠ وكان مقر الشرطة فى مدينة الفسطاط التى بناها عمرو بن العاص ٠ ولما بنى العباسيون مدينة العسكر التى كانت تقع شمالى الفسطاط أقيمت شرطة أيضا فى العسكر وسميت « الشرطة العليا » وأصبحت شرطة الفسطاط تعرف باسم « الشرطة السفلى » ٠ ولا ترجع تســـميتها الشرطة العليا الى أنها أعظم شأنا من شرطة الفسطاط كما قد يتبادر الى الذهن ، ولكن هذه التسمية مشتقة من الموقع وحدود الاختصاص وتشهد بأن تقسيم الفسطاط الى « عمل فوق » و « عمل أسفل » يرجع الى عهد انشاء العسكر سنة ١٣٣ هـ ٠ بل ان صاحب الشرطة السفلى فى الفسطاط كان أعلى شأنا وأعظم اختصاصا من زميله بوصفه حاكم القسم الرئيسى الأصيل فى العاصمة ، ونرى المؤرخ الكندى

---

(٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٠ ص ١٧٨ (طبعة تورى) وطبعة المعهد العلمى الفرنسى ص ٧٨ ٠

يذكرهما معا مرة واحدة ، ولكنه لا يذكر بعدها الا صاحب شرطة الفسطاط(١٠) .

وكان صاحب الشرطة يؤم الناس فى الصلاة اذا مرض الوالى ويحكم الولاية اذا ما خرج الوالى من مقر ولايته ، ولذا نجد أنه كثيرا ما كان الخليفة يعين صاحب الشرطة واليا على مصر اذا ما عزل الوالى أو مات أو تنحى عن أمور الولاية . وكان الوالى يعهد الى صاحب الشرطة بتنفيذ العقوبات التأديبية التى يفرضها وبنشر الأمن فى البلاد كما كان أصحاب الشرطة يهتمون بنشر الفضيلة والمحافظة على الأخلاق العامة . وكان صاحب الشرطة ، ويسمى أيضا صاحب الشرطة ، يتمتع بنفوذ واسع لعظم المهام الملقاة على عاتقه . وكان يجمع أحيانا الى منصبه وظيفة القضاء ، فكتب المؤرخ الكندى عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ، صاحب الشرطة فى ولاية يزيد بن حاتم المهلبى على مصر سنة ١٤٥ هـ انه جمع بين « القضاء وخلافة الفسطاط »(١١) .

ومن الوظائف الرئيسية الهامة فى تلك الفترة أيضا وظيفة « صاحب البريد » ، ولم تكن تلك الوظيفة قائمة فى عهد الخلفاء الراشدين انما بدأتها الدولة الأموية ثم تقدم نظام البريد فى عهد الدولة العباسية . ويذكر ان معاوية بن أبى سفيان هو أول من وضع

---

(١٠) راجع . الكندى : الولاة والقضاة ص ١٠٢ ، ١٠٦ ـ ١٠٧ ، ١١٨ ، ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ، والمقدسى . أحسن التقاسيم : ص ١٩٩ (طبعة ليدن ١٨٨٧ م) ، والمقريزى : الخطط ج١ ص ٥ و ٢٩٩ و ٣٠٤ و ج٢ ص ٢٦٤ ، ودكتورة سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٣ ، ودكتورة سيدة كاشف . مصر فى عصر الاخشيديين ص ١٧٢ ـ ١٧٣ (طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠ م) .

(١١) انظر . الكندى . الولاة والقضاة ص ٣٢٤ ، والمقريزى : الخطط ج٢ ص ٣٣٨ .

البريد لوصول الأخبار اليه بسرعة من جميع أطراف بلاده · ولم يكن البريد يخدم مراسلات الشعب وانما كان نظاما رسميا حكوميا ·

وكانت مهمة صاحب البريد فى أول الأمر توصيل الأخبار الى الخليفة بسرعة من الولايات المختلفة وبالعكس ، ثم أصبح صاحب البريد عينا للخليفة ينقل أوامره الى الولاة ، وينقل أخبار الولاة اليه ، كما يتجسس على أعداء الدولة ·

وكانت مهام وظيفة صاحب البريد تعنى الخلافة وتعنى عمال الخليفة أكثر مما تعنى مصر نفسها ، ولذا لم نجد فى المصادر القديمة التى تؤرخ لمصر الاسلامية ، ذكرا لأصـــــحاب البريد الموفدين من الخلفاء الى مصر فى عصر الولاة الا فى موضعين أو أكثر قليلا ·

وكانت مصر بعد الفتح مباشرة مقسمة اداريا الى قسمين رئيسيين : مصر العليا أو الصعيد أو أعلى الأرض ، ومصر السفلى أو الوجه البحرى أو أسفل الأرض · وكان هذان القسمان مقسمين الى أقسام أو « كور » ، « وكورة » لفظ يونانى احتفظ به العرب ، وكان فى مصر بعد الفتح العربى نحو ثمانين كورة ، وكانت الكور مقسمة بدورها الى قرى ، ولكن هذه الأقسام كانت تحت سلطة الوالى العليا مباشرة · وكما كان للخليفة صاحب بريد يخبره بأعمال الوالى، كان للوالى صاحب بريد يخبره بأعمال عمال الأقاليم فى مصر · وكان للوالى كتبة كثيرون يستعين بهم فى تحرير رسائله ، وكان فى مصر منذ ذلك العهد ديوان رسائل أو ديوان انشاء ·

ويشبه التقسيم الادارى فى العصر الاسلامى التقسيم الذى كان معروفا فى العصر اليونانى الرومانى ولكنه لم يكن مماثلا له كل المماثلة · كذلك نلاحظ أن النظام البيروقراطى ، وبعبارة أخرى النظام الديوانى الذى كان سائدا فى الادارة المصرية قبل الفتح ، أثر فى العرب فكانت الادارة مركزة فى دواوين الحكومة بالعاصمة

وأهمها ديوان الخراج والأموال ، وديوان الرسائل أو الانشاء ، وديوان الجند وديوان القضاء ٠

وكان والى مصر بعد الفتح العربى يشرف على بلاد برقة وما يليها من شمال افريقيا ٠ على أن هذا الاشراف لم يمنع من أن يكون لبرقة والمغرب عمالهما وولاتهما فى كثير من الأحيان ٠ وفى سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) أرسل الخليفة الى أفريقيا موسى بن نصير واليا عليها يحكمها من القيروان ويتبع الخليفة مباشرة ، ومنذ ذلك الحين أصبحت أفريقيا ولاية مستقلة فى حكمها عن مصر بعد أن كانت تتبعها فى الادارة وتتلقى منها الجيوش الفاتحة ٠

ونلاحظ أن ولاة مصر فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين كانوا من العـــرب ، ولا عجب فقد كانت الدولة حينذاك عربية فى سيادتها وسياستها ، وكان الاشراف السياسى والحربى والرياسة العليا للعرب دون سواهم من الشعوب المحكومة ٠ وقد أعطى الخلفاء الأمويون لعمالهم على الولايات قســطا كبيرا من الحرية ٠ ونجد معاوية بن أبى سفيان يولى عمرو بن العاص صلاة مصر وخراجها ويجعلها طعمة له بعد عطاء جندها والنفقة على ادارتها فظل عمرو بن العاص فى ولايته الثانية على مصر من سنة ٣٨ الى ٤١ للهجرة حتى وفاته (٦٥٨ ــ ٦٦١ م) ٠ وظل مسلمة بن مخلد واليا على مصر خمس عشرة سنة (٤٧ ــ ٦٢ هـ / ٦٦٧ ــ ٦٨١ م) وتوفى وهو وال عليها ٠ وبقى عبد العزيز بن مروان أمير مصر حوالى احدى وعشرين سنة (٦٥ ــ ٨٦ هـ / ٦٨٥ ــ ٧٠٥ م) ، وكانت أسرة عبد العزيز بن مروان من الأسرات العربية الكبيرة التى تمصرت واستقر معظم أفرادها هم وأبناؤهم وأحفادهم بمصر ٠

أما فى العصر العباسى فقد تأثرت مصر بالسياسة العامة للدولة ، ذلك أن الدولة العباسية أصبحت أشبه شيء بجامعة دول

اسلامية ، واحتل الفرس المناصب الرفيعة فى الدولة بعد أن كان استخدام الموالى فى الوظائف الرئيسية نادرا قبل ذلك · وحل محل العرب طبقة من الموظفين أخذت من كافة الشعوب التى دانت لسلطان الخلافة · ولذلك نلاحظ مجىء بعض ولاة من الفرس الى مصر زمن الخلافة العباسية ، وكان آخر وال عربى على مصر هو عنبسة بن اسحق الذى حكم بضع سنين فى نهاية عصر الولاة تقريبا ٢٣٨ ــ ٢٤٢ هـ / ٨٥٢ ــ ٨٥٦ م(١٢) ·

كذلك نلاحظ ان الخلافة العباسية سارت على سياسة الاعتماد على الأتراك منذ زمن الخليفة المعتصم ٢١٨ ــ ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ ــ ٨٤٢ م · وتأثرت مصر بذلك الاتجاه الجديد فى الدولة فوليها ولاة من الترك كان أولهم يزيد بن عبد الله التركى ٢٤٢ ــ ٢٥٣ هـ / ٨٥٦ ــ ٨٦٧ م (١٣) ·

كذلك نلاحظ فى العصر العباسى كثرة تغيير الولاة وقد يكون هذا راجعا الى بعد مقر الخلافة العباسية ، أعنى بغداد وسامرا ، عن مصر ، فلم يأمن الخلفاء أن يتركوا ولاة مصر فى الحكم طويلا لئلا يطمعوا فى الاستقلال بالبلاد ، وقد يكون ذلك راجعا أيضا الى ضعف الخلفاء العباسيين أنفسهم وخاصة منذ عهد المعتصم · على أن ما كانت تخشاه الدولة العباسية من استقلال الولاة قد تحقق نتيجة لسياسة الاقطاع التى اتبعتها · فمنذ عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ ــ ١٩٣ هـ / ٧٨٦ ــ ٨٠٩ م) اتبع الخلفاء العباسيون سياسة

---

(١٢) انظر · الكندى : الولاة والقضاة · ص ٢٠٢ ، والمقريزى . الخطط ج٢ ص ٢٩٤ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٢ ص ٣٠٠ ·
(١٣) انظر · الكندى : الولاة والقضاة · ص ٢٠٢ . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٢ ص ٣٠٨ ·

اقطاع بعض أقاليم الدولة العباسية لبعض القواد والشخصيات على أن يؤدوا مالا معينا للخلافة ·

وقد عرفنا من أوراق البردى أن المعتصم أقطع القائد التركى أبا جعفر أشناس مصر فى سنة ٢١٩ هـ / ٨٣٤ م ثم أذن له بأن يولى الحكام بنفسه · وكان اسم أشناس يذكر فى خطبة الجمعة مع الخليفة ، وضربت السكة باسمه كما نقش اسمه على الموازين والمكاييل · وظل اشناس صاحب اقطاع مصر الى أن توفى سنة ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م · وأقطعت مصر بعد ذلك لنفر من الترك ·

على أن سياسة اقطاع الأتراك ، ولاية مصر ، أدت الى نتيجة لم تكن فى الحسبان ، اذ كان هؤلاء القواد الترك يؤثرون البقاء فى عاصمة الخلافة خشية أن تدبر ضدهم الدسائس ، كما كان الخلفاء أنفسهم يرحبون ببقائهم خوفا من أن يستقلوا بالبلاد التى كانوا يحكمونها · فكان هؤلاء الأتراك لا يحكمون بأنفسهم ، بل يستخلفون من يقوم بالأمر نيابة عنهم على أن يحمل اليهم هؤلاء النواب الأموال ويدعون لهم على المنابر كما يدعى للخليفة ·

واذا كان الخلفاء يراقبون أصحاب الاقطاع لئلا يستقلوا بالبلاد فانه لم يدر بخلدهم أن يراقبوا نوابهم · ولم يكن من العسير على نائب وال له شخصية بارزة وله آمال واسعة أن يستقل بأمور البلاد بعد أن تطرق الضعف الى مركز الخلافة نفسها · وهذا ماحدث فى عهد أحمد بن طولون الذى استقل بمصر عن الخلافة وأسس بها دولة مستقلة عرفت باسم الدولة الطولونية كانت أول دولة مستقلة فى تاريخ مصر الاسلامية (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ ـ ٩٠٥ م) ·

٦ ـ النظام المالى فى مصر الاسلامية

تحدد الموقف بين العرب وبين المصريين بمقتضى الأمان أو الصلح أو المعاهدة التى عقدت فى بابليون عقب استيلاء المسلمين على الحصن فى سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) كما مر بنا ٠

وذكر المؤرخون أن « أهل مصر كلهم دخلوا فى ذلك الصلح وقبلوه »(١) ٠ وفى هذا الصلح منح المصريون الأمان على أنفسهم وعلى دينهم وكنائسهم وأموالهم وأراضيهم ٠ وأكد العرب هذا الصلح بأنه عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين (يعنى عمر بن الخطاب) وذمم المؤمنين ٠

---

(١) انظر ٠ الطبرى . تاريخ الأمم والملوك ج٤ ص ٢٢٩ ، وابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ص ١١٥ (طبعة القاهرة ١٢٨٤ هـ) ، والقلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ج١٣ ص ٣٢٤ (طبعة المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٩ م) ، وابو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج١ ص ٢٤ ـ ٢٥ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م) ٠

وهكذا أصبح المصريون أهل ذمة · وقد أطلق اصطلاح « أهل الذمة » فى العالم الاسلامى على المسيحيين واليهود الذين عاهدهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو الخلفاء ، أو الحكام فى ديار الاسلام ·

والذمة فى اللغة العربية هى العهد والأمان ، والمنتفعون بالعهد يسمون أهل الذمة أو الذميين أو المعاهدين(٢) ·

وقد ورد فى معاهدة بابليون الأولى أن المصريين صاروا أهل ذمة يؤدون الجزية ، وان قيمة الجزية تتوقف على فيضان النيل كل عام ، وأن تدفع على ثلاثة أقساط فى السنة ·

والمعروف أن العرب خيروا أهالى البلاد المفتوحة بين ثلاثة أمور : الاسلام أو الجزية أو الحرب ·

ولم يشتط المسلمون فى تقدير الجزية فى البلاد المفتوحة بل راعوا فى تقديرها ثروة الفرد ودخله من عمله · وأعفى من الجزية النساء والشيوخ والأطفال ، والمسكين الذى يتصدق عليه . والمغلوب على عقله كالرقيق والمجنون ·

والجزية ليست من مستحدثات الاسلام فقد فرضها الاغريق على سكان آسيا الصغرى فى القرن الخامس قبل الميلاد · كذلك فرض الرومان والبيزنطيون والفرس الجزية على الأمم التى أخضعوها وكانت أكثر بكثير من مقدار الجزية فى العصر الاسلامى · وفرض الرسول عليه الصلاة والسلام الجزية على أهل الذمة واتبع فى

---

(٢) يتسع هذا المعنى الاصطلاحى عند الفقهاء المسلمين فيذهبون الى أن أهل الذمة هم أهم الكتاب ، اى اصحاب التوراه والانجيل من اليهود والمسيحيين ، ومن لا كتاب لهم مثل المجوس · (الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٢٨ ـ طبعة القاهرة ١٣٢٧ هـ /١٩٠٩ م ، والفراء الحنبلى الأحكام السلطانية ص ١٣٨ (طبع القاهرة ١٣٥٦ هـ /١٩٣٨ م) ·

أخذها طريقتين : الأولى فرض قدر معين على كل شخص ، والثانية فرض قدر معين على أهالى منطقة معينة فيقسمونها فيما بينهم ٠

والأصل فى هذه الضريبة ، وهى ما تعرف أحيانا باسم ضريبة الرءوس ، أنها مساهمة من غير المسلم فى الدفاع عن الدولة بماله جزاء دفاع المسلم عنه بشخصه ، كما أنها مقابل حماية المسلمين له والسهر على مصالحه ولاسيما وهو معفى من أداء الزكاة ٠ وقد ورد صراحة فى المصادر الاسلامية أن الجزية بمثابة « ضريبة دفاع » ٠

وفى مصر كانت الجزية والزكاة هى التى تحدد ديانة دافع الضريبة مثل سائر ديار الاسلام ٠ ولم يحدد صلح بابليون الأول مقدار الجزية أو طرق جبايتها ، ولو أن المؤرخون يذكرون بعض الروايات التى تقول بأنه فرض على كل قبطى دينارين جزية(٣) ٠ ويذكر البلاذرى فى رواية له عن عبد الله بن عمرو بن العاص انه وضع على كل حالم دينارين الا أن يكون فقيرا(٤) ٠

أما الفقهاء فيذكرون أنه كان يؤخذ من الموسر ثمانية وأربعون درهما ومن الوسط أربعة وعشرون ومن دون الوسط اثنا عشر درهما(٥) ٠

---

(٣) انظر : ابن عبد الحكم . فتوح مصر وأخبارها ص ٦٣ ــ ٦٤ (طبعة المعهد العلمى الفرنسى) . والمقريزى · خطط ج١ ص ٢٩٢ ــ ٢٩٣ . والسيوطى حسن المحاضرة ج١ ص ٥١ ٠

(٤) انظر : البلاذرى · فتوح البلدان ص ٢١٤ (طبعة ليدن ١٨٦٦ م)

(٥) انظر ابو يوسف · كتاب الخراج ص ١٤٥ ــ ١٤٦ (طبعة بولاق ١٣٠٢ هـ) ، ويحيى بن آدم القرشى : كتاب الخراج ص ١ ٥(ليدن ١٨٩٥ ــ ١٨٩٦ م) . والماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٣٨ (طبعة القاهرة ١٢٩٨ هـ) ٠

والواقع أن العرب لم يحددوا الجزية فى مصـــر وانما ترك تقديرها للوالى أو الخليفة • وقد صححت الأوراق البردية التى عثر عليها فى مصر ووضحت أمورا كثيرة من العسير علينا أن نصل اليها وسط الروايات والآراء المتضاربة للمؤرخين والفقهاء • وقد أثبتت أوراق البردى من خلال أوامر الولاة ، ومن خلال الايصالات التى تثبت دفع الجزية ، أن قيمة الجزية كانت تختلف من شخص الى شخص ومن كورة الى كورة • وكانت الجزية وجميع الضرائب الأخرى تدفع فى مصر بالدنانير وكسورها •

وكما كانت الجزية تجبى من أهل الذمة ، كان يجبى من المسلمين الزكاة أو الصدقة • وأثبتت أوراق البردى أن الولاة فى مصر كانوا يقومون بجباية الزكاة ويتسلم الدافعون ايصالا أو براءة بعد تأدية ما يجبى منهم من الزكاة بمقتضى الشريعة الاسلامية • ونلاحظ أن جباة الجزية والضرائب فى مصر وكذلك حكام الكورات المختلفة فيها كانوا من أهل الذمة ومن المصريين بصفة عامة أو من الروم المتمصرين • وقد لاحظنا من المصادر المختلفة ومن الوثائق والأوراق البردية أن الجزية لم تكن ضريبة باهظة أو ضريبة كبيرة أو فوق الاحتمال بالنسبة لباقى الضرائب ، وانما كانت ضريبة مناسبة أو أقل من الضرائب الأخرى المفروضة على المصريين مسلمين كانوا أو ذميين(٦) •

أما فيما يختص بالأراضى ، فان عمر بن الخطاب لم يعمذ الى تقســـيم الأراضى بين الفـــاتحين فى مصر وفى جميع البلاد التى فتحها العرب • وفرض العرب على الأرض ضـــريبة الأرض ، أو

---

(٦) لمزيد من التفصيل فيما يتعلق بالجزية والضـــرائب فى مصـــر الاسلامية بعد الفتح العربى ، انظر • دكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٣٧ ـ ٦٩ وما ذكرته من مراجع •

الخراج · وكان الخراج يجبى فى مصر نقدا وعينا ، وعرفت الضريبة العينية فى أوراق البردى العربية باسم ضريبة الطعام · والمعروف أن تقدير الخراج فى مصر كان على أساس مساحة الأرض ، وكذلك ارتبط تقدير تلك الضريبة بحالة فيضـــان النيل كل عام لارتباطه بالزراعة ·

ونلاحظ أن القمح كان أهم ما يجبى من ضريبة الطعام ، ولكن هذه الضريبة كانت تشمل أحيانا غير الغلال ، الزيت والعسل وأنواع الطعام الأخرى ·

وكان يصرف من المال الذى يجبى ، عطاء الجند المرابط فى مصر كما أن أرزاق الجند فى مصر كانت تعتمد على ضريبة الطعام · وكذلك كانت الضرائب التى ترسل الى الخلافة من مصر بعد الفتح ، عينا ونقدا ·

ووجد فى مصر بعد الفتح أراض امتلكتها حكومة العرب · اذ كان هنالك قبل الفتح أراض يمتلكها الاباطرة امتلاكا خاصا غير تلك الأراضى التى كان يمتلكها سائر أفراد الشعب سواء كانوا من الروم أو من المصريين · فهذه الأراضى التى كانت ملكا خاصا للأباطرة أو التى هرب أهلها أو ماتوا زمن الفتح آلت الى الخليفة وارث الأباطرة فى مصر ، فكان له حق التصرف فيها ، وكان تصرفه هذا لا يمس حقوق الأهالى ولا ينقض الصـــلح الذى أعطاه العـــرب للمصريين ، وكانت حكومة العرب تتبع فى الانتفاع بالضياع التى استولت عليها طريقة الاقطاع ، وكان أقدم اقطاع فى مصر ذلك الذى أقطعه عمر بن الخطاب للصحابى ابن سندر فى مكان عرف باسم منية الأصبغ(٧) فحاز لنفسه منها ألف فدان ولم تزل له الى

---

(٧) كان لفظ منية شائعا فى مصر وكذلك شاع فى الأندلس ، والمنية ضيعة تنشأ حول قصر ريفى · وكانت منية الأصبغ تقع شـــمال القاهرة ، وموقعها الحالى قريب من ضاحية الدمرداش ·

أن مات . واشتراها بعد ذلك الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان من ورثته واشتهرت باسم منية الأصبغ . ويقال انها كانت أقدم وأفضل قطيعة بمصر(٨) . ومثل هذا النوع من الاقطاع كان اقطاع تمليك يمنح للأفراد لاصلاح الأرض او مقابل خدمات خاصة .

وقد زادت الضياع التابعة للحكومة زيادة كبيرة بما أضيف اليها من الموات(٩) أو الأرض المهجورة أثناء الحكم العربى . وكان يدفع عن الأرض التى امتلكها العرب بعد الفتح العشر زكاة لها كما يزكى المسلم عن أنواع الأموال الأخرى .

ومن ناحية أخرى كان القبطى الذى يعتنق الاسلام تصبح أرضه عشرية ، وبمرور الوقت أصبح يفرض الخراج على الأرض فى مصر فى عصر الولاة سواء أسلم مالكها أو كانت ملكا لأحد المسلمين .. ونعرف أن الأقباط والمسلمين على السواء ثاروا فى العصر العباسى من أجل زيادة الخراج زيادة أجحفت بهم مما اضطر الخليفة العباسى المأمون الى القدوم بنفسه الى مصر للقضاء على احدى تلك الثورات فى سنة ٢١٧ هـ (٨٣٢ م) .

كذلك فرض العرب بعد الفتح ضرائب على الصناع والعمال ، وكانت تلك الضرائب تقدر بقدر احتمالهم .

وفرض العرب ضرائب على التجارة الداخلية فى مصر عرفت بالمكوس(١٠) . كذلك فرض العرب ضرائب على التجارة الخارجية .

---

(٨) انظر « ابن عبد الحكم : فتوح مصر . ص ١٣٧ – ١٣٨ (طبعة تورى ، والمقريزى : الخطط ج١ ص ٩٦ ، والسيوطى . حسن المحاضرة ج١ ص ٦٦ .

(٩) الموات بعكس العامر من الأرض ، أى الأرض التى تحتاج الى تعمير واصلاح .

(١٠) المكس فى اللغة ، الجباية ، يقال مكسه يمكسه مكسا ، ويقال للماكس أو صاحب المكس . العشار أو العاشر .

فيذكر المقريزى انه كان يجبى ضرائب مقررة من التجارة فى الثغور المصـــرية وهى دمياط وتنيس ورشـــيد وعيذاب وأســـوان والاسكندرية(١١) ٠

كذلك فرض العرب على المصريين ضـرائب غير عادية ورد ذكرها فى النصـــوص التاريخية وفى كتب الفقهـــاء وفى الأوراق البردية ٠ وكانت مثل هذه الضرائب تجبى لحاجة الدولة فى ظروف معينة ٠

وقد وجد العرب عند الفتح فى مصر نظاما زراعيا وماليا لم يســـتطيعوا تركه تماما ، وكان هذا النظام يبعدهم الى حد كبير عن الاتصال بالفلاحين ودافعى الضرائب مباشرة ٠ وكان قوام هذا النظام طائفة من الأعيان وكبار الملاك الذين كانوا يدفعون أو يضمنون دفع الضرائب عن مساحات زراعية كبيرة وقد أخذ العرب يحلون محلهم فى امتلاك الأرض وضمان الخراج ٠ وورد ذكر لضياع العرب فى الأوراق البردية فى أواخر عصر الولاة(١٢) ٠

ويذكر المؤرخون فى مناسبة مجىء المأمون الى مصر ، انه لما سار فى قرى مصر كان يقيم فى القرية يوما وليلة فتجاوز قرية لصغرها فخرجت اليه سيدة قبطية عجوز وأصرت على أن تستضيفه هو وحاشيته وقواده وعساكره ، وعجب الخليفة المأمون لكرمها وسعة ثروتها بعد أن استضافته وانصرف متعجبا من كبر مروءتها وسعة حالها(١٣) ٠

---

(١١) انظر : الخطط للمقريزى ج١ ص ١٠٩ ٠

(١٢) انظر Grohmann (Adolf) : Arabic Papyri in the Egyptian Library. Vol. III. PP. 105 — 106, 148 — 149 (Cairo 1938).

(١٣) انظر تفاصيل القصة فى المقريزى : الخطط ج١ ص ٧٩ ـ ٨٠

بقى أن نذكر أن عماد الخزينة فى الدولة العربية حين فتحت مصر وغيرها من البلاد كان ضريبتى الجزية والخراج ٠

ونذكر أيضا أن الكنائس والأديرة حين الفتح العربى كانت تمتلك الكثير من الآراضى الزراعية وكان يوقف عليها الأراضى الكثيرة ٠ وكانت الجزية والخراج والضرائب المختلفة وأجور العمال وعطاء الجند وسائر المعاملات فى مصر الاسلامية التى تدفع نقدا ، تدفع بالدنانير الذهبية واقسامها ، اذ كان أساس التعامل قبل الفتح العربى هو العملة الذهبية ٠ وقد وجدت عملة مساعدة الى جانب الذهب وهى الدراهم الفضية ، كما كان هناك نقود صغيرة من العملة البرونزية ٠ ولم تثبت النقود فى مصر على وزن واحد بل كانت متغيرة الأوزان ، كذلك كان العرب يتعاملون بالنقود الأجنبية جنبا الى جنب مع النقود الاسلامية ، الى أن ولى عبد الملك بن مروان الخلافة وتمهدت له الأمور فى الدولة بعد القضاء على منافسيه والخارجين عليه فأراد أن يصلح النقود وأن يوحدها فى جميع ديار الاسلام وأن يستغنى عن النقود الأجنبية ٠ وضرب عبد الملك بن مروان شيئا من الدنانير فى سنة ٧٤ هـ (٦٩٣ م) ، وفى السنة التى بعدها ، ثم أمر بضربها فى جميع ديار الاسلام سنة ٧٦ هـ (٦٩٥ م) ٠ وكان ضرب السكة الاسلامية وتوحيدها فى أنحاء ديار الاسلام من مظاهر سيادة الدولة العربية والتخلص من التعامل بالدنانير البيزنطية والدراهم الفارسية ٠

ولما كانت النقود ترتبط أيضا بالمسائل الشرعية مثل الزكاة والصداق والدية فان عبد الملك حين أمر بضرب السكة الاسلامية أخذ فى اعتباره أن يكون الدينار على وزن الدينار الذى أقره الرسول عليه الصلاة والسلام وهو دينار هرقل ، كذلك اتخذ النسبة التى أقرها الرسول عليه الصلاة والسلام وهى ان كل سبعة دنانير تزن عشرة دراهم فضة ٠

وكان الخلفاء من بعد عبد الملك يضربون سكة على وزن سكته وأحيانا يغيرون فى أوزانها · ولما زالت الخلافة الأموية فى سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) صـــار الخلفاء العباســـيون يضربون سككا أيضا(١٤) · وظلت السكة فى مصر خاضعة للسكة الاسلامية الى أن استقلت مصر عن الخلافة فبدأت تظهر السكة المصرية الخاصة بمصر مثل السكة الطولونية · وفى ذلك يقول المؤرخ المقريزى : « ومع هذا فان مصر لم تزل منذ فتحت دار امارة وسكتها انما هى سكة بنى أمية ثم بنى العباس الا أن الأمير أبا العباس أحمد بن طولون ضرب بمصر دنانير عرفت بالأحمدية »(١٥) ·

---

(١٤) انظر عن السكة : دكتورة سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام · ص ٦٥ ـ ٦٩ وماذكرته من مراجع ، ودكتورة سيدة كاشف : دراسات فى النقود الاسلامية : بحث فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ المجلد الثانى عشر ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥م

(١٥) انظر : المقريـــزى : « شـــذور العقود فى ذكر النقود القديمـــة والاسلامية المعروف باسم « النقود الاسلامية » : ص ١٢ (طبعة القسطنطينية ١٢٩٨هـ) ·



٧ ـ الجيش والبحرية فى مصر فى عصر الولاة

(أ)

الجيش

بعد أن تم للعرب فتح مصر بقى بها جيش عربى مرابط · وقد حرم عمر بن الخطاب على الجند العرب بمصر الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض لئلا يتركوا الجهاد وادارة الدولة العربية الواسعة ·

ودون عمرو بن العاص فى مصر ديوان الجند ، وكانت تدون فيه أسماؤهم وأسراتهم لتقرير العطاء والأرزاق اللازمة لهم ، وكان أهل الديوان يثبتون فيه حسب قبائلهم · ونلاحظ أن الجيش الذى فتح مصر كان مقسما حسب القبائل أيضا ، وحدث مثل هذا التقسيم فى تخطيط مدينة الفسطاط ·

وكان الجند فى مصر عربا حتى نهاية الدولة الأموية · أما فى زمن الدولة العباسية فقد دخل فى الديوان عناصر أخرى فارسية ، ومالبث أن ظهر عنصر آخر طغى على العنصر العربى والفارسى وهم الجند الترك الذين استكثر منهم الخليفة المعتصم وأثبتهم فى الديوان · بل ان المعتصم أمر واليه على مصر كيدر نصر بن عبد الله

(٢١٦ ـ ٢١٨ هـ / ٨٣١ ـ ٨٣٤ م) باسقاط العرب من الديوان وقطع أعطياتهم وذلك فى سنة ٢١٨ هـ (١) (٨٣٣ م) . وكان من نتائج هذا القرار أن زاد انتشار العرب فى أنحاء مصر يسعون وراء الرزق عن طريق غير طريق الجهاد والحرب .

وقد اشترط على أهل مصر بعد الفتح ايواء الجند وضيافتهم أثناء انتقالهم من جهة الى أخرى فى أنحاء مصر ، فمن نزل عليه جندى أو أكثر وجبت عليه ضيافتهم ثلاثة أيام .

وكان التجنيد تطوعا فى البداية ثم دخله نوع من الالزام فى عصر بنى أمية .

وكان ملحقا بالجيش طائفة تسمى المطوعة ، وربما كان المطوعة من المصريين أنفسهم ، وهؤلاء المطوعة لم يدخلوا فى صلب الجيش ، ويغلب على الظن أنهم كانوا يقومون بأدوار ثانوية فى خدمة الجيش ولم يكن لهؤلاء المطوعة عطاء ولم يثبتوا فى الديوان ، انما كان عطاؤهم من الصدقات(٢) .

وقد عرف العرب منذ البداية أهمية مصر وأن موقعها يتطلب السهر دائما على شئونها والعناية بالجيش الذى يحميها . وليس غريبا أن نرى الرواة ينسبون الى الرسول عليه الصلاة والسلام أحاديث خاصة بهذا الشأن ، فقد روى عبد الله بن لهيعة عن حديث لعمرو بن العاص انه قال : « حدثنى عمر أمير المؤمنين رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اذا فتح الله عليكم بعد مصرى فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض ،

---

(١) انظر : الكندى : الولاة والقضاة ص ١٩٣ ، المقريزى : الخطط ج١ ص ٩٤ .

(٢) انظر : الكندى . الولاة والقضاة : ص ٤١٨ ـ ٤١٩ .

قال أبو بكر رضى الله عنه : ولم ذلك يارسول الله ؟! قال : لأنهم فى رباط الى يوم القيامة »(٣) ٠

وروى ايضا أن عمرو بن العاص قال فى خطبة له بمصر :

« واعلموا أنكم فى رباط الى يوم القيامة لمكث الأعداء حولكم ولاشـــراف قلوبهم اليكم والى داركم معدن الزرع والمال والخير الوأسع والبركة النامية »(٤) ٠

وقد ظلت مصر طوال عصر الولاة قاعدة للفتوحات والتوسع تخرج منها جيوش الخلافة جنوبا وغربا ، اما لتأمين حدودها مثل تلك الحملات التى ذهبت لفتح بلاد النوبة أو لفتح برقة وطرابلس ، واما لمشاركة جيوش الخلافة فى حملاتها للتوســـع غربا فى بلاد المغرب ٠

ويجدر بنا أن نشير الى أنه حدث تغير هام فى ديوان الجند فى البلاد المفتوحة بعد وفاة عمر بن الخطاب بنحو أربعين عاما وقبل قيام الدولة العباسية بنحو ستين عاما ، وقد حدث هذا التغير فى خلافة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد بن عبد الملك (٦٥ ـ ٩٦ هـ / ٦٨٤ ـ ٧١٥ م) ٠ ذلك أن القواد العرب أخذوا يشركون أهل البلاد المفتوحة فى الجيش ، فجند الحجاج بن يوسف الثقفى الموالى فى العراق وايران مع الجيش العربى فى فتوحات المشرق ، وأشـــرك قتيبة بن مسلم الباهلى أهل بلاد ما وراء النهر مع العرب فى فتوحاتهم هناك ، وجند موسى بن نصير آلافا من البربر فى شـــمال أفريقيا لاستكمال فتوحات بلاد المغرب . كما أن فتح بلاد الأندلس قام فى معظمه على عاتق البربر(٥) ٠

---

(٣) انظر . المقريزى ٠ الخطط ٠ ج١ ص ٢٤

(٤) المرجع نفسه ص ٢٦ ٠

(٥) انظر ٠ دكتورة سيدة اسماعيل كاشف : الوليد بن عبد الملك ص ١٧٠ ـ ١٧١ (القاهرة ١٩٦٣م) ٠

ولا نستبعد أن فريقا من المصريين قد دخل منذ ذلك الحين فى ديوان الجند تمشيا مع سياسة الأمويين فى اشراك أهل البلاد المفتوحة فى الجيش ، هذا فضلا عن فريق المطوعة الذى أشرنا اليه قبل ذلك ·

(ب) البحرية

اذا كان المصريون قد أبعدوا عن الاشتراك فى جيش بلادهم عقب الفتح العربى ، واذا كان من المحتمل اشتراكهم فى جيش بلادهم الى حدما منذ العصر الأموى ، واذا كان اشتراكهم على هامش جيش بلادهم بوصفهم من المطوعة ، فان هذا الحال اختلف تماما فيما يخص البحرية · فان المصريين كان لهم الدور الأول فى بحرية مصر وفى المساهمة بنصيب الأسد فى انشاء الأساطيل والمراكب البحرية المصرية وفى كسب المعارك البحرية الشهيرة وفى حماية الثغور البحرية والنيلية المصرية ضد أى عدوان وخاصة العدوان البيزنطى على الاسكندرية ودمياط وتنيس(٦)وغيرها من السواحل المصرية ·

ولم يكن البحر يركب للغزو فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام أو فى خلافة أبى بكر الصديق · وكان عمر بن الخطاب يخشى على المسلمين من غزو البحار ، ونعرف أن العلاء بن الحضرمى ندب أهل البحرين ، حين كان أميرا عليها ، الى غزو فارس عن طريق البحر بغير اذن الخليفة ، فغرقت سفن المسلمين ، وغضب عمر بن الخطاب على العلاء وأمر بتأمير سعد بن أبى وقاص عليه ·

---

(٦) تنيس · بكسرتين وتشديد النون تقع مابين دمياط والفرما فى شرقيها (انظر : ياقوت : معجم البلدان ج١ ص ٨٨٢ ـ طبعة ليبزج ١٨٦٦ ـ ١٨٧٣م) · وهى عند بحيرة المنزلة ·

لكن البيزنطيين لم يتركوا للعرب فرصة طويلة للتردد فى اقتحام البحر ، فقد مر بنا أنهم أغاروا على الاسكندرية من البحر فى سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م) بغرض اجلاء العرب عن مصر جلاء تاما ووقف المصريون مع العرب فى صد البيزنطيين واجلائهم عن مصر ·

وكان لابد من اهتمام العرب بالبحار ، ليس للتجارة فقط ، وانما للدفاع عن ممتلكاتهم الجديدة شـــرقا وغربا · وبدأ العرب معاركهم البحرية الأولى منذ خلافة عثمان بن عفان (٢٤ ـ ٣٥ هـ / ٦٤٤ ـ ٦٥٥ م) ، وأحرز العرب نصرا بحريا كبيرا ضد البيزنطيين بفضل سواعد المصريين وبحارتها ، تحت لواء أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وذلك حين قدم البيزنطيون بقيادة امبراطورهم قنسطانز الثانى فى سنة ٣٤ هـ (٦٥٥ م) لغزو الاسكندرية · وقد انتصر العرب انتصارا باهرا على البيزنطيين بالرغم من قلة سفنهم بالنسبة للسفن البيزنطية ، ورغم حداثتهم فى حرب البحار ، لكننا لا نستطيع فى هذا النصر الا أن نذكر بسالة المصـــريين البحرية وتقدمهم فى حروب البحار · وسميت هذه المعركة البحرية باســـم معركة ذى الصوارى لكثرة صوارى السفن التى التحمت فى القتال فيها ، وسميت فى الأوربيـــة باســـم واقعة فونيكه ربما لوقوعها بالقرب من ثغر فونيكه غربى الاسكندرية · ووصفها المؤرخ اليونانى ثيوفانس بأنها كانت يرموكا ثانيا على الروم(٧) ·

---

(٧) راجع عن هذه المعركة الطبرى تاريخ الأمم والملوك ج٥ ص ٦٨ ـ ٧٠ . والقريزى الخطط ج١ ص ١٦٩ . والدكتور زكى محمد حسن · مجلة المقتطف ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣ ـ عدد مايو ١٩٤٤م ، ودكتورة سيدة كاشف مصر فى فجر الاسلام ص ٩٤ ـ ٩٦ ، ودكتورة سيدة كاشـــف : العرب والبحار · ص ٦٨ وما ذكرته من مراجع ـ حولية كلية البنات بجامعة عين شمس ١٩٦٤ م ·

وأكدت المصادر التاريخية والأوراق البردية أن صناعة السفن الحربية كانت مزدهرة فى وادى النيل ، وأصبح اسم « الصناعة » فى مصر يدل على المكان الذى تبنى فيه السفن الحربية ٠ وكانت « الصناعة » موجودة فى جزيرة الروضة وفى القلزم (السويس الحالية) وفى الاسكندرية ٠ والمعروف أن بناء السفن كان فى البداية بمصر فقط الى أن أمر معاوية بن أبى سفيان فى خلافته بانشاء دار للصناعة فى عكا ٠

ولم يقتصر نشاط المصريين على اعداد الأسطول المصرى أو الحرب فى البحار فى مصر فقط ، بل كان والى مصر يرسل الصناع والملاحين المصريين للعمل فى أسطول المغرب أو أسطول المشرق ، والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة الاسلامية ٠

واذا كان الفضل لعظمة الخلافة البحرية يرجع الى أهل البلاد التى فتحوها والتى تعلموا منها هذا الفن ، فلنا أن نقول غير مبالغين ، ان الفضل الأكبر والأول يرجع الى مصر والمصريين ٠

٨ ـ القضاء فى مصر فى عصر الولاة

أدخل العرب فى مصر نظاما قضائيا يقوم على أساس الشريعة الاسلامية ، ويخص الفاتحين من العرب أو الذين يدخلون فى الدين الاسلامى من أهل البلاد • أما الذميون فكان لهم قضاؤهم الا اذا احتكموا الى القاضى المسلم فله أن يحكم بينهم بالعدل •

وكان القضاء فى الدولة الاسلامية من الأمور الخاصة بالخلافة فكان الخليفة هو رئيس القاضى المباشر ، وكان الخلفاء هم الذين يعينون القضاة فى مصر فى عصر الولاة ولكن بعض القضاة كان يعينهم الولاة بتفويض من الخليفة لواليه •

وكان القضاة فى مصر أكثر استقرارا فى مناصبهم من الولاة فكان القاضى يشغل منصبه فى عهود ولاة مختلفين أو فى عهود خلفاء مختلفين ، وكثيرا ما مات القضاة فى مصر وهم فى مناصبهم ، وهذا مما يدعو الى حسن سير العدالة •

وتبين المصادر أن القضاء فى مصر كان يتسم بالعدل والنزاهة والشدة فى الحق فى أغلب الأحوال •

ولم يكن هناك محكمة خاصة للفصل فى القضايا انما كانت مجالس القضاء تعقد فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط .

وكانت سلطة القاضى تمتد الى الأراضى التى كانت تدخل تحت سلطة الوالى السياسية . وكان القاضى يستمد أحكامه من مصادر التشريع الاسلامى وهى القرآن الكريم ، والسنة والأحاديث النبوية الشريفة ، والاجماع ، والاجتهاد أو القياس .

وانتشرت فى مصر فى العصر العباسى المذاهب الأربعة المعروفة اليوم ، على أن قضاة مصر لم يكونوا ملزمين باتباع مذهب معين يصدرون أحكامهم وفقا له . وكان الاختصاص النوعى للقاضى غير محدود سواء أكان فى الأحوال الشخصية والأمور المدنية أو الجنائية .

وكان الخلفاء فى عصر الولاة يرحبون بسماع شكاوى أهل مصر اذا ما شعروا بالظلم من أحد القضاة أو من غير القضاة . وكان القضاة يأخذون رزقا من بيت المال ، بدأ بسيطا متمشيا مع بساطة الحياة حينئذ ثم أخذ يرتفع تدريجيا .

وقد عنى القضاة عناية كبيرة بالسؤال عن الشهود والتحقق من استقامتهم ونزاهتهم ، وكان صاحب المسائل يجدد السؤال عن الشهود فى كل ستة أشهر .

ومن التقاليد التى نشأت فى عصر الولاة خروج القاضى فى نفر من أهل الصلاح لرؤية هلال شهر رمضان المعظم ، وكانوا يخرجون لرؤيته فى الجيزة .

ويرجع انشاء ديوان الأوقاف أو الأحباس فى مصر الى عصر الولاة منذ سنة ١١٨ هـ (٧٣٦ م) وكان القضاة هم الذين يشرفون

على هذا الديوان ، أما الأحباس قبل ذلك فكانت فى أيدى أهلها وفى أيدى أوصيائهم(١) ٠

ونلاحظ أن القضاة فى مصر الاسلامية كانوا يجعلون للقضاء بين أهل الذمة يوما فى منازلهم ٠ وكان القضاة يقبلون شهادة النصارى على النصارى ، واليهود على اليهود ، وكانوا يتحققون من عدالة هؤلاء الشهود بين أهل دينهم ٠

وفى أواخر العصر الأموى فى مصر كان القاضى خير بن نعيم الحضرمى (١٢٠ ـ ١٢٨ هـ / ٧٣٨ ـ ٧٤٥ م) يقضى بين المسلمين فى المسجد الجامع ثم يجلس على باب المسجد فيقضى بين أهل الذمة ٠ وفى العصر العباسى أذن القاضى محمد بن مسروق الكندى (١٧٧ ـ ١٨٤ هـ / ٧٩٣ ـ ٨٠٠ م) لأهل الذمة بالدخول فى المسجد للقضاء(٢) ٠

وليس من شك فى أن اقبال أهل الذمة على القضاء الاسلامى يرجع الى تعايشهم مع المسلمين فى وطن واحد ، والى مالمسوه من عدالة الاسلام ، فضلا عن أن قوانين أهل الذمة كانت لا تشتمل الا على عقوبات دينية كالتوبيخ أو دفع كفارة مالية أو المنع من حضور الصلاة فى الكنائس ٠ وكان يفرض على أهل الذمة الالتجاء الى القاضى المسلم اذا كان أحد المتخاصمين مع أهل الذمة من المسلمين كذلك كان لا يجوز لرؤساء النصارى أو اليهود توقيع عقوبة القتل أو الجلد على أبناء طائفتهم وذلك لحرص الدولة على عدم تعدد القوانين خصوصا اذا كانت تتصل بحرمة الحياة أو حرمة الملكية ٠

---

(١) من أهم مصادر القضاء فى مصر فى عهد الولاة : الكندى . كتاب الولاة وكتاب القضاة ، والقلقشندى ٠ صبح الأعشى فى صناعة الانشا : الجزء الأول ٠

(٢) انظر ٠ الكندى : الولاة والقضاة ٠ ص ٣٩٠ ٠



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٩ ـ مصر والأحداث السياسية والدينية في العصر الاسلامى

كانت مصر فى عصر الولاة على اتصال بالأحداث الهامة فى الخلافة تؤثر فيها وتتأثر بها · وكانت الحركات والثورات المختلفة التى انبعثت فى الدولة الاسلامية سياسية فى شكل دينى ، أو دينية فى شكل سياسى ، فالدين والسياسة كانا متصلين أشد اتصال بل كانا توءمين فى العصور القديمة والعصور الوسطى · ولذلك كانت كل جماعة عربية تسعى للسلطان ، أو أعجمية ترمى الى هدم كيان العرب والاسلام ، تتوكأ وتستند على الدين وتدعو باسمه لتنفذ الى قلوب الناس سواء أكانت صادقة أو متظاهرة · وكانت الخلافة أو الامامة أولى المسائل التى اختلف المسلمون عليها ، وترتب على اختلافهم نشوء الفرق المختلفة مثل الخوارج والشـــــيعة والمرجئة والمعتزلة ·

ونلاحظ أن العرب فى مصر اشتركوا فى تلك الحركات السياسية والدينية التى قامت فى الخلافة حتى نهاية الدولة الأموية ، ثم اشترك

العرب وغير العرب من الجنود الذين أتوا الى مصر فى عصر الدولة العباسية ٠

أما المصريون أنفسهم ، أهل البلاد ، فقد كان دورهم يقتصر على تقديم ما يطلبه الثوار وأصحاب المصالح المختلفة من مؤن وخدمات ، وظهر موقفهم الايجابى فى تلك الحركات حين عاونوا العباسيين فى مصر على قيام دولتهم واسقاط الدولة الأموية ٠

(أ) الحركات السياسية والدينية زمن الخلفاء الراشدين

ومن أهم وأول الأحداث التى اشتركت فيها مصر ، الثورة ضد الخليفة عثمان بن عفان ٠ وكان لثوار مصر الشأن الأكبر فى مقتل الخليفة عثمان بن عفان فى سنة ٣٥ هـ (٦٥٦ م)والذى كان سببا فى افتراق كلمة الأمة الاسلامية ٠

فعندما بويع على بن أبى طالب بالخلافة ، ونشأ النزاع بينه وبين معاوية بن أبى سفيان ، أراد معاوية أن يبسط نفوذه على مصر وان يستعين بها للانتصار ضد على بن أبى طالب ٠ وقد استطاع عمرو بن العاص أن يستخلص مصر لمعاوية بمحاربته لوالى على بن أبى طالب ، ونجح فى ضم مصر الى معاوية فى سنة ٣٨ هـ (٦٥٨م) وأصبحت مصر ولاية أموية منذ تلك السنة بالرغم من أن عليا ظل خليفة حتى سنة ٤٠ هـ (٦٦١ م) ٠ وكانت مكافأة معاوية سخية جدا لعمرو بن العاص ، فولاه على مصر وجعلها طعمة له بعد النفقة على جندها وادارتها ، وظل عمرو بن العاص فى ولايته الثانية على مصر منذ ٣٨ هـ (٦٥٨ م) الى أن توفى فيها سنة ٤١ هـ (٦٦١ م) ٠

(ب) الحركات السياسية والدينية زمن الأمويين

وفى العصر الأموى دعا عبد الله بن الزبير لنفسه بالخلافة بعد استشهاد الحسين بن على فى كربلاء فى العاشر من المحرم ٦١ هـ (٦٨٠ م) فى خلافة يزيد بن معاوية • ومات يزيد ولما يتم اخضاع ابن الزبير الذى اتسعت دعوته بعد يزيد وشملت معظم الشام والعراق والحجاز واليمن ومصر •

وفى مصر ظهرت دعوة عبد الله بن الزبير فى سنة ٦٤ هـ (٦٨٤ م) • وقام بالدعوة له فيها الخوارج وكانوا يحسبون ابن الزبير على مذهبهم(١) • ودعا له فيها أيضا عرب من غير الخوارج وبعض أتباع بنى أمية • وأرسل ابن الزبير واليا من قبله هو عبد الرحمن بن جحدم الفهرى الذى قدم الى مصر فى طائفة من الخوارج فى شعبان سنة ٦٤ هـ (٦٨٤ م) • ولما بويع مروان بن الحكم الأموى خليفة بالشام فى ذى القعدة سنة ٦٤ هـ ، دعا أنصاره فى مصر لاستخلاصها من عامل ابن الزبير ،وما لبث أن قدم مروان ابن الحكم بنفسه الى مصر وسبقه جيش بقيادة ابنه عبد العزيز بن مروان الذى أمره مروان أن يدخل مصر عن طريق أيلة (العقبة الحالية) • وتم انتصار مروان بن الحكم بالرغم من استبسال ابن جحدم ، ودخل مروان الفسطاط فى غرة جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ (٦٨٤ م) • وانتهى فى مصر حكم عبد الله بن الزبير بعد أن دام نحو تسعة أشهر وهى مدة ولاية عبد الرحمن بن جحدم •

والحق أن الخلافة لم تغفل أهمية مصر منذ أن فتحها العرب ، وذلك لموقعها العالمى الممتاز ولخيراتها الوفيرة ، فأهتم الخلفاء

---

(١) انظر : الكندى : الولاة والقضاة ص ٤٠ ــ ٤١ ، والمقريزى : الخطط ج٢ ص ٣٣٧ •

والولاة بأمرها اهتماما خاصا ، فالذى يسيطر على مصر يستطيع أن يسيطر على الشام وعلى غيرها من بلدان العالم الاسلامى ، ويستطيع أن يهدد الخلافة نفسها من الناحيتين السياسية والاقتصادية ٠

وحدث بعد ذلك الحادث الأكبر وهو سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية ٠ وكانت دعوة العباسيين قد بدأت تأخذ طريقها الى مصر منذ أوائل القرن الثانى الهجرى (النصف الأول من القرن الثامن الميلادى) ٠ وقد شارك فى الترحيب بالعباسيين العرب فى مصر فضلا عن المصريين أهل البلاد ٠ ولما هزم مروان بن محمد — آخر خلفاء بنى أمية فى المشرق — فى موقعة الزاب فى العراق سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) أخذ يهرب أمام الجيش العباسى الى أن وصل الى مصر ٠ لكن صالح بن على بن عبد الله العباسى وأبا عون تبعاه الى مصر على رأس الجيوش العباسية ، ثم دارت رحى الحرب بين مروان وبين العباسيين وكتب النصر للجيش العباسى ٠ وفر مروان حتى وصل الى بوصير(٢) ٠ وهناك لحق به صالح بن على العباسى حيث قتله فى أواخر شـــهر ذى الحجة من سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) ، ودخل صالح بن على العباسى الفسطاط فى المحرم سنة ١٣٣ هـ ٠ وهكذا زالت الدولة الأموية بعد انتصار العباسيين على مروان بن محمد فى مصر ، وأصبحت مصر منذ أواخر ١٣٢ هـ وأوائل سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) ولاية تابعة للخلافة العباسية فى العراق ٠

---

(٢) بوصير أو أبوصير : اسم لبلدان كثيرة فى مصر مشتق من اسم الاله الفرعونى اوزيريس ٠ وكان هناك زمن مقتل مروان بن محمد أربـــع قرى بمصر باسم بوصير ٠ وكان مقتل مروان بعد وصول الجيش العباسى الى الفسطاط بنحو تسعة ايام ٠ وأقرب مكان من الفسطاط هو ابوصير الملق الحالية وهى قريبة من الجيزة وتقع الآن فى مركز الواسطى فى مديرية بنى =

(جـ) الحركات السياسية والدينية منذ قيام الدولة العباسية الى قيام الدولة الطولونية فى مصر

لم يكن زوال الخلافة الأموية ومقتل مروان بن محمد معناه القضاء على البيت الأموى نهائيا فقد قامت دولة وخلافه أموية فى الأندلس · أما فى مصر فقد قامت ثورة أموية ضد الخلافة العباسية فى زمن الخليفة العباسى المهدى كان بطلها أحد أحفاد عبد العزيز بن مروان ، وهو دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان · وخرج دحية فى صعيد مصر واستفحل أمره وملك أغلب الصعيد وذلك فى ولاية ابراهيم بن صالح (١٦٥ ــ ١٦٧ هـ / ٧٨١ ــ ٧٨٣ م) واضطربت الخلافة العباسية وهى فى أوج قوتها حينئذ ، أن تعزل والى مصر وولت مكانه واليا ثانيا ثم ثالثا ، ولم يفلح هؤلاء فى القضاء على ثورة دحية · وكاد أمر دحية أن يتم وتخرج مصر من حكم العباسيين ، اذ بايعه كثير من الناس وكاتبه البعض ودعوه الى دخول الفسطاط ·

= سويف . وقد كشف أخيرا فى ابى صير الملق ابريقا فخما من الطراز الساسانى يرجح انه كان ملكا له ·

(انظر : الكندى : الولاة والقضاة · ص ٩٦ ، وساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة : ص ١٨٣ و ١٨٧ (Patr. Orient. T. V.) وابن العميد (المعروف بالملكين · تاريخ المسلمين : ص ٩٦ ــ طبعة ليدن ١٦٢٥ م ــ ، والمقريزى . الخطط ج١ ص ٣٠٤ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج١ ص ٣١٧ . والدكتور سليم حسن بك : أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى ص ١٨٧ ــ المجمع المصرى للثقافة العلمية ــ القاهرة ١٩٤٢ م ، والدكتور زكى محمد حسن : الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى ص ٢٧٠ ــ القاهرة ١٩٣٩ ·)

واخيرا أرسلت الخلافة العباسية واليا من الأسرة العباسية هو الفضل بن صالح بن على العباسى فى آخر المحرم سنة ١٦٩ هـ واستطاع بعد مجهود كبير ـ حربا وخدعة ـ أن يقضى على دحية وعلى ثورته وذلك فى جمادى الآخرة سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) فى خلافة الهادى العباسى ، وذلك بعد أن وقف دحية وأنصاره أمام الخلافة العباسية حوالى أربع سنوات ٠

على أن الأمويين فى مصر بعد ذلك كانوا ينضمون أحيانا الى الثائرين على العباسيين من العلويين ٠ ذلك أن العلويين أدركوا بعد فوات الأوان أن بنى العباس خدعوهم عندما جعلوا شعار الدعوة ضد الأمويين « الرضا من آل محمد » وأنهم اســـتأثروا بالخلافة دونهم ، ومن ثم فقد ناصب العلويون الدولة العباسية العداء ٠ أما العباسيون فراحوا يضطهدون العلويين الطامحين الى الخلافة وفاق اضطهادهم للعلويين الاضطهاد الذى لاقوه على أيدى الأمويين ٠

أما الدعوة العلوية فى مصر فقد ظهرت منذ خلافة أبى جعفر المنصور ٠ ففى ولاية حميد بن قحطبة (١٤٣ ـ ١٤٤ هـ / ٧٦٠ ـ ٧٦١ م) قدم الى مصر على بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب يدعو لأبيه وعمه ٠ أما أبوه فهو محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية ، الذى دعا الى نفسه بالخلافة وتلقب بأمير المؤمنين واعترف الناس بامامته فى مكة والمدينة ، ومن ثم أرسل أخاه ابراهيم الى البصرة لنشر دعوته ٠ على أن محمدا النفس الزكية كان مصيره القتل على يد القائد العباسى عيسى بن موسى فى المدينة المنورة ٠ وبعد مقتله دعا أخوه ابراهيم الى نفسه وقام لنصرته كثيرون من فقهاء البصرة وذوى الرأى والجاه ٠ ولكن ابراهيم لقى حتفه كأخيه على يد عيسى بن موسى العباسى أيضـــا فى موقعة باخمرا بين الكوفة وواسط وذلك فى ذى الحجة من سنة ١٤٥ هـ (٧٦٣ م) ٠

أما ما كان من أمر هذه الدعوة فى مصر فقد بايع كثير من الناس لعلى بن محمد ، وهو أول علوى قدم مصر · وكان ممن بايع له بمصر مصعب ومنصور وزيد أبناء الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان · ولكن هذه الحركة العلوية خمدت فى مصر كما خمدت فى الحجاز والعراق بعد مقتل محمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم · أما على بن محمد النفس الزكية فقد اختلف فى أمره ، والراجح انه اختفى فى مصر حتى توفى بها(٣) ·

وحدث بعد ذلك أن أوت مصر علويا هاربا من العباسيين بعد موقعة شديدة بين العباسيين والعلويين فى فخ بالقرب من مكة أيام الخليفة العباسى الهادى ، ذلك العلوى هو ادريس بن عبد الله أخو محمد النفس الزكية · وقيل : « لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ » ·

وقد مر ادريس بمصر وسهل له واليها الخروج من مصر الى أفريقيا ، وقيل ، ان صاحب بريد مصر آنئذاك كان يميل للعلويين فحمل ادريس على البريد الى المغرب · واستطاع ادريس أن يقتطع جزءا من بلاد الدولة العباسية ، اذ بايعه البربر فى بلاد المغرب فى سنة ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) أثناء خلافة هارون الرشيد ،وكون هناك أول دولة للعلويين وهى دولة الأدارسة ·

والحق أن مصر أصبحت ملجأ لكثير من آل البيت الذين أتوا اليها هربا من اضطهادات ومضايقات العباسيين · ولاتزال مصر الى يومنا هذا حافلة بقبور آل البيت منذ ذلك العهد البعيد فى

---

(٣) انظر : الكندى : الولاة والقضاة : ص ١١١ ـ ١١٥ ، والمقريزى : الخطط : ج٢ ص ٣٣٨ ، وأبو المحاسن : النجوم : الزاهرة : ج٢ ص ١ ـ ٢ ·

عصر الولاة ٠ وممن أتى الى مصر فى ذلك العصر السيدة نفيسة رضى الله عنها وقد توفيت فى شهر رمضان سنة ٢٠٨ هـ (٨٢٤ م) ولايزال قبرها من المزارات الشهيرة فى القاهرة(٤) ٠

ونلاحظ أنه منذ أن سيطر الأتراك على الخلافة العباسية سيطرة تامة حربية ومدنية وسياسية ، ازدادت وطأة الخلافة العباسية على العلويين ٠ وعانى العلويون فى مصر من الاضطهاد والمضايقات الشىء الكثير ابتداء بخلافة المتوكل على الله العباسى (٢٣٢ ــ ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ ــ ٨٦١ م) الى أن جاء أحمد بن طولون الى مصر نائبا عن صاحب اقطاعها فى سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) ٠ وكان الاضطراب فى مركز الخلافة ايذانا باضطراب الأحوال فى الأقاليم المختلفة فى الدولة الاسلامية ومن بينها مصر ٠ وقبيل قدوم أحمد بن طولون الى مصر بنحو سنتين تتابعت ثورات العلويين من أقصى شمال مصر الى أقصى جنوبها ٠

ويجدر أن نشير هنا أيضا الى أنه فى فترة النزاع بين الأمين والمأمون عقب وفاة الخليفة هارون الرشيد كادت مصر تستقل بنفسها عن الخلافة العباسية ٠ وقد بدأ اضطراب الجند فى مصر عقب وفاة الخليفة هارون الرشيد فى سنة ١٩٣ هـ (٨٠٩ م) فتحزب الجند العرب للأمين ، وتحزب الجند الفرس للمأمون ، كما ثار العلويون فى مصر ، وانعدمت سلطة الخليفة على المصريين أو كادت ، فى تلك الأثناء أيضا ثار الأقباط بسبب زيادة الخراج والأعباء المالية ٠

وتطور الأمر فى مصر الى نزاع بين بعض القواد للاستئثار بالسلطة فيها والاستقلال بأمورها عن الخلافة ٠ واستطاع السرى بن

---

(٤) انظر : الكندى : الولاة والقضاة : ص ١٣١ ، والمقريزى . الخطط : ج٢ ص ٣٣٩ ــ ٣٤١ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٢ ص ٦٨ ٠

الحكم ، وعبد العزيز بن الوزير الجروى ، أن يكونا لنفسيهما ولأسرتيهما من بعدما ملكا شبه مستقل دام أكثر من عشر سنوات وقد سيطرت أسرة السرى على الفسطاط عاصمة مصر دائما ، وعلى الصعيد فى أغلب الأحيان ، وأحيانا على غربى الدلتا وقليلا ماسيطرت على شرقى الدلتا ٠

أما أسرة الجروى فقد سيطرت على شرقى الدلتا من تنيس وأحيانا كان يمتد نفوذها على الصعيد أو على غربى الدلتا(٥) ٠٠ وكانت أسرتا السرى والجروى أول أسرتين مستقلتين فى مصر الاسلامية وقد كانتا مقدمة لأسرة أحمد بن طولون ٠

واستطاع بعض الأندلسيين فى تلك الفترة أيضا أن يؤسسوا فى الاسكندرية شبه جمهورية مستقلة لمدة تزيد على عشر سنوات ٠ وكان هؤلاء الأندلسيون قد خرجوا مطرودين من الأندلس على أثر وقعة الربض بقرطبة سنة ١٩٨ هـ وذلك في عهد أميرها الحكم بن هشام الأموى ٠

ولم ينجح المأمون فى استعادة مصر للحكم العباسى الا على يد قائده عبد الله بن طاهر وذلك فى سنتى ٢١١ ـ ٢١٢ هـ (٨٢٦ ـ ٨٢٧ م) ٠

---

(٥) انظر : الطبرى تاريخ الأمم والملوك : ج١٠ ص ١٢٤ و ١٣٠ و ١٣٨ ـ ١٣٩ و ١٧٠ و ١٧٤ ـ ١٧٥ و ١٩٥ والكندى : تاريخ الولاة : ص ١٤٦ ـ ١٦٢ ، والمقريزى : الخطط : ج١ ص ١٧٢ ـ ١٧٣ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج٢ ص ١٥٧ و ١٦١ ـ ١٦٢ ٠

(د) مصر والمحنة بخلق القرآن

كانت مسألة خلق القرآن حركة فكرية قال بها المعتزلة وتأثر بها العالم الاسلامى حين فرضتها الخلافة العباسية على يد المأمون العباسى منذ سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) . وظلت هذه المحنة تشـــغل العالم الاسلامى والعلماء والفقهاء حوالى خمس عشرة سنة الى أن أبطلها الخليفة المتوكل العباسى فى سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) من مصر ومن جميع أنحاء الدولة الاسلامية . ونشأ مذهب الاعتزال فى البصرة فى أواخر عهد الأمويين ، وهو مذهب فكرى دينى ظهر كما ظهر غيره من الفرق والمذاهب فى فجر الاسلام نتيجة لتأثر المسلمين بالثقافات الاغريقية والفارسية القديمة والمسيحية التى كانت سائدة فى البلاد التى فتحوها أو اتصلوا بها . وكانت مسألة خلق القرآن هى المسألة التى تركز فيها الاعتزال لكثرة القول والجدل فيها ، ولأنها مبنية على أكبر أصل من أصولهم وهو التوحيد وعدم تعدد صفات الله . فقد ذهب المعتزلة الى أن القرآن حادث مخلوق نزل فى ظروف معينة وليس أزليا . والمهم أن الدولة العباسية اتخذت الاعتزال فى وقت ما مذهبا رسميا لها ، ودخل العالم الاسلامى كله فى هذه المحنة أو الامتحان .

وحملت الدولة العباسية جميع رعاياها على اعتناق هذا المذهب مستخدمة فى ذلك جميع وسائل القوة والعنف مما يذكرنا بما كان يفعله أباطرة بيزنطة حين كانوا يرأسون المجامع الدينية ويفرضون المذهب الذى يرتضونه بالقوة .

وأظهر الخليفة المأمون القول بخلق القرآن فى سنة ٢١٢ هـ الا أنه لم يحمل الناس على اتباعه الا فى سنة ٢١٨ هـ قبيل وفاته وهو خارج بغداد لغزو الروم . وحمل هذا الأمر من بعده المعتصم ثم الواثق . وقد عذب كثيرون ممن امتنعوا عن القول بخلق القرآن

نذكر منهم الامام أحمد بن حنبل ، كذلك قتل البعض الآخر ممن تصدوا لمواجهة مذهب الدولة • وبقدر ماكان الخلفاء يشتدون فى تلك المسألة كان العلماء والشعب يعارضون فيها • وأصبحت كلمة « المحنة » تعنى اختبار العلماء فى القول بخلق القرآن وما لاقوه فى ذلك من عذاب • وأصبحت الدولة الاسلامية كلها موضع محاكمة ، ومن بينها مصر •

وفى ولاية كيدر نصر بن عبد الله على مصر (٢١٧ ـ ٢١٨ هـ/ ٨٣٢ ـ ٨٣٤ م) ورد عليه كتاب المعتصم ـ صاحب اقطاع مصر حينذاك ـ فى جمادى الآخرة سنة ٢١٨ هـ/٨٢٢ م ، يأمره بأخذ الناس بالمحنة بخلق القرآن وأن يمتحن المحدثين والفقهاء والشهود ، وأن يعزل القاضى ان لم يقر بخلق القرآن • وكذلك طلب منه ألا يأذن لأحد فى حديث أو فتوى أو شهادة الا اذا أقر بخلق القرآن(٦) •

ولا نعرف انه قامت فى مصر معارضة شديدة فى بداية الأمر كما حدث فى العراق ، مركز الخلافة • ولم تتعرض مصر لما تعرضت له العراق من قتل وتعذيب واضطهاد • وربما يرجع ذلك الى بعد مصر عن الخلافة ، أو لعدم احكام الخلافة سيطرتها على مصر بعدما حدث فيها من محاولات للخروج عن حكم الخلافة •

وربما لم يحاول المصريون الخوض فى هذه المسألة ،شأنهم فى ذلك شأن موقفهم ازاء الفرق الاسلامية الأخرى مثل الخوارج والشيعة والقدرية والجبرية والمرجئة ، اذ لم يبتعد المصريون عامة عن خط

---

(٦) انظر • الطبرى • تاريخ الامم والملوك : ج١٠ : ص ٢٧٩ ، والكندى : الولاة والقضاة : ص ١٩٣ و ٤٤٥ ـ ٤٤٧ ، وابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٢ ص ٢١٨ ـ ٢١٩ ، واحمد أمين . ضحى الاسلام ج٣ ص ١٥٦ ـ ١٨٢ (طبعة القاهرة ١٩٣٦ م) •

السلف وعن السنة ، ولم يعتنق المصريون عقائد أى فرقة من الفرق التى ظهرت فى ديار الاسلام طولا وعرضا · وقد أحضر كيدر ، قاضى مصر هارون بن عبد الله ، ودعاه الى القول بخلق القرآن ، فأجاب اليه كما أجاب أكثر الفقهاء الا من هرب منهم · ولعل المصريين لم يقوموا بمعارضة شديدة ضد المحنة طالما لم يؤخذوا فيها بالشدة · ويذكر الكندى أن أمر المحنة كان سهلا فى أيام المعتصم ، فيقول : « فلم يكن الناس يؤخذون بها شاءوا أو أبوا حتى مات المعتصم وقام الواثق سنة سبع وعشرين ومائتين فأمر أن يؤخذ الناس بها وورد كتابه على محمد بن أبى الليث (قاضى مصر) بذلك وكأنها نار أضرمت »(٧) ·

وظاهر أن الواثق اشتد فى مسألة المحنة فأمر بامتحان الناس جميعا حتى لم يبق أحد من فقيه أو محدث أو مؤذن أو معلم حتى أخذ بالمحنة ، وعندئذ عارض كثير من المصريين المحنة وثاروا ضدها فملئت السجون منهم كما هرب الكثيرون ·

وقد أمر محمد بن أبى الليث الخوارزمى قاضى مصر ، أن يكتب على المســـاجد لا اله الا الله رب القرآن المخلوق ، كما منع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى من الجلوس فى المسجد وأمرهم أن لا يقربوه · وقد اختص أصحاب مالك والشافعى بالمنع لأنه لم يكن لمذاهب أهل السنة الأخرى أتباع فى مصر حينذاك ·

وكان ممن هرب بسبب المحنة أحد علماء مصر المشهورين وهو ذو النون بن ابراهيم الاخميمى ، لكنه وقع فى يد القاضى ابن أبى الليث فأقر بخلق القرآن · وممن امتنع عن القول بخلق القرآن أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى المصرى صاحب الامام الشافعى ،

(٧) انظر : الكندى : الولاة والقضاة : ص ٤٥١ ·

فقد حمل الى بغداد وظل ممتنعا عن القول بخلق القرآن ولم يزل محبوسا هناك الى أن توفى سنة ٢٣١ هـ (٨٤٥ م) ٠

وعلى أية حال فان المصريين لم يقاسوا بسبب المحنة الا فى عهد الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ ـ ٨٤٧ م) على مدى خمس سنوات ٠ وقد ذكرنا أن المتوكل أبطل المحنة والقول بخلق القرآن بعد ولايته بسنتين ، أى فى سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) ٠ وفرح الناس بذلك فرحا عظيما ، وعظموا المتوكل حتى قيل : « الخلفاء ثلاثة ، أبو بكر الصديق يوم الردة ، وعمر بن عبد العزيز فى رد مظالم بنى أمية ، والمتوكل فى احياء السنة »(٨) ٠

---

(٨) انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج٢ ص ٢٧٥ ، والسيوطى تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٠ (طبعة القاهرة ١٣٥١ هـ) ٠



١٠ ـ تعريب مصر وانتشار الاسلام فيها فى عصر الولاة

كان تمصير العرب وتعريب مصر ، وانتشار الاسلام فيها ، من أهم الظواهر التاريخية فى مصر فى عصر الولاة بل وفى تاريخ مصر فى العصور الوسطى عامة .

والمعروف أن العرب فى مصر وفى غيرها من البلاد كانوا يخيرون أهل البلاد المتفوحة بين ثلاثة أمور : الاسلام أو الجزية أو الحرب . ويقول المؤرخ الانجليزى المسيحى بيكر ان كافة الوثائق المعاصرة تثبت أن العرب تسامحوا مع أهالى البلاد المفتوحة ولم يفرضوا عليهم ديانتهم ، واذا كانت هناك ظاهرة انتشرت بقوة السلاح فهذه الظاهرة هى سيطرة العرب السياسية وليست عقيدة العرب الدينية(١) .

وكتب أحد الأساقفة النساطرة بعد بداية الفتوحات العربية بنحو خمسة عشر عاما يقول :

---

(١) انظر : Cambridge mediaeval History. Vol. II. P. 330.

« ان العرب الذين وهبهم الله السيادة فى أيامنا قد أصبحوا سادة لنا ولكنهم لا يحاربون الدين المسيحى قط بل يحافظون على ديننا ويحترمون الأساقفة والقديسين ويقدمون هدايا لكنائسنا وأديرتنا »(٢) ·

وفيما يتعلق بمصر فقد ذكرنا بايجاز تعرض الأقباط للاضطهادات الكثيرة قبل اعتراف الامبراطورية الرومانية بالمسيحية وبعد اعترافها بها ، بل وبعد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمى الوحيد فى جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية · وقد فر كثير من الأقباط الى الصحراء هربا من التعذيب والاضطهاد ، ومن بينهم البطرك بنيامين الذى فر من وجه المقوقس قبيل الفتح العربى وظل مختبئا نحوا من ثلاث عشرة سنة الى أن أعاده عمرو بن العاص معززا مكرما الى البطركية فى الاسكندرية ·

وقد دخل الاسلام فى مصر لأول مرة بدخول العرب فاتحين ، ويلاحظ حنا النقيوسى أنه منذ دخول العرب مصر وقبل أن يتم فتحها نهائيا أسلم كثير من المصريين ومن هؤلاء يوحنا أحد رهبان دير سيناء(٣) · ومر بنا أن العرب فى مصر كانوا يحاربون البيزنطيين وليس المصريين · كذلك مر بنا أن العرب منذ أن وضعوا أقدامهم فى مصر ، كانوا يتوددون الى المصريين ، وبدأت تلك السياسة منذ أن أعادوا البطرك بنيامين الى البطركية فى الاسكندرية · كذلك مر بنا أن العرب تركوا الوظائف ومقاليد الأمور فى يد أهل مصر من الأقباط محتفظين لأنفسهم بالسيادة العليا وتنفيذ أحكام الدين ·

---

(٢) انظر : Wiet (Gaston) : L'Egypte Musulmane (Précis de l'histoire d'Egypte T. II.) P 131.

(٣) انظر : حنا النقيوسى : تاريخ : ص ٥٨٥ ·

وذكر ساويرس أسقف الأشمونين أنه بعد أن تم للبطرك بنيامين لم شمل قومه من القبط اتجه الى بناء ما كان الامبراطور هرقل قد هدمه من الكنائس والأديرة(٤) ٠

كذلك أخذ الأقباط فى تجديد بناء الكنائس والأديرة التى كانت قد هدمت أثناء حكم البيزنطيين وأيام الامبراطور هرقل ٠

ويذكر ابن العميد(٥) والمقريزى(٦) أن البطـــرك أغاثون بنى كنيســـة القديس مرقص بالاســكندرية فى ولاية عمرو بن العاص الثانية ٠

أما الفسطاط ـ عاصمة مصر العربية الاسلامية ـ فقد بنيت أول كنيسة فيها فى أثناء ولاية مسلمة بن مخلد عليها بين ســـنتى ٤٧ ـ ٦٢ هـ / ٦٦٧ ـ ٦٨١ م (٧) ٠ ولما يمض على الفتح العربى وتخطيط مدينة الفسطاط نحو ربع قرن ٠

وفى ولاية عبد العزيز بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ / ٦٨٥ ـ ٧٠٥ م) بنيت كنيسة مار جرجس وكنيسة « أبو قير » فى داخل قصر الشمع (حصن بابليون) ٠ كذلك جدد البطرك اسحاق كنيسة القديس مرقص ، كما بنى كنيسة فى حلوان(٨) ٠

---

(٤) ساويرس بن المقفع سير الآباء البطاركة ٠ ص ٢٢٣
(Patr. Orient T.I.)

(٥) ابن العميد (جرجس المكين) : تاريخ المسلمين ٠ ص ٥٠ ٠

(٦) المقريزى . الخطط : ج٢ ص ٤٩٢ ٠

(٧) ابن عبد الحكم ٠ فتوح مصر ص ١٣٢ (طبعـــة تورى) ، والسيوطى : حسن المحاضرة ج٢ ص ٥ ٠

(٨) انظر : سعيد بن بطريق (المعروف باسم اوتيخا) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق : ج٢ : ص ٤١ (طبعة بيروت ١٩٠٥ و ١٩٠٩م) ٠

وبنيت كنائس أخرى فى حلوان ، وفى مختلف أنحاء مصر فى عصر الولاة أو حددت ورممت ، وكذلك كان الحال بالنسبة للأديرة ٠

وكانت سياسة التسامح الاسلامى هى القاعدة فى عصر الولاة بل وفى تاريخ مصر الاسلامية عامة ٠

وقد ظل الأقباط يحتفلون بأعيادهم الدينية التى يعددها لنا المقريزى فى كتاب الخطط(٩) ٠ واقتصر أمراء مصر فى عصر الولاة على مشاركة المصريين فى الاحتفال بوفاء النيل كل عام ٠

ونلاحظ أيضا أن الفتح العربى ساعد فى البداية على احياء اللغة القبطية على حساب اللغة اليونانية التى كانت اللغة الرسمية منذ عهد البطالسة ٠ فالدروس الدينية التى كانت تقرأ باليونانية وتشرح باللغة القبطية أصبحت لا تقرأ الا باللغة القبطية ٠ كذلك عادت أسماء البلاد والأقاليم المختلفة فى مصر الى أسمائها المصرية بعد أن كانت قد غلبت عليها الأسماء اليونانية(١٠) ٠

وهكذا تخلص الأقباط من مظالم البيزنطيين ، وتمتعوا بعد الفتح العربى بحريتهم الدينية والثقافية والادارية ، كما انزاحت عن كاهلهم وطأة الأعباء المالية ٠ ومع ذلك فاننا نلاحظ سرعة انتشار الدين الاسلامى بين الأقباط ، فنرى حيان بن سريج ، متولى خراج مصر ، يكتب الى الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ــ ١٠١ هـ / ٧١٧ ــ ٧٢٠ م) :

« أما بعد فان الاسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث ابن ثابتة عشرين ألف دينار وتممت عطاء أهل الديوان ٠٠ » فكان

---

(٩) انظر : المقريزى : الخطط : ج١ ص ٢٦٤ ــ ٢٦٩ ٠

(١٠) انظر : دكتورة سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ١٩٠ ــ ١٩١ ٠

جواب عمر : « ٠٠ فضع الجزية عمن أسلم ٠٠ فان الله انما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا !! ولعمرى لعمر أحقر من ألا يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه »(١١) ٠

ونحن لا نستطيع القول بأن سرعة انتشار الاسلام فى مصر كان راجعا الى اضطهاد أو ضغط يقوم على أساس عدم التسامح من جانب العرب ، أو ارغام على اعتناق الاسلام ٠ ولسنا نستطيع أن نخرج بغير هذه النتيجة اذا قرأنا ساويرس أسقف الأشمونين ، وهو الذى لا يشك فى كتاباته فى هذا الصدد ، والذى لم يكن ليغفل تفصيل الكم على أى اضطهاد يصيب المسيحيين فى مصر(١٢) ٠

والحق أن انتشار الاسلام انتشارا واسعا بعد الفتوحات العربية وخاصة فى بلاد ترتبط بأصول المسيحية ونشأتها مثل الشام ومصر والعراق ، جعل بعض الجهلاء أو المتعصبين ، يؤكدون أن الاســـلام لم ينتشــر فى هذه البلاد الا بحد السيف ٠ لكن الأصول والمصادر كلها تثبت أن العرب تسامحوا مع أهالى البلاد المفتوحة ولم يفرضوا عليهم الاسلام وان كانوا قد فرضوا سيطرتهم السياسية ٠ ويؤكد قولنا هذا ان الذين أسلموا فى البلاد التى لم يفتحها العرب أكثر بكثير من هؤلاء الذين أسلموا فى البلاد التى فتحها العرب ، فضلا عن أن الاسلام انتشر فى بقاع كثيرة من المعمورة لم تصلها جيوش العرب ٠

---

(١١) انظر : ابن عبد الحكم . فتوح مصر ٠ ص ١٥٦ (طبعة تورى) ، والمقريزى . الخطط ٠ ج١ ص ٧٨ ٠

(١٢) انظر : دكتورة سيدة اسماعيل كاشف : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع وأهميته لدراسة التاريخ القومى : بحث نشر فى مجلة الجمعية التاريخية المصرية ٠ المجلدان التاسع والعاشر ١٩٦٠ ــ ١٩٦٢ م ٠

ونحن لا نحتاج كذلك الى أن نناقش الرأى القائل بأن اقباط مصر دخلوا فى الاسلام تهربا من دفع الجزية • فالجزية كانت كما ذكرنا أشبه بضـــريبة حماية وأمن ودفاع فى نظير حماية العرب للأقباط ، وفى الوقت نفسه كان الذمى لا يدفع زكاة أو صدقة •

وقد مر بنا فى الكلام عن النظام المالى أن الجزية طوال عصر الولاة وفى مصر الاســـلامية عامة كانت ضريبة بسيطة تؤخذ من القادرين من أهل الذمة ويعفى منها النساء والشيوخ والأطفال وغير القادرين • بل ان العرب كانوا يمنحون غير القادرين من أهل الذمة صدقات من بيت مال المسلمين •

ولا يعقل أن أقباط مصر الذين رفضوا أن يتخلوا عن مذهبهم الدينى وتحملوا اضطهادات الرومان والبيزنطيين فى صبر وشجاعة ، لا يعقل أن نصدق أو حتى نتصور قبولهم التخلى عن دينهم لمجرد التهرب من ضريبة سنوية بسيطة يدفعها القادرون من الرجال •

ولا ريب فى أن فريقا من القبط أقبلوا على اعتنـــاق الدين الاسلامى عن ايمان واقتناع • واعتنقه فريق آخر نتيجة معاشرة المسلمين ووقوفهم على سماحة الدين الاسلامى وبساطته • ولعل فريقا كان قد مل الخلافات الدينية التى كانت تقسم العالم المسيحى فى ذلك الوقت ، فضلا عن الاضطهاد الذى كان يتعرض له أصحاب المذهب الدينى الذى لا تؤيده الحكومة المسيحية السائدة ، فحين جاء العرب حاملين معهم دينهم الاسلامى وســـموهم الخلقى والروحى وبساطتهم وتســـامحهم ، وجد هذا الفريق فيهم وفى الدين الذى يعتنقونه المثلى الأعالى للحياة المتكاملة •

وقد تبع انتشار الاسلام فى مصر انتشار اللغة العربية فيها أيضا فأصبحت لغة الكتابة ولغة التخاطب • على أن انتشار اللغة العربية بمصر كان أبطأ من انتشار الدين الاسلامى فيها •

والمعروف أنه فى عهد عبد الملك بن مروان بدأت حركة « التنظيم والتعديل » على حد تعبير المؤرخين العرب · فعمد عبد الملك الى صبغ الدولة بصبغة عربية والى الاعتماد على الموظفين من العرب أى الذين يتقنون العربية من أهل البلاد المفتوحة · وكما أمر عبد الملك فى سنة ٧٦ هـ (٦٩٥ م) بضرب نقود عربية بدلا من النقود الفارسية والبيزنطية التى كان يتداولها الناس حتى زمنه ، نراه يتجه الى تعريب لغة الادارة والحسابات · وكان هذا تأكيدا لسيادة الدولة العربية وسيادة اللغة العربية · وكانت عملية التعريب عملية طويلة جبارة منظمة بدأها عبد الملك وأدت الى نقل كثير من المصطلحات الفارسية واليونانية والقبطية الى العربية · وأصبحت الدولة العربية من الناحية السياسية عربية بمعنى أكمل فقد ساعد التعريب على شيوع اللغة العربية وانتشارها بين الموالى ، فأصبحت اللغة العربية لغة التدوين ، كذلك أصبحت اللغة العربية لغة الادارة فضلا عن أنها صارت لغة الثقافة بالاضافة الى أنها لغة السياسة والدين(١٣) ·

وفى مصر نرى الوليد بن عبد الملك يأمر واليه على مصر فى سنة ٨٧ هـ (٧٠٦ م) بتدوين الدواوين باللغة العربية بعد أن كانت تكتب بالقبطية · الا أن وثائق البردى تدل على أن الحكومة كانت تسـتخدم العربية واليونانية الى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ، بينما كانت السلطات المحلية فى الريف تكتب كثيرا بالقبطية ، بل اننا وجدنا ايصالا بدفع الضرائب يرجع الى القرن الثالث الهجرى ، تاريخه سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) عليه كتابة قبطية وحين قدم الخليفة المأمون الى مصر وحين أصبح المسلمون أغلبية

---

(١٣) انظر · الجهشيارى · الوزراء والكتاب ص ٣٨ و ٤٠ (القاهرة ١٩٢٨م) . والدكتور عبد العزيز الدورى · النظم الاسلامية ج١ ص ١٩٨ (طبعة بغداد ١٩٥٠م) . ودكتورة سيدة كاشف · الوليد بن عبد الملك ص ١٨٤ ـ ١٨٦ (طبعة القاهرة ١٩٦٣ م) ·

فى مصر منذ أوائل القرن الثالث الهجرى (أوائل التاسع الميلادى) كانت اللغة القبطية لاتزال لغة التخاطب بين عامة المصريين ، وقد ذكر المقريزى(١٤) فى كلامه عن المأمون حين قدم الى مصر « وكان لا يمشى أبدا الا والتراجمة بين يديه من كل جنس » ٠

وقد نقول ان الذين اعتنقوا الدين الاسلامى تعلموا اللغة العربية لغة القرآن الكريم ٠ وقد نذكر ان المصريين اضطروا الى تعلم اللغة العربية لأنها أصبحت اللغة الرسمية للدواوين فى مصر منذ سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ ــ ٧٠٦ م) ٠ وقد نقول ان اتصال العرب في الفسطاط والجيزة وحلوان والاسكندرية بالأهلين ، واتصـــال كبار الموظفين العرب وأعوانهم فى الريف بأهله كان له أثر فى التعريب ٠ لكن أهم عوامل تعريب مصر كان نزول القبائل العربية فى الريف المصرى واستقرارها على جانبى الشريط الخصب بوادى النيل وفى الدلتا . مما أدى الى اختلاطهم بالقبط اختلاطا كبيرا ، ومن ثم الى انتشار اللغة العربية فى مصر والى تعريب البلاد ٠

وكان استيلاء العرب على مصر فاتحة لهجرات عربية متتالية دامت زمنا طويلا ٠ ولم يكن عدد الجند الذين أتوا مع عمرو بن العاص لفتح مصر ، كبيرا كما مر بنا ٠ وقد استقر هؤلاء ، ومعظمهم من عرب اليمنية ، فى الفسطاط أو الجيزة أو الاسكندرية ، وحرم عليهم عمر بن الخطاب الاشتغال بالزراعة أو امتلاك الأرض ولم يعنوا بغير السياسة والحكم والحرب ٠

ولذا لم يختلط العرب بالمصريين فى البداية ، ولم يكن لهم تأثير يذكر على القبط سواء من ناحية التعريب أو انتشار الاسلام فى مصـــر ٠

---

(١٤) انظر . المقريزى الخطط ٠ ج١ ص ٨١ ٠

وكان أغلب الولاة الذين حكموا مصر فى عصر الولاة كانوا يصحبون معهم جيوشا عربية حتى نهاية العهد الأموى ، أو عربية ومن أجناس أخرى غير العرب كالخراسانيين والأتراك فى العصر العباسى ٠

وفى خلافة هشام بن عبد الملك حدث تطور فى تاريخ القبائل العربية فى مصر ، ذلك أن عبيد الله بن الحبحاب عامل خراج مصر وفد على الخليفة فى سنة ١٠٩ هـ (٧٢٧ م) وسأله أن ينقل الى مصر بيوتا من قيس ، أو عرب الشمال ، وكانوا أقلية بمصر ، فأذن له الخليفة بذلك ٠ وجاء ابن الحبحاب بعدد كبير منهم بلغ حوالى ثلاثة آلاف ، وأنزلهم فى الحوف الشرقى ، فى شرقى الدلتا ، وأمرهم بالاشتغال بالزراعة ٠ ولم يمت الخليفة هشام سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣ م) الا وفى بلبيس فى شرقى الدلتا ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس(١٥) ٠ ولذا يقول المقريزى(١٦) :

« ولم ينتشر الاسلام فى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب مولى سلول ، قيسا بالحوف الشرقى ، فلما كان بالمائة الثانية من سنى الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها » ٠

وأخذت القبائل العربية الوافدة على مصر تستقر فى القرى المصرية ٠ ويذكر المؤرخون أنه فى زمن مروان بن محمد عندما ولى الحوثرة بن سهيل الباهلى مصر (١٢٨ ـ ١٣١ هـ / ٧٤٥ ـ ٧٤٨ م)

---

(١٥) انظر : الكندى : الولاة والقضاة : ص ٧٦ ـ ٧٧ ، والمقريزى : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب : ص ٥٠ (طبعة القاهرة ١٣٥٦ هـ) ٠

(١٦) انظر : المقريزى : الخطط : ج٢ ص ٢٦١ ٠

مالت اليه بطون قيس فمات مروان وبها ثلاثة آلاف أسرة منهم ، ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية كثير من ذوى قرباهم(١٧) .

وأخذت القبائل العربية تفد الى مصر كالسيل بلا انقطاع ، وأخذت تصاهر أهل البلاد . وممن قدم الى مصر أيضا فى ذلك العهد ، أولاد الكنز ، وأصلهم من ربيعة بن معد بن عدنان ، أى من عرب الشمال ، وكانوا ينزلون اليمامة فى شبه الجزيرة العربية . وقد قدم كثير منهم الى مصر فى خلافة المتوكل على الله العباسى بعد سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٤ م) ، وانتشروا فى أنحائها ، ونزلت طائفة منهم بأعالى الصعيد .

وهكذا نرى أن تعريب مصر ساعد على انتشار الاسلام ، كما تبع انتشار الاسلام فى مصر انتشار اللغة العربية فيها أيضا .

ويؤكد المقريزى على اختلاط القبط بالعرب اختلاطا قويا حين يحدثنا عن جباية خراج مصر ، فيقول : « وكان من خبر أراضى مصر بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها ، واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا ، وابقياد جمهور القبط الى اظهار الاسلام ، واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهم المسلمات .. »(١٨) .

ولاريب فى أن انتشار اللغة العربية فى مصر ميزة للعرب على غيرهم من الفاتحين ، فان الشعوب المختلفةالتى توالت على مصر قبل العرب وبعد العرب لم تستطع القضاء على لغة المصريين . وهذه ظاهرة تستحق امعان النظر ، لأن تنازل شـــعب عريق فى المدنية

---

(١٧)انظر . الكندى : الولاة والقضاة ص ٧٧ ، والمقريزى : البيان والاعراب : ص ٥١ .

(١٨) انظر المقريزى الخطط : ج١ ص ٨٢ .

كالشعب المصرى عن لغته ، واتخاذه لغة شعب آخر أمر غير عادى • فقد كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربى واللغة التركية فى العهد العثمانى لغة البلاد الرسمية ولكن هذا لم يجعلهما لغة الشعب المصرى • فكان اليونانيون ينزلون المدن ويصبغونها بحضارتهم ولكن نفوذهم الثقافى لم يمتد الى الريف الا قليلا ، فلم تنتشر اللغة اليونانية الا فى بيئات خاصة فى مصر وعاش اليونانيون فى مصر كأنهم فى جزر يونانية فى وسط المحيط المصرى الواسع • كذلك لم ينجح الأتراك فى جعل لغتهم لغة للمصريين بالرغم من أن الحكم التركى دام عدة قرون • ولكن حدث فى العصر العربى تفاعل واختلاط بينهم وبين المصريين ، وبدون هذا التفاعل والاختلاط لا يمكننا أن نفسر كيف ترك الفلاح المصرى القديم لغته رغم تمسكه بالقديم وحرصه عليه •

وحين أرسل الخليفة المعتصم بالله العباسى الى كيدر والى مصر فى سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) يأمره باسقاط العرب من الديوان وقطع أعطياتهم ، فقد العرب فى مصر بذلك آخر امتياز لهم على أهل البلاد اللهم الا من الناحية اللغوية والدينية • ويظهر أن الاختلاط فى ذلك الوقت كان قد عظم بين العرب وبين أهل البلاد بدليل أن قرار الخليفة المعتصم بصرفهم عن ديوان الجند لم يكن له رد فعل عنيف(١٩) •

وطبيعى أن كلامنا عن قبط وعرب ، أو مصريين وعرب ، لا ينصرف الا فى الفترة السابقة على خلافة المعتصم العباسى فى القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى (٢١٧ ـ ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) ، أما بعد ذلك فقد تم الاندماج بين العرب والمصريين ، وأصبح الكل مصريا عربيا اذ أن المصريين تعربوا والعرب تمصروا •

---

(١٩) انظر الكندى . الولاة والقضاة : ص ١٩٣ ـ ١٩٤ ، والمقريزى الخطط ج١ ص ٩٤ . ودكتورة سيدة كاشف • مصر فى فجر الاسلام ص ٢٥٧ •

ومما تجدر ملاحظته أن العرب فى مصر احتفظوا بالانتساب لقبائلهم حوالى قرنين من الزمان ، فاننا نرى فى معظم شواهد القبور التى كشفت فى مقابر أسوان والفسطاط أن اسم الميت يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة ، ولكن فى خلال القرن الثالث الهجرى نجد أن أسماء الأشخاص تذكر مع نسبتهم الى البلاد التى نشأوا فيها أو قدمت أسراتهم منها فيكتب مثلا : فلان الكوفى أو المصرى ٠٠ الخ ٠٠ وأحيانا نجد الأسماء دون أى نسبة ٠

ولم يأت القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) الا واللغة العربية أصبحت لغة الكتابة السائدة بين المصريين عامة ومن بينهم رجال الدين المسيحيين ، فنرى سعيد بن بطريق ، البطرك الملكانى فى مصر والمعروف باسم أوتيخا ، يكتب كتابه فى التاريخ باللغة العربية وهو كتاب « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » ٠ ونرى ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين يكتب كتابه « سير الآباء البطاركة » باللغة العربية فى وقت أصبح فيه غالبية المسيحيين فى مصر يجهلون اللغة القبطية التى كانت اللغة القومية للمصريين حين فتح العرب مصر ، وكذلك اللغة اليونانية التى كانت اللغة الرسمية فى مصر منذ عهد البطالسة ، والتى كتب بها الانجيل ، الشهيد مارى مرقس الانجيلى الحوارى أول بطرك للاسكندرية ٠ ويذكر ساويرس انه لاقى مشقة كبيرة فى ترجمة الوثائق القبطية واليونانية الى العربية ، وانه استعان ببعض المسيحيين ممن كان لهم دراية باللسان القبطى أو اليونانى(٢٠) ٠

---

(٢٠) انظر : دكتورة سيدة كاشف : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع وأهميته لدراسة التاريخ القومى ٠ ص ٣ (بحث نشر فى مجلة الجمعية التاريخية المصرية ـ القاهرة ١٩٦٠ ـ ١٩٦٢ م) ٠

١١ ـ الحركة العلمية فى مصر فى عصر الولاة

لم يقف الأمر فى مصر فى عصرالولاة عند انتشار الدين الاسلامى واللغة العربية ، بل اننا نجد مصر فى أواخر هذا العصر تشارك فى الحياة الثقافية العلمية العربية مشاركة تبدو واضحة منذ آخر القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) • وكان جامع عمرو بن العاص هو قلب هذه الحركة النابض • ولم يقتصر النشاط العلمى على عاصمة مصر بل ظهرت مراكز علمية أخرى فى أنحاء مصر مثل الاسكندرية وغيرها من بلدان الدلتا والصعيد •

وقد تركزت الحركات العلمية فى كافة الأمصار الاسلامية فى صدر الاسلام فى العلوم الدينية واللغوية ، ومالبث المسلمون أن ضربوا بسهم وافر فى كافة العلوم والفنون • ولم تتخلف مصر بعد فتح العرب عن الأمصار الاسلامية الأخرى بل سارت فى الركب وسرعان ما تبوأت مركزا علميا ثقافيا ممتازا فى الدولة الاسلامية •

والمعروف أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا فى كافة البلدان التى فتحتها الجيوش الاسلامية ، بل انضم كثير منهم

الى الجيوش الفاتحة . وحضر فتح مصر كثير من الصحابة ، كان منهم غير عمرو بن العاص قائد الجيش الفاتح ، ابنه عبد الله بن عمرو ابن العاص ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وخارجة بن حذافة ، ومسلمة بن مخلد ، وغيرهم كثيرون قدرهم البعض بأكثر من مائة وأربعين صحابيا .

وأخذ الصحابة يفدون الى مصر بعد الفتح . وكان الصحابة العلماء يقومون بمهمة تعليم الشعب المصرى أصول الدين الاسلامى والدراسات الدينية المختلفة من قرآن وتفسير وحديث وفقه . وهؤلاء الصحابة العلماء كانوا أساس مدرسة مصر الدينية كما كان غيرهم من الصحابة أساس المدارس الدينية فى مختلف الأمصار . على أن أشهر من علم بمصر من الصحابة بعد الفتح هو عبد الله بن عمرو بن العاص .

ويعتبر عبد الله بن عمرو بن العاص مؤسس مدرسة مصر الدينية والمعلم الأول فيها . وكان الخلفاء يوفدون علماء الدين الى مصر ليفقهوا أهلها وليكونوا مرجعا لهم فى العلوم الدينية وفى أحكام الدين . فنرى عمر بن الخطاب يبعث الى أهل مصر حبان بن أبى جبلة ليفقههم ، ويبعث الخليفة عمر بن عبد العزيز ، نافعا مولى بن عمر فقيه أهل المدينة الى مصر ليعلمهم السنن(١) .

---

(١) انظر : ابن عبد الحكم فتوح مصر : ص ٩٢ ــ ٩٣ و ٢٥٤ (طبعة تورى) . وابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ج٧ ص ١٨٩ ، وابن الاثير . أسد الغابة فى معرفة الصحابة . ج٣ ص ٢٣٣ (طبعة القاهرة ١٢٨٥ ــ ١٢٨٦ هـ) ، وابن حجر العسقلانى الاصابة فى تمييز الصحابة ج٤ ص ١١٢ . والسيوطى : حسن المحاضرة : ج١ ص ٧٣ ــ ١٠٠ .

وقد تتلمذ على أيدى الصحابة بمصر التابعون الآخذون عنهم على أننا نلاحظ أن أكثر حملة العلم فى عصر الصحابة كانوا من العرب لأن أكثر الصحابة عرب ، فلما قام علماء الصحابة بالتعليم فى الأمصار المفتوحة اشترك العرب وغيرهم فى تلقى العلم عنهم ، حتى اذا كان عصر التابعين وتابعيهم انعكست الآية فأصبح بعض حملة العلم عربا وأكثرهم من الموالى(٢) وأبنائهم ، أى من أهل البلاد المفتوحة · ويدلنا على ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز جعل الفتيا بمصر الى ثلاثة رجال : رجلان من الموالى ورجل من العرب ، فأما العربى فجعفر بن ربيعة ، وأما المولیان فيزيد بن أبى حبيب وعبد الله بن أبى جعفر ، واظهر بعض العرب انكارهم ذلك فقال عمر ابن عبد العزيز : ما ذنبى ان كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لا تسمون !!

واشتهر من مصر كثير من العلماء والفقهاء والأئمة المجتهدين ، نذكر منهم الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى ولد بمصر سنة احدى وستين وقيل ثلاث وستين (٦٨٠ م أو ٦٨٢ م) ، وأبوه عبد العزيز ابن مروان أمير عليها « وقد تفقه حتى بلغ رتبة الاجتهاد وله مناقب كثيرة »(٣) ·

وممن اشتهر من علماء مصر من المصريين منذ فجر الاسلام فيها ، يزيد بن حبيب واسمه سويد الأزدى أبو رجاء المصـــرى ، كان فقيه مصر وشيخها ومفتيها ، ولد سنة ٥٢ هـ (٦٧٢ م) بمصر وهو أحد الثلاثة الذين فوض اليهم عمر بن عبد العزيز أمر الفتيا

---

(٢) المولى فى اللغة معناها : الجار أو الحليف أو المعتق · وهى كلمة تطلق على السيد وعلى العبد · وقد أطلق لفظ الموالى على اهالى البـلاد التى فتحها العرب ·

(٣) انظر : السيوطى : حسن المحاضرة : ج١ ص ١١٩ ·

بمصر وقد أخذ عنه من العلماء المصريين عبد الله بن لهيعة ، والليث ابن سعد ، وآخرون • وتوفى يزيد بن أبى حبيب بمصر فى سنة ١٢٨ هـ (٧٤٥ م)(٤) •

ومن أبرز علماء مصر ومحدثيها وفقائها ، أبو عبد الرحمن بن لهيعة المصرى ، ولد سنة ٩٧ هـ وقيل سنة ٩٦ هـ ، وولى قضاء مصر عشر سنين (١٥٥ ــ ١٦٤ هـ) • وترك لنا ابن لهيعة مجموعة مدونة من الحديث تعتبر أقدم مجموعة للآن ، وهى الآن ضمن مجموعة أوراق البردى بمدينة هيدلبرج فى ألمانيا • وشاهد قبر عبد الله بن لهيعة محفوظ فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة وتاريخ هذا الشاهد سنة ١٧٤ هـ (٧٩٠ م) •

ومن أشهر فقهاء مصر وأئمتها أيضا فى ذلك العصر ، الليث ابن سعد المصرى • ولد فى مصر سنة ٩٤ هـ • وذكر المؤرخون أنه كان كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها فى عصره بحيث أن القاضى والنائب كانا من تحت أمره ومشـــورته وكان الامام الشافعى يتأسف على فوات لقياه • وقد كان الامام مالك يكتب اليه من المدينة • وتذكر الروايات أن الشافعى قال : « كان الليث أفقه من مالك الا أنه ضيعه أصحابه » • وكان الليث يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر حسن المذاكرة • وتوفى الليث بمصر فى سنة ١٧٥ هـ (٧٩١ م)(٥) •

---

(٤) انظر • المقريزى : الخطط : ج٢ ص ٣٣٢ ، وابو المحاسن • النجوم الزاهرة : ج١ ص ١٤٣ و ٣٠٨ ، والسيوطى • حسن المحاضرة ج١ ص ١٩٩ ــ ١٢٠ •

(٥) انظر : ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٥٥٤ ــ ٥٥٥ (طبعة القاهرة ١٢٩٩هـ) والمقريزى : الخطط ج٢ ص ٣٢٢ ، وأبو المحاسن : ج١ ٨٢ ،والسيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ١٢٠ ــ ١٢١ •

وقد شعر كثير من التابعين ومن أتى بعدهم فى الأمصـــار المختلفة ، بضرورة الانتقال من بلد الى آخر للدرس وتحصيل العلم ، فالصحابة العلماء الذين أخذ عنهم أهل الأمصار المختلفة كان بعضهم يزيد على الآخرين فى أشياء وينقص فى أشياء أخرى • فلما فتحت البلدان وتفرق الصحابة فى الأقاليم ، أصبح كل اقليم متأثرا بالصحابة الذين علموا فيه • ولما جاء عهد التابعين وتابعيهم شعر كثير منهم بالحاجة الى التفقه على علماء الأقاليم الاسلامية الأخرى فكثرت الرحلة الى الأمصار المختلفة • وتقابل العلماء فى مختلف أنحاء ديار الاسلام وازدهرت مراكز عديدة للعلم يفد اليها الطلاب والعلماء من مختلف الأقاليم الاسلامية • ويقال ان أول من رحل من أهل مصر الى العراق فى طلب الحديث هو أبو سعيد عثمان بن عتيق مولى غافق الذى توفى سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م)(٦) •

والمعروف أن أصحاب الكتب الستة المعتمد فى علم الحديث وهم : البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة ، قد زاروا مصر فيما زاروه من الأقاليم الاسلامية حوالى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) واعتمدوا على رواية كثير من المصريين ، وكان أحدهم وهو النسائى صاحب « السنن » على صلة وثيقة بمصر ، فقد عاش فيها فترة طويلة من عمره •

وقد نشأت فى العصر العباسى مذاهب اندثر بعضها فى العصر العباسى نفسه وقدر لبعضها البقاء حتى يومنا هذا وهى المذاهب الأربعة عند أهل السنة • وبالرغم من أن مذهب الامام أبى حنيفة النعمان بن ثابت هو أقدم هذه المذاهب الا أن مذهب الامام مالك بن أنس الأصبحى هو الذى دخل مصر أولا فى عصر الولاة وانتشر بها

---

(٦) المقريزى : الخطط • ج٢ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣ ، واحمد أمين . فجر الاسلام • ج١ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ (طبعة القاهرة ١٩٢٨ م) •

اذ قدم كثير من أصحاب مالك في المدينة المنورة الى مصر • ولعل الصلة الوثيقة التى كانت بين مصر والحجاز منذ فتح العرب مصر هى التى أدت الى انتشار مذهب مالك • أما المذهب الحنفى الذى نشأ فى العراق فيظهر أن أحدا من أهل مصر لم يأخذ به فى عصر الولاة الا من كان من قضاتها الذين ولتهم الخلافة • ورغم ايثار الخلفاء العباسيين للمذهب الحنفى الا أن قضاة مصر فى العصر العباسى لم يكونوا كلهم ممن يتبعون المذهب الحنفى •• وهكذا بقى المذهب الحنفى محصورا فى نطاق ضيق ، وظل المصريون يتبعون فقه المذهب المالكى حتى قدم الامام محمد بن ادريس الشافعى القرشى الى مصر فى سنة ١٩٨ هـ (٨١٣ م) وصنف بها كتبه وكون بها مذهبه الجديد وتوفى بها فى سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) • واتبع مذهب الامام الشافعى كثير من المصريين ولم يمض قرن من الزمان حتى أصبح المذهب الشافعى منافسا للمذهب المالكى فى مصر •

وكان أول من قدم الى مصر بفقه وعلم مالك هو عثمان بن الحكم الجذامى ، وعبد الرحيم بن خالد بن يزيد ، وقد توفيا بمصر سنة ١٦٣ هـ (٧٧٩ م) • أما عبد الرحيم ابن خالد بن يزيد فقد توفى بمدينة الاسكندرية وروى عنه الليث بن سعد وابن وهب • واشتهر من فقهاء المالكية فى الاسكندرية طليب بن كامل اللخمى الذى كان من كبار أصحاب مالك ، عاش بالاسكندرية وروى عنه ابن القاسم وابن وهب ، وتفقه عنه ابن القاسم قبل رحلته الى مالك ومات طليب فى حياة الامام مالك بالاسكندرية سنة ١٧٣ م(٧) • كذلك عاشت أسرة المؤرخ المصرى أبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم فى الاسكندرية قبل أن يستقر المقام بها فى مدينة

---

(٧) السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ١٢١ •

الفسطاط . وكان عبد الحكم ـ الجد ـ معاصرا للامام مالك وتفقه على مذهب مالك فى الاسكندرية وتوفى بها فى سنة ١٧١ هـ واشتهر بأنه « والد بنى عبد الحكم من فقهاء مصر » .

وكان من أشهر فقهاء المالكية فى عصر الولاة ، أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم ، صحب مالكا عشرين سنة وانتفع به أصحاب مالك بعد موت مالك ، وعنه أخذ سحنون (من أشهر فقهاء أفريقية) وتوفى ابن القاسم بمصر فى سنة ١٩١ هـ(٨) .

ومن أشهر فقهاء المالكية بمصر فى عصر الولاة ومن أقدم علماء الحديث فيها ، عبد الله بن وهب بن مسلم المصرى المتوفى سنة ١٩٧ هـ (٨١٢ م) . رحل الى الحجاز والعراق فى طلب العلم . وسمع من الامام مالك قبل عبد الرحمن بن القاسم ببضع عشرة سنة . وكان الامام مالك يكتب اليه اذا كتب فى المسائل : « الى عبد الله بن وهب المفتى » ولم يكن يفعل هذا مع غيره .

وذكر ابن وهب وابن القاسم عند مالك فقال : ابن وهب عالم وابن القاسم فقيه(٩) . وابن وهب صاحب كتاب « الجامع فى الحديث » وقد عثر على نسخة بردية من هذا الكتاب ترجع الى القرن الثالث الهجرى .

ومن مشاهير الفقهاء المالكية ايضا ، أشهب بن عبد العزيز الذى توفى سنة ٢٠٤ هـ بعد موت الامام الشافعى بثمانية عشر يوما . وقد

---

(٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان : ج ١ ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧ (طبعة القاهرة ١٢٩٩ هـ) .

(٩) انظر : ابن خلكان . وفيات الأعيان : ج١ ص ٣١٢ ، والسيوطى حسن المحاضرة : ج١ ص ١٢١ .

أفضت رياسة الطائفة المالكية فى مصر بعد أشهب الى عبد الله بن عبد الحكم المصرى والد مؤرخ مصر عبد الرحمن بن عبد الحكم . وكان عبد الله بن عبد الحكم من العلماء ذوى الأموال والجاه ويقال انه دفع للامام الشافعى عند قدومه الى مصر ألف دينار من ماله ، وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألف دينار ومن رجلين آخرين ألف دينار . وحين توفى سنة ٢١٤ هـ دفن بجوار قبر الامام الشافعى . وقد أخذ عنه الفقه كثير من أهل مصر ، وممن أخذ عنه بنوه ، محمد ابن عبد الحكم ، وعبد الرحمن بن عبد الحكم صاحب كتاب « فتوح مصر وأخبارها » الذى توفى سنة ٢٥٧ هـ .

أما محمد بن عبد الله بن عبد الحكم فقد صحب الامام الشافعى عندما قدم مصر وتفقه عليه ورسخ فى مذهب الشافعى ، وكان كذلك فقيه مصر فى عصره على مذهب الامام مالك ، واليه كانت الرحلة من المغرب والأندلس فى العلم والفقه ، وله مصنفات كثيرة وتوفى سنة ٢٦٨ هـ (١٠) .

وكان من أبرز فقهاء الشـــافعية فى عصر الولاة أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى . ومر بنا أنه امتنع عن القول بخلق القرآن فحمل الى بغداد وسجن هناك ومات فى السجن سنة ٢٣١ هـ .

ومن أبرز الشافعية فى مصر فى عصر الولاة الربيع بن سليمان الجيزى ، مات بالجيزة فى سنة ٢٥٦ هـ .

وكان للمصريين شأن واضح فى علم القراءات ، أى العلم الذى يبحث فى أساليب قراءة القرآن وتهجى كلماته وعدد آياته ، واعجازه وبلاغته ، وقصصه وتاريخ التنزيل . ومن علماء مصر المشـــهورين

---

(١٠) انظر . ابن خلكان : وفيات الأعيان : ج١ ص ٣١١ ـ ٣١٢ ، والسيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ١٢٢ ـ ١٢٤ .

حينذاك ورش المقرىء ، واسمه عثمان بن سعيد المصرى ، الذى تحدر من أصل قبطى وكان مولى لآل الزبير بن العوام . أخذ القراءة عن نافع وهو الذى لقبه بورش لشدة بياضه ، والورش شىء يصنع من اللبن ، وقيل بل لقبه ورشان وهو طائر معروف . وقد انتهت اليه رياسة القراء بالديار المصرية ، وكان ماهرا فى اللغة العربية وتوفى سنة ١٩٧ هـ .

ومن أئمة القراءات فى مصر أيضا فى عصر الولاة أبو يعقوب الأزرق يوسف بن عمرو بن يسار المصرى . لزم ورشا مدة طويلة وأتقن عنه الأداء وخلفه فى الاقراء بالديار المصرية وتوفى أبو يعقوب حوالى سنة ٢٤٠ هـ .

وكان أهل مصر والمغرب لا يعرفون آنذاك فى علم القراءات غير ورش وأبى يعقوب .

وكما كانت مصر مهد الرهبنة والديرية فى المسيحية ، نجدها من أوائل البلاد الاسلامية التى تضع الكثير من التعاليم الصوفية . ويعد أبو الفيض ثوبان بن ابراهيم المصرى المعروف بذى النون من أقطاب الصوفية وواضع الكثير من التعاليم الصوفية كما نعرفها الآن ، واليه ينسب القول بأن الوجد وليس العلم هو السبيل الوحيد لمعرفة الله المعرفة الحقيقية ، ويقال انه أول شيخ أعلن اعتناقه الصوفية . وكان ذو النون أوحد وقته علما وورعا وأدبا وزهدا ، روى عن الامام مالك والليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة وغيرهم . وقد أنكر عليه أهل مصر ، وقالوا أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة، وسعى به بعض أعدائه لدى الخليفة المتوكل . فاستحضره الخليفة

من مصر فلما دخل عليه وعظه فبكى المتوكل ورده مكرما · وتوفى ذو النون فى الجيزة بمصر سنة ٢٤٥ هـ (٨٦٠ م)(١١) ·

وكان علماء مصـــر أســـاتذة لعلماء أفريقية والأندلس بوجه خاص · ومن علماء أفريقية الذين أخذوا عن المصريين البهلول بن راشد الذى أخذ عن الليث بن سعد وعن غيره من العلماء ·

وتوفى البهلول فى سنة ١٨٣ هـ (٧٩٩ م) وقيل فى سنة ١٨٢ هـ (٧٩٨ م) · كذلك صحب عيسى بن دينار ــ من علماء الاندلس ــ ابن القاسم وسمع منه وعول عليه ، ثم انصرف الى الأندلس فكان لا يتقدمه أحد من قرطبة فى الفتيا وكانت له فيها رياسة · وبعيسى بن دينار ، وبيحيى بن يحيى ،انتشرمذهب مالك فى الأندلس · وكانت وفاة عيسى بن دينار فى طليطلة فى سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م)(١٢) ·

وقد أنجبت مصر منذ أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الهجرى (الثامن والتاسع الميلادى) علماء دين وعلماء أدب ولغة وتاريخ لهم مكانتهم الرفيعة فى التراث العربى ·

ونسمع حين قدوم الامام الشافعى الى مصر ، وهو الامام فى العربية وعلوم الدين ، أنه التقى برجل من أهل مصر يعرف باسم « سرج الغول » · وكان هذا الرجل حجة فى اللغة ، وكان الامام الشافعى شديد الأنس به ، يقول لتلميذه الربيع بين حين وآخر :

---

(١١) انظر : ابن خلكان . وفيات الأعيان : ج١ ص ١٢٦ ، وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج٢ ص ٣٢٠ ــ ٣٢١ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج١ ص ١٢٨ ، والدكتور زكى محمد حسن . مصر والحضارة الاسلامية : ص ٣٦ (القاهرة ١٩٤٢ م) ·

(١٢) انظر : ابن فرحون : كتاب الديباج المذهب فى معرفة أعيـــان علماء المذهب : ص ١٧٨ ــ ١٧٩ (طبعة القاهرة ١٣٢٩ هـ)

ياربيع ادع لى سرجا ، فيأتى به ويذاكره الشافعى ويناظره ويعجب بغزارة علمه حتى يقول بعد انصرافه : « ياربيع نحتاج أن نستأنف طلب العلم »(١٣) ٠

وممن نبغ فى مصر فى القرن الثانى الهجرى وبداية الثالث الهجرى فى علم اللغة والدين ، أبو عبد الله أحمد بن يحيى التجيبى ولاء المصرى ، الحافظ النحوى ٠ وكان من أعلم زمانه بالشعر والأدب والتاريخ وعلوم الدين ٠

وقد أنجبت مصر عددا وافرا من المؤرخين كان فى طليعتهم فى أواخر عصر الولاة عبد الرحمن بن عبد الحكم الذى توفى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧١ م) والذى خلف لنا أقدم مؤلف كتبه مؤرخ مصرى مسلم فى مصر الاسلامية وهو كتاب « فتوح مصر وأخبارها » ٠

وكانت الاسكندرية عند الفتح من أهم مراكز الشرق للثقافة اليونانية الرومانية ٠ ولم يقض الفتح العربى على هذا المركز العلمى بالرغم من أن معظم علماء الروم غادروها بعد الفتح ٠ والمعروف أن العرب حرصوا على ترجمة تراث الحضارات القديمة الى العربية واستوعبوا ذلك التراث وأفادوا منه فى بناء حضارتهم الاسلامية العظيمة ٠ وحسبنا دليلا على النشاط العلمى فى الاسكندرية ما ذكره ابن النديم فى كتابه الفهرست من أن خالد بن يزيد بن معاوية حينما أراد تعلم علم الصنعة (أو علم الكيمياء) ، أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين الذين كانوا يقيمون بمصر ولهم المام

---

(١٣) السيوطى . بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ص ٢٥٢ ، والأستاذ أمين الخولى . مصر فى تاريخ البلاغة ص ٨ (مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ المجلد الثانى ـ ج١ سنة ١٩٣٤ م) ٠

باللغة العربية وطلب اليهم نقل كتب الصنعة من اليونانية والقبطية الى العربية ، فكان هذا أول نقل الى العربية فى الاسلام(١٤) ٠

كذلك أشار ابن أبى أصيبعة فى كتابه « طبقات الأطباء » الى الى أطباء مشهورين فى الاسكندرية منذ الفتح ، اعتمد عليهم الخلفاء والأمراء فى أحيان كثيرة ، كما أن حنين بن اسحق ، طبيب بغداد الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى ، حذا حذو الاسكندريين فى التآليف ٠ ويذكر القفطى فى كتابه « اخبار العلماء بأخبار الحكماء » بأنه كان فى أخميم فى صعيد مصر زمن فتح العرب ، دار حكمة لا تقل أهمية عن دار العلم فى اسكندرية ٠ ولعل هذا يوضح لنا ما ذكره ابن النديم من أن ذا النون المصـــرى ، كان من أخميم ، كان من الفلاسفة الذين تكلموا فى علم الصنعة ٠

بقى أن نذكر أن العرب لم يكتفوا فقط بتعهد ورعاية دور الحكمة ودور العلم فى مصر وفى غيرها من البلاد المفتوحة بل انهم لم يتعرضوا للأديرة فى مصر وفى غيرها ، والتى كانت مراكز الثقافة المسيحية ٠

ولسنا نستطيع أن نغفل الحديث عن أمر طالما كثر فيه الجدل ، ذلك هو حريق مكتبة الاسكندرية الذى نسبه بعض المؤرخين الى عمرو بن العاص ونفى مؤرخون آخرون هذه التهمة عن القائد العربى وعن الخليفة عمر بن الخطاب الذى ينسب اليه أنه أمر عامله عمرو ابن العاص بان يحرق المكتبة ٠ والمعـــروف أن مكتبة الاسكندرية أتلفتها النيران سنة ٤٨ ق٠م فى الحريق الذى أحدثه يوليوس قيصر ليرد أعداءه عن أسطوله ٠ ثم حرقت بعد ذلك بنحو أربعمائة سنة

---

(١٤) ابن النديم الفهرست : ص ٢٤٢ (طبعة ليبزج سنة ١٨٧١م) ٠

حين اشتد النزاع بين الوثنية والمسيحية وأمر الامبراطور الرومانى ثيودوسيوس بالقضاء على المعابد الوثنية ٠

والحق ان اتهام المسلمين باحراق المكتبة لم يذكره المؤرخون الا بعد فتح الاسكندرية بأكثر من ستة قرون فالذين ذكروا هذه القصة عاشوا فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ولم يشيروا الى مصدر واحد استقوا منه هذا الخبر ، كما أن عناصر القصة التى أوردها تدل على أنها خرافية ولا أثر للتماسك بين أجزائها ، فضلا عن أن الكتاب والمؤرخين الأوائل المسلمين منهم والمسيحيين ، لم يشيروا الى ذلك الحدث ٠ وقد تصدى للرد على هذا الاتهام العديد من المؤرخين الأوربيين مثل جبون وبتلر وجوستاف لوبون ، فضلا من المؤرخين العرب ٠ ولايستطيع أحد أن ينكر أن العرب أبقوا على المدارس المسيحية والصابئية والفارسية واليونانية وانهم كانوا يشجعون على ترجمتها واختيار ما يناسب حضارتهم وثقافتهم ويبذلون فى ذلك المكافآت السخية والجوائز السنية ٠ ولاشك أن أول من تحدث عن حريق مكتبة الاسكندرية هى الرحالة عبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م) ، التقط هذه الفكرة الخاطئة من أفواه بعض العامة الجهلاء ، والتى ليس لها أى سند من التاريخ القديم أو التاريخ الاسلامى ، والتى هاجمها الغربيون قبل الشرقيين(١٥) ٠

---

(١٥) راجع ماكتبناه عن حريق مكتبة الاسكندرية : دكتورة سيدة اسماعيل كاشف ٠ مصر فى فجر الاسلام : ص ٣٣٠ ـ ٣٣٥



١٢ ــ الاقتصاد والمال فى مصر فى عصر الولاة

(أ) الزراعــــة

كان لمصر مكانة خاصة عند العرب ، فقد ذكرت فى القرآن الكريم فى عدة مواضع كما ذكرت فى الأحاديث النبوية الشريفة ٠ وكانت بعض الأحاديث التى تنسب الى النبى عليه الصلاة والسلام عن « فضائل مصر » نواة لفصول كتبها المؤلفون المصريون فى العصور الوسطى ، كما ألف بعضهم كتبا قائمة بذاتها فيما سموه « فضائل مصر » مثل كتاب « فضائل مصر » لعمر بن محمد بن يوسف الكندى المتوفى فى القرن الرابع الهجرى وهو ابن المؤرخ المشهور الكندى صاحب كتاب « ولاة مصر وقضاتها » ، ومثل كتاب « فضائل مصر » لابن زولاق المتوفى فى نهاية القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ٠

أما مصر فهى طوال تاريخها بلد زراعى فى المقام الأول تنتج الحبوب والفاكهة والخضروات والبقول ٠ وتشير أوراق البردى الى زراعة قصب السكر فى مصر والى أن الكتان كان يزرع بكثرة فى

عصر الولاة ·ويتضح لنا كيف كانت خيرات مصر مما ذكره المقريزى وغيره من مؤرخى مصر الاسلامية فقال المقريزى « ان أهل مصر يستغنون بها عن كل بلد حتى أنه لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور لاستغنى أهلها بما فيها عن جميع البلاد » ·

ولعل أبدع وصف ، وضعه العرب لمصر ، ما جاء فى الكتاب الذى ينسب الى عمرو بن العاص انه كتبه الى الخليفة عمر بن الخطاب حين بعث اليه الخليفة يسأله أن يصف له مصر · فأبدع عمرو بن العاص الوصف مبينا رخاء مصر وثروتها الزراعية ، وكان مما جاء فيه : « اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر تربة غبراء وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ·· فاذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، اذا هى عنبرة سوداء ، فاذا هى زمردة خضراء ، فاذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء ، الذى يصلح هذه البلاد وينميها ، ويقر قاطنيها فيها ··· » فلما ورد هذا الكتاب على الخليفة عمر بن الخطاب قال : « لله درك يا ابن العاص !! لقد وصفت لى خبرا كأنى أشاهده »(١) ·

وقد روى هذا الكتاب كثير من المؤرخين الغربيين ، وترجمه الكاتب الفرنسى أوكتاف أوزان فى جريدة الفيجارو الفرنسية ، وقال انه من أكبر آيات البلاغة فى كل لغات العالم ، واقترح تدريسه فى كافة المدارس لكى يتعلم منه الطلاب دقة الوصـــف ومتانة التعبير وصحة الحكم ·

---

(١) انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج١ ص ٣٢ ـ ٣٣ ·

ويذكر المؤرخون أنه عقب الفتح مباشرة كانت حكومة العرب تباشر حفر الترع واقامة الجسور وبناء القناطر وغير ذلك مما يلزم للرى والزراعة · والمعروف أن عمر بن الخطاب أمر عمرو بن العاص باعادة حفر القناة التى كانت تصل البحر الأحمر بالنيل شمال مدينة منف القديمة ، أى عند المكان الذى كان يتفرع منه النيل الى فروعه فى الدلتا · وكانت هذه القناة منذ حفرها فى عصر الفراعنة تهمل حينا ، وتجدد حينا آخر ويعاد حفرها ، وكانت قد أصبحت غير صالحة فى بداية القرن السابع الميلادى (القرن الأول الهجرى) · وقيل ان عمرو بن العاص حفر هذه القناة فى سنة ٢٣ هـ ولم يمض عام حتى جرت السفن فى القناة وحمل الطعام الى أهل الحرمين · وسميت هذه القناة باسم خليج أمير المؤمنين نسبة الى عمر بن الخطاب ·

وأنشأ عمرو بن العاص مقاييس للنيل فى أسوان ودندرة ، وقد عرفت مقاييس النيل منذ العصر الفرعونى لأن محصول البلاد مرتبط بزيادة النيل ونقصانه · وكانت المقاييس العربية مقسمة على أساس الذراع ، وكل ذراع ينقسم الى أربعة وعشرين اصبعا · وفى عصر الولاة بنيت مقاييس أخرى للنيل غير مقاييس عمرو بن العاص · وفى خلافة سليمان بن عبد الملك بنى أسامة بن زيد التنوخى عامل الخراج ، مقياسا بجزيرة الروضـــة سنة ٩٧ هـ ، ثم بنى الخليفة المتوكل مقياسا بجزيرة الروضـــة سنة ٢٤٧ هـ كان يعرف آنذاك بالمقياس الجديد ·

وكانت الأراضى فى مصر بعد الفتح العربى تقاس بالفدادين ، وكان ايجار الأرض يدفع نقدا وعينا ، ولكننا لم نعثر للآن على أوراق بردية تدلنا على أن الايجار كان يدفع عينا فقط · ونجد فى

الأوراق البردية التى ترجع الى عصر الولاة أن المؤجر يشترط على المستأجر شرطا هذا نصه : « وما بورت فعليك خراجه »(٢) ٠

ولعل هذا الشرط الذى اعتاد المؤجرون أن ينصوا عليه ، كان بسبب حرص الحكومة على زراعة الأرض وعدم اهمالها كيلا تصبح الأرض الزراعية أرض بور ٠

(ب) الصناعة

ازدهرت فى مصر منذ التاريخ القديم صناعات هامة مثل صناعة البناء وورق البردى والنسيج والتجارة والدباغة وصناعة الزجاج والأدوات المعدنية والفخار والخزف فضلا عن صناعة السفن ٠ وكانت معظم الصناعات المصرية تعتمد على المواد الخام فى مصر ، وأحيانا كان المصريون يستوردون بعض المواد الخام مثل الخشب والحديد والجلود والحرير ٠

ونعرف من الأوراق البردية ومما ذكره المؤرخون ، أن العرب لم يستخدموا العمال المصريين فى بناء أبنية مصر فقط ، بل اشترك العمال والبناءون المصريون فى العمل فى بناء مسجد المدينة المنورة ، والجامع الأموى فى دمشق ، وفى بناء قصر الوليد بن عبد الملك فى دمشق ، وفى بناء المسجد الاقصى فى بيت المقدس وغيرها من المبانى ٠ وحمل الأقباط لواء صناعة المنسوجات لمدة طويلة ويدلنا على ذلك أن العرب كانوا يطلقون على المنسوجات المصرية اسم « قباطى »(٣) ٠

---

(٢) انظر : Grohmann : Arabic Papyri Vol. II. PP 45 — 46 (Cairo 1936).

(٣) انظر ٠ الأزرقى اخبار مكة : ج١ ص ١٣٧ و ١٦٨ (المطبعة الماجدية بمكة المكرمة ١٣٥٢ و ١٣٥٧ هـ) ٠ والمقريزى : الخطط ج١ ص ١٨١ ٠

وكانت المراكز الرئيسية لصناعة النسيج فى العصر الاسلامى هى نفس المراكز التى اشتهرت قبل الاسلام مثل الاسكندرية ودمياط وتنيس فى الوجه البحرى والأشومنين وأسيوط وأخميم فى الوجه القبلى . واشتهرت مصر بصناعة المنسوجات على اختلاف انواعها وخاصة الكتانية لوفرة زراعته ، وكذلك كان ينسج الصوف والحرير والقطن .

وكانت الحكومة تسيطر على مصانع النسيج ، وكان هناك نوعان من هذه المصانع : الأول طراز الخاصة وكان لا يعمل الا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته ، والثانى طراز العامة وكان يعمل لحساب بلاط الخليفة وافراد الشعب . وقد كتب على بعض المنسوجات التى عثر عليها والتى ترجع الى عصر الولاة انها صنعت فى طراز الخاصة وعلى البعض الآخر انها صنعت فى طراز العامة .

وعنى الخلفاء والأمراء بكتابة أسمائهم على هذه الأقمشة الثمينة التى كانوا يتخذونها ملابس لهم أو خلعا يخلعونها على كبار رجال دولتهم .

وعنى الخلفاء منذ الفتح العربى لمصر باتخاذ كسوة الكعبة من المنسوجات النفيسة التى كانت تصنع بها . فيذكر الأزرقى أن عمر بن الخطاب كسا الكعبة القباطى وكان يكتب الى مصر لتصنع له فيها(٤) .

وكان معظم الصناع بمصر فى عصر الولاة من المصريين سواء أكانوا ممن بقى على دينه من الأقباط أم ممن أسلم منهم . وقد احتفظت مصر فى هذا العصر بكيانها الخاص فى الأساليب الفنية .

---

(٤) الأزرقى : أخبار مكة : ج١ ص ١٦٨ ــ ١٦٩ .

ويعتبر عصر الولاة عصر الانتقال من الأساليب الفنية القبطية الى الأساليب الفنية العباسية(٥) :

(ج) التجــارة

لم يكن نشاط مصر التجارى يرجع الى نشـاطها الزراعى والصناعى فقط وانما يرجع أيضا الى موقعها الممتاز بين قارات أفريقيا وأوروبا وآسيا · وقد استمر ازدهار مصر التجارى بعد الفتح العربى نتيجة لاهتمام العرب بالتجارة على الخصوص ، ولأن مصر والشام وبلاد المغرب فضلا عن شبه جزيرة العرب ، أصبحت كلها جزءا من دولة واحدة · وقد فطن المؤرخون المسلمون الى ذلك الموقع الممتاز الذى تتمتع به مصر ، فكتبوا أن من فضائل مصر « أنها فرضة الدنيا يحمل من خيرها الى سواحلها ، وذلك أن من ساحلها بالقلزم (السويس الحالية) ينقل الى الحرمين والى جدة والى عمان والى الهند والى الصين وصنعاء وعدن والشحر والسند وجزائر البحر ، ومن جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلد الروم وأقاصى الافرنجة وقبرص وسائر سواحل الشام والثغور الى حدود العراق ، ومن جهة الاسكندرية فرضـة اقريطش (جزيرة كريت) وصقلية وبلد الروم والمغرب كله الى طنجة ومغرب الشمس ، ومن جهة الصعيد فرضة بلد النوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن »(٦) ·

---

(٥) راجع فى الفنون والصناعات الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ج١ (القاهرة ١٩٣٥ م) ، وكنوز الفاطميين (القاهرة ١٩٣٧ م) · وبعض التأثيرات القبطية فى الفنون الاسلامية ــ فى مجلة جمعية الآثار القبطية ــ القاهرة ١٩٣٧ م · وفنون الاسلام (القاهرة م) ، وأطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية (من مطبوعات كلية الآداب والعلوم فى بغداد ١٩٥٦ م) ·

(٦) انظر : النويرى : نهاية الأدب فى فنون الأدب ج١ ص ٣٤١ (طبعة دار الكتب المصرية الثانية ١٩٢٩ م) · والمقريزى : الخطط · ج١ ص ٢٨ ·

ونلاحظ أنه بالرغم من أن الخليفة عمر بن الخطاب اهتم باعادة حفر القناة التى توصل بين البحر الأحمر والنيل (وتسير قريبا من الطريق الحالى بين السويس والقاهرة) لتسهيل حمل الغلال والطعام من مصر الى الحجاز ، الا أن اعادة حفر هذه القناة ، التى عرفت باسم خليج أمير المؤمنين ، أفاد التجار والتجارة بين الهند والبحر الأحمر ومصر وموانى البحر الأبيض المتوسط ·

وقد زار الاسكندرية بعد فتح العرب لمصر بنحو ثلاثين عاما (حوالى سنة ٦٧٠ م و ٥٠ ــ ٥١ هـ) أركولف Arculf أحد حجاج بيت المقدس فتكلم عن الاسكندرية باعتبارها ملتقى التجارة العالمية حيث يتبادل البضائع فيها شعوب لا حصر لها(٧) ·

وطبيعى أن طرق الحج وطرق البريد كانت أيضا مسلكا للتجار فى ذلك العصر لأن الخلافة كانت تهتم بعمارة هذه الطرق وبالعناية بها وبتوفير الراحة فيها ·

كذلك كانت مصر تتبادل التجارة فى عصر الولاة مع النوبة والسودان وأواسط أفريقيا ، وكانت علاقة مصر التجارية مع الجنوب اما عن طريق البحر الأحمر أو عن طريق نهر النيل · وكذلك كانت هناك طرق تجارية بين مصر والواحات الغربية وشمال أفريقيا ·

وهكذا لم يغير الفتح العربى فى الدور التجارى الذى لعبته مصر منذ القدم وذلك لاهتمام العرب بالتجارة أيضا ·

ونشير هنا الى أن مصر منذ العصور القديمة لعبت دورا هاما فى التجارة العالمية ، فلم تكتف بتصـــدير ما يزيد عن حـــاجة البلاد من المزروعات أو الصناعة واستيراد ماتحتاج اليه البلاد ، بل كانت تلعب دور الوسيط بين الشرق والغرب ·

---

(٧) انظر · Kammerer : La mer Rouge : T. I. PP. 12 — 13 (Le Caire 1929). Heyd : Histoire du Commerce du Levant : T. I. P. 41.



ثانيا : مصر فى عصر الطولونيين

(٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ ـ ٩٠٥ م)



١ ـ أحمد بن طولون فى سامرا

فى سنة ٢٥٤ م (٨٦٨ م) أقطع الخليفة العباسى المعتز ، مصر ، للقائد التركى باكباك ، فأرسل هذا القائد نائبا عنه الى وادى النيل . وكان هذا النائب هو أحمد بن طولون الذى أصبح من الشخصيات ذات الشأن العظيم فى تاريخ مصر الاسلامية .

وكان طولون ، والد هذا النائب من العنصر التركى من بلاد ما وراء النهر (التركستان الروسية الآن) . ويقال انه كان ضمن الجزية التى أرسلها حاكم بخارى الى البلاط العباسى فى سنة من السنين ، كما يقال أيضا انه كان مملوكا لنوح بن أسد والى بخارى وان نوحا أعتقه وأهداه الى الخليفة العباسى المأمون . ووصل طولون الى البلاط فى بغداد نحو سنة ٢٠٠ هـ (٨١٦ م) . أما اسمه طولون فمشتق من كلمة تركية بمعنى البدر الكامل .

وتقدم طولون بمواهبه وصفاته العسكرية الى أن وصل الى رياسة حرس الخليفة . والظاهر انه لم يكن له شأن عظيم فى الدسائس والثورات التى قام بها الجند الترك منذ وفاة المعتصم سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢ م) .

وولد ابنه أحمد فى بغداد سنة ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م) ، ثم انتقل مقر الحكومة العباسية فى السنة التالية من بغداد الى سامراء ، وهى العاصمة الجديدة التى أنشأها المعتصم شمالى بغداد • ونشأ أحمد ابن طولون فى سامرا حيث تلقى العلوم العسكرية التى كان يتلقاها الجند الترك ، ودرس فضلا عن ذلك قسطا وافرا من العلوم الدينية •

ورحل أحمد بن طولون الى مدينة طرسوس ، وكانت من أهم الثغور(١) الشامية الواقعة على الحدود بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية ، وذلك للاشتغال بالجهاد فى محاربة البيزنطيين وللدراسة على مشاهير العلماء المسلمين فى هذه المدينة •

ولفت أحمد بن طولون الأنظار منذ شبابه المبكر الى شجاعته ومرءوته ، والمصادر التاريخية تعطينا صورا مختلفة لذلك •

وتوفى طولون ، والد أحمد ، فى سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٤ م) • ولقى أحمد بن طولون وأخوه موسى الشىء الكثير من عناية الجند الترك بعد وفاة أبيهما •

---

(١) الثغر : يعنى هنا المنفذ الذى يستطيع العدو أن ينفذ منه الى ديار الاسلام •

٢ ـ أحمـد بن طولون فى مصـر

ذكرنا أن الخلفاء العباسيين منذ خلافة المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ) درجوا على اقطاع مصر للقواد الأتراك ، وكان هؤلاء القواد الترك يؤثرون البقاء فى عاصمة الخلافة ويرسلون من يقوم بالأمر نيابة عنهم ، على أن يحمل اليهم هؤلاء النواب الأموال ويدعون لهم على المنابر كما يدعى للخليفة ٠ وكان باكباك من أعظم قواد الترك شأنا فى خلافة المعتز (٢٥٢ ـ ٢٥٥ م / ٨٦٦ ـ ٨٦٩ م) ، وكان متزوجا حينذاك من والدة أحمد بن طولون بعد وفاة أبيه طولون ٠

وحين أقطع باكباك مصر ، وقع اختياره على أحمد لينوب عنه فى حكمها ٠ ولقى هذا الاختيار ارتياح الخليفة وسائر القواد الترك لأن أحمد بن طولون كان محبوبا من الجميع ٠

ولكن أحمد بن طولون لم يعين نائبا عن باكباك فى حكم مصر كلها ، بل كان على الاسكندرية نائب خاص بها ، وعلى برقة نائب آخر ، وكانت برقة تتبع مصر حينذاك ٠

ووجد أحمد بن طولون عند قدومه الى مصر ، أن صـــاحب النفوذ فيها هو أحمد بن المدبر العامل على الخراج ، وكان معينا من قبل الخليفة ، فبدأت المنافسة بين الرجلين • وأدرك ابن المدبر أن أمره لن يستقيم مع النائب الجديد ، فبدأ يدبر له المكائد والدسائس بواسطة أعوانه فى بلاط الخليفة ودوائر الحكومة ليصل الى عزله • ولم يكن ابن المدبر يعلم أن ابن طولون كان قد استمال اليه رجال البلاط العباسى بالهدايا النفيسة واتخذ له نائبا فى سامرا يوافيه بكل ما يجرى فى الخلافة ، وفشل ابن المدبر فى محاولاته لعزل ابن طولون كذلك لم يرحب بقدوم ابن طولون ، شقير الخادم ، عامل البريد ، وكان من موالى والدة الخليفة المعتز •

وفى الوقت الذى كان ابن طولون يمكن لنفسه فى مصر حدث أن الخليفة المهتدى (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ) أمر بضرب عنق باكباك •

وشاء الحظ أن يكون صاحب اقطاع مصر الجديد هو القائد يارجوخ الذى كان أحمد بن طولون زوجا لابنته • فكتب اليه يارجوخ : تسلم من نفسك لنفسك وزاده الأعمال الخارجة عن قصبة مصر ، وكتب الى اسحق بن دينار وكان يحكم الاسكندرية أن يسلمها لأحمد ابن طولون ، وكان ذلك فى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧١ م) • وهكذا قدر لأحمد بن طولون أن يستفيد من باكباك ومن يارجوخ فى ســـنين متقاربة وأن يمكن لسلطانه فى مصر • وكانت سنة ٢٥٧ هـ سنة حاسمة فى حياة ابن طولون فقد أطلقت يد ابن طولون رسميا فى شئون البلاد من قبل يارجوخ • وليس من شك فى أن ذلك تم بعلم الخليفة المعتمد ورضاه (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ / ٨٧٠ ـ ٨٩٢ م) اذ وافق على أن تلحق أسرة ابن طولون به فى مصر • ودان حكام الكور والأقاليم فى مصر لأحمد بن طولون بالطاعة والولاء ، وأصبح اسحق ابن دينار عاملا على الاسكندرية من قبله فى سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) ، كما خضع له أحمد بن عيسى الصعيدى صاحب برقة • أما شقير

الخادم فذكر أن أحمد بن طولون استطاع أن يتخلص منه بعد زوال سلطان أم الخليفة المعتز ، وقيل فى رواية أخرى ذكرها اليعقوبى ق تاريخه ، أن الخليفة المعتمد عزل شقيرا من منصبه فى مصر .

أما ابن المدبر فقد ضاعف ابن طولون جهده للتخلص منه ، واستطاع أن يحصل من الخليفة المهتدى على الموافقة على عزل ابن المدبر من مصر . وعين أحمد بن طولون عامل خراج خاضعا له هو محمد بن هلال سنة ٢٥٦ هـ . لكن هذا العامل لم يمكث طويلا لأن قتل الخليفة المهتدى وتولية المعتمد ، جعلت ابن المدبر ينجح فى العودة الى خراج مصر ، ولكنه لم يستعد سلطانه الأول وذلك بفضل نشاط ابن طولون وقوة شكيمته . ونجح ابن طولون فى ابعاد ابن المدبر مرة ثانية فقلده المعتمد خراج فلسـطين ودمشق والأردن فى سنة ٢٥٧ هـ .

وكان هذا النصر لأحمد بن طولون نذيرا باطلاق يده فى المال والشئون الاقتصادية فى مصر ـ وولى على الخراج من يدين له بالولاء ، فكان هذا استكمالا لسيادة ابن طولون . رسميا وفعليا ، على مصر .

وفى سنة ٢٥٩ هـ مات يارجوخ صاحب اقطاع مصر . ولا يتفق المؤرخون فى تعيين الشخص الذى أقطع مصر من بعده ، ولكن يظهر لنا أن الفوضى فى سامراء شجعت أحمد بن طولون على أن يمضى قدما فى بسط سلطانه على مصر كلها وأن يصبح أميرا على مصر وليس مجرد نائب صاحب اقطاع يقيم فى عاصمة الخلافة . وأصبح نفوذ ابن طولون لا يعتمد على باكباك أو يارجوخ أو غيره ، وانما أصبح يعتمد على قوته الشخصية ووفرة ماله وجنده وعسكره .



٣ ـ مصر دولة مستقلة

(أ) سياسة أحمد بن طولون الاقتصادية

حين قدم أحمد بن طولون الى مصر لأول مرة سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) ، كان سلطانه لا يتجاوز منطقة الفسطاط . لكن قدر للأمور أن تجرى كما يتمنى ابن طولون ويشتهى ، وما هى الا خمس سنوات حتى استطاع ابن طولون أن يكون أميرا على مصر كلها وأن يضم لنفسه ادارة الخراج فى البلاد . وكانت الدولة الطولونية تمثل الانتقال من عصر التبعية الى عصر الاستقلال ، من عصر الوالى الذى يمثل سياسة الخلفاء ويأتمر بأمرهم ، الى عصر الحاكم القوى الواسع السلطان الذى يسنده الشعب ويسنده الجيش والأسطول ، والذى يعمل بما فيه الخير والمصلحة للبلد وأبنائه .

وكان أول ما اتجه اليه أحمد بن طولون العناية بالنواحى الاقتصادية حتى يتم استقلال مصر سياسيا واقتصاديا ، وحتى يمكنها المحافظة على هذا الاستقلال ، وحتى يعيش أبناء مصر فى رخاء . كان لابد لمشروعات أحمد بن طولون المختلفة من الأموال الوفيرة . وطبيعى كان على مصر وحدها أن تدبر هذه الأموال

الطائلة . ولكى ندرك الدور الكبير الذى كان ينتظر أحمد بن طولون فى الناحية المالية يجب أن نعرف أن دخل البلاد قبل الدولة الطولونية كان يذهب الى بيت مال الخلافة أو جيوب الولاة أو عمال الخراج بدون أن تفيد مصر نفسها شيئا كثيرا . ولما كانت البلاد فى عصر الولاة لا تحكمها أسرة تحرص على ازدهارها ، وكان غرض الخلافة الأساسى هو جباية أكبر دخل ممكن ، عرفنا انها لم تكن من الوجهة المالية الا شبه مزرعة تستغل بدون كبير رعاية لازدهارها أو بقاء قدرتها على الانتاج . وقد زادت الحالة سوءا فى العصر العباسى حين كثر تعيين الولاة وعزلهم فكان كل وال يعمل على اثراء نفسه فى أقصر وقت ممكن قبل أن يغادر البلاد . وظهر أيضا فى العصر العباسى وفى عهد أبى جعفر المنصور مسألة ضمان الوالى لخراج مصر كله ، أى أن الخليفة أراد أن يجعل الوالى يلتزم بدفع مبلغ معين عن القطر كله دون النظر الى قدرة البـــلاد على الدفع وظروفها المختلفة .

ولما صارت مصر تقطع للقواد الترك زاد الطين بلة لما عرف عنهم من العنف وسوء الادارة وزيادة الضرائب ثم تولى أحمد بن محمد بن مدبر خراج مصر وكان متعسفافى فرض الضرائب على المسلمين وأهل الذمة على السواء فزادت الضرائب على المصريين زيادة فاحشة .

ومر بنا أنه حين قدم أحمد بن طولون الى مصر سنة ٢٥٤ هـ وجد فيها ابن المدبر عاملا على خراجها .

وكان ابن المدبر قد ولى خراج مصر منذ سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م كما اتضح لنا من الأوراق البردية وكما يذكر اليعقوبى فى تاريخه ، وليس كما يذكر المقريزى فى الخطط أنه ولى الخراج بعد ســـنة ٢٥٠ هـ . ولجأ ابن المدبر الى أساليب كثيرة لجمع الأموال ، فقد

كان يبغى جمع الأموال الطائلة لنفسه ، وكان يكثر من تقديم الهدايا والأعطيات الى الحكومة المركزية فى العراق حتى يأمن على مركزه فى مصر ٠ ولم يهتم ابن المدبر بمصلحة مصر أو المصريين وأدخل فى مصر ضرائب جديدة ولجأ الى القسوة فى جبايتها ٠ وكان مما ابتدعه ابن المدبر أنه أحاط بالنطرون (كربونات الصوديوم) وحجر عليه بعد أن كان مباحا لجميع الناس ، وفرض ضريبة على الكلأ الذى ترعاه البهائم سماها « المراعى » وفرض ضريبة على ما يستخرج من البحر سماها « المصـــايد » ٠ ونتبين من الأوراق البردية التى نشرها المستشرق النمسوى الأستاذ أدولف جرومان ، أن ضريبة مراعى المواشى وضريبة الصيد فرضت بين سنتى ٢٤٧ و ٢٥٣ هـ ٠ ولعل ضريبة المصايد كانت أثقلها على النفوس اذ كان الناس يعتبرونها غير شرعية ، ولعلهم كانوا يعدونها مخالفة للآية القرآنية الشريفة : (أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم)(١) ٠

ويظهر أن ابن المدبر نفسه احتال فى تسميتها ، فيذكر المقريزى فى ذلك : « وأما المصايد فهى ما أطعم الله سبحانه وتعالى من صيد البحر وأول من أدخلها الديوان أيضا ابن مدبر وصير لها ديوانا واحتشم من ذكر المصايد وشـــناعة القول فيها فأمر أن يكتب فى الديوان : خراج مضارب الأوتار ومغارس الشباك » وفرض ابن المدبر فضلا عن ذلك ضرائب على أشجار اللبخ والسرو والنخيل ٠ وانقسمت ضرائب مصر منذ مجىء ابن المدبر الى ضرائب خراجية وهى التى تجبى سنويا ، وضرائب هلالية وهى التى تجبى شهريا ، وعرفت الضرائب الهلالية باسم « المرافق والمعاون » ٠ وأصبح الشعب والفلاح فى مصر ينوء تحت عبء ثقيل من الضرائب ، وقامت بعض الثورات فى الاسكندرية وشرقى الدلتا والجيزة ولكنها أخمدت كلها بقسوة فظيعة ٠

---

(١) سورة المائدة آية ٩٦ ٠

هكذا كانت مالية مصر واقتصادها حين استطاع أحمد بن طولون أن ينحى ابن المدبر وأن يشرف بنفسه على ميزانية البلاد . ولسنا نعرف تماما كل اصلاحات أحمد بن طولون المالية ، ولكن المصادر التاريخية تروى أن خراج البلاد قد انحط فى عهد الولاة الذين سبقوه حتى بلغ ثمانمائة ألف دينار بينما ارتفع فى نهاية حكمه حتى وصل الى أربعة ملايين وثلاثمائة ألف . وكتب المؤلفون أن القمح فى عصر أحمد بن طولون كان يشترى عشرة أرادب بدينار ، وفي عصر خمارويه ابن أحمد بن طولون ، ثلاثة أرادب بدينار ، وكان هذا السعر الأخير يعتبر رخيصا جدا فى العصور التالية .

ويحدثنا المؤرخون عن الغاء أحمد بن طولون للضرائب الظالمة . وأكبر الظن أن أحمد بن طولون أحسن توزيع الضرائب كما خفف بعضها وألغى البعض الآخر . أما الخراج على المراعى ، فتؤكد الأوراق البردية والمصادر التاريخية استمرار هذه الضريبة طوال العصور الاسلامية فى مصر .

وكانت أملاك الحكومة الخاصة تدر دخلا كبيرا يفوق كل ما كانت تدره قبل ذلك ، وكان يشرف على هذه الأراضى ديوان خاص اسمه ديوان الأملاك .

وعنى أحمد بن طولون بتشجيع الزراعة وتوفير الرى ، كما اهتم بحماية الفلاح من ظلم الجباة وعسفهم حتى ينصرف الفلاح الى زراعته وهو مطمئن .

كذلك عنى أحمد بن طولون بتطهير مصر من اللصوص وقطاع الطرق والمجرمين الذين كانوا يعكرون صفو السكان الهادئين ولاسيما فى الريف .

كذلك اهتم أحمد بن طولون بالقضاء على الثورات والفتن

الداخلية ومنها ثورات العلويين التى كانت قد تتابعت قبيل مجىء أحمد بن طولون الى مصر وبعد قدومه اليها ٠

وكانت النتيجة لهذه العناية بالفلاح وبالأرض وبالهيئة الادارية فضلا عن القضاء على الفتن والثورات الداخلية وعلى المفسدين ، أن شهدت مصر نهضة زراعية كبرى ٠ ويحدثنا المقريزى أنه استغل فى الزراعة نحو مليون فدان فى العصر الطولونى ، وكان هذا أعظم استغلال شهدته مصر حينذاك ٠ وتجلى هذا الرخاء العظيم الذى توفر لابن طولون فى الملايين التى أنفقها فى مشروعاته والتى ادخرها لأولاده من بعده ٠ وكانت عناية خمارويه بالزراعة لا تقل عن عناية أبيه ٠

والحق أن العصر الطولونى خلا من الأزمات الاقتصادية ، وامتاز بالرخاء وزيادة الانتاج ٠ وكان فيضان النيل طيبا فى سنى الأسرة الطولونية اللهم الا اذا استثنينا بعض سنين من حكم خمارويه ثم السنة الأولى والسنة السابقة للأخيرة من حكم هارون بن خمارويه، فقد كان الفيضان فيها غير طيب وان لم يبلغ من النقصان حد الخطر الذى كان يبلغه بعد ذلك فى عصر الفاطميين والمماليك والذى كانت تنتج عنه الأوبئة والقحط ٠

ولم تقتصر نهضة مصر على الناحية الزراعية وانما امتدت الى الصناعة والتجارة ٠ وكان على رأس الصناعات ، صناعة النسيج ٠ وأكبر الظن أن مصانع الطراز كانت مصدر ربح وافر للأمراء الطولونيين ٠

---

(٢) راجع ما كتب عن مالية مصر زمن الطولونيين فى
Dr. Zaky M. Hassan : Les Tulunides (Paris 1933)
ودكتورة سيدة اسماعيل كاشف . أحمد بن طولون (القاهرة ١٩٦٥ م — سلسلة أعلام العرب رقم ٤٨) ٠

وظلت الصناعات المصرية الأخرى تحظى بالعناية والرعاية مثل صناعة الورق من البردى الذى كان ينمو بكثرة فى مصر وخاصة فى مستنقعات الدلتا والفيوم ٠

كذلك كانت فى مصر معاصر لاستخراج الزيت من السمسم وبعض الحبوب والبقول ٠ كذلك كان المصريون يعصرون القصب ليصنعوا منه السكر ، ونعرف ذلك مما جاء فى الأوراق البردية ٠

ومن الصناعات التى لابد أن تكون قد نجحت فى عصر بنى طولون ، صناعة الأسلحة ٠ فقد كان الجيش الطولونى وافر العدد وكانت تلزمه بطبيعة الحال كميات كبيرة من الأسلحة ٠ وقد أشار المؤرخ ابن الزيات فى كتاب الكواكب السيارة ، الى بناء سماه مصنع ابن طولون(٣) ٠ وربما كان هذا البناء دارا لبعض الصناعات فى عصر بنى طولون ٠

واذا تذكرنا الجهاز الفاخر الذى أعده خمارويه لابنته قطر الندى رجحنا أن من الصناعات التى ازدهرت فى مصر الطولونية صناعة الحلى والأثاث الثمين والتحف المصنوعة من المعادن النفيسة ومن الجلد ٠

كذلك من الصناعات التى ازدهرت فى مصر الطولونية صناعة الخشب ٠ والمعروف أن المصريين مهروا منذ عصر الفراعنة فى صناعة الأخشـــاب ٠ واذا صح ما ذكره المقريزى فقد كانت فى الفسطاط فى العصر الطولونى أسواق خشـــب كبيرة ٠ وقد بلغ النجارون والفنانون فى الحفر على الخشب مهارة عظيمة تشهد بها التحف الخشبية التى ترجع الى هذا العصر ٠

ومن الصناعات التى ازدهرت فى مصر الطولونية ، صناعة

---

(٣) انظر : ابن المزيات : الكواكب السيارة ص ١٧٩ (المطبعة الأميرية بمصر ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧ م) ٠

الخزف . وأكبر الظن أن احمد بن طولون أدخل فى البلاد ـ نقلا عن سامرا ـ الخزف ذا البريق المعدنى الذى اشتهرت بصناعته مصر بعد ذلك ولاسيما فى عصر الفاطميين .

ولسنا نعرف كيف كانت تنظم هيئات الصناع فى العصر الطولونى . واذا صح لنا أن نفرض أن النظام المعروف فى العصور المتأخرة كانت نواته موجودة فى العصر الطولونى ، جاز أن نظن أن كل طائفة من الصناع كانت لها شبه نقابة أو جماعة يرأسها عريف أو شيخ . واستتبع النهضة الزراعية والصناعية ، نهضة تجارية عظيمة .

ومما يدل على نشاط مصر التجارى فى أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) نص كتبه الجغرافى المشهور ابن خرداذبة(٤) عن التجارة . فقد تحدث عن التجار اليهود الراذانية(٥) الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والأندلسية والصقلبية . وذكر انهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا . « يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور(٦) والسيوف ،

---

(٤) انظر : ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٣ ١٥٤ (طبعة ليدن ١٨٨٩ م) ، والدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى : ص ٧ ـ ٩ (طبعة القاهرة ١٩٤٥ م) .

(٥) الراذانية : قد تكون نسبة الى نهر الرون فى فرنسا . ويرى الدكتور نعيم زكى ان اسم « اليهود الرذانية » من الكلمة الفارسية Rehdan الطريق ويقال ان مركزهم كان فى فارس . ويقول أيضا ان مركز تجمعهم وخروجهم كان من مدينة الرى Rhaga بجوار طهران ، وكانت الرى فى القرن التاسع الميلادى عاصمة فارس التجارية (انظر : دكتور نعيم زكى فهمى : دور اليهود فى تجارة العصور الوسطى : ص ١١ ـ طبعة القاهرة ١٩٧١ م) .

(٦) السمور : حيوان برى يتخذ من جلده فراء ثمينة والجمع سمامير .

ويركبون من فرنجة(٧) فى البحر الغربى فيخرجون بالفرما(٨) ويحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم(٩) · وبينهما خمسة وعشرون فرسخا(١٠) ، ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم الى الجار وجدة(١١) ، ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا الى القلزم ، ثم يحملونه الى الفرما ، ثم يركبون فى البحر الغربى ، فربما عدلوا بتجاراتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم ، وربما صاروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك ، وان شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل الى الجابية(١٢) ، ثم يركبون فى الفرات الى بغداد ، ثم يركبون فى دجلة الى الأبلة(١٣) ، ومن الأبلة ، الى عمان والسند والهند والصين . كل ذلك متصل بعضه ببعض » ·

والحق ان تجارة مصر الداخلية والخارجية نشطت نشاطا كبيرا فى العصر الطولونى · وحسبنا أن نقرأ ما كتبه المقريزى فى كتابه الخطط عن القطائع لنتبين ما كان من الرخاء بالبلاد فى عصر

---

(٧) فرنجة : تعنى هنا فرنسا ·

(٨) الفرما : فى شبه جزيرة سيناء ، وهى مدينة بلوزيوم Pelusium القديمة أو طينة الحالية وهى الى الشرق من بور سعيد على البحر الأبيض المتوسط ، وكان ينتهى عندها الفرع الثالث الذى كان لدلتا النيل شرقى فرع دمياط والذى كان يعرف باسم الفرع البلوزى ·

(٩) القلزم : السويس الحالية ·

(١٠) الفرسخ : ثلاثة أميال ·

(١١) الجار : كانت ميناء المدينة المنورة على البحر الأحمر ، أما جدة فهى ميناء مكة ·

(١٢) الجابية : قريبة من دمشق ·

(١٣) الأبلة : ميناء قديم أنشئت مدينة البصرة بالقرب منه ·

أحمد بن طولون وخمارويه · وخير دليل على ازدهار التجارة مانعرفه عن وجود الأسواق الكبيرة ·

وذكر المقريزى أن كل طائفة من التجار كان لها سوق كبير فقال : « ولكل من الباعة سوق حسن عامر فصارت القطائع مدينة كبيرة أعمر وأحسن من الشام » ·

وقد رفض ابن طولون أن يحتكر بعض أصناف المتاجر · بل رفض أن يتاجر ببعض أمواله لما فى ذلك من مضاربة للتجار فى أرزاقهم · ويذكر المؤرخ أبو المحاسن أن بعض التجار حسن لأحمد ابن طولون التجارة ، فدفع له أحمد بن طولون خمسين ألف دينار يتجر له بها ولكن لم يلبث ابن طولون أن رفض الفكرة وأرسل الى التاجر فى الحال وأخذ منه المال وتصدق به(١٤) ·

والحق أن أحمد بن طولون عنى بالفلاح وبالزراعة والأرض ، وبالصناعة والتجارة ، وبالنواحى الادارية ، وأقصى عن ديوان الخراج كل من تشكك فى ذمته بحيث لم يضم الا الموظفين الأكفاء المشهود لهم بالأمانة والعدالة · كذلك عمل ابن طولون على القضاء على الفتن والثورات الداخلية وعلى المفسدين ·

فلا عجب أن شهدت مصر نهضة زراعية وصناعية وتجارية كبرى « وتجلى هذا الرخاء العظيم الذى توفر لابن طولون فى ملايين الدنانير التى أنفقها فى مشروعاته ·

وكان رخاء مصـــر فى عهد أحمد بن طولون وابنه خمارويه مضربا للأمثال · ولا شك أن ذلك الرخاء كان ناتجا الى حد كبير عن بقاء ايراد البلاد فيها دون أن يتسرب شىء كثير منه الى الخلافة

---

(١٤) انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج٣ : ص ١٢

العباسية • وبعد أن اتسعت حدود مصر فشملت الشام والثغور يجدر بنا الا نفكر فى اقامة أى وزن لمساعدة من الشام أو لغنائم من الروم، فقد كانت الحاميات الطولونية فى الشـــام تكلف الطولونيين نفقات طائلة ، كما أن الغنائم من الروم كان يستأثر بها الجند ولاتكاد خزينة الحكومة تستفيد منها شيئا •

ونرى أحمد بن طولون ومن بعده أبنه خمارويه يعمد الى السوق المالية فى مصر فيجعلها مطمئنة باصـــلاح العملة وســك الدينار الطولونى الذى يمتاز بثقل وزن الذهب فيه وخلوه من الغش والتزييف وذلك حتى تجرى المعاملات الاقتصادية فى جو من الثقة والطمأنينة •

وكانت السكة فى مصر قبل أحمد بن طولون تتبع سكة الخلافة• وكانت السكة تعتبر فى العالم الاسلامى من شارات الملك(١٥) وهى بلاشك ركيزة من ركائز الاستقلال الاقتصادى • ولم تستقل سكة مصر عن السكة المستعملة فى الخلافة الا بعد أن استقلت مصر على يد أحمد بن طولون • ولهذا نرى المقريزى يقول : « ومع هذا فان مصر لم تزل منذ فتحت دار امارة ، وسكتها انما هى سكة بنى أمية ثم بنى العباس الا أن الأمير أبا العباس أحمد بن طولون ضرب بمصر دنانير عرفت بالأحمدية »(١٦) •

والمعروف أن أحمد بن طولون أسس فى مصر دارا لضرب النقود حيث ضربت الدنانير التى عرفت بالأحمدية وامتازت بعيارها

---

(١٥) ابن خلدون : المقدمة (الفصل السادس والثلاثون فى شـــارات الملك والسلطان الخاصة به •

(١٦) المقريزى . النقود الاسلامية : ص ١٢ (وهو المعروف باســـم شذور العقود فى ذكر النقود القديمة والاسلامية ـ طبع القســـطنطينية ١٢٩٨ هـ) •

الجيد(١٧) • وقد احتفظت مصر للآن ببعض الدنانير الطولونية(١٨) • كما توجد دنانير من العصر الطولوني في دور حفظ مجموعات النقود « متولى دار الضـــرب » ، وكان الأمير أحمد بن طولون في بعض الأحيان يعهد بالاشراف على دار الضرب الى القاضى • والمعروف أن النقود كانت تضرب في مصر باسم الخليفة العباسي حتى سنة ٢٦٦ هـ (٨٧٩ ــ ٨٨٠ م) • أما النقود التي نعرفها من العصر الطولوني فقد ضربت في أماكن مختلفة مثل مصر ودمشق وحران وحمص وحلب وأنطاكية(١٩) •

(ب) الجيش والبحـــرية

حين جاء ابن طولون الى مصر في رمضـــان سنة ٢٥٤ هـ اصطحب معه تابعه ، الواسطي ، كما اصطحب معه بعض الجند وهذه عادة جرى عليها معظم ولاة مصر طوال عصر الولاة •

وقد لحظ ابن طولون حين وصل الى مصر أن ابن المدبر كان يعيش بها في أبهة وفخامة ومظهر جليل يفوق ما كان للولاة أنفسهم ، فكان يصحبه في غدواته وروحاته حرس من مائة غلام امتازوا بقوتهم

---

(١٧) المقريزى كتاب النقود الاسلامية . ص ١٢ ، والبلوى • سيرة احمد بن طولون . ص ١٩٦ (تحقيق محمد كرد على ــ دمشق ١٩٣٩ م) والأب أنستاس مارى الكرملى : النقود العربية وعلم النميات ص ٥٤ و ٥٧ (طبع القاهرة ١٩٣٩ م)
Dr. Zaky M. Hassan : Les Tulunides PP. 210 — 211.

(١٨) انظر : Lane-Poole (Stanley) : Catalogue of the Collection of Arabic Coins preserved in the Khedivial Library at Cairo PP. 135 — 136.

(١٩) انظر . دكتورة سيدة كاشف • أحمد بن طولون • ص ١٨٧ ــ ١٨٨ •

البدنية وحسن هندامهم ومظهرهم الرائع . وقدم ابن المدبر للقاء أحمد بن طولون محوطا بحرسه المذكور ، وقدم اليه هدية من نحو عشرة آلاف دينار فرفضها ابن طولون ، وعجب ابن المدبر من ذلك فانه لم يتعود قبل ذلك أن ترفض هداياه . ومالبث ابن طولون أن بعث الى ابن المدبر يبلغه أنه يسره أن يتقبل منه المائة حارس عوضا عن هديته لأن رئيس الحكومة وممثل الخليفة فى البلاد أحوج الى الحرس من المشرف على شئونها المالية .

ونحن لا نستطيع القول بأن أحمد بن طولون قدم الى مصر وفى عقله خطة مرتبة للاستقلال بها واقامة ملك عريض لبيته فيها ، ولكن الذى نستطيع أن نؤكده ان احمد بن طولون كان ذكيا طموحا عريض الآمال استفاد من مشكلات الخلافة وغيرها ، للتمكين لنفسه فى مصر وللاستقلال بها . وكان ابن طولون كثير العطايا والمنح لكسب الشخصيات المختلفة فى قصر الخلافة وفى مصر لتنفيذ مايريد . كذلك روى مؤرخو(٢٠) العصر الطولونى مدى عناية ابن طولون وبراعته فى الكشف عن الجواسيس الذين سيرهم أعداؤه لرصد أعماله والكشف عن أخطائه . وفوق هذا كله فقد عرف ابن طولون كيف يستفيد من النزاع بين الخليفة المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ) وبين أخيه الموفق ، وأن يستفيد من محاولات حكام شرق العالم الاسلامى للانفصال عن الخلافة العباسية ، وان يستفيد من ثورة الزنج فى البصرة ووادى الفرات الأدنى ، والتى شغل الموفق باخضاعها حتى تم له النصر بعد أربعة عشر عاما من قيامهم بالثورة ضد الخلافة العباسية .

فمثلا حين رغب الخليفة المعتمد أن تحمل اليه أموال مصر سرا وكتب الى ابن طولون يطلب اليه هذا ، انتهز ابن طولون الفرصة

---

(٢٠) انظر : البلوى : سيرة ابن طولون : ص ٥٩ .

وقال انه لايستطيع أن يوفر للخليفة ذلك الطلب الا اذا كان الخراج بيده ، فانفذ المعتمد نفيسا الخادم بتقليد خراج مصر والخراج بالثغور الشـــامية ٠

وكان من أهم أهداف أحمد بن طولون هو بناء جيش مصرى لا يعتمد على الخلافة ، وانما يدين بالولاء والطاعة لابن طولون ويكون عدته فى استكمال الاستقلال بمصر وفى تحقيق مشروعاته ٠ وواتت أحمد بن طولون الفرصة حين فكر الخليفة المهتدى (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ) فى أن يكل الى ابن طولون اخضاع أحد الولاة الثائرين فى الشام ٠ فقد حدث فى هذا الوقت أن أحمد بن عيسى بن شيخ الشيبانى والى فلســـطين والأردن كان قد توفى واستولى ابنه على أعماله وشق عصا الطاعة على الخليفة ، ثم استولى على سبعمائة وخمسين ألف دينار كانت مرحلة من مال مصر الى العراق ٠

وكان أحمد بن طولون لا يتأخر عن القيام بذلك لأن ابن الشيخ لم يكن ثائرا على الخلافة فحسب ، بل كان منافسا خطيرا وجارا مقلقا لابن طولون ، والظاهر انه كان يطمع فى ملك مصر ٠ ونص المقريزى فى الخطط ، على ذلك بعبارة مختصرة فكتب « وكانت الأمور قد اضطربت ببغداد فطمع ابن شيخ فى التغلب على الشامات وأشيع أنه يريد مصر » ٠

وبادر ابن طولون بتعبئة مالديه من الجند ، كما عنى بالاسراع فى تكوين جيش قوى يساعده فى اخضاع ابن الشيخ ويكون فى الوقت نفسه عدته فى نجاح قضيته الشخصية حين يرى الوقت مناســـبا لاثارتها ٠ ولذلك طلب ابن طولون اذن الخليفة فى شراء عدد كبير من العبيد الترك والسودان والحبش وسكان جزائر البحر المتوسط ٠

أما ابن الشيخ فقد أبى أن يعترف بسـلطان المعتمد ، وهو الخليفة الجديد . وعرض عليه المعتمد أن يوليه أرينية اذا قبـل الخضوع ونزح عن الشام فرفض . ولعل ابن الشيخ كان يريد الجمع بين الولايتين ، وأن يضيف اليهما مصر اذا استطاع الى ذلك سبيل . وذكر المقريزى فى هذه المسـألة رواية أخرى ، قال : « فلما قتل المهتدى فى رجب سنة ٢٥٦ هـ وبويع المعتمد بالله أحمد بن المتوكل لم يدع ابن شيخ له ، ولا بايع هو ولا أصحابه ، فبعث اليه بتقليد أرمينية زيادة على ما معه من بلاد الشام وفسح له فى الاستخلاف عليها والاقامة على عمله ، فدعا حينئذ للمعتمد » .

وعلى كل حال فان المعتمد كتب الى ابن طولون ليتأهب لحرب ابن شيخ « وأن يزيد فى عدته ، وكتب لابن المدبر أن يطلق له من المال ما يريد ، فعرض ابن طولون الرجال ، وأثبتت من يصلح ، واشترى العبيد من الروم والسودان ، وعمل سائر ما يحتاج اليه » .

وبعد أن تم كل هذا الاستعداد كتب احمد بن طولون الى ابن الشيخ يدعوه الى الخضوع فلم يفعل . واستخلف ابن طولون أخاه موسى على مصر ، وسافر على رأس جنده الى حدود فلسطين . ولعله كان حريصا كل الحرص على ابقاء جيشه سليما ليدفعه فى فرص أخرى اذا كان فى استطاعته أن يتجنب الحرب . فاننا نرى انه كتب مرة ثانية الى ابن الشيخ يدعوه الى الخضوع والى ارجاع المال الذى كان مرسلا من مصر الى العراق والذى اغتصبه حين مروره فى أرضه . ولما لم يتلق ابن طولون من خصمه ردا مرضيا استعد لمهاجمته ، ولكنه تلقى من الخليفة أمرا بالعودة الى مصر ، اذ عهد الخليفة بأمر اخضاع ابن الشيخ الى أماجور الذى أقطع الشام . فهل أدرك الخليفة فى اللحظة الأخيرة أن من الحكمة منع ابن طولون من التوغل فى الشام لئلا يضمها الى مصر ويستقل

بهما ؟! أو هل كان المطلوب التخلص من أماجور بتكليفه أن يخضع ذلك الثائر الخطر ؟!

وعلى أية حال فقد غنم ابن طولون من الأمر كله ، اذ رجع بجيشه كاملا وصار هذا الجيش فى يده أداة قام عليها سلطانه وسلطان ابنه خمارويه من بعده • وقدر المؤرخون فى مناسبات مختلفة الجيش الطولونى بمائة ألف جندى • وذكر ابن سعيد ان أحمد بن طولون خلف عند وفاته سبعة آلاف مولى وأربعة وعشرين ألف عبد • ولعل هؤلاء السبعة آلاف كانوا من أبناء مصر ، وان كلمة موالى كانت تعنى أبناء البلاد الاسلامية التى سيطر عليها العرب منذ القرن الأول الهجرى •

وكتب المؤرخ اليعقوبى أن كل الجنود الطولونية أقسمت يمين الطاعة لأحمد بن طولون فى سنة ٢٥٨ هـ (٨٧٢ م) •

ولم نسمع عن جند ابن طولون أى ثورة أو فتن ، ولاشك أن أحمد بن طولون استطاع أن يسيطر على الجيش وأن يحفظ النظام بين جنوده بفضل حزمه وكرمه وبعد نظره •

وعنى أحمد بن طولون بالأسطول عنايته بالجيش • ولكن لم تتضح الحاجة الماسة الى الأسطول الا بعد توسع أحمد بن طولون فى الشام ، اذ اضطر الى حماية شواطئه ومواجهة الهجوم البيزنطى ثم المحافظة على طرق الاتصال البحرى بين مصر والشام •

ولم يكن من الصعب على ابن طولون الاهتمام بالناحية البحرية وقد رأينا كيف كان لسكان مصر منذ فجر الاسلام الفضل فى الانتصارات البحرية التى كسبتها الخلافة ، وفى بناء السفن وتشييد دور الصناعات فى وادى النيل وفى أفريقيا وفى الشام •

وفى اعتقادنا أن المحافظة على البحرية المصرية أو انشـــاء أسطول مصرى فى زمن الطولونيين كان استمرارا لتاريخ مصـــر الحربى المجيد ، ولم يكن من الأمور الشاقة أو الصعبة مثل انشاء جيش قائم فى مصر حينذاك • والمعروف أن حملة أحمد بن طولون على الشام أتاحت له استخدام أسطوله بل انه أنشأ قاعدة بحرية فى عكا وحصن هذا الميناء على يد مهندس من بيت المقدس ، وهو جد المقدسى الجغرافى المعروف •

ولما تولى خمارويه بادر بارسال الأسطول الطولونى للسـهر على شواطىء الشام •

ويبدو أن عناية الطولونيين بالأسطول كانت كبيرة ، كما كانت عنايتهم بالجيش ، أما عن مراكب الأسطول المصرى فيقول المؤرخ ابن اياس ان عدة الأسطول الذى تركه أحمد بن طولون عند وفاته بلغت ألف سفينة •

(هـ) القطائع حاضرة الطولونيين

عرفنا أن أحمد بن طولون خرج لمحاربة ابن الشيخ فى الشام سنة ٢٥٦ هـ ثم ورد عليه كتاب الخليفة بالرجوع فعاد الى مصر • ثم بدأ أحمد بن طولون فى تأسيس حاضرة له وبدأ فى البنيان كما يقول الكندى فى شعبان من سنة ٢٥٦ هـ • واختط ابن طولون عاصمته الجديدة فى المكان الواقع فى سفح جبل يشكر الى الشرق من مدينة العسكر والى الشمال الشرقى من الفسطاط ، حيث توجد الآن قرة ميدان ، والمنشية ، وميدان صلاح الدين(٢١) •

---

(٢١) انظر دكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر • ج١ ص ٥٧ •

وكان تفكير أحمد بن طولون فى ترك دار الامارة بمدينة العسكر أو فى الفسطاط يمثل اتجاهه الجديد فى الاستقلال بمصر وفى رغبته فى منافسة بلاط العباسيين ٠

وقد اتخذ ابن طولون أولا لنفسه قصرا فى هذه الحاضـــرة الجـديدة جعل أمامه ميدانا فســـيحا على نمط ما كان فى مدينة سامراء ٠ ثم اختط ابن طولون الأراضى المحيطة بذلك الميدان وأقطع كلا من كبار دولته وقواده وفئات جنده ومن احتاجوا اليهم من صناع وتجار قطيعة ، فصارت كل قطيعة خاصة بأبناء الفئة الحـــربية الواحدة ، أو أبناء الصناعة الواحدة ، أو ابناء الجنس الواحد مثل قطيعـــة الـــروم وقطيعـــة الســـودان وقطيعة البزازين وقطيعة الخبازين ٠٠٠ الخ ٠٠

وســــميت هذه الحاضرة الجديدة باسم القطائع ٠ ولم يكن التخطيط أو الاسم غريبا ، اذ كان تخطيط القطائع يشبه الى حد كبير تخطيط سامراء ٠ كذلك كان يطلق اسم القطائع على مدينة سامراء التى بناها المعتصم اللهم الا القصور الملكية ٠

وأكبر الظن أن مهندسى القصور الطولونية نحوا فى بنائها نحو قصور الخلفاء فى سامرا ٠ وكان لقصر أحمد بن طولون عدة أبواب كبيرة ، وكان لكل باب منها اسم يدل أحيانا على الجهة التى يؤدى اليها ، أو على نوع الخدم . وذلك كما كان متبعا فى قصور سامراء ٠ وكان أهم أبواب القصر كما ذكر المقريزى فى الخطط : باب الميدان ومنه كان يمر الجند ، وباب الخاصة للمقربين من الأمير ، وباب الصوالجة وكان يؤدى الى الميدان الكبير المخصص للعب الصوالجة، وباب الحرم الذى كان لا يدخل منه الا النساء أو الخصيان ، وباب الصلاة وكان يوصل الى جامع ابن طولون ٠٠ الخ ٠٠

ولم تبق القطائع مدة طويلة مقر الأمير وخدمه وحشمه ورجال بلاطه وجيشه وحكومته فحسب ، بل مالبث أن اتسع نطاقها وزادت عمارتها . وذكر مؤرخو مصر الاسلامية انها أصبحت مدينة كبيرة زاهرة وأنشئت فيها المساجد الجميلة والحمامات والأفران والطواحين والشوارع والحوانيت والمنازل وغير ذلك مما نجده فى المدن الكبرى، وامتدت عمارتها حتى اتصلت بمدينة الفسطاط .

ويظهر من تخطيط القطائع أن أحمد بن طولون لم يرد أن يجعلها مدينة حربية حصينة يغلب عليها الطابع العسكري ، مثلما كانت بغداد حين بناها أبو جعفر المنصور ، وانما نرى أحمد بن طولون يتجه اتجاه الخليفة العباسى المعتصم حين بنى سامرا . اذ اتجه المعتصم فى بناء سامرا الى الابداع فى البناء وسائر الفنون الصناعية والزخرفية ليجعلها أكبر منافس لبغداد . وكذلك فعل أحمد بن طولون فى بناء القطائع ليجعلها تنافس سامرا وبغداد .

وكان سقوط الأسرة الطولونية ايذانا بسقوط هذه الحاضرة الجديدة وتخريبها . ولكن ذكراها لاتزال قائمة بفضل المسجد الجامع الذى كان يقوم فيها .

ونلاحظ أن انشاء القطائع لم يقض على العسكر أو الفسطاط ، فمع أن الناس كانوا يعتبرون العسكر مدينة قائمة بذاتها وكذلك القطائع الا أنهما لم تكونا فى الحقيقة الا ضاحيتين للفسطاط أو امتدادا لها . وظلت الفسطاط المركز الأعظم للحياة المصرية ، بل ان المبانى الحكومية القديمة لم تهجر تماما ، فمثلا أصبحت دار الامارة التى كان يسكنها الأمراء العباسيون فى العسكر ، أصبحت ديوانا للخراج فى عصر الطولونيين .

(د) جامع ابن طولون

أراد أحمد بن طولون أن يكون له مسجد جامع كبير يتضاءل الى جانبه جامع عمرو بن العاص وجامع العسكر ويكون عنوانا لعظمة الأمير ولرخاء البلاد فى عصره · فاختار أحمد بن طولون مكانا لهذا الجامع على جبل يشكر(٢٢) لأن المصريين كانوا يعتقدون أن موضـــع هذا الجبل مبارك ويزعمون أن الله عز وجل كلم موسى عليه(٢٣) · وفضلا عن ذلك فقد كان مكان الجامع يتوسط القطائع عاصمة ابن طولون الجديدة ·

واختلف المؤرخون فى تاريخ انشاء الجامع ولكن السنين التى ذكرها المؤرخون متقاربة وتؤكد ان أحمد بن الطولون لم يبدأ فى منشآته العامة ومشاريعه العمرانية الا بعد أن أصبحت مصر كلها تحت سلطانه · فذكر ابن دقماق وأبو المحاسن أن الشروع فى تشييد المسجد كان فى سنة ٢٥٩ هـ ، أما المقريزى فذكر أن بداية بنيان الجامع كان فى سنة ٢٦٣ هـ · واختلف المؤرخون فى تاريخ الانتهاء من بناء الجامع اختلافا بسيطا ، فذكر المقريزى أن الفراغ من بناء الجامع كان فى سنة ٢٦٥ هـ ، وهذا التاريخ وارد فى الكتابة التاريخية

---

(٢٢) يذكر ابن دقماق فى كتابه الانتصار لواسطة عقد الأمصار ان يشكر كان رجلا صالحا ، أما المقريزى فى الخطط ، والقلقشندى فى صبح الأعشى فيذكران نقلا عن القضاعى، ان هذا الجبل نسبة الى يشكر بن جديلة من قبيلة لخم التى اتخذت خطتها فى هذا الجبل بعد أن تم للعرب فتح مصر ·

(٢٣) انظر الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ص ٣٨ وما ذكره من مراجع
ص ٣٧ وماذكره من مراجع ·

التى وجدت فى الجـــامع منقوشـــة بالخط الكوفى على لوح من الرخام(٢٤) ٠

أما مهندس الجامع فيذكر المقريزى انه كان رجلا نصـــرانيا حسن الهندسة حاذقا بها ٠ وأكبر الظن أن هذا المهندس كان مسيحيا من العراق ، لأنه لو كان من مصر لما أغفل المقريزى أن ينص على أنه قبطى ، ولو كان بيزنطى الأصل لقال المقريزى انه رومى ٠

ولاشك أن هندسة بناء الجامع وزخارفه الجصية تدل على أن المهندس الطولونى أتى من سامرا ، أو كان خبيرا بما ازدهر فيها من العمارة والفنون ٠

وبين جدران الجامع وسوره الخارجى ثلاثة أروقة خارجية تسمى الزيادات ٠ ويعلل ابن دقماق بناء هذه الزيادات بأنه لما ضاق الجامع بالمصلين أمر أحمد بن طولون ببنائها ، ومثل هذه الزيادات كانت موجود فى الجامع الكبير بمدينة سامراء وفى مسجد أبى دلف بالعراق أيضا ٠٠

وأهم مايمتاز به جامع احمد بن طولون هو مئذنته أو منارته التى تقع فى الرواق الخارجى الغربى ، وتكاد لا تتصل بسائر بناء الجامع ٠ وهى مشيدة من الحجر وتتكون من قاعدة مربعة تقوم عليها طبقة أسطوانية عليها أخرى مثمنة ٠ وأما السلالم فمن الخارج على شكل مدرج حلزونى ٠ وليس لهذه المنارة نظير فى البـــلاد الاسلامية اللهم الا فى الجامع الكبير وفى مسجد أبى دلف فى سامرا وذكر المقريزى وابن دقماق أن احمد بن طولون لما عقد العزم على تشييد الجامع قال : اريد أن أبنى بناء ان احترقت مصر بقى وان

---

(٢٤) انظر . الدكتور زكى محمد حســن : الفــن الاســلامى فى مصر . ص ٣٧ وما ذكره من مراجع ٠

غرقت بقى . فقيل له « يبنى بالجير والرماد والآجر الأحمر القوى النار الى السقف ، ولا يجعل فيه أساطين رخام فانه لا صبر لها على النار » فبناه هذا البناء ٠

والحق أن جامع أحمد بن طولون يعتبر من أهم وأقدم الآثار العربية فى مصر ، ذلك أن جامع عمرو بن العاص وهو أقدم جامع فى مصر، لم يبق على حاله كما كان فى عصر بنائه اذ أدخل عليه على مر العصور الاسلامية اصلاحات كثيرة وأضيف اليه من الأبنية ما غير معالمه ٠ أما جامع أحمد بن طولون فقد احتفظ تقريبا بكل تصميماته الأولى وأصـــبح البناء الوحيد الذى توافرت فيه هذه الشروط فى مصر والشام قبل العصر الفاطمى(٢٥) ٠ وقد قامت ادارة حفظ الآثار العربية فى مصر بتجديد هذا الجامع واعادته الى صورته الأولى وأصابت فى ذلك نجاحا يدعو الى الفخر ٠

ولم يكن جامع ابن طولون للصلاة فقط وانما كان مدرســـة للعلوم الدينية ، ومحـــلا تعلن فيه أمور الدولة ، ومكانا تعقد فيه المحاكم ٠ وجعل ابن طولون فى جامعه ميضأة ، وخزانة بها الأدوية والأشربة التى قد يحتاج اليها المصلون وعين له طبيبا خاصا يقوم بمداواة ما قد يطرأ على المصلين ٠ ولم يضن ابن طولون على جامعه الكبير « بسلاسل النحاس المفرغة والقناديل المحكمة ، وفرشه بالحصر العبدانية والسامانية »(٢٦) ٠

---

(٢٥) الدكتور زكى محمد حسن الفن الاسلامى ٠ ص ٣٥ و ٥٤ ٠

(٢٦) المقريزى : الخطط . ج٢ ص ٢٦٥

(هـ) قناطر ابن طولون

والبيمارستان وانشاءات واصلاحات أخرى

شيد أحمد بن طولون فى الجهة الجنوبية الشرقية من القطائع قناطر للمياه لاتزال بعض عقودها قائمة ٠ وكان الماء يســـير فى عيونها الى القطائع ٠ ويروى مؤرخو مصر الاسلامية ـ على عادة مؤرخى العصور الوسطى ـ القصص والأساطير التى تشير الى بناء هذه القناطر(٢٧) ٠

والحق أن عاصمته الجديدة كانت محتاجة الى تدبير المياه لها والى توفير كل سبل الراحة لساكنيها ٠ وقد أشار المشيرون على أحمد بن طولون أن يجرى الماء من عين ابى خليد ، فاعترض قائلا : بأن هذه العين لا تعرف ابدا الا باسم أبى خليد وأنه يريد أن يستنبط بئرا تنسب اليه فعدل عن العين الى الشرق وبنى عليها القناطر ٠ وكانت هذه القناطر شبيهة بالقناطر الرومانية المرفوعة وســـماها المؤرخون المسلمون باسم السقاية ٠

وتطلبت هذه القناطر مجهودا كبيرا وأموالا ضخمة وكانت من المتانة والابداع بمكان كبير ٠ وكان بناء هذه القناطر بآجر يماثل فى الشكل والحجم آجر الجامع الطولونى ٠ ونعرف أن المهندس الذى تولى لابن طولون بناء هذه العيون هو الذى شيد له بعد ذلك المسجد الجامع ٠

---

(٢٧) انظر . المقريزى : الخطط : ج٢ ص ٤٥٧

وأنشأ ابن طولون المارستان(٢٨) للمرضى فى أرض العسكر سنة ٢٥٩ هـ وجعل له حمامين ، خص أحدهما بالرجال والآخر بالنساء ، وأباحهما مجانا للناس على اختلافهم من غير تمييز فى الأديان والمذاهب وكان هذا البيمارستان لعامة الشعب وشرط أحمد ابن طولون الا يعالج فيه جندى ولا مملوك • وأدخل ابن طولون فى هذا المارستان ضروبا من النظام جعلته فى مستوى أرقى المستشفيات فى الوقت الحاضر •

فكان المريض اذا دخل تنزع ثيابه ويودع ما معه من المال عند أمين المارستان ثم تقدم له ثياب أخرى وينزل به فى مكان تتوافر فيه وسائل الراحة ، كما كان يعطى الأدوية والاغذية مجانا حتى يتم شفاؤه • وبلغ من عناية ابن طولون بهذا المارستان وحرصه على راحة المرضى ، أنه كان يتفقده بنفسه كل يوم جمعة فيطوف على خزائن الأدوية ويتفقد أعمال الأطباء ويشرف على المرضى ويبالغ فى مواساتهم وادخال السرور عليهم •

ولم تكن هذه الانشاءات العظيمة هى كل ما فعله أحمد بن طولون من أجل مظاهر استقلاله ، أو من أجل المصريين ، وانما قام ابن طولون بكثير من التعمير والاصلاح الذى ينم عما ينتظر من أمير يريد تأسيس مملكته فى قلوب الناس • فقد ذكرت المصادر التاريخية كثيرا من أوصاف هذه المنشآت • ومن تلك المنشآت مسجد التنور الذى أقامه ابن طولون فى أعلى جبال المقطم بعد ان ضاق جامع العسكر بالمصلين من جند الأمير وعامة الشعب •

---

(٢٨) ليس المقصود بالمارستان أو البيمارستان ان تكون المستشفى وقفا على المصابين بالأمراض العقلية وانما عرفت المستشفيات فى الدولة الاسلامية باسم البيمارستان أو المارستان ، واصل اللفظ فارسى فمعنى بيمار « مريض » ومعنى ستان « موضع » أو « دار » •

كذلك أصلح ابن طولون مقياس النيل بالروضـــــة ، كما قام بتطهير الخليج الذى ربط الاســـكندرية بنهر النيل · ومن ضمن اصلاحاته أيضا اصلاح منارة الاسكندرية ·

وقد استغرقت هذه الأعمال البنائية مدة طويلة وأموالا كثيرة ·· وهكذا لم يعد دخل مصر يتسرب الى بيت مال الخلافة أو الى جيوب الولاة وأصحاب الاقطاع ، بل بقيت أموال مصر فيها وبدأ وادى النيل حياته لنفسه فى مجموعة الأمم الاسلامية ·

وقد استكمل خمارويه بن أحمد بن طولون منشـــآت أبيه ، وتطورت الحياة فى مصر تطورا كبيرا ، وظهر فى القطائع مظاهر الترف والثراء العريض الذى حققه استقلال مصر واتساع سلطانها · وظهرت القطائع منافسة لسامراء ، وبدا البلاط الطولونى فى مستوى لا يقل عن مستوى بلاط الخليفة من حيث التقاليد والمظهر والحياة ·

وقد زاد خمارويه فى القصر الذى بناه أبوه ووسع فيه كثيرا · وبنى فى القصر قبة سماها « الدكة » جعلها على مثال « قبة الهواء » التى أنشأها حاتم بن هرثمة عامل الأمين العباسى على جبل المقطم حيث قلعة الجبل الآن · وكان خمارويه ، ومن أتى بعده من الأمراء يختلفون الى هذه الدكة طلبا للراحة وتبديل الهواء ·

وكان خامرويه مولعا بالبساتين فحول الميدان الذى أمام القصر الى بستان كبير زرع فيه أنواعا فريدة من الزهور ، وبالغ فى تزيين بستانه ، وجعل خمارويه فى هذا البستان مجلسا له سماه دار الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد ونقشت بنقوش جميلة ·

كذلك اتخذ خمارويه دارا للسباع وجعل لكل سبع بيته الخاص وكلها تفضى الى قاعة فسيحة ·

كذلك نعرف أن أحمد بن طولون اهتم بسباق الخيل وكان الميدان مسرحا لسباق الخيل ، وكان ابن طولون يتخذ الاصطبلات العظيمة لكرائم الجياد · ويذكر المقريزى فى الخطط ، أنه فى عهد خمارويه أصبحت حلبات السباق تقوم مقام الأعياد ، وبلغت فى عهده حدا من الروعة جعل القضاعى يعتبرها من عجائب الاسلام ·

والحق أن البلاط الطولونى ظل ماثلا فى الأذهان ، وحين استقل محمد بن طغج الاخشيد بمصر قلد الكثير من مظاهر حياة الطولونيين وسار على نهجهم وأحيا تقاليد بلاطهم ·

وقد أشار المؤرخ أبو المحاسن ابن تغرى بردى ، الذى عاش فى عصر المماليك فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى)، الى عظمة الأعياد فى العصر الطولونى ، وذلك عندما تحدث عن حلبة السباق فى عهد خمارويه وقال انها كانت تقوم عند الناس مقام الأعياد لكثرة الزينة وركوب سائر الجند والعساكر بالسلاح ، وان الناس كانوا يجلسون لرؤية ذلك كما يجلسون فى الأعياد · وعلق على ذلك بقوله : « والتشبيه أيضا بتلك الأعياد لا بأعياد زماننا هذا فان أعيادنا الآن كالمآتم بالنسبة لتلك الأعياد السالفة »(٢٩) ·

---

(٢٩) انظر : المقريزى · الخطط : ج١ ص ٣١٨ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج٣ ص ٥٢ وما بعدها ·



٤ ــ أحمد بن طولون يؤسس امبراطورية مصريــة اســلاميــة

عرفنا كيف أدرك أحمد بن طولون أن فى استطاعته الاستقلال بشئون مصر ، فقد كانت حكومة العراق قد تطرق اليها الضعف ، كما قام الزنج فى اقليم البصرة بثورة خطيرة فى عهد الخليفة المهتدى وبلغت هذه الثورة غايتها العظمى فى حكم المعتمد الذى هجر سامراء وأعاد مقر الحكم الى بغداد ٠ وكان يجمع شمل الزنج رجل يدعى أنه علوى النسب وينعت بالخبيث أو صاحب الزنج ، وظل القتال بينهم وبين جند الخليفة نحو أربعة عشر عاما ٠ كذلك قامت ثورات اقليمية أخرى فى بعض أنحاء الدولة الاسلامية كتلك التى كانت تحدث فى ايران وفى بلاد الشام ٠

وكان صاحب الأمر والنهى فى الخلافة العباسية هو الموفق أخ الخليفة المعتمد الذى لم يكن له من الأمر شيء ٠

واذا أردنا أن نصف حكم المعتمد فليس أفضل من النظر فى هذه السطور المقتبسة من كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية لابن طباطبا : « كان المعتمد مستضعفا ، وكان أخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب على أموره ٠ وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع ،

كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة ، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بأمرة المؤمنين ، ولأخيه طلحة الأمر والنهى وقود العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء وكان المعتمد مشغولا عن ذلك بلذاته »(١) ·

والواقع أن هذا الحكم الثنائى فى عهد المعتمد كان له خطره فى تاريخ مصر · واستطاع أحمد بن طولون بذكائه وقوة شخصيته أن يستغل هذا الوضع وأن يناضل الموفق دون الخليفة نفسه · فكان الموفق يلح فى طلب المساعدة المالية من أحمد بن طولون ، ولكن حاكم مصر لم يقدم ما كان ينتظره أخو الخليفة ونائبه ، فدب الخلاف بينهما وكان هذا ايذانا بعصيان ابن طولون واستقلاله بمصر وفى توسيع حدودها بعد ذلك ·

وقد كتب الموفق كتابا يعنف فيهابن طولون ، فرد عليه ابن طولون ردا خشنا ظهرت فيه روح الاستقلال والاعتداد بالنفس ·

ولم يرد ابن طولون الا بعد أن جمع مجلسا حربيا من أعوانه ورجال الشرع فى البلد ، وظهر فى كتاب ابن طولون براعة ومهارة كاتبه ، ابن عبد كان(٢) · وبرغم تأدب كاتبه فى اختيار العبارات والفاظ الا أنه بين فضل أحمد بن طولون على الدولة العباسية ، وأنه يعمل على صيانتها والذب عنها ·

---

(١) انظر : ابن طباطبا (أو ابن الطقطقى) . الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية : ص ٢١٤ (طبع القاهرة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٧ م)

(٢) ترك لنا المقريزى فى كتابه الخطط نصا مختصرا من هذا الكتاب · ولكن ابن سعيد حفظ لنا النص فى كتابه « المغرب فى حلى المغرب » نقلا عن سيرة احمد بن طولون لابن الداية ، الذى كان معاصرا للدولة الطولونية : انظر : ابن سعيد . المغرب فى حلى المغرب · ص ٩١ ـ ٩٢ (عنى بنشره وتحقيقه والتعليق عليه ، الدكتور زكى محمد حسن والدكتور شوقى ضيف والدكتورة سيدة كاشف ـ مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣ م) ·

وطبيعى أن الموفق غضب من رد ابن طولون أشد الغضب ، وارسل جيشا لاخضاع ابن طولون أو طارده من مصر • غير أن هذا الجيش العباسى لم يجاوز مدينة الرقة ، وذلك بسبب ضعف الجند وقلة المال اللازم لتموينهم •

ولا ريب فى أن فشل جند العراق فى الوصول الى مصر واخضاع واليها ، يعتبر فجرا لعصر جديد فى حياة ابن طولون بل وفى تاريخ مصر العربية الاسلامية •

وهكذا نرى أن ابن طولون تغير مركزه كل التغيير فى مدة خمس سنوات منذ مجيئه الى مصر فى سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م نائبا عن صاحب اقطاع مصر •

والحق أن تاريخ أحمد بن طولون وتاريخ أسرته من بعده ليس فى الحقيقة الا صراعا بينهم وبين الخلافة العباسية أو الحاكمين باسم الخليفة • واذا عرضنا لمسألة التقليد والحق الشرعى بالنسبة لأحمد بن طولون نرى أن الخليفة لم يعينه قط حاكما عاما على مصر • فقد ذكرنا انه قدم اليها نائبا عن واليها باكباك (زوج أمه) ، وظل فيها بعد وفاة باكباك واقطاع مصر ليارجوخ حميه • وبعد وفاة الأخير تعقدت الأمور ولم يشأ ابن طولون أن يترك حكم مصر ، واستغل لمصلحته الخلاف بين المعتمد والموفق ، واستطاع بعطاياه وهداياه أن يجعل حكومة العراق تتركه مؤقتا حتى تحين الفرصة للتخلص منه • ثم اعترف به الخليفة نائبا عن ابنه جعفر الذى كانت مصر من نصيبه فى الاقطاع(٣) ، وأضاف اليه فضلا عن ذلك ولاية

---

(٣) حين ولى الخليفة المعتمد سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) أرسل الى اخيه الموفق يستدعيه من مكة وكان قد نفى اليها من قبل • وفى سنة ٢٥٧ هـ قسم الدولة قسمين ، ولى على القسم المغربى ولده جعفر ولقبه المفوض ، وهذا القسم يشمل مصر والمغرب ولما كان جعفر لم يزل صغيرا فقد عين موسى بن بغا عونا له • اما القسم الشرقى من الدولة ويشمل الكوفة =

الخراج وحكم الثغور الشامية والعواصم(٤) · ولما لم يرسل أحمد بن طولون الى الموفق المبلغ الذى كان ينتظره ، وانما بعث اليه بكتابه المشهور ، أراد الموفق أن يولى على مصر أماجور ، حاكم الشام ، بالاتفاق مع موسى بن بغا الوصى على اقطاع جعفر المفوض · وقامت حملة الى مصر بقيادة موسى بن بغا ، ولكنها توقفت ، كما مر بنا ، عند الرقة ، وأصبح أحمد بن طولون بذلك السيد الفعلى لوادى النيل(٥) ·

والملاحظ ان أحمد بن طولون ظل دائما معـــترفا بالخليفة العباسى المعتمد ، وربما كان ذلك لأن المعتمد لم يكن فى يده من السلطان شىء ، بل ان أحمد بن طولون أراد أن يظهر بمظهر المدافع عن المعتمد ضد أخيه الموفق · وهذه مسألة هامة ، فان أحمد بن طولون كان فى أكثر الأحيان أقوى من الخليفة نفسه ولكنه كان يحرص على ارضائه لأن الاعتراف بالخيلفة كان لايزال له شأنه عند العامة والخاصة ، وكان الخليفة يتمتع بنفوذه وسيادته الروحية والدينية بالرغم من انقسام العالم الاسلامى الى دول ودويلات صغيرة

= والحجاز والحرمين واليمن وبغداد وواسط والبصرة والأهواز فقد ولى عليه أخاه أبا أحمد الموفق طلحة · ولم يقنع الموفق بهذه السلطات او بالعقد الذى علقه أخوه فى جوف الكعبة ، فقد بايعه المعتمد وليا للعهد بعد ابنه المفوض ، ودعا له على منابر العالم الاسلامى · (انظر · الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج٧ ص ٥٩٨ ـ ٥٩٩ ، والبلوى : سيرة ابن طولون : ص ٣٩ ، وابن طباطبا . الفخرى . ص ٢٠٤ و ٢١٤ ، وابو المحاسن : النجوم الزاهـــرة : ج٣ ص ٥٤) ·

(٤) الثغور والعواصم : هما خطا الدفاع الأمامى والخلفى بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية ·

(٥) انظر : دكتورة سيدة كاشف : احمد بن طولون : ص ١١٥ ·

مستقلة . فكان أحمد بن طولون يدعو للخليفة فى الخطبة على المنابر وينقش اسمه على النقود التى كانت تضرب بمصر .

وكانت وفاة « أماجور » والى الشام فى سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) فرصة انتهزها أحمد بن طولون لتحقيق أطماعه ،ولكنه كان لا يريد أن يبدأ حملته عليها بدون سبب يستند اليه ويبرر به هذه الخطوة الجريئة . ولذا فانه أعلن رغبته فى الجهاد ، وفى حماية حدود الدولة الاسلامية ضد البيزنطيين فى آسيا الصغرى . ثم كتب كتاب تعزية الى على بن أماجور وأبلغه فيه انه قادم الى بلاده للاشراف على الثغور ، وطلب اليه أن يقيم الانزال والضيافة لجنده .

ولم يجد على بن أماجور واتباعه بدا من الخضوع . وترك أحمد بن طولون على مصر ابنه الأكبر العباس ومعه الواسطى يساعده بالرأى والمشورة ككاتب ووزير له .

ثم سار أحمد بن طولون على رأس جنده الى الشام . وكان الموفق ، وهو الرجل الوحيد آنئذ الذى يستطيع مقاومة ابن طولون ، لايزال مشغولا بحروب الزنج .

وخضعت دمشق لابن طولون ، وأمر على بن أماجور والوصى عليه أحمد بن دوغباش ، بالدعاء فى الصلاة لابن طولون . وكذلك خضعت له حمص وحماه وحلب . وخضعت انطاكية عنوة ، ودخلها ابن طولون فى سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م – ٨٧٩ م) . وانتهى المطاف بابن طولون الى طرسوس ، ذلك الثغر الذى أمضى فيه ابن طولون زمنا من شبابه بين العلماء والمجاهدين . ويذكر المؤرخ ابن الداية أن أحمد بن طولون دخل طرسوس « فى خلق كثير وعز منيع »(٦) .

---

(٦) انظر : ابن سعيد : المغرب : ص ١١٧ .

وبلغ نفوذ أحمد بن طولون الغاية ، فوصلت قواته الى حران وما جاورها ، ووصلت قوات أخرى الى الرقة بقيادة لؤلؤ . وتذكر الروايات التاريخية ان أحمد بن طولون كان ينوى الغزو ضد البزنطيين لولا ما بلغه من ثورة ابنه العباس فعاد الى القطائع فى سنة ٢٦٥ هـ .

وقد ذكرنا أن أحمد بن طولون حين خرج الى الشام فى سنة ٢٦٤ هـ استخلف ابنه العباس على مصر . وتذكر الروايات التاريخية ان بطانة العباس حسنوا له التغلب على مصر والفتك بأحمد بن محمد الواسطى . ونحن لا نستبعد أن يكون الموفق قد عمد الى تدبير ذلك الأمر عن طريق عيونه فى مصر ، وذلك لخلق الاضطرابات والشغب فى حكومة ابن طولون ، ولينال منه بهذه الوسيلة ما لم يستطع أن يناله بالقانون أو بالقوة .

وخرج العباس من مصر الى برقة بعد أن استولى من بيت المال على مليونى دينار واقترض من كبار التجار مائتى ألف دينار وكلف أبا أيوب العامل على الخراج أن يسددها من الضرائب الجديدة .

وفى ذلك الوقت عاد أحمد بن طولون الى مصر ودخل الفسطاط فى رمضان سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٩ م) . وأرسل ابن طولون الى ابنه من يستميله ويذكره بواجب الأبناء فلم يعد وأبى(٧) . فأرسل اليه ابن طولون جيشا هزمه وأعوانه فى برقة وأعاده الى مصر .

وجىء بالعباس وبطانته الى الفسطاط فى سنة ٢٦٨ هـ .

---

(٧) انظر نص كتاب احمد بن طولون الى ابنه والذى صاغه ابن عبدكان فى : القلقشندى . صبح الأعشى . ج ٧ ص ٥ ـ ١٠ .

وأمر أحمد بن طولون بضرب ابنه ومن أغروه على الخروج والعصيان بالسياط حتى مات بعضهم من الضرب وزج بابنه فى السجن .

وهكذا بلغ أحمد بن طولون أوج عظمته حين تم له النصر فى حملته على الشام ، وأعقب ذلك بالتوفيق فى اخضاع ابنه العباس . ولذا فقد بدأ منذ ذلك التاريخ باضافة اسمه الى اسم الخليفة على السكة ، وكانت النقود تضرب فى مصر باسم الخليفة وحده حتى سنة ٢٦٦ هـ (٨٧٩ ـ ٨٨٠ م) ، ولم يضف ابن طولون الى اسم الخليفة ، اسم الموفق ، كما كان يفعل سائر الولاة فى أنحاء العالم الاسلامى .

ولكن اسم الموفق كان يذكر فى مصر فى خطبة الجمعة بوصفه وليا للعهد بعد المفوض . وقد خرج أحمد بن طولون ثانية الى الشام فى سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢ م) وذلك ليؤدب لؤلؤا أمير الرقة من قبل ابن طولون ، الذى انضـم الى الموفق واعترف بسلطانه . وكان ابن طولون قد عهد الى لؤلؤ بحكم حلب وقنسرين وحمص وديار مضر

ولا نعتقد أن رجوع ابن طولون الى الشام فى هذه المرة كان بقصد توسع جديد ، وانما أراد ابن طولون أن يثبت سيادته فى البلاد التى ضمها الى مصر بعد أن كادت تخرج من السلطان المصرى على أثر خيانة لؤلؤ وانضمامه الى الموفق . كذلك كان الموفق قد قارب الانتصار على الزنج وأصبح من المتوقع أن يواجه أحمد بن طولون بقوته كاملة .

وكان أحمد بن طولون يأمل فى خروجه فى هذه المرة أيضـا أن يجذب الخليفة العباسى المعتمد الى وادى النيل فينقل بذلك مقر الخلافة الى مصر . وكتب الى الخليفة بذلك من مصر فى سـنة

٢٦٩ هـ(٨) · واستخلف ابن طولون على مصر تلك المرة ابنه خمارويه ··

وواضح مما رواه ابن الداية في سيرة أحمد بن طولون ، أن أمير مصر لم يفكر في هذه الخطوة الجريئة الا بعد أن علم بخلع لؤلؤ وانحيازه الى الموفق · ولم يكن من السهل على ابن طولون أن يرى كفاح السنين المتواصل ينهار أمام عينيه ، ولذلك نراه يضرب ضربة جريئة علها تكون قاضية على الموفق والاعيبه ، وفي الوقت نفسه تحفظ له ملك مصر ونفوذه في الشام بل تعطى مصر حق زعامة العالم الاسلامى حينئذ حين تصبح مقرا للخلافة العباسية ·

وبينما كان ابن طولون في دمشق سنة ٢٦٩ هـ أتاه كتاب الخليفة المعتمد بأنه سائر اليه · وتظاهر الخليفة بالخروج للصيد . وكان الموفق لايزال يحارب صاحب الزنج ، واتجه الخليفة صوب الرقة ، ولكن عيون الموفق أبلغوه الخبر · فأرسل الموفق الى اسحق به كنداج ، عامل الموصل ، يأمره باللحاق بالخليفة ويعده بالأموال والاقطاعات · ولا أدل على هلع الموفق واضطرابه حينئذ مما قاله حين أرسل اسحق بن كنداج للحاق بالخليفة « اذا تم هذا الأمر استولى أحمد بن طولون على أمره فلم يكن لكم ، ولا لأحد منكم مقدار ·· فيكون ذلك سببا في زوال دولة بنى العباس »(٩) ·

ولحق اسحق بن كنداج بالخليفة عند الحديثة قبل أن يخرج من حدود العراق ، وأقنعه بأن ما عزم عليه هو الخطأ ، وذلك بعد أن قيد أتباعه · وعاد الخليفة الى سامرا شبه سجين في شعبان سنة ٢٦٩ هـ وعقد بعدها الموفق لاسحق بن كنداج على مصر ·

---

(٨) انظر : ابن سعيد : المغرب : ص ١٢٦ ١٢٧ ·
(٩) انظر : البلوى : سيرة احمد بن طولون . ص ٢٩٠ ·

وكان قرار الموفق بتولية اسحق بن كنداج على مصر مجرد حبر على ورق ، وكان شبيها بقرار أمير المؤمنين على بن أبى طالب بعزل معاوية عن الشام وهو اذ ذاك ملك غير متوج عليها · فابن طولون لم يصبح مجرد وال على ولاية عباسية ، وانما كان حينئذ ، امبراطورا على امبراطورية واسعة امتدت الى حدود العراق فى الشرق ، وجبال طوروس فى الشـــمال ، وطرابلس فى الغرب · وأصبحت مصر الاسلامية حصن الاسلام وخط دفاعه الأول ·

ولهذا نرى أحمد بن طولون يتصرف حينئذ تصرفا لا يدهشنا ، فنراه يعقد مؤتمرا فى دمشق ويأمر عامله بأن يدعو القضاة والفقهاء والأشراف من كافة أنحاء دولته الواسعة ، لأن أبا أحمد الموفق نكث بيعة المعتمد وأسره · وحينما اكتمل الاجتماع فى دمشق فى ذى القعدة سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٣ م) ، أمر أحمد بن طولون بكتاب خلع فيه أبا حمد الموفق من ولاية العهد لمخالفته المعتمد وأسره له · وشهد على ذلك جميع من حضـــر الا بكار بن قتيبة ومحمد بن ابراهيم الاسكندرانى وفهد بن موسى(١٠) ·

ولم يكتف ابن طولون بذلك ، بل جرد حملته المشهورة على الحجاز ليمنع من أن يدعى للموفق على منابر مكة(١١) ·

وحين بلغ الموفق ما فعله ابن طولون ، لم يستطع عمل شىء الا أن يأمر عماله بلعن ابن طولون على المنابر · وأجاب ابن طولون على ذلك بأن أمر بلعن الموفق على منابر مصر والشام ·

لكن الموفق لم يكن قادرا على عدوان جديد ، فاتصل بابن طولون يعاتبه على المبادرة بخلعه ويعتذر له على ما كان من لعنه على

---

(١٠) انظر : الكندى : الولاة والقضاة : ص ٢٦٦

(١١) انظر : البلوى : سيرة ابن طولون : ص ٢٩٨ ·

منابر بغداد · ولم يكن من ابن طولون ، بعد أن تأكد من صدق رغبة الموفق ، الا أن جنح الى المســالمة واعتذر اليه · وطرب الموفق لاستجابة ابن طولون ، وأطلق المعتمد من محبسه ·

ولما فرغ ابن طولون من مؤتمر دمشق وما كان فيه ، سار نحو طرسوس لتأديب عاملها الثائر ، وكان الفصل شتاء ، ووجد ابن طولون مشقة فى القتال فاضطر الى التراجع عن طرســوس الى المصيصة ، وهناك مرض مرضه الذى أدى الى وفاته ·

وحين اشتدت وطأة المرض على ابن طولون أسرع بالعودة الى مصر فوصل الفسطاط فى جمادى الآخرة سنة ٢٧٠ هـ · ولم يقف مرضه حائلا دون متابعة الاشراف على دولته الواسعة ·

وهكذا نرى أحمد بن طولون استمات فى الدفاع عن حقوق اكتسبها حتى آخر رمق فى حياته ، فقد وافته المنية ليلة الأحد لعشر خلون من ذى القعدة سنة ٢٧٠ هـ (٧٧٤ م) بعد أن حكم مصر ستة عشر عاما ·

٥ ـ مصر فى عهد خمارويه بن أحمد ابن طولون

وضحت نية أحمد بن طولون فى توريث ملكه لأولاده من بعده ، فنراه يستخلف ابنه الأكبر العباس على مصر حين خرج الى الشام والثغور فى سنة ٢٦٤ هـ ٠

وقبل أن يسير أحمد بن طولون الى الشام فى سنة ٢٦٩ هـ ، وحين وردت اليه موافقة الخليفة المعتمد على السير الى مصر ، نراه يستخلف خمارويه على مصر ويترك معه جماعة من شيوخ القواد لمشاركته الحكم ٠

غير أن رغبة ابن طولون فى توريث ملكه وضحت تماما حين عاد من بلاد الشام مريضا محمولا ، اذ أحس باقتراب منيته ، ولذا نراه يبايع ابنه أبا الجيش خمارويه بولاية الأمر من بعده ٠

ولم يكن ينقص ذلك الأمر الا أن يستوفى الشكل وأن توافق الخلافة العباسية على مبدأ التوريث ٠ وكانت مبادىء التفاهم بين

الموفق وبين أحمد بن طولون تمهد لاقرار الأمر الواقع لولا أن المنية عاجلت أحمد بن طولون قبل أن يستكمل الناحية الشكلية فى استقلاله بالملك وتوريثه لأبنائه من بعده(١) ٠

وبعد وفاة أحمد بن طولون ولى خمارويه أمر مصر ٠ وقد ترك له أحمد بن طولون ملكا وسعا ، ومستشارين وأعوانا مهرة ، وجندا كثيرى العدد ، ومالا وفيرا ، لكنه خلف لابنه مشكلة أخيه الأكبر ، العباس ، كذلك أعداءه القدماء وعلى رأسهم الموفق أخ الخليفة العباسى ٠

أما العباس ، الابن الأكبر لأحمد بن طولون ، فقد ذكرنا أنه قام بثورة على أبيه فى حياته ٠ وقد نحى عن ولاية العهد لأن والده أوصى بالعرش لخمارويه ٠ ويتفق جمهرة المؤرخين على أنه كان فى السجن حين توفى أبوه ٠ ولكن النويرى صاحب نهاية الأرب فى فنون الأدب ، شذ عن سائر المؤرخين وزعم أن ابن طولون قبل وفاته ببضعة أيام ، دعا اليه العباس وعقد له على حكومة الشام وأملاك مصر خارج وادى النيل ، وطلب اليه فى الوقت نفسه أن يخضع لأخيه خمارويه ٠ لكننا نرى أن هذه الرواية غير محتملة لأننا نستبعد أن ينسى ابن طولون ثورة ابنه العباس عليه ، وألا يفطن الى ما قد يجره التقسيم بين ابنيه من خراب على الأسرة اذا طالب الابن الأكبر بالخضوع للصغير ٠

وعلى أية حال فان أول ما عنى به أعوان ابن طولون وقواده بعد وفاته هو أن يحصلوا من العباس على البيعة بالامارة لأخيه خمارويه ٠ والظاهر أن بطانة أحمد بن طولون ، ولاسيما الواسطى ألحوا على خمارويه فى التخلص من العباس واستصدروا منه أمرا

---

(١) انظر ٠ دكتورة سيدة كاشف : احمد بن طولون : ص ١١٦ ــ ١١٧ ٠

بقتله · أما أبو المحاسن فيذكر أن خمارويه أمر بقتل أخيه العباس لامتناعه عن مبايعته فقتل(٢) ·

والذى يهمنا أن الأمور استقرت لخمارويه قبل قتل العباس · وأن قتل الأخير كان من الاجراءات الاحتياطية التى أريد بها تأمين سلامة الدولة ·

والواقع أن وفاة أحمد بن طولون وضعت حدا للمساعى السلمية التى كان يبذلها الموفق وأعوانه · اذ ظن الموفق أن وفاة أحمد بن طولون قضت على قوة الدولة الطولونية وأن فرصته حانت لاسترداد مصر والشام جميعا من قبضة الطولونيين · واستعان الموفق باسحق بن كنداج أمير الموصل ، ومحمد بن أبى الساج والى أرمينية والجبال ، وأرسل اليهما جندا من العراق بقيادة ابنه أبى العباس أحمد ، وهو الذى تولى الخلافة بعد وفاة المعتمد باسم المعتضد بالله ، وزحف الجميع على الشام ، واستولت جيوش العراق على الرقة وقنسرين والعواصم ودخلت دمشق ، ثم تقدمت جنوبا تريد غزو مصر نفسها · لكن خامرويه نشط للأمر وخرج الى الشام وأحرز سلسلة من الانتصارات ضد جند الموفق ودخل دمشق واسترد سلطانه كاملا فى سنة ٢٧٣ هـ ثم خرج لقتال ابن كنداج ، حليف الموفق ، فأنزل به الهزيمة ، وأخذ أصحاب خمارويه يطاردونه حتى أبواب سامرا « فعظم أمر خمارويه فى هذه الموقعة وهابته الناس »(٣) ·

وأدرك الموفق أخيرا أن خمارويه مع صغر سنه لا يقل عن أبيه قوة وعزيمة ·

---

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج٣ ص ٤٩ ·
(٣) أبو المحاسن النجوم الزاهرة · ج٣ ص ٥١ ·

وبالرغم من انتصارات خمارويه كان هو البادىء بطلب الصلح والتفاهم فكتب ، وهو ببلاد الشام ، الى الموفق فى طلب الصلح(٤) . ويبدو أن رغبة خمارويه وجدت الترحيب والاستجابة لدى المعتمد والموفق وابنه أبى العباس ، فجاء كتاب هؤلاء الثلاثة الى خمارويه فى الشام فى رجب سنة ٢٧٣ هـ (٨٨٦ م) ، ويتضمن الكتاب تولية خمارويه وأولاده من بعده على مصر والشام جميعه والثغور ثلاثين سنة . وعاد خمارويه بعدها الى مصر فى أواخر رجب المذكور . وكان هذا الصلح مرحلة جديدة فى تاريخ العلاقات بين مصر والخلافة فقد استكملت تلك العلاقة الناحية الشـــكلية ، واعترفت الخلافة باستقلال مصر الطولونية وبسلطانها على الشام والثغور(٥) .

وأكمل خمارويه انتصاره على أعدائه فاستولى على الرقة ، واعترف بولايته على الموصل والجزيرة ودعى له على منابرها . كذلك أخضع خمارويه ابن أبى الساج فى سنة ٢٧٦ هـ وطارد جيوشه الى مدينة بلد على نهر دجلة ، وهناك بنى خمارويه على شاطىء دجلة سريرا فخما من الذهب ليجلس عليه اشادة بما حازه من نصر مؤزر أما عن العلاقة بين خامرويه ويازمان حاكم طرسوس ، فالمعروف أن يازمان ثار على أحمد بن طولون منذ ٢٦٩ هـ (٢٨٣) ، ولم يستطع أحمد بن طولون اخضاعه اذ مرض وهو بالشام وحمل الى مصـــر وتوفى سنة ٢٧٠ هـ .

وفى سنة ٢٧٧ هـ بادر يازمان الى الاعتراف بسلطان خمارويه ودعا له على المنابر فى طرسوس . وقد أدى استقرار الأمور لخامرويه فى دولته المترامية الأطراف الى استئناف ســياسة الجهاد ضــد

---

(٤) الكندى : الولاة والقضاة : ص ٢٢٧ .
(٥) انظر : الكندى : الولاة والقضاة : ص ٢٢٧ و ٢٣٦ ـ ٢٣٨ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج٣ ص ٥١ ـ ٥٢ .

البيزنطيين ، فغزت جيوشــــه أراضى الدولة البيزنيطية عدة مرات سنة ٢٧٨ ـ ٢٧٩ هـ (٨٩١ ـ ٨٩٢ م) ، ومالبث البيزنطيون أن طلبوا الصلح فى سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٦ م) ٠

وقد توثقت العلاقة بين خمارويه والخلافة العباسية مرة أخرى بعد وفاة الموفق وابن كنداج سنة ٢٧٨ هـ ، ووفاة الخليفة المعتمد سنة ٢٧٩ هـ ، وتولى المعتضد الخلافة سنة ٢٧٩ هـ ٠

واستطاع خمارويه أن يكسب رضا الخليفة الجديد بهداياه ، وأقره المعتضد على ولاية البلاد الممتدة بين الفرات وبرقة ثلاثين سنة وجعلها لأولاده من بعده ٠

وقدم رسول الخليفة على خمروايه يحمل اليه الخلع والهدايا ٠ وكان من أثر سياسة حسن التفاهم أن عرض خمارويه زواج ابنته أسماء التى تلقب بقطر الندى من ابن الخليفة العباسى ولكن الخليفة اختارها لنفسه ٠

وقد حلا لخمارويه أن يظهر اسرافه فى ذلك الزواج فجهز ابنته بما لم تجهز به عروس من قبل على حد قول المؤرخين ٠ ويذكر ابن دقماق فى كتابه الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، انه « حمل معها ما لم ير مثله ، ولا سمع به « الا فى وقته » ٠ وذكر المقريزى فى الخطط : « انه لم يبق خطيرة(٦) ولا طرفة(٧) من كل لون وجنس الا حمله معها » ٠

وعلى أية حال فقد أفاض المؤرخون فى ذكر هذا الزواج وهذا الجهاز ٠ وأمر خمارويه أن يبنى لابنته على رأس كل مرحلة قصر

---

(٦) الخطير : النبيل ٠
(٧) الطرفة : الغريب المستحسن ٠

لتنزل فيه العروس فى طريقها الى بغداد · كذلك أطلق خمارويه العنان للأفراح التى مازالت أغانيها من الأغانى الشعبية بمصر للآن

ويصف المؤرخ أبو المحاسن رحلة العروس فيقول عن البعثة التى رافقتها أنهم كانوا « يسيرون بها سير الطفل فى المهد ··· وكانت فى مسيرها من مصر الى بغداد على بعد الشقة كأنها فى قصر أبيها حتى قدمت بغداد فى أول المحرم سنة ٢٨٢ هـ »(٨) ·

ويرى بعض المؤرخين ان المعتضد العباسى انما كان يرمى من وراء زواجه بقطر الندى الى افقار أبيها لما كان يتوقعه من اسرافه فى جهازها ·

وهكذا نرى أن خمارويه سار على الخط الذى رسمه أبوه أحمد بن طولون ، وكانت مصر فى عهده قوية ثرية تحرص الخلافة العباسية على المحافظة على ودها وتهابها الدولة البيزنطية ·

أما فيما يتعلق بشئون مصر الداخلية فقد كان مؤمنا مثل أبيه بأن مصر للمصريين ، فكان كريما مع أبنائها حريصا على تقدمها لا تشغله مشاريعه فى تثبيت أركان الدولة المصرية العربية الواسعة عن اصلاح شئون مصر الداخلية ، والأخذ بكل وسائل التقدم فيها ، وفضلا عن ذلك فقد كان شديد التسامح مع أهل الذمة ·

كذلك انصرف خمارويه الى الأعمال الانشائية فزاد فى منشآت أبيه الشىء الكثير كما مر بنا ، وبذل الأموال الطائلة على مبانيه ومتنزهاته مما يفيض فى وصفه المؤرخون · وكان خمارويه مغرما بصيد الوحوش والطيور وبتربية الخيل الأصيلة ·

---

(٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج٣ ص ٦٢ ـ ٦٣ ·

وكان خمارويه بن احمد بن طولون حكيما فى اختيار حرسه الخاص من عرب الحوف الذين كانوا يسكنون شرقى الدلتا ، والذين كانوا يقلقون الحكومة بالسلب والنهب والثورات ٠ فرأى خمارويه أن يبعدهم عن ذلك كله وكون منهم فرقة خاصة اتخذها حرسا له ٠ وكان لرجال هذه الفرقة ملابس وأسلحة خاصة ٠ والمعروف أن أحمد ابن طولون وخمارويه كانا يعنيان كثيرا بملابس الجيش وعدته ، وكانا يستعرضان الجند ويخرجان فى المواكب الرسمية فى مناسبات الحفلات والأعياد وأيام الجمع فيقف الشعب على الجانبين معجبا بجلال أجسامهم وجميل نظامهم ٠

وقد انتهت حياة خمارويه بمقتله فى دمشق فى ذى الحجة من سنة ٢٨٢ هـ بعد حكم دام اثنتى عشرة سنة ٠

واستطاع أبو المحاسن أن يصور لنا الحزن الشـــديد على خمارويه فى مصر حين ورد الخبر بوفاته ، وكيف تحولت مصر الى مأتم كبير حين وصل تابوت خمارويه محمولا الى مصر حيث دفن بجوار أبيه ٠

والحق أن خمارويه كان خير خلف لخير سلف فقد حافظ على الدولة المصرية الاسلامية المستقلة التى أسسها أحمد بن طولون ، كما قاد الجيوش ونال الانتصارات الباهرة ، وجاهد ضد البيزنطيين ، واستطاع أن يسوى المشكلات التى قامت بين الخلافة وبين مصر ، بل انه صاهر البيت العباسى ، وبدت مصر فى عهده غاية فى القوة والازدهار ٠



٦ ـ الدولة الطولونيـة بعد خمارويه

كانت وفاة خمارويه بداية النهاية للدولة الطولونية · اذ سرعان ما دخلت الدولة فى دور التدهور والانحلال وانتهت بوفاته الدولة من حيث هى دولة لها قوتها ونفوذها · وحكم مصر بعد خمارويه اثنان من أبنائه هما أبو العساكر جيش وهارون ، واخوه شيبان ، ولم يزد حكمهم جميعا على عشر سنوات سقطت بعدها الأسـرة الطولونية ·

والحق ان انقسام البيت الطولونى بدا واضـحا بين أبناء خمارويه الذين غلب عليهم الضعف والترف وبين اعمامهم الذين عز عليهم ضياع الملك الذى أسسه أبوهم ·

واشتعلت الفتنة فى الجيش الطولونى ، ربما للمرة الأولى منذ انشائه ، وبدت نذر هذه الفتنة قبل مصرع ابى العساكر جيش بن خمارويه فى جمادى الآخرة سنة ٢٨٣ هـ ببضعة شهور · ولجأ بعض قواد الجيش الى الخلافة العباسية · واصـبحت الدولة الطولونية تجتاز منذ عصر جيش بن خمارويه أزمة دقيقة جدا ·

وكان فى استطاعة الخليفة العباسى المعتضد أن يفتح مصر منذ لجأ اليه قواد الجيش الطولونى ، ولكنه - فى رأينا - لم يكن قد نسى بعد صلة النسب التى كانت تربطه بأمرائها ، وكانت قطر الندى خير مدافع عن قضيتهم فى بغداد ، ولاسيما أن الخليفة كان مغرما بها الى حد كبير · وفضلا عن ذلك كله فلعل المعتضد لم يكن قد عرف تماما حالة الضعف التى وصلت اليها الدولة الطولونية بعد وفاة خمارويه · وهكذا ظل الحال بين الخلافة العباسية وبين مصر حتى توفيت قطر الندى ، وحتى توفى الخليفة العباسى المعتضد بسنة ٢٨٩ هـ ·

وبدأت الدولة المصرية تفقد بعض ممتلكاتها فى الخارج · ورفض راغب ، الذى استولى على طرسـوس وأعمالها بعد ابن عجيف ، أن يعترف بسلطان هارون بن خمارويه على سرسوس كذلك أصبح طغج بن جف مستقلا بدمشق استقلالا يكاد يكون تاما ، ولكن القائد بدرا الحمامى سار اليه وثبت طغج فى حكمه على أن يعترف فى نظير ذلك بسلطان بنى طولون ·

ثم استفحل خطر القرامطة فى الشام ، ولم يكن طغج بن جف موفقا حين أرسل الى مصر يستنجد بنى طولون لاخضاع القرامطة ، وذلك لأن وادى النيل فى تلك الساعة كان فى أمس الحاجة الى رئيس يوحد كلمته ، ومال يفرج به عن أزمته ، وسلام داخلى ، وجند منظمين لانقاذ البلاد من الاضطراب الذى وصلت اليه ·

وكان الخليفة العباسى المكتفى يرقب من بغداد تطور القتال بين القرامطة والطولونيين عازما أن ينتهز هذه الفرصة للتخلص من الفريقين · فأرسل الى القرامطة جيشا قوى العدد والعدة وعلى رأسه محمد بن سليمان الذى كان كاتبا للؤلؤ القائد الطولونى ·· وأوقع محمد بن سليمان الكاتب بالقرامطة شر هزيمة سنة ٢٩٠ هـ

(٩٠٣ م) بقرب حماه • ورجع محمد بن سليمان الى بغداد بعد نصـــره الحاسم على القرامطة فأكرمه الخليفة وعينه قائدا عاما للجيش الخليفى ، ثم أوفده على رأس حملة لاخضاع مصر وارجاعها الى حكم الخلافة المباشر •

سار محمد بن سليمان على رأس الحملة العراقية الى الشام حيث خضع له الولاة الطولونيون ومن بينهم بدر الحمامى الذى كان حينئذ واليا على الشام كلها • وكتب محمد بن سليمان الى أمير البحر دميانة ــ مولى يازمان ــ يطلب اليه أن يسير الى ساحل البحر فى مصـــــر •

أما محمد بن سليمان فقد تقدم فى ســـيره نحو مصر ، وفى فلسطين خضع له وصيف بن سورتكين ، الذى كان يحكمها من قبل الطولونيين •

أما ما كان من أمر هارون بن خمارويه فانه هم بالدفاع عن مصر ، وبدأ بارسال السفن الحربية لقتال دميانة والتحم الأسطولان فى تنيس ثم فى دمياط ، وهزم الأسطول المصرى واحتل أســـطول الخـــلافة المدينتين • وبعدها ذهب هارون بن خامرويه الى مدينة العباسة(١) فى شرقى الدلتا وذلك للقاء الجيش العباسى ، وأخذ معه أعمامه كلهم وأفراد أسرته •

وقد ذكر الكندى انه فعل ذلك كى لا يستطيع أحدهم أن يثور ضده فى الفســـطاط • والواقع أن العلاقة لم تكن طيبة بين أفراد

---

(١) العباسة : سميت باسم العباســـة بنت احمد بن طولون • وقد قامت هذه المدينة حول قصر مما شيده خمارويه عند سفر ابنته قطر الندى فى طريقها الى العراق ، وكانت عمتها العباسة ترافقها فى هذه الرحلة • وهذه المدينة بجوار الزقازيق الآن •

الأسرة الطولونية ، وكان عدم التعاون بينهم سببا كبيرا من اسباب ضعفهم وضح ذلك بعد مقتل خمارويه المفاجىء فى سنة ٢٨٢ هـ .

أما ما كان من أمر هارون فى العباسة فانه بعث من هناك كتبا الى بدر وفائق وغيرهما من القواد يستعطفهم ويذكرهم بحرمة أبيه وجده وفضله عليهم وما يستحقه عندهم من عرفان الجميل ، ولكن كتبه هذه لم تكن لها أى صدى .

وحين وصل محمد بن سليمان الى مصر كتب الى هارون يطلب منه التسليم ، فجمع هارون قواده وعرض عليهم الأمر فرفضوا كلهم التسليم . وفى ذلك الموقف العصيب قتل هارون فى صفة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م) وانضم كثير من قواته الى العباسيين . وخلف شيبان بن أحمد بن طولون هارون ورجع الى الفسطاط ليهىء الدفاع عنها ويقاوم العراقيين . ثم جاءت الأنباء بأن دميانة وصل بأسطوله الى حذاء الفسطاط وبأنه حرق جزءا منها . وسار محمد بن سليمان من العباسة على رأس جيشه وجيوش حلفائه الجدد .

وحاول شيبان فى ذلك الوقت تنظيم البلاد ووزع العطايا على اتباعه . ويذكر ابو المحاسن أن شيبان ناوش العباسيين ساعة ادرك بعدها « قلة من معه من الرجال وكثرة جيوش محمد بن سليمان » . لذلك استجاب شيبان لمحمد بن سليمان عندما كتب اليه الأخير يؤمنه على نفسه وأهله وولده وماله . وخرج شيبان للقائه والاعتراف بسلطانه وبذلك سقطت الدولة الطولونية وانتهى حكم شيبان الذى لم يطل أكثر من بضعة أيام .

ودخل محمد بن سليمان الفسطاط فى يوم الخميس آخر صفر سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م) ودعا على المنابر للخليفة المكتفى بالله(٢) وكتب اليه يبشره بفتح مصر ٠

(٢) الكندى : الولاة والقضاة : ص ٢٤٧ ٠ وينص الكندى على أن محمد بن سليمان دعا لأمير المؤمنين المكتفى بالله وحده ، لأن الدعاء للخليفة على المنابر لم يبطل خلال الدولة الطولونية وانما كان يدعى للأمير الطولونى معه ٠

راجع عن العلاقة بين بني طولون والخليفة العباسى :
Zaky M Hassan : Les Tulunides · P. 155.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٧ ـ المصريون والدولة الطولونيـة

رأينا فى الفصول السابقة كيف قامت فى مصر على يد أحمد بن طولون أول دولة عربية اسلامية مستقلة · وكان هذا الاستقلال الذى نالته مصر على يديه أول استقلال لها منذ أن قضى الرومان على دولة البطالسة سنة ٣٠ ق · م · وعلى الرغم من أن عمر هذه الدولة التى أسسها أحمد بن طولون كان قصـــيرا لم يزد على ٣٨ ســنة (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ ـ ٩٠٥ م) الا أن مصر أصبحت مستقلة للمرة الأولى منذ عصر البطالسة وعاد اليها سلطانها على الشام للمرة الأولى منذ عصر الفراعنة · ولم يعد دخل مصر يتسرب الى بيت مال الخلافة أو الى جيوب الولاة وأصحاب الاقطاع ، بل بقيت أموال مصر فيها ، وبدأ وادى النيل حياته لنفسه فى مجموعة الأمم الاسلامية · وبدأ المصريون يشتركون فى جيش بلادهم ، وأغلب الظن انهم هم الموالى الذين ذكرهم المؤرخون · وشعر المصريون لأول مرة بعد قرون طويلة بأن بلدهم أصبحت لهم ، وتعلقت قلوبهم بأحمد بن طولون كما تعلق هو بهم · بل انه تزوج بواحدة من بنات المصريين فذكر ابن سعيد انه اتخذ زوجة من بنات الموالى يقال لها أسماء ·

وكانت الأغلبية العظمى من سكان مصر فى العصر الطولونى من المسلمين . وكان عدد القبط فى العصر الطولونى لايزال كبيرا ، وقد استطاعوا أن يساهموا فى تقدم البلاد وأن ينعموا بعطف ظاهر ، فهم أهل مصر سواء أسلموا أم بقوا على دينهم . وكان منهم العدد الوفير فى الوظائف الادارية فى البلاد وخاصة المالية منها . وكان منهم الأعداد الكثيرة فى مدينة الفسطاط والقطائع .

كذلك كان لهذه الأقلية العظيمة نفوذ واسع المدى فى الريف كما كانت لهم مكانتهم الاجتماعية فى البلاد(١) .

أما أوراق البردى فى عصر الولاة وفى العصر الطولونى فهى تشير الى أن الذين أسلموا فى مصر من الأقباط احتفظوا بأسمائهم القبطية ، أو بنسبهم المسيحى الى جانب أسمائهم العربية .ومما يشهد باختلاط الأسماء وثيقة من سنة ٢٣٣ هـ ، أى من عصر الولاة ، بصداق يونة ابنة حليصى من زوجها يزيد بن قاسم(٢) ، وعقد زواج اسلامى من العصر الطولونى ، واسم الزوج يحنس بن شنودة من مدينة الأشمونين والزوجة اسمها دورا ابنة شنودة(٣) .

وفى كثير من الأوراق البردية لا نستطيع أن نتبين ديانة أصحابها . فمعظم المصريين بعد الفتح مسلمين كانوا أو أقباطا احتفظوا بأسمائهم القبطية وبقايا الأسماء المصرية القديمة أو بالأسماء المقتبسة من اليونانية والرومانية . ونذكر أن هذه الوثائق البردية ، وخاصة تلك التى نشرها المستشرق النمسوى الأستاذ أدولف

---

(١) انظر . ابن الداية : المكافاة ص ٦٨ (طبع القاهرة ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م) .

(٢) انظر Grohmann : Arabic Papyri vol. I. PP. 109 — 112.

(٣) Grohmann : Op. Cit., Vol. I. PP. 82 — 81.

جرومان والتى كانت محفوظة فى دار الكتب المصرية ، ترجع الى أماكن متفرقة فى الريف المصرى ولاسيما مصر الوسطى والصعيد . أما شواهد القبور(٤) التى وصلتنا من جبانة الفسطاط والعسكر والقطائع فقد غلب عليها الأسماء العربية .

ومنذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) نرى المصريين - مسلمين ومسيحيين - يتعاملون فى عقود البيع والشراء والديون والميراث والهبة حسب الشريعة الاسلامية كما نرى أن ذلك ينص عليه فى العقود المختلفة .

كذلك نلاحظ أن الوثائق التى وصلتنا منذ القرن الثالث الهجرى تبدأ بالبسملة ، وأصبحت هذه المسألة شائعة بين الأقباط بصفة عامة، وبين البطاركة ورجال الدين المسيحيين فى مصر بصفة خاصة . مثلما ورد فى كتابات المؤرخين المسيحيين المصريين ولاسيما « سير الآباء البطاركة » لساويرس بن المقفع أسقف مدينة الأشمونين .

ونلاحظ ان الوثائق قبل ذلك كانت تبدأ باسم (الأب والابن وروح القدس) .

وكان التقارب واضحا بين المسلمين فى مصر وبين أهل الذمة ، فقد احتفل المسلمون وأهل الذمة بالأعياد المسيحية والاسلامية على السواء ، ولعل ذلك يرجع الى أن الكثير من المصريين المسلمين كانوا من أصل قبطى . وقد عدد المؤرخون القدامى تلك الأعياد أو

---

(٤) يوجد العديد من شواهد القبور محفوظا فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة (دار الآثار العربية سابقا) ، وقد نشر المستشرق الفرنسى الأستاذ جاستون فيت نصوصها فى عدة مجلدات .

وصفوا الاحتفال بها ، ومن هؤلاء المؤرخين المسعودى(٥) ، ويحيى ابن سعيد الانطاكى(٦) ، والمقريزى(٧) ٠

وحين استقلت مصـــر فى العصـــر الطولونى كان أمراؤها يشاركون الشعب فى هذه المناسبات ٠ وكان من أهم الأعياد القومية فى مصر الاحتفال بوفاء النيل ، ومن أقدم ما نعرفه عن هذه الاحتفالات فى العهد الاسلامى ما كتبه ابن رسته فى كتابه الذى ألفه سنة ٢٩٠ هـ(٨) ٠

وقد رأينا أن المصريين فى العصر الطولونى كانوا يعتنون كثيرا بالأعياد الشعبية ٠ وكانت موكب الجند الطولونى بملابسه وعدته فى مناسبات الحفلات والأعياد وأيام الجمع ، تقوم عند الناس مقام الأعياد ، وكذلك كان الحال بالنسبة الى سباق الخيل ٠

وكانت بمصر فى العصر الطولونى جالية غنية من اليهود ، ويتجلى ذلك من المناسبات التى يرد فيها ذكرهم فى كتابات المقريزى وأبى المحاسن وغيرهما من المؤرخين المصريين ٠

وقد جاء ذكر اليهود حين فتح العرب مصر وذلك فى معاهدة الاسكندرية التى نعرفها أيضا باسم صلح بابليون الثانى ، اذ كان

---

(٥) المسعودى : مروج الذهب : ج٢ ص ٣٦٤ (طبعة باريس ١٨٦١ ـ ١٨٧٧ م) ٠

(٦) يحيى بن سعيد الانطاكى : تاريخ أو صلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق : ص ١٩٦ ـ ١٩٧ (طبعة بيروت ١٩٠٥ م)

(٧) المقريزى : الخطط : ج١ : ص ٢٦٤ ـ ٢٦٩ و ٢٩٥ و ٤٩٤ و ج٢ : ص ١٥٤ ٠

(٨) ابن رسته الأعلاق النفيسة ٠ ص ١١٦ (طبعة ليدن ١٨٩١ ـ ١٨٩٢ م) ٠

من شروط هذه المعاهدة أن يباح لليهود الاقامة فى الاسكندرية ٠ وحين أرسل عمرو بن العاص الى الخليفة عمر بن الخطاب يصف له مدينة الاسكندرية ذكر أن بالاسكندرية حوالى أربعين ألف يهودى(٩) ٠

وحين مرض أحمد بن طولون مرضه الأخير ، خرج المصريون مع نسائهم وأولادهم يدعون له بالشفاء خرج المسلمون الى المساجد ، واشترك اليهود مع المسيحيين فى الصعود الى جبل المقطم ليصلوا الى الله ويدعو بالشفاء لأمير مصر ٠

وفى العصر الطولونى ظهر النشاط الاقتصادى فى كافة المجالات، وكان الرخاء واضحا بعد فترة التأخر الاقتصادى التى سبقت ذلك العصر ٠ وكان لبنى طولون بلاط يذكر بما كان للعباسيين فى بغداد وسامراء ، بل كانت آيات الفخامة والترف فى القطائع والفسطاط أعظم منها فى عاصمة العباسيين وان يوازن بلاطه ببلاط الخليفة ٠ أما سائر أمراء الأسرة الطولونية فقد نشأوا فى هذا العز وكانت الأبهة والتقاليد فى بلاطهم طبيعية وغير متكلفة ٠

ومن الظـــاهرات الاجتماعية فى العصــــر الطولونى كثرة الجاسوسية الى حد كبير ، وسبب ذلك اضطراب العلاقة بين أحمد ابن طولون والحكومة العباسية فى العراق ٠ فكان للعباسيين فى مصر عيون وجواسيس ينقلون اليهم مايحدث فى البلاد ، وكان لابن طولون نفسه عيون وجواسيس لكشف جواسيس العباســـيين ومن يتصل بهم من المصريين ، وذلك فضلا عن عمال البريد الذين كان من

(٩) انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر : ص ٨٢ (طبعة ليدن ١٩٣٠ ، وسعيد بن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق : ص ٢٦ (بيروت ١٩٠٥ ، ١٩٠٩ م) ، وابن العميد (الشيخ المكين جرجس بـــن العميد بن الياس) : تاريخ المسلمين : ص ٣٠ (ليدن ١٩٢٥ م) ٠

اختصاصهم التجسس للحكومة أيضا • ويظهر من المصادر التاريخية أن هؤلاء الجواسيس كانوا مكروهين من الشعب المصرى •

واستطاع ابن طولون ومن بعده خمارويه أن ينهضا بالفنون والعمارة فى مصر • والمعروف أنه لما أسس أحمد بن طولون الدولة الطولونية فى مصر نشأ فيها ما يعرف باسم « الفن الطولونى » نسبة الى الطولونيين ، وفى الوقت نفسه نراه متميزا عما كان موجودا قبله ومقدمة لما وجد بعد العصر الطولونى فى مصر الاسلامية من فنون وآثار •

ولم يكن الفن الطولونى مستقلا كل الاستقلال عن فن الخلافة العباسية آنئذ فقد كان تابعا له الى حد كبير وفى الوقت نفسه كان منافسا له • وأصبح البذخ والترف فى مصر حديث المعاصرين حينئذ ومن جاء بعدهم ، فى وقت كانت ثورة الزنج والفتن الداخلية قد استنزفت أموال الحكومة العباسية وجهودها •

ومن حسن الحظ أنه وصلت الينا آثار الطولونيين وتحفهم ، ولم تكن كل معلوماتنا قاصرة على ما ذكرته المصادر التاريخية والأدبية عن عظمة الطولونيين وعلو شأن الفنون فى عصرهم(١٠) •

وفى العصر الطولونى كانت الحركة العلمية والثقافية فى مصر الطولونية حلقة مستمرة مزدهرة بين عصر الولاة فى مصر الاسلامية العربية وبين ما بعد الطولونيين • وكان أحمد بن طولون مشغوفا بمجالسة الفقهاء وأهل العلم مثل محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وبلغ به ولعه بالحديث أنه كان ينتقل الى مجلس القاضى بكار بن قتيبة •

---

(١٠) انظر : الدكتور زكى محمد حسن . الفن الاسلامى فى مصر • ص ٢١ ــ ٢٢ •

وكانت مدينة القطائع فى عهد الطولونيين حافلة بالعلماء والمحدثين والمتصوفة والأدباء والشعراء والمؤرخين . ولم تكن الحركة العلمية الثقافية وقفا على الفسطاط والقطائع والاسكندرية انما امتدت المراكز العلمية الثقافية فى أنحاء الدلتا والصعيد .

كذلك اشتهرت مصر فى العصر الطولونى بالتقدم فى علم الطب ، وكان هذا التقدم استمرارا لازدهار الطب فى العصور السابقة .

وكان مقام الأسرة الطولونية فى تاريخ الحضارة الاسلامية المصرية عظيما جدا ، ولا عجب فانها كانت فاتحة العهد الذى أصبح فيه لمصر كيان مستقل ضمن مجموعة الدول الاسلامية الأخرى .. وأصبحت الدولة الطولونية تخشاها الدولة العباسية نفسها ، كما صار البيزنطيون يخطبون ودها بارسال الهدايا النفيسة واطلاق الأسرى المسلمين .

وأصبحت مصر فى عصر الطولونيين امبراطورية واسعة تمتد الى برقة غربا ، والى الشام وتخوم العراق شرقا ، والى حدود مملكة الروم شمالا والى النوبة جنوبا .

ولاريب فى أن انشغال الدولة العباسية بثورة الزنج سهل لابن طولون تحقيق مشروعاته فى الاستقلال بمصر ثم فى تكوين دولة اتسعت حدودها ، ولكننا نذكر أن الفضل فى نجاحه لا يرجع الى انشغال الخلافة فحسب ، فان ابن طولون كان اداريا حازما من الطراز الأول ، استطاع أن يوطد الأمن فى مصر ، وأن ينظم المالية ، وأن يؤلف جيشا مصريا كبيرا منظما ، وأن يتعهد الأسطول المصرى ، كما استطاع أن ينهض بالعمارة والفنون فى البلاد .

وكان أسف المصريين على مرض ووفاة أحمد بن طولون عظيما ، وكان حزنهم على مقتل خمارويه كبيرا · وكانت فجيعة المصريين أعظم يوم دكت قوات الخلافة العباسية صرح الدولة الطولونية وأحرقوا القطائع · والحق أن قائد العباسيين الذى قضى على الدولة الطولونية أخذ المصريين بمنتهى الشدة والقسوة · ويمكننا أن نفسر العنف الذى صحب سقوط الدولة الطولونية على أنه من الظواهر التى تصحب فترات الانقلاب ، ولكن يبدو أن هذا العنف كان بسبب تعلق المصريين بالدولة الطولونية ، التى كانت دولتهم · وتجلت الحسرة على ما حل بالطولونيين وزوال الدولة الطولونية من لهجة المؤرخين المصريين فى استهجان الفظائع التى ارتكبها القائد العباسى محمد بن سليمان وجنوده الخراسانية ، ومن رثاء الشعراء المصريين والكتاب والمؤرخين للدولة الطولونية ·

وقد بقيت ذكرى بنى طولون ماثلة فى أذهان المصريين ، يتحدث عنها المؤرخون والكتاب والأدباء ويتناقلونها جيلا بعد جيل ·

ثالثا : مصر بعد الطولونيين وقبيل الاخشيديين

(٢٩٢ ـ ٣٢٣ هـ = ٩٠٥ ـ ٩٣٥ م)



١ ـ ثورة ابن الخليج

فقدت مصر استقلالها وعادت ولاية تابعة للخلافة العباسية فى سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م) وظلت كذلك الى قيام الدولة الاخشيدية فى سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) ٠

وبعد أن انتقل الحكم فى مصر الى العباسيين ، ورد كتاب من الخليفة العباسى المكتفى ، بتولية أبى موسى عيسى بن محمد النوشرى عليها ٠ ولم يكد يستتب الأمر للنوشرى فى مصر ، ومحمد ابن سليمان الكاتب لايزال فى طريقه فى العراق مع من خرج معه من أفراد الأسرة الطولونية وأتباعهم ومواليهم وكبار الموظفين فى دولتهم ، حتى انفصل عن ركبه ضابط سابق فى الجيش الطولونى اسمه ابن الخليج(١) ٠ وذكر أبو المحاسن أن ابن الخليج من الجند المصريين وأنه ولد بمدينة الفسطاط(٢) ٠

---

(١) عرف اسمه أيضا فى المصادر القديمة ، بابراهيم الخليجى أو محمد بن على الخليجى أو محمد بن على الخلنجى ٠

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٠ ج٣ ص ١٤٧ ٠

وقد عقد ابن الخليج العزم على احياء الدولة الطولونية ويمم شطر مدينة الرملة فهزم واليها ، وأمر بالدعوة على منابرها فى يوم الجمعة للخليفة ومن بعده لابراهيم بن خمارويه بوصفه أميرا للبلاد ، وكان ابراهيم حينئذ أسيرا فى بغداد ، ومن بعدهما لنفسه بوصفه نائبا عن ابراهيم • وقد ازداد أنصار ابن الخليج بسرعة مذهلة وسار ابن الخليج وأتباعه نحو مصر ، واستعد والى مصر ، عيسى بن النوشرى ، للقائه ، والتقى الجيشان عند غزة وكان النصر حليف ابن الخليج •

وتقدم ابن الخليج بعدها الى العريش ثم الى الفرما وتتابعت انتصاراته ، وأعد النوشرى جيشا آخر ضخم العدد والعدة لصد ابن الخليج ولكن والى الخليفة هزم مرة ثانية ولم يجد بدا من الجلاء عن الفسطاط • وتعلق المصريون بأمل احياء دولتهم القومية المستقلة، وحين دخل ابن الخليج الفسطاط أحسن الشعب المصرى استقباله ودعا له الامام على المنبر بعد الخليفة وابراهيم بن خمارويه •

وعمل ابن الخليج على تهدئة الأمور والقضاء على الفوضى فى البلاد بعدما انتابها من وحشية محمد بن سليمان وجند العباسيين •• وحسبنا بعض مقتطفات مما ذكر أبو المحاسن عن انتقام العباسيين ضد المصريين ودلتهم ، فقال فى هذا الصدد : « كان محمد ابن سليمان هذا لا يسمى باسمه ولا بكنيته وما كان يدعى الا بالأستاذ، وكان حكمه فى أهل مصر بضرب أعناقهم وبقطع أيديهم وأرجلهم جورا ، وتمزيق ظهورهم بالسياط ، وصلبهم على جذوع النخل ونحو ذلك من أصناف النكال ، ومازال على ذلك حتى رحل عن مدينة مصر فى يوم الخميس مستهل شهر رجب من سنة اثنتين وتسعين ومائتين . واستصحب معه الأمير شيبان بن أحمد بن طولون •• وبنى عمه وأولادهم وأعوانهم حتى انه لم يدع من آل طولون أحدا ، والجميع فى الحديد الى العراق وهم عشرون انسانا • ثم أخرج قوادهم الى

بغداد على أقبح وجه فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر ، وخلت منهم الديار وعفت منهم الآثار ، وحل بهم الذل بعد العــز ، والتطريد والتشريد بعد اللذ · ثم سيق جماعة من أصحاب شيبان الى محمد ابن سليمان ممن كان أمنهم فذبحوا بين يديه · وزالت الدولة الطولونية وكانت من غرر الدول ،وأيامهم من محاسن الأيام ··· »(٣) ·

والذى يهمنا فى هذا المجال أن مصر بدت وكأنها فى سبيل استعادة استقلالها على يد ابن الخليج ، وأفلح ابن الخليج فى جمع الضرائب وفى دفع رواتب الموظفين والجند · ومالبث أن استولى على الاسكندرية واستقر له الأمر فى العاصمة وفى الدلتا ، وظلت الحرب سجالا بينه وبين عيسى النوشرى · ولما علم الخليفة المكتفى بذلك أرسل جيشا لمحاربته ولكن ابن الخليج هزم جيش الخليفة شــر هزيمة فى أوائل المحرم سنة ٢٩٣ هـ ·

وقد عظم ذلك على الخليفة ــ والخلافة يومئذ فى دور صحوتها ويقظتها ـ فأرسل الخليفة جيشا ثانيا التقى مع ابن الخليج بالقرب من النويرة(٤) · وفى هذه المرة استعدت الخلافة استعدادا عظيما بعد أن أدركت فشلها المتكرر أمام هذا الثائر المصرى الذى كان يمثل رغبة المصريين وآمالهم فى استعادة دولتهم المستقلة · واضطر ابن الخليج الى التقهقر الى الفسطاط وقبض عليه فى رجب سنة ٢٩٣ هـ بعد أن دام سلطانه نحو سبعة أشهر وعشرين يوما ·

---

(٣) انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٣ ص ١٣٩ ــ ١٤٠ ·

(٤) النويرة احدى قرى بنى سويف فى صعيد مصر ·

وأخذ ابن الخليج الى بغداد ووقف بين يدى الخليفة العباسى فعنفه ثم طيف به وبأصحابه على ظهور الجمال فى بغداد ثم قتل شر قتلة(٥) . وهكذا استعادت الخلافة العباسية مصر بعد نضال وقتال ، مرة سنة ٢٩٢ هـ وأخرى سنة ٢٩٣ هـ .

---

(٥) انظر فيما يتعلق بثورة ابن الخليج : دكتورة سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ٢٠ ـ ٢٣ وما ذكرته من مراجع (طبعة جامعة القاهرة ١٩٥٠ م) .

٢ ـ محاولات الفاطميين للاستيلاء على مصـــر

ظلت مصر ولاية تابعة للخلافة العباسية حوالى ثلاثين عاما كانت فى أثنائها مرتعا للجيوش العباسية من الشـــرق وللجيوش الفاطمية من الغرب · وكانت مقاليد الأمور بمصر فى تلك الفترة فى أيدى ثلاث قوات : الولاة ، وقواد الجيش العــراقى فى مصـــر ، والماذرائيين ·

أما الولاة فكان أعظمهم مـــكانة وأكثرهم توفيقا هو الوالى أبو منصور تكين بن عبد الله ، الذى ولى مصر أربع مرات فى تلك الفترة ، وانتهت ولايته الرابعة حين وافته المنية فى ربيع الأول سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) · وكان تكين على حد قول أبى المحاسن : «أميرا عاقلا شجاعا عارفا مدبرا ، ولى الأعمال الجليلة ، وطالت أيامه فى السعادة وكان عنده سياسة ودربة بالأمور ومعرفة بالحروب »(١) ·

---

(١) انظر · أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج٣ ص ٢١١ ·

وكان للقواد العباسيين فى مصر نفوذ وسلطان عظيم حتى استطاعوا عزل الولاة قبل الرجوع الى الخليفة · وكان أظهر أولئك القواد مؤنس الخادم المظفر ·

أما الماذرائيون فأسرة فارسية الأصل تنسب الى ماذرايا أو مادرايا وهى قرية من أعمال البصرة وقيل من أعمال واسط(٢) · وكانت تقع حيث تقوم اليوم كوت العمارة(٣) ·

ولم تصل هذه الأسرة الى الثروة والسلطان الا بسبب نزوح كثير من أفرادها الى مصر · ولسنا نعرف تماما متى كان خروج أول فرد منها الى مصر ، والراجح أنه وفد اليها فى حاشية أمير من أمرائها لعله أحمد بن طولون · ولما لقى فيها الرخاء والنجاح استدعى اليه من العراق نفرا من أفراد أسرته وتبعهم آخرون · وأول من نقرأ عنه من الماذرائيين فى ادارة مصر هو أحمد بن ابراهيم ، أو محمد ابن أحمد بن ابراهيم الماذرائى الأطروش ، الذى ولى خراج مصر سنة ٢٦٦ هـ · وذكر المقريزى أن الذى ولاه هو الخليفة المعتمد وذكر البلوى وابن سعيد (عن ابن الداية) أن الذى ولاه هو أحمد بن طولون نفسه · والراجح عندنا ما ذكره البلوى وابن الداية لأن ابن طولون أشرف على مالية البلاد بعد تخلصه من ابن المدبر وأصبح منذ سنة ٢٦٤ هـ فى عداء ظاهر مع الحكومة المركزية فى بغداد واستقل عنها بادارة مصر(٤) ·

---

(٢) جاء اسمهم بالذال المعجمة فى بعض المصادر مثل الكندى : الولاة والقضاة : ص ٢٤٤ ، وياقوت : معجم البلدان ج٧ ص ٣٥٣ (طبعة القاهرة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٦ م) مادة : ماذرايا ، وسماهم السمعانى : المادرانيين ، ولعل النون تصحيف فى المخطوط : كتاب أنساب العرب : ورقـــة ٤٩٩ ، وسماهم المقريزى : الماردانين . الخطط : ج١ ص ٣٣٢ و ج٢ ص ١٥٥ ·

(٣) عند مخرج شط الحى من مجرى دجلة الشرقى ·

(٤) انظر : Zaky M. Hassan : Les , Tulunides : PP. 63, 247.
ودكتورة سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين : ص ٣٧ ــ ٥٢ ·

وأتيح لبعض أفراد هذه الأســـرة ولاية طائفة من الوظائف الرئيسية فى مصر زمن الطولونيين وخاصة الاشراف على الأموال والخراج • وكان الماذرائيون ينفذون من تدبير الشئون المالية الى السيطرة على معظم مرافق الادارة فى مصر • وكان على بن أحمد الماذرائى فى دمشق مع خمارويه عندما توفى هذا الأمير وعاد بعد ذلك الى مصر وأصبح صاحب الأمر والنهى فيها طوال الفترة القصيرة التى حكم فيها أبو العساكر جيش بن خمارويه • وأخفق على الماذرائى فى تهدئة الجند حين ثاروا على الأمير وانتهى الأمر بقتله وقتل جيش ابن خمارويه(٥) •

والمعروف أنه فى سنة ٢٧٢ هـ استقدم على بن أحمد الماذرائى الى مصر ولديه أبابكر محمد بن على ، وأبا الطيب أحمد بن على ، وأصبحت مصر منذ تلك السنة وطن الماذرائيين(٦) •

وظل الماذرائيون يتمتعون بنفوذ كبير فى مصر بعد سقوط الدولة الطولونية حتى قامت الدولة الاخشيدية ، وسوف نرى انه سيكون لهم شأن كبير فى الدولة الاخشيدية أيضا • ويدلنا على عظم شأن هذه الأسرة ماروواه المؤرخون من عظم شأنهم فى المال والادارة • وأصبحت زعامة هذه الأسرة فى يد أبى بكر محمد بن على الماذرائى بعد مقتل أبيه على الماذرائى • وذكر المؤرخـــون أنه كان « أمـير البلد فى

---

(٥) انظر • الطبرى • تاريـخ الأمـــم والملـــوك • ج١١ ص ٢٨٣ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٣ ص ٩٣ •

(٦) انظر : النص العربى المنقول عن « التـــاريخ الكبير المقفـــى » للمقريزى ، والذى نقله المستشرق الألمانى جوتشـــلك ، فى رســـالته عن الماذرائين : ص ١٢٠

Gottaschalk (Hans) : Die Madarajjun. (Berlin und Leipzig 1931).

الحقيقة »(٧) · قبل قيام الدولة الاخشيدية ويذكر المؤرخون انه لما توفى تكين والى مصر فى السادس عشر من ربيع الأول سنة ٣٢١ هـ أصبح الأمر كله فى مصر بيد أبى بكر محمد بن على الماذرائى(٨) ·

وفى تلك الفترة من تاريخ مصر ، وبعد سقوط الدولة الطولونية، ظهر أمر عبيد الله المهدى(٩) · وحاول الخليفة العباسى المكتفى القبض عليه ، ولكنه استطاع الخروج من الشام مع ابنه ابى القاسم نزار(١٠) ومعه خاصته ومواليه ، وعقد العزم على الاتجاه الى بلاد المغرب · وحين وصل المهدى الى مصر ، كانت كتب الخليفة قد وصلت الى واليها ، النوشرى ، بوصف المهدى والأمر بالقبض عليه وعلى كل من يشبهه ·

وذكر المؤرخون أن النوشرى فرق الناس فى طلب المهدى وانه قبض عليه بنفسه ، ولكنه عاد فأطلق سراحه · ونحن لا نستطيع تعليل ذلك تماما ، فربما كان سبب اطلاق سراحه أنه لم يره شخصا خطيرا ، وربما عطف عليه ورق لحاله متأثرا فى ذلك بوساطة بعض خاصته ، ونحن نعرف أن مصر الاسلامية كانت دائما ملجأ وملاذا لآل البيت · وعلى أسوأ الفروض ، ربما أغدق المهدى على والى مصر وعلى خاصته كثيرا من الأموال التى جعلتهم يغمضون أعينهم ويطلقون سراحه هو ومن معه · وربما ساعد على اطلاق سراحه شيعة الفاطميين من وجوه القوم فى مصر ومن عامة المصريين ·

---

(٧) انظر · ملحق أخبار القضاة فى الكندى : الولاة والقضاة · ص ٥٢٧ ·

(٨) الكندى · الولاة والقضاة : ص ٢٨١ ، والمقريزى : الخطط : ج١ ص ٣٢٨ ·

(٩) ينتسب المهدى الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، من نسل الحسين بن على والسيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه الصلاة والسلام ·

(١٠) هو الذى تولى الخلافة الفاطمية بعد المهدى وتلقب بالقائم ·

والمعروف من المصادر القديمة أن الاسماعيلية العلويين الذين ينتسب اليهم المهدى ، بثوا دعاتهم سرا فى مصر وفى كل مكان من العالم الاسلامى ، وهذا يفسر لنا ظهور الحركات العلوية المتتابعة فى مصر فى أواخر عصر الولاة وفى أوائل الدولة الطولونية ٠

ولم يعرف أن أحمد بن طولون كان معاديا للعلويين ولكنه قضى على الحركات العلوية فى مصر دون هوادة وذلك رغبة منه فى أن يستتب الأمن فى البلاد ٠ وعلى كل حال فقد أصبح المهدى هذا أول الخلفاء الفاطميين ، وأسس الدولة الفاطمية وجعل مركزها فى البداية مدينة القيروان ، بعد أن تم له القضاء على دولة الأغالبة فى سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) ٠

وكان هؤلاء الفاطميون لا يعترفون للعباسيين بالخلافة أو الرئاسة الدينية أو السياسية ٠ ولم يقنع الفاطميون ببلاد المغرب ، وانما فكر المهدى على اثر قيام الخلافة الفاطمية ، فى فتح مصر وذلك لخيراتها الواسعة ولموقعها الجغرافى ، وليستطيعوا منها أن يوسعوا نطاق دعوتهم وأن يمدوا نفوذ خلافتهم الشيعية الى الشرق الاسلامى ٠ ومن ثم أخذ المهدى يضع الخطط لغزو مصر ٠ لكن غزو الفاطميين لمصر لم يحدث فى خلافة المكتفى أو ولاية عيسى النوشرى، اذ توفى عيسى النوشرى فى سنة ٢٩٧ هـ (٩١٠ م) وتوفى قبله الخليفة المكتفى سنة ٢٩٥ هـ وبويع من بعده للخليفة المقتدر بالله(١١) ٠

وبعد وفاة النوشرى ولى مصر أبو منصور تكين بن عبد الله من قبل الخليفة المقتدر ، ووصل الى الفسطاط فى بداية ذى الحجة من سنة ٢٩٧ هـ ٠

وقد وجه تكين منذ توليه حكم مصر عنايته لدرء خطر الفاطميين فى المغرب ٠ فأرسل جيشا فى سنة ٢٠٧ هـ ولكن هزيمة

---

(١١) هو جعفر بن الخليفة احمد المعتضد ٠

المصريين فى برقة على يد أعوان الخليفة المهدى كانت أكبر حافز للفاطميين على الهجوم على مصر نفسها • فوجه اليها المهدى جيشا من أفريقيا بقيادة ابنه أبى القاسم فى سنة ٣٠١ هـ) ودان لهذا الجيش جزء كبير من مصر • فبعث اليه الخليفة المقتدر جيشا بقيادة مؤنس الخادم ، من أعلام القواد العباسيين ، وأفلح هذا الجيش فى صد الفاطميين وارغامهم على الجلاء عن مصر •

ولكن عبيد الله المهدى أعاد الكرة فى السنة التالية ، ومرة أخرى قدمت الجيوش من المشرق بقيادة مؤنس الخادم ، مددا لتكين ، وكان النصر حليف المصريين •

ولم يثن ذلك من عزم الخليفة الفاطمى ، الذى انتشر دعاته فى مصر وأصبح له عيون فيها من وجوه المصريين •فجهز المهدى جيشا كثيفا عقد لواءه لابنه أبى القاسم سنة ٣٠٧ هـ وساعد هذا الجيش أسطول فاطمى • وتوالت أمداد الخلافة العباسية لدرء هذا الخطر ، ولم يهزم الفاطميون الا فى سنة ٣٠٨ هـ • وكان لانتصار مؤنس الخادم فى هذه المرة وقع عظيم فى بغداد ، فخلع عليه(١٢) الخليفة المقتدر ولقبه بالمظفر •

ومهما يكن من الأمر فقد أصبحت مصر مرتعا للجيوش العديدة التى وفدت اليها من بغداد لقتال الفاطميين والدفاع عن مصر •

وقد أدى ذلك الى اضطراب الأحوال المالية فى البلاد ، فلا عجب اذ كتب أبو بكر محمد بن على الماذرائى ، العامل على الخراج ، ينبه الحكومة المركزية فى بغداد الى كثرة الجيوش فى مصر ، وما تحتاج اليه من نفقات طائلة •

وفى تلك الأثناء ظهر محمد بن طغج على مسـرح السياسة المصرية لأول مرة •

---

(١٢) منحه الخلع والهدايا الثمينة •

رابعا : مصر فى عصر الاخشيديين

(٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ = ٩٣٥ ـ ٩٦٩ م)



أ ـ أســـرة الاخشـــيد

حكمت الدولة الاخشيدية مصر فترة أربع وثلاثين سنة من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، أو على وجه التحديد بين عامى ٣٢٣ و ٣٥٨ هـ (٩٣٥ ـ ٩٦٩ م) ٠ ومؤسس هذه الدولة هو محمد بن طغج الاخشيد ٠

أما لقب « اخشيد » فقد منحه الخليفة العباسى الراضى بالله لمحمد بن طغج فى سنة ٣٢٦ هـ أو فى سنة ٣٢٧ هـ بناء على التماس الأخير ٠ وقيل ان لفظ « الاخشيد » معناه بلغة اقليم فرغانة(١) « ملك الملوك » ، وانه كان لقب ملوكهم كما كان قيصر لقب ملوك الروم ، وكسرى لقب ملوك الفرس ، وفرعون لقب ملوك مصر القدماء ٠

ولعل محمد بن طغج عندما وصل الى منصب الامارة ، أراد أن يصل نسبه ببيت الامارة فى موطنه اعلاء لشأن أسرته وقيل أيضا ان لقب أخشيد ايرانى الأصل بمعنى « الذكى» أو « النابه » ٠

---

(١) فرغانة : اقليم من أقاليم ماوراء النهر ، أى ماوراء نهر جيحون ، أو بين نهرى سيجون وجيحون فى آسيا الوسطى ٠ واقليم ماوراء النهر هو التركستان الروسية الآن ٠

وكان جف جد الاخشـــيد من بين نفر من فرســـان فرغانة وشجعانها ، قدموا أو جيء بهم ، الى الخليفة العباسى المعتصم بالله، فعنى بهم اشد العناية وأطعمهم قطائع فى مدينة سامرا ٠

ولما توفى المعتصم انتقل جف الى خدمة ابنه الخليفة الواثق ٠ ولما مات الواثق صحب جف الخليفة المتوكل وظل فى بطانته الى أن توفى ببغداد فى الليلة التى قتل فيها المتوكل سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) ٠

أما طغج بن جف فقد التحق بعد وفاة أبيه بخدمة أحمد بن طولون والأسرة الطولونية من بعده ٠ وكان طغج بن جف من القواد الطولونيين الذين لم يرضوا عن قتل هارون بن خمارويه ولم يتعرفوا بخلفه شيبان بن أحمد بن طولون سنة ٢٩٢ هـ ٠ وقد قرر هؤلاء القواد أن يتصلوا بالجيش العراقى الذى كان يقوده محمد بن سليمان الكاتب والذى سار الى مصر للقضاء على حكم بنى طولون بعد أن أفلح فى هزيمة القرامطة ٠

أما محمد بن طغج فقد ولد فى مدينة بغداد فى سنة ٢٦٨ هـ (٨٨٢ م) ٠ ولسنا نعرف شيئا عن نشأته ، ولكنا نعرف أنه حين ولى أبوه دمشق وطبرية من قبل خمارويه ، كان أبوه يستخلفه فى حكم طبرية ٠

واتصل محمد بن طغج بتكين والى مصر ٠ وعندما قدم الجيش الفاطمى لغزو مصر فى سنة ٣٠٢ هـ أبلى محمد بن طغج بلاء حسنا مع تكين فى قتال هذا الجيش ٠

وفى سنة ٣٠٧ هـ حين غزا الفاطميون مصر أبلى محمد بن طغج فى قتالهم بلاء حسنا ٠ وعمل محمد بن طغج منذ ذلك الوقت

على توثيق علاقته مع كبار رجال الحكم فى مصر فاتصل بأبى بكر محمد بن على الماذرائى ، كما اتصل بالقائد العباسى مؤنس الخادم • وتقلد محمد بن طغج عدة مناصب ادارية فى مصر حينذاك • ويبدو أن تكين ولاه الاسكندرية قبل غزو الفاطميين لمصر • كذلك تقلد محمد ابن طغج حكم الحوفين الشرقى والغربى(٢) من قبل تكين •

وقد استطاع محمد بن طغج أن يحصل على تقليد من بغداد بولاية الرملة سنة ٣١٦ هـ ثم بولاية دمشق سنة ٣١٩ هـ • وكان محمد ابن طغج يطمع فى حكم مصر قبل وفاة واليها تكين ، ولكنه انتظر الى أن خلا مكانه واضطربت الأمور فى مصر •

---

(٢) الحوف الشرقى : شرقى الدلتا ، والحوف الغربى : غربى الدلتا •



٢ ـ محمد بن طغج الاخشيد وتوليه مصر

استطاع محمد بن طغج الاخشيد أن يحصل من الخليفة العباسى القاهر على تقليد بولاية مصر فى سنة ٣٢١ هـ ، ولكن اضطراب الأمور فى مصر ، وفى مقر الخلافة نفسه ، لم يترك للاستقلال سبيلا ، اذ لم يدع للاخشيد على منابر مصر الا نحو اثنين وثلاثين يوما ، ورد بعدها كتاب من الخليفة القاهر بتولية غيره ٠

وما لبثت الفرصة أن واتت محمد بن طغج ثانية حين ولاه الخليفة الراضى مصر ٠ لكن تقليد الخليفة لم يعد يكفى فى ذلك الوقت لتثبيت الوالى ، بل كان لابد للوالى من فرض نفسه والتغلب على عدة عقبات ٠

وقد كتب الاخشيد قبل قدومه الى مصر الى أبى بكر محمد بن على الماذرائى يطلب اليه أن يتركه يدخل مصر بجيشه على أن يكون له معه ما كان له مع سائر الولاة من الأمر والنهى فلم يجبه

الى طلبه ، واضطره بذلك الى أن يدخل بجيشه فى الفسطاط فى سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) وأن يستولى على مصر عنوة برا وبحرا ، وأن ينتصر على والى مصر السابق وان يهزم الثائرين عليه من القواد والجند • أما الماذرائى فقد اضطر الى الاختفاء ، وفى الوقت نفسه أظهر ابنه الحسين بن محمد الماذرائى التسليم لابن طغج • وليس هذا الانقسام غريبا على الماذرائيين ، فقد كانوا يضمنون به وجود أفراد منهم يتعاونون مع مختلف الحكام •

وهكذا خلصت مصر لابن طغج بفضل جهوده الشخصية وذلك بعد أن قلده الخليفة الراضى مصر فى سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) •

٣ ـ تثبيت محمد بن طغج فى مصر واتساع سلطانه

كانت الحكومة المركزية فى بغداد ترقب جهود محمد بن طغج لتثبيت قدمه فى مصر ، وما كادت الأحوال فى مصر تؤذن بالاستقرار حتى قدم اليها الوزير العباسى الفضل بن جعفر بن الفرات(١) ، ومعه خلع لمحمد بن طغج من قبل الخليفة الراضى ٠

وقد أقام ابن الفرات فى مصر الى سنة ٣٢٤ هـ يبحث شئونها المالية ويكشف ضياعها ولا سيما ضياع الماذرائيين ٠ ولما خرج ابن الفرات الى الشام أخرج معه محمد بن على الماذرائى مقبوضا عليه ٠ ويعتبر خروج ابن الفرات من مصر ايذانا ببدء عهد جديد فى حكم الاخشيد ، اذ أنه لما كان الفضل بن جعفر بن الفرات فى مصر كان تدبير الأموال والخراج له ، وتدبير الحرب والرجال للاخشيد ، فلما

---

(١) كان محمد بن طغج الاخشيد قد ارتبط برباط المصاهرة مع الفضل بن جعفر قبل ولايته الثانية على مصر اذ زوج ابنته من جعفر بن الفضل ابن جعفر ٠

غادرها ابن الفرات جمع الاخشـــــيد الولايتين كما عمل أحمد بن طولون • كذلك تخلص محمد بن طغج من منافسة المادرائيين ، فضلا عن انه أفاد من مصادرة معظم ضـــياع أبى بكر محمد بن على المادرائي في مصر ، ومصادرة أموال أولاده وحاشيته •

كذلك استطاع الاخشيد أن يهزم الجند المغاربة الذين كرهوا الخضوع له واتصلوا بالفاطميين فى المغرب • وقد فر هؤلاء الجند من الاسكندرية الى الرمادة فى طريقهم الى برقة ، وهناك توفى زعيمهم سنة ٣٢٤ هـ ، وكانوا قد كتبوا الى القائم بأمر الله الخليفة الفاطمى ، يسألونه أن يبعث اليهم بجيش يفتحون به مصر • وقيل أيضا ان أبابكر محمد بن على المادرائى ، حين كان معزولا فى قبضة الفضل ابن جعفر بالشام ، اتهم بأنه كاتب الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله وزين له فتح مصر(٢) •

وقد لبى الخليفة الفاطمى دعوة الجند المغاربة ، وأنفذ اليهم جيشا أمره بالمسير معهم الى الاسكندرية فبلغوها فى ربيع الآخر سنة ٣٢٤ هـ • وبعث اليهم الاخشيد جيشا على رأسه أخوه الحسن ابن طغج وقائده صالح بن نافع •

والتقى الجيشان فى قرية من قرى البحيرة ، وحلت الهزيمة بالمغاربة وفرت فلولهم الى برقة(٣) •

والراجح أن نجاح الاخشيد فى التغلب على الصعاب التى لقيها بمصر حمل الخلافة العباسية على تاكيد ولايته لها • فالمعروف أن الاخشيد ولى مصر فى سنة ٣٢٣ هـ • ونرى فى بعض المصادر القديمة أن الراضى قلد محمد بن طغج أعمال مصر مضافا الى ما بيده

---

(٢) المقريزى : الخطط . ج٢ ص ٢٦ •
(٣) الكندى . الولاة والقضاة : ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ •

من الشام فى سنة ٣٢٤ هـ(٤) ٠ وهى السنة التى جمع الاخشيد فيها أيضا ولاية مصر مضافا اليها ولاية الخراج ٠

وقد اضطر الاخشيد الى القتال فى الشام ليوطد سلطانه فيها ، فاستطاع أن يصد هجوم محمد بن طغج الذى كان أميرا للأمراء فى بغداد سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٦ م) ، والذى هاجم الشام وطالب الاخشيد بضريبة على الممتلكات الاخشيدية فى الشام فى سنة ٣٢٨ هـ ٠ ولم تكن نتيجة الحرب حاسمة بين الفريقين فعقد الاخشيد مع ابن رائق صلحا على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية شمالى الرملة ، وعلى أن يحكم الاخشيد ما يقع جنوبيها ، وأن يدفع الى ابن رائق جزية سنوية قدرها مائة وأربعون ألف دينار ٠ والحق أن الشام والثغور الشامية(٥) كانت موضع نزاع بين الاخشيد وبين ابن رائق كما صارت موضع نزاع بينه وبين سيف الدولة الحمدانى كما سنرى ٠

وهكذا نرى أن الاخشيد كان عليه أن يفرض نفسه على الولاية التى تقلد حكمها ، وأن يتغلب على الثوار والمعارضين والغزاة ، وأن يلجأ الى الوسائل السلمية حين يستطيع ، والى القتال حيث لا تنفع الوسائل السلمية ٠ أما الخلافة العباسية فى بغداد فقد سادت فيها

---

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : ج٨ ص ١١٤ (طبعة بولاق ١٢٩٠ هـ) ، وأبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر : ج٢ ص ٨٩ (طبعة القسطنطينية ١٢٨٦ هـ) ، وابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر : ج٣ ص ٤٠٩ (طبعة القاهرة ١٢٨٤ هـ) ٠

(٥) المعروف أنه منذ حكم معاوية بن أبى سفيان حصنت الحدود الشمالية الشامية وحدود الجزيرة الشمالية تحصينا منيعا ، وأقيم هناك خطان دفاعيان أحدهما أمامى يطلق عليه خط الثغور وهو يلى حدود الروم ، أو الدولة البنزنطية ، مباشرة ، والآخر خلفى يطلق عليه اسم العواصم ٠ وكان من أهم الثغور لشامية مدينة طرسوس ٠

الفوضى وكان موقفها من ذلك كله موقف المتفرج ، وذلك حين لا تتدخل من وراء ستار لتزيد الطين بلة وتضيف سببا جديدا للخلاف والقتال بين الولاة الطامعين فى الاستقلال ·

ولا ريب فى أن الخلافة العباسية كانت مرغمة على تثبيت الولاة المنتصرين ، فضلا عن انها كانت ترتاح الى بقاء مصر فى يد حاكم قوى يستطيع صد الفاطميين عنها ويحمى الخلافة منهم · وقديما كان لمثل هذا الاعتبار أثره فى قيام الأغالبة حين أقطعهم هارون الرشيد أفريقيا لتكون ولايتهم حاجزا يحمى مصر والشرق الاســـلامى من الأدارسة وغيرهم من الخارجين على الدولة العباسية ·

وبعد عودة محمد بن طغج من الشام على اثر عقد صلحه مع ابن رائق وردت الأخبار فى سنة ٣٢٩ هـ بوفاة الخليفة الراضى وبيعة أخيه المتقى بالله ·

وقد وصل كتاب الخليفة الجديد فى نفس هذه السنة باقرار الاخشيد على مصر ·

وقد احتل الاخشيد الشام بعد قتل ابن رائق ودخل دمشق فى سنة ٣٣٠ هـ واستقر حكمه فى الشام بحد السيف ·

ولا ريب فى أن قتل ابن رائق ، واستقرار الحكم فى الشام للاخشيد ، ونجاحه فى تدعيم حكمه فى مصر ، كل ذلك يعتبر حدا فاصلا فى علاقته بالخلافة العباسية ، فقد أصبح من القوة بحيث استطاع فى آخر ذى القعدة سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ م) ان يأخذ البيعة من قواده لابنه أبى القاسم أو نوجور من بعده(٦) ·

---

(٦) المقريزى : الخطط : ج١ ص ٣٢٩ ، دكتور حسن ابراهيم حسن · تاريخ الاسلام السياسى ج٣ ص ١٥٤ (الطبعة الثانية ــ القاهرة ١٩٤٩ م)·

٤ ـ الاخشيد والخلافة العباسية

اختار الخليفة العباسي المتقي لامرة الأمراء « توزون » ، وذلك في سنة ٣٣١ هـ • ولكن سرعان ما ساءت العلاقة بين الخليفة وبين أمير الأمراء الى حد اضطر معه الخليفة الى الاستنجاد بالاخشيد والكتابة اليه بأنه سائر للقائه • وخرج الخليفة الى الرقة مع وزيره ابن مقلة • أما الاخشيد فخرج من مصر الى أن وافى الخليفة المتقى بالرقة ولكنه لم يستطع دخولها خوفا من سيف الدولة على بن حمدان •

والظاهر أن الخليفة المتقى رأى من بنى حمدان الملل والضجر منه فعمل على الصلح مع توزون ، ولكنه كتب في الوقت نفسه الى الاخشيد يستحثه على أن يعبر نهر الفرات ليلقاه في الرقة • وخشى الاخشيد أن يحدث له ما حدث لابن رائق حين عبر الفرات وقتله الحمدانيون في سنة ٣٣٠ هـ • فاضطر الخليفة الى عبور نهر الفرات ، واجتمع بالاخشيد وخلع عليه في بداية سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) • وبالغ الاخشيد في اظهار امارات الخضوع والاجلال للخليفة ، كما

قدم اليه والي وزيره وحاشيته الهدايا النفيسة من المال والجواهر والمنسوجات النفيسة والطيب والدواب(١) ·

ويبدو ان الخليفة سر باخلاص الاخشيد وهداياه ، فقال له : « قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لك اونوجور »(٢) ·

وهكذا حصل الاخشيد على تقليد جديد من الخليفة بولاية مصر وممتلكاتها وحق توريثها لابنه من بعده ، وان كان هذا الحق قد حدد بفترة ثلاثين سنة ·

وقد نص المؤرخ ابن زولاق على ما يرجح وجود نظام لولاية العرش وضعه الاخشيد قبل لقاء الخليفة ، فقال : « كان يدعى للمتقى ثم للاخشيد ثم لاونوجور ثم لأبى المظفر الحسن بن طغج »(٣) ·

والواقع ان هذا التقليد من قبل الخليفة لم يكن له شأن عملى كبير ، وانما كان اقرارا للواقع واعطاء لامتيــاز لم يكن الخليفة ليستطيع أن يمنعه · اذ أن الاخشيد كان قد أخذ البيعة لابنه من كبار القواد قبل لقاء الخليفة كما ذكرنا ، وذلك انه عمل فى سنة ٣٣١ هـ على أن يعترف ذوو الرأى فى مصر من أهل البلاد والقواد والجند بابنه أونوجور خليفة له (٤) ·

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج٨ ص ٣٤٨ ــ ٣٥٠ (طبعة باريس ١٨٦١ ــ ١٨٧٧ م) ·

(٢) انظر : ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ٤٠ (الســـفر الرابع من كتاب المغرب ــ طبعة ليدن ١٨٩٩ م وانظر أيضا · ابن ســـعيد : الجزء الأول من القسم الخاص بمصر ــ طبعة جامعة القاهـــرة ١٩٥٣ م نشر الدكتور زكى محمد حسن والدكتور شوقى ضيف والدكتورة ســـيدة اسماعيل كاشف) ·

(٣) انظر : ابن سعيد (نقلا عن سيرة الاخشيد لابن زولاق) : المغرب فى حلى المغرب · ص ٤٠ (طبعة ليدن ١٨٩٩ م) ·

(٤) المقريزى : الخطط : ج١ ص ٣٢٩ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٣ ص ٢٥٤ ·

ومهما يكن من أمر فان الاخشيد علم بيأس الخليفة وعزمه على العودة الى توزون عدوه اللدود ، فعرض عليه الاخشيد أن يسير معه الى مصر والشام ليكون الاخشيد ورجاله فى خدمته فرفض الخليفة هذه الدعوة ·

ولسنا ندرى لماذا استنجد الخليفة بالاخشيد ثم رفض أن يصحبه الى مقر ولايته · والراجح عندنا أن الخليفة كان قد فقد ثقته فى القواد والزعماء وأصبح لا ينتظر أن يكرمه الاخشيد طويلا ففضل ألا يبعد عن حاضرة ملكه وأن يعمل على الصلح مع توزون أمير الأمراء ·

ولو أتيح للاخشيد أن ينجح فى جذب الخليفة ومقر الخلافة الى مصر لتغير الى حد ما مستقبل الخلافة ومستقبل وادى النيل حينذاك · ولم يكن الاخشيد أول وال عباسى فكر فى مثل هذا المشروع فانا نذكر محاولة أحمد بن طولون مع الخليفة المعتمد · وكان المعتمد أن يحقق حلم أحمد بن طولون لولا أن قبض عليه عيون أخيه الموفق قبل سيره الى مصر ·

وهكذا أخفق أحمد بن طولون فى القـــرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، وأخفق محمد بن طغج الاخشيد فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) فى جعل مصر مركز الخلافة العباسية · ولم يتم ذلك الا على يد الظاهر بيبرس وبعد سقوط الخلافة العباسية فى بغداد على يد المغول فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشــر الميلادى)(٥) ·

وقد عاد الاخشيد الى مصر فى سنة ٣٣٣ هـ ، وسار المتقى الى بغداد ، وخرج توزن للقائه وكحله فأذهب عينيه ونادى بالخليفة المستكفى بالله ·

---

(٥) انظر : دكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص : ٨٥ ــ ٨٧ وماذكرته من مراجع ·

ولما ولى المستكفى الخلافة سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) أقر الاخشيد على ولاية مصر والشام ، وقام الاخشيد بالدعوة له على المنابر فى أنحاء ولايته ٠

ولما عزل المستكفى وبويع المطيع لله خليفة سنة ٣٣٤ هـ ، (٩٤٦ م) ظلت العلاقة بين الخلافة والاخشيد على حالها ، اذ بادر المطيع باقرار الاخشيد على ولايته ، وأمر الاخشيد بالدعوة للمطيع على المنابر ٠

والواقع أن المصادر التاريخية تبين لنا أن العلاقة بين الاخشيد وبين الحكومة المركزية فى بغداد ظلت علاقة طيبة ، وأن الاخشيد لم يخرج على الخلافة كما خرج أحمد بن طولون على الموفق صاحب الأمر والنهى فى حكومة الخليفة المعتمد ٠ ومن ناحية أخرى نلاحظ ان الدولة الطولونية عاصرت فترة من فترات صحوة الخلافة العباسية ويقظتها ، بعكس ما كان عليه أمر الخلافة العباسية زمن الاخشيد والدولة الاخشيدية ٠

وتشهد النقود التى سكت فى عهد الاخشيد بتطور العلاقة بينه وبين الخلافة ، فقد ظلت الدنانير تضرب فى مصر باسم الخليفة وحده حتى سنة ٣٢٩ هـ ، أما بعد سنة ٣٢٩ هـ فقد كان الاخشيد ينقش اسمه على السكة مع اسم الخليفة(٦) ٠

ويظهر من المراجع التاريخية أن سلطان الاخشيد امتد الى الحجاز واليمن وانه خطب له هناك ٠ وتذكر المصادر أيضا أن الخليفة المتقى عقد للاخشيد على مصر والشام والحرمين ٠ كذلك أشار

---

(٦) انظر : دكتورة سيدة كاشف ٠ مصر فى عصر الاخشيديين : ص ٩٠ وماذكرته من مراجع ٠

الاخشيد الى أنه حاكم الحجاز واليمن فى كتابه الى امبراطور الدولة البيزنطية فى سنة ٣٢٥ هـ (٧) ٠

ونحن نرجح أن تقليد الاخشيد الحجاز واليمن كان أمرا صوريا ورمزيا ٠ فلسنا نعتقد أن سلطان الاخشيداستقر فى تلك الأقاليم ، اذ كان حكمها فى يد أسرات محلية ربما خضع أمراؤها خضوعا اسميا للخلفاء العباسيين أو لمن يقلدهم أولئك الخلفاء حكم تلك البلاد ، ولكن تصريف الأمور فيها ظل بيد الأمراء أنفسهم ٠ ولاشـــك أن تقليد الاخشيد على الحرمين واليمن ، يشهد بضعف الخلافة ونزولها عن قسط من نفوذها السياسى للأقوياء من الولاة ٠

وقد بلغ من قوة محمد بن طغج الاخشيد ان كان البيزنطيون يحترمونه ويخشون بأسه ٠ وقد راسله الامبراطور البيزنطى رومانوس وكتب اليه متخطيا الخليفة العباسى ، يتودد اليه ويطلب تبادل الأسرى وتنظيم الفداء ، وقد بادله الاخشيد ودا بود ٠

---

(٧) انظر هذه الرسالة فى : القلقشندى : صبح الأعشى ج٧ ص ١٠ وما بعدها ٠



٥ ـ الاخشيد والحمدانيون

مر بنا أن علاقة الاخشيد بالحكومة المركزية فى بغداد لم يطرأ عليها أى تغيير منذ عزل المتقى . فقد شغل الاخشيد بنزاعه مع سيف الدولة الحمدانى على حكم الشام . ووقفت الحكومة المركزية موقف المتفرج ، فلم يكن لها فى هذا الخلاف رأى تبديه أى ارادة تمليها .

والحمدانيون أسرة عربية علوية تنتسب الى قبيلة تغلب(١) . أمكنها وسط الفوضى التى حلت بالدولة العباسية أن تقيم لنفسها ملكا فى بلاد الجزيرة منذ سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) وكانت عاصمتهم الموصل ، وأميرهم أبو محمد الحسن ناصر الدولة .

واشترك الحمدانيون فى الأحوال السياسية فى بغداد حينئذ بين الأتراك والخليفة مما جعل لهم مركزا فى سياسة ذلك الحين .

ولما شبت الفتن فى بغداد بسبب القحط والغلاء فى سنة ٣٢٩ هـ اضطر الخليفة المتقى وابن رائق الى الخروج الى الموصل حيث كان ناصر الدولة بن حمدان . وكان الخليفة يود أن يساعده ناصر الدولة

---

(١) تغلب : من القبائل العدنانية من عرب الشمال .

على البريدى الذى كان يحكم واسط ، ولكن ناصر الدولة اغتال ابن رائق ليحل محله فى منصب أمير الأمراء · ولم ير الخليفة بدا من منحه هذا اللقب فى سنة ٣٣٠ هـ ، كما خلع على أخيه أبى الحسن على ولقبه سيف الدولة ·

وسار ناصر الدولة الى بغداد فهرب منها البريدى ، وظل ناصر الدولة أميرا للأمراء نحو ثلاثة عشر شهرا ثم قاومه الترك فاضطر الى الرحيل عنها · واختار الخليفة القائد توزون أميرا للأمراء فى سنة ٣٣١ هـ · وقد مر بنا أنه لما ساءت العلاقة بين الخليفة وبين توزون استنجد الخليفة بالاخشيد ·

وكان سـيف الدولة الحمدانى يحاول أن يؤسس له ملكا فى الشام ·

ولما عاد الاخشيد الى مصر سنة ٣٣٣ هـ بعد مقابلته للمتقى ، سار سيف الدولة الى حلب وقنسـرين وحمص وانطاكية والثغور الشامية وسائر الولايات والمدن الشامية فاستولى عليها وأقام الدعوة فيها للخليفة المستكفى ، الذى خلف المتقى ، ولأخيه ناصر الدولة الحمدانى ولنفسه ·

وقد خرج الاخشيد بنفسه على رأس جيشه الى الشام للقاء سيف الدولة · ووقعت بينهما موقعة عند قنسرين ، بالقرب من حلب ، كان النصر فيها للاخشيد · ولكن هزيمة سيف الدولة لم تكن حاسمة مما دعا الاخشيد الى أن يجنح للسلم ويعمل على الصلح · وقد تم الصلح بينهما فى سنة ٣٣٤ هـ على أن يكون لسيف الدولة من حمص وأعمالها الى شمالى الشام ، وأن يكون للاخشـيد من دمشـق وأعمالها ·

واستقر الاخشيد فى دمشق الى ان مات فى نهاية سنة ٣٣٤ هـ ٠
ويبدو لنا أن الاخشيد جنح الى عقد الصلح مع سيف الدولة لأنه كان يعلم أن النزاع بينه وبين الحمدانيين على شمالى الشام واقليم الثغور كان لابد أن ينتهى بانتصارهم عليه لبعد الشقة بين مصر وبين هذا الاقليم ، ولأنه كان المجال الحيوى لتوسع الحمدانيين ٠ ومن المحتمل أن الاخشيد كان لا يكره أن تظل دولة الحمدانيين دولة حاجزة بينه وبين البيزنطيين تكفيه مئونة التعرض لهجومهم من وقت لآخر ٠ فضلا عن أن مصر كان يهددها حينذاك الفاطميون من الغرب ، وكان طبيعيا أن يعمل الاخشيد على الاستعداد لصدهم(٢) ٠

(٢) انظر عن علاقة الاخشيد بالحمدانين : دكتورة سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيدين ص ٣٤٩ ـ ٣٥٣ وما ذكرته من مراجع ٠



٦ ـ مصر والخلافة بعد وفاة الاخشيد

توفى محمد بن طغج الاخشيد فى دمشق فى شهر ذى الحجة سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٦ م) ودفن في بيت المقدس ٠ وكان الاخشيد قد استخلف على مصر قبل سفره ابنه أبا القاسم أونوجور كما استخلف له عمه أبا المظفر الحسن بن طغج ٠ ويبدو لنا أن الاخشيد كان يثق بأخيه الحسن ويسلم بضرورة التعاون بينهما فى حياته ، ولكنه كان يخشى اذا جعله بعد ولده أونوجور فى ولاية الحكم أن يستأثر بلسلطان وأن ينحى عنه أولاد الاخشيد ٠ ولعل ذلك هو السبب فى أنه رتب أن يدبر أمور ولديه من بعده غلامه كافور دون عمهما الحسن ٠

والواقع أن تاريخ العصر الاخشيدى هو تاريخ محمد بن طغج مؤسس الدولة الاخشيدية ، ثم تاريخ كافور تابعه وتلميذه فى ميدان السياسة ٠

وكافور هذا كان عبدا حبشيا اشتراه الاخشيد بثمن بخس ولكنه أظهر من المزايا والصفات ما حبب فيه مولاه ، وقد أخذ الاخشيد

يرقيه فى بلاطه لعقله وحسن تدبيره ، وجعله من كبار قواده ، وعهد اليه بتربية ولديه أبى القاسم أونوجور ثم أبى الحسن على . ولاريب فى أن ارتفاع كافور(١) من عبد حقير لا شأن له ، الى منصب الوصاية ثم الامارة فى مصر ثم اتصال المتنبى الشاعر به ومدحه وهجائه بغرر قصائده ، كل ذلك أثار اعجاب المؤرخين المسلمين حتى عدوه من « أعاجيب الدنيا وسيرته من أغرب السير » وحفزهم الى أن ينسجوا حول نشأته قصصا مختلفة لسنا نعرف نصيبها من الصحة . ونلاحظ أن المناداة بأونوجور أميرا لمصر بعد وفاة الاخشيد لم تحدث الا بعد تردد ومحاولات لتنحيته ، ولكن أبا بكر محمد بن على المادرائى اعترض على عرض هذا الموضوع على بساط البحث وقال : ان الاخشيد عقد لابنه أونوجور قبل وفاته وان الخليفة المتقى أذن للاخشيد بذلك . ولما اعترض البعض بأن أونوجور لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، رد المادرائى بأن صغر السن لا يجوز أن يكون سببا فى تنحيته عن الحكم وأن هارون بن خمارويه بن أحمد ابن طولون ولى حكم مصر وهو أصغر سنا من أونوجور . وتم الأمر لاونوجور واحتفل رسميا بتوليته حين خرج أونوجور فى موكب عظيم سار فيه عمه الحسن بن طغج وأبو بكر المادرائى وقصد جامع عمرو ابن العاص فأدى صلاة الجمعة فى ١٣ من المحرم سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) ودعى له على المنابر .

وكتب المادرائى الى كافور الذى كان لايزال بالشام حين خرج مع سيده ينهى اليه ما تم من تولية أونوجور ، فحمد له كافور هذا الحزم فى تصريف الأمور .

---

(١) انظر عن كافور الاخشيدى . دكتورة سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين : ص ١٢٧ ـ ١٤٤ وما ذكرته من مراجع .

وماليث كافور أن عاد الى مصر على رأس الجيش الذى كان قد سافر الى الشام مع الاخشيد ، وكان وصوله الى الفسطاط فى شهر صفر سنة ٣٣٥ هـ ٠

وورد كتاب من الخليفة المطيع لله الى الأمير القاسم أونوجور يقره فيه على ولاية مصر والشام وما كان لأبيه من الولاية ٠ وقرىء هذا الكتاب يوم الجمعة أول ربيع الآخر على منبر الجامع العتيق ٠

ثم أصبحت مقاليد الأمور فى بغداد بيد بنى بويه وأضحى معز الدولة صاحب الأمر والنهى فى الدولة العباسية ٠ فلا عجب اذا سعى اليه الولاة والأمراء ومنهم أونوجور بن الاخشيد ٠ وقد كتب أبو المحاسن أن أونوجور أرسل طائفة من الهدايا الى معز الدولة البويهى سنة ٣٣٨ هـ وسأله أن يكون أخوه مشاركا له فى امرة مصر وأن يخلفه بعد وفاته فأجابه معز الدولة الى ذلك(٢) ٠ وهكذا نال أونوجور موافقة الحكومة المركزية على استخلاف أخيه ٠

أما سلطان مصر على الحجاز بعد وفاة الاخشـــيد فقد ظل سلطانا اسميا يقف عند ذكر اسم الأمير الاخشيدى فى الخطبة فى بعض السنين ولايكاد يصل الى ذلك فى سنين أخرى ٠ وحســـبنا ما ذكره المؤرخون عن اخفاق المحاولة التى قام بها أمير الركب المصرى للخطبة لابن الاخشيد على المنابر فى مكة سنة ٣٤٢ هـ(٣) ٠

واستطاع كافور طوال حكم أونوجور أن يكون الحاكم الحقيقى للبلاد ٠

---

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٣ ص ٢٩٨ ٠

(٣) انظر ٠ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٨ ص ١٨٢ (طبعة بولاق ١٢٩٠ هـ) ، والقلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص ٢٦٨ ٠

ولما توفى أونوجور فى ذى القعدة سنة ٣٤٩ هـ (ديسمبر ٩٦٠ م) نودى بأخيه على بن الاخشيد أميرا على مصر ، وذلك باتفاق كافور وقواد الجند ورجال أبيه الاخشيد ، وكان يبلغ من العمر حينذاك ثلاثا وعشرين سنة • وقد أقره الخليفة المطيع على ولاية مصر والشام والحرمين • وكانت الأمور على عهده بيد كافور كما كانت الحال فى عهد أخيه •

وقد خاطب علية القوم كافورا بلقب « الأستاذ » ، والراجح أن هذا اللقب أصبح لقبا له منذ عهد اليه الاخشيد بتربية ولديه • أما الخليفة فقد كناه بأبى المسك •

ولما توفى على بن الاخشيد فى سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) ، ظلت مصر بعد وفاته أياما بغير أمير ، فلم يذكر فى الخطبة الا اسم الخليفة المطيع • وكان كافور يدبر أمور مصر والشام ، ومالبث ـ بعد نحو أسبوعين من وفاة على بن الاخشيد أن أعلن ورود كتاب من الخليفة المطيع بتقليده مصر ، فدعى له على المنابر •

ولم يسمح كافور بتولية أحمد بن على بن الاخشيد لصغر سنه وأغلب الظن أن الخليفة العباسى لم يرسل تقليدا لكافور بولاية مصر كما أنه لم يعترض على امارته ، ولاسيما أن الخلافة اعتادت أن ترى فى يده تدبير الأمور فى مصر(٤) •

وكان كافور يشعر بأنه غريب عن أسرة الاخشيد • ولعله كان يشعر بما نكاد نصل اليه من النصوص ، وهو أنه وسط بين الأمير والوصى على العرش ، فهو مستقل بحكم البلاد ولكنه غريب عن شعبها وأسرتها الحاكمة ، وهو مطلق التصرف فى أمورها ولكن ذلك ليس جديدا عليه فقد كان له هذا السلطان منذ وفاة الاخشيد ، وهو

---

(٤) انظر رأينا مستندا على الأصول والمصادر القديمة فى : دكتورة سيدة اسماعيل كاشف . مصر فى عصر الاخشيديين ص ٩٧ ـ ١٠١ •

أمير على البلاد ولكنه يؤثر الاحتفاظ بلقب الأستاذ حتى لا يصدم أهل الرأى فى البلد باغتصاب الألقاب الى جانب اغتصابه السلطان . بل ان كافورا لم ينقش اسمه على السكة بعكس جميع الأمراء الاخشيديين الذين كانوا ينقشون اسمهم على السكة مع اسم الخليفة العباسى .

وبعد وفاة كافور سنة ٣٥٧ هـ اجتمع كبار القواد والموظفين وأولو الأمر فى مصر وعقدوا الولاية لابى الفوارس أحمد بن على بن الاخشيد وكان صبيا فى الحادية عشرة من عمره(٥) . ولم يخرج على هذا الاجماع سوى الحسن بن عبيد الله بن طغج الذى أخذ البيعة لنفسه واستولى على ما كان لكافور من أموال فى الرملة(٦) .

ودعى لأحمد بن على بن الاخشيد على منابر مصر والشام والحرمين ، ثم من بعده للحسن بن عبيد الله بن طغج اما بوصفه وصيا عليه أو بوصفه خليفة له(٧) .

ولسنا نعرف تماما هل جاء من الخليفة تقليد لأحمد بن على بن الاخشيد على ولاية مصر والشام والحرمين ، أو سبق الغزو الفاطمى ورود هذا الاعتراف من الحكومة المركزية فى بغداد . فالواقع أن المراجع التاريخية لا تشير الى هذا الاعتراف بشىء . ومهما يكن من الأمر فان دخول جوهر الصقلى مصر فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) وضع حدا لسلطان الدولة الاخشيدية ولسلطان الخلافة على مصر .

---

(٥) ابو المحاسن النجوم الزاهرة
(٦) الكندى الولاة والقضاة : ص ٢٩٧ .
(٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة . ج٤ ص ٩ ، والمقريزى . الخطط ج١ ص ٣٣٠ .



٧ ـ علاقات مصر الخارجية فى مصر الاخشيديين

(أ) مع الخلافة العباسية

مر بنا أن علاقة الاخشيديين بالخلافة العباسية كانت علاقة طيبة • والواقع أن استقلال مصر عن الخلافة العباسية فى العصر الاخشيدى كان استقلالا ملموسا لا شك فيه وان ظلت الروابط الروحية ومقتضيات الأحوال السياسية تربطها بالحكومة المركزية فى بغداد من غير أن تصل بها الى التبعية • وكان مثل الدولة الاخشيدية فى ذلك مثل الدولة الطولونية ، وان كان استقلال الطولونيين يبدو لبعض الباحثين أوضح وأظهر أثرا • ولعل بعض السبب فى هذا ان الاخشيديين لم يحاربوا الحكومة المركزية صراحة كما فعل أحمد بن طولون وخمارويه ، وأن الاخشيديين خلفتهم الدولة الفاطمية التى جعلت من مصر مقرا للخلافة الفاطمية فأنست القوم ما كان للاخشيديين من مجد واستقلال •

ولا تذكر المراجع التاريخية أن مصر كانت ترسل أموالا معينة وبانتظام الى الحكومة المركزية فى العراق طوال العصر الاخشيدى •

ومع ذلك كان الاخشيديون يتعاونون مع الخلافة فى دفع النفقات اللازمة لفداء الأسرى المسلمين ٠

كذلك كان للامراء الاخشيديين ممثلون فى بغداد يسهرون على شئونهم ويراقبون مايجرى فى دار الخلافة ، ويعملون على أن يستميلوا الى الاخشيديين من يستطيعون التأثير عليه بمختلف الوسائل من أولى الأمر ٠

وطبيعى جدا أن يكون للاخشيد وكيل فى بغداد ، وقد سبقه الى ذلك أحمد بن طولون فكان له وكلاء فى سامرا وكانوا يقدمون مثل هذه المساعدة المالية لنفر من كبار رجال الدولة ٠

والواقع ان الاخشيد كان يتشبه بأحمد بن طولون ، وكان يقصده أمراء بغداد وقوادها وكتابها وأبناء وزرائها ، وكان ينفق عليهم بسخاء ٠

(ب) مع الحمدانيين

أما عن علاقة الاخشيديين بالحمدانيين فى الشام فقد رأينا كيف حرص الحمدانيون على التوسع فى بلاد الشام على حساب أملاك الدولة الاخشيدية ، وانه وقعت حروب بين الاخشيد وبين سيف الدولة الحمدانى انتهت بالصلح وباقتسام النفوذ فى بلاد الشام ٠

وبعد تولية أونوجور وردت الأنباء باضطراب الأمور في الشام وباستيلاء سيف الدولة الحمدانى على دمشق وبأنه عول على المسير الى الرملة لغزو مصر ٠

فنهض كافور ومعه سيده أونوجور الى الشام ، ودارت المعركة بين المصريين وبين سيف الدولة ٠ وقد انتصر المصريون وطاردوا سيف الدولة الى حلب فهرب الى الرقة ٠

ثم بدأت المفاوضات بين الطرفين وانتهت الى الشروط التى كانت بين الاخشيد وسيف الدولة ٠ وعاد اونوجور وكافور الى مصر بعد عقد هذا الصلح وظل السلام قائما بين سيف الدولة الحمدانى وبين الاخشيديين منذ سنة ٣٣٦ هـ(١) ٠

(حـ) مع البيزنطيين

أما عن علاقة الاخشيديين بالدولة البيزنطية ــ أو دولة الروم فى آسيا الصغرى ــ فقد مر بنا ان البيزنطيين فى عهد الامبراطور رومانوس الأول كانوا يحترمون الاخشيد ويخشون بأسه ٠ وقد شرع الاخشيد « أمير مصر والشام والثغور الشامية » ، وهو فى دمشق فى ذى الحجة سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م) ، فى الفداء الذى وقع بين المسلمين وبين البيزنطيين سنة ٣٣٥ هـ ٠

ولكن الاخشيد كان مريضا ومالبث أن توفى ، فرجع كافور بالجيش الى مصر وبعث ثلاثين ألف دينار من مال هذا الفداء ٠٠ وقد أتم هذا الفداء سيف الدولة فعرف به ونسب اليه ومع ذلك فان الثغور الشامية لم تدخل فى طاعة سيف الدولة الا بعد وفاة الاخشيد(٢) ٠

وحين فرض الامبراطور البيزنطى رومانوس الثانى السيادة البيزنطية على حلب فى سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) فى عهد على بن

---

(١) انظر : ابن العديم الحلبى ٠ زبدة الحلب فى تاريخ حلب ٠ ص ٣٧٣ ــ ٣٧٤ ، وابو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج٣ ص ٢٩١ ــ ٢٩٢ ٠

(٢) انظر : المسعودى : التنبيه والاشراف : ص ١٦٥ (طبعة القاهرة ١٩٣٨ م) . ودكتورة سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيدين : ص ٣٥٥ ــ ٣٥٦ ٠

الاخشيد ،عجز سيف الدولة الحمدانى عن صد الروم واسـتنجد بالاخشيديين ، فخرجت الجيوش الاخشيدية من دمشق لنجدة المسلمين وعندئذ انسحب الروم الى بلادهم ٠

ولكن ماكاد الامبراطور البيزنطى نقفور فوقاس يلى عـرش الامبراطورية البزنطية سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) حتى بادر الى مهاجمة شمال الشام وأنزل الهزيمة بسيف الدولة الحمدانى ٠ وتوالت هجمات نقفور فوكاس فى سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٧ م) وفى سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩م) على بلاد الشام ، وجاءت الهجمات على انطاكية وحلب بعد وفاة كافور الاخشيدى حين كانت الدولة الاخشيدية فى طور الاحتضار ٠

والواقع أن المسلمين فى القرن الرابع الهجرى لم يهملوا واجب الجهاد ، وكان المحاربون منهم يتدفقون من كل أنحاء البلاد الاسلامية الى اقليم الثغور ، ولاسيما مدينة طرسوس(٣) ٠

(د) مع النوبيين

أما القوة المسيحية الأخرى التى احتكت بالدولة الاخشيدية فكانت مملكة النوبة المسيحية ٠

والمعروف أن الحملة التى قام بها عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر فى سنة ٣١ هـ انتهت الى عقد اتفاق بين مصر وبين ملك النوبة يعرف باسم البقط كان بمثابة معاهدة سياسية وتجارية بين مصر وبين مملكة النوبة المسيحية(٤) ٠

ولكن هذه المعاهدة كانت تنقض بين حين وآخر ، وكان ملوك

---

(٣) انظر ٠ دكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ٣٥٥ ــ ٣٥٧ وما ذكرته من مراجع ٠

(٤) انظر : دكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاسـلام ص ١٥ ــ ١٦ وما ذكرته من مراجع ٠

النوبة يقدمون على غزو جنوب الصعيد كلما أحسوا من أنفسهم القوة على هذا الغزو وظنوا أن مصر لن تستطيع صدهم • ومع ذلك فقد كانت تجارة الرقيق زاهرة بين مصر وبلاد النوبة • وحسبنا أن الجند السودان فى جيش الطولونيين والاخشيديين •

وقد كتب المؤرخ والجغرافى المسعودى حين زار مصر فى سنة ٣٣٢ هـ أن النوبيين كانوا لايزالون يقدمون السبى الذى اتفق عليه فى البقط وكان يتسلمه نائب أمير مصر فى أسوان(٥) •

وحدث فى سنة ٣٣٩ هـ أن أغار ملك النوبة على اقليم الواحات بمصر فقتل عددا من سكانها وسبى وحرق وخرب(٦) •

كما حدث فى ذى الحجة سنة ٣٤٤ هـ أن أغار ملك النوبة على أسوان وقتل جمعا من سكانها ونهب قراها ، فخرج اليه جيش من قبل أونوجور وعلى رأسه محمد بن عبد الله الخازن ، واستطاع هذا الجيش أن يصد النوبيين ، وأرسل بعض أسراهم الى مصر فضربت أعناقهم ، ثم طارد الجيش المصرى ملك النوبة وفلول جيشه واستطاع أن يفتح مدينة ابريم وعاد الى مصر فى منتصف جمادى الأولى سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦ م) ومعه مائة وخمسون أسيرا وعدد من رءوس القتلى(٧) •

(هـ) مع الفـــــاطميين

عرفنا كيف استطاع محمد بن طغج الاخشيد أن يهزم الفاطميين فى سنة ٣٤٢ هـ • والحق أن قيام الدولة الاخشيدية فى مصر أجل

---

(٥) المسعودى : مروج الذهب : ج٣ ص ٣٩ ـ ٤٠ •

(٦) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى : ص ١١٢ •

(٧) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى : ص ١١٤ ، والمقريزى : الخطط : ج١ ص ١٩٨ و ٣٢٩ ـ ٣٣٠ ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج٣ ص ٣٢٦ •

الغزو الفاطمى لها . ويبدو أن الفاطميين أدركوا أن من الأفضل لتحقيق أهدافهم وسياستهم أن يأخذوا الاخشيديين باللين وأن يعملوا على كسب صداقتهم . واضطر الفاطميون الى مراقبة الحالة فى مصر عن كثب على الرغم من أن مطامعهم فى هذه البلاد كانت تشتد سنة بعد أخرى .

والحق أن الفاطميين عملوا على نشر الدعوة لأنفسهم فى مصر وذلك منذ أواخر عصر الولاة فيها وقبل قيام الدولة الفاطمية فى المغرب . ومنذ سقوط الدولة الطولونية ودعاتهم يزدادون نشاطا وتغلغلا بين عامة المصريين وخاصتهم . وازداد اتصالهم بوجوه مصر منذ قيام الاخشيد بل وقبل قيام الدولة الاخشيدية .

وحاول المعز لدين الله ، رابع الخلفاء الفاطميين ، غزو مصر أيام كافور ، وسار بجيشه الى حدود مصر الغربية لكن كافورا جهز جيشا صد تيار تقدمه . وكان وجود كافور هو السبب الأساسى فى تأخير الغزو الفاطمى . وكان دعاة المعز فى مصر يقولون : « اذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز لدين الله الأرض كلها ، وبيننا وبينكم الحجر الأسود ، يعنون كافورا الاخشيد »(٨) .

أما الفاطميون فكانوا يستعدون لفتح مصر قبيل وفاة كافور منذ سنة ٣٥٥ هـ . وفى نهاية جمادى الآخرة من سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) وردت الأخبار من مصر الى المغرب بوفاة كافور فبدأ المعز فى اعداد المال اللازم للحملة التى سيرها لفتح مصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩م)(٩) .

---

(٨) انظر . المقريزى : اتعاظ الحنفا : ص ١٤٦ ـ ١٤٧ (نشره الدكتور جمال الدين الشيال . القاهرة ١٩٤٨ م) ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٤ ص ٧٢ .

(٩) المقريزى : اتعاظ الحنفا : ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ، ودكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين : ص ٣٦٠ ـ ٣٧٠ .

٨ ـ مصر والدولة الاخشيدية

نعمت مصر للمرة الثانية فى العصر الاسلامى باستقلالها وذلك فى ظل الاخشيديين . وأسس محمد بن طغج الاخشيد الدولة الاخشيدية التى عاشت فترة قريبة من تلك التى عاشتها الدولة الطولونية فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، فظلت أربعا وثلاثين سنة من القرن الرابع الهجرى قبل أن تقوم فيها الخلافة الفاطمية .

وقد اتضح لنا من دراسة العصرين الطولونى والاخشيدى أن مصر شهدت ازدهار فى الحضارة الاسلامية وضح فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفنية . كذلك شاركت مصر فى الأحداث الهامة التى كان صداها يتردد فى العالم الاسلامى كله .

وكما ظلت ذكرى الدولة الطولونية ماثلة فى أذهان المصريين وفى قلوبهم وعقولهم ، فان أمراء الدولة الاخشيدية كانوا يتخذون الأمراء الطولونيين والدولة الطولونية مثالا يحتذى به .

وقد عاصر المؤرخ والجغرافى « المسعودى » صدر الدولة

الاخشيدية وزار مصر عدة مرات وأقام بها فترة من الزمن قبل وفاته بها فى سنة ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) ٠

وأطنب المسعودى فى وصف ازدهار البلاد واتساع تجارتها فى المنسوجات والأقمشة والعطور والأطعمة والعقاقير والرقيق ، وذكر أن بضائع العالم كله ترد الى الأسواق المصرية ٠

ونلاحظ أن تجارة الرقيق كانت رائجة فى مصـــر منذ الفتح العربى ٠ وكان فى الفسطاط منذ فجر الاسلام فى مصر ، ســـوق للرقيق ٠

وأصبحت مصر فى العصر الاخشيدى من أعظم أسواق الرقيق الأسود والأبيض ٠ وكانت القوافل تجلب الى مصر الرقيق الأسود من الجنوب ٠ أما الرقيق الأبيض فكان يصل الى أسواقهامن بيزنطة وأرمينية وثغور البحر الأبيض المتوسط ومن أسواق الرقيق فى سائر ديار الاسلام ٠

وكان المسلمون يحســـنون معاملة عبيدهم وامائهم فى معظم الأحيان وذلك عملا بتعاليم الاســـلام ٠ وكان من البر والعـــادات المحمودة أن يعتق السيد كثيرا من العبيد الذين يملكهم فضلا عن أن العتق أو فك الرقبة كفارة لذنوب كثيرة ٠ وكان كثير من العبيد المعتقين يحملون السلاح وينخرطون فى سلك الجيش ، وكان بعضهم يصـــل الى مكانة عالية فيه ، وقد يعدد ذلك لتقلد بعض الوظائف الرئيسية فى الادارة(١) ٠

ونلاحظ بوجه عام فيما يختص بطبقات المجتمع انه لم تكن هناك حواجز منيعة بين هذه الطقبـــات ، بل ان الأرقاء كثيرا ما كانوا

---

(١) انظر : دكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ٢٤٢ ــ ٢٤٤ وما ذكرته من مراجع ٠

ينخرطون فى سلك الجيش أو يتقلدون الوظائف الرئيسـية فى الادارة ·

وفى العصر الاخشيدى كانت الزراعة المصدر الأساسى لثروة مصر كما كانت منذ العصور القديمة · وتدل الأوراق البردية التى ترجع الى العصر الاخشيدى الى أنه كثيرا ما كانت تفلح الأرض بالمزارعة ، أى أن المستأجر يؤدى الايجار من المحصول ·

وتدل الوثائق البردية على أن الجزء الذى يأخذه المالك من المحصول كان النصف فى بعض الأحيان وكان فى أحيان أخرى الثلث أو الربع · وكان ينص فى عقد المزارعة على الطـرف الذى يدفع الخراج أو يقوم بغير ذلك من النفقات ويبدو من الوثائق البردية أن المستأجر كان يأخذ على عاتقه عمارة الأرض أى اصلاح جسورها ومد ترعها وحفر خلجها(٢) ·

وظلت الصناعات التى اشـتهرت بها مصـر الاسلامية ، بل ومنذ العصـور القديمة ، متقدمة ومزدهرة · وكان من أهم الصناعات فى العصر الاخشيدى صناعة النسيج · ومن الصناعات التى عرفتها مصـر فى ذلك العصـر صناعة الحصر ، وكان يصنع منها أنواع فاخرة تقليدا للحصر المصنوعة فى عبادان فى ايران ·

أما الصناعة المصرية التى شهد العصر الاخشيدى تدهورها بعد أن كانت مزدهرة منذ عصر الفراعنة فهى صناعة القراطيس من البردى · وكان العالم الاسلامى وغير الاسلامى يستورد من مصر البردى للكتابة · أما فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)

---

(٢) انظر : Papyrus Erzherzog Rainer : Führer durch die Ausstellung : P. 257 No. 1061 (Wien 1894),

Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library Vol. II. PP. 34, 60,

والمقريزى الخطط : ج١ ص ٨٢ ·

فيحدثنا الثعالبى أن كواغيد سمرقند عطلت قراطيس مصر والجلود التى كان الأوائل يكتبون عليها ، لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق ولا تكون الا بسمرقند والصين ·

ويذكر كراباتشيك(٣) أن صناعة اعداد ورق البردى للكتابة انتهت فى مصر بالاجمال حوالى القرن الرابع الهجرى(٤) ·

وفى ميدان التجارة استمر ما كان لمصر من شأن عظيم سواء فى التجارة الداخلية أو الخارجية · وأشار المؤرخون والجغرافيون والرحالة المسلمون ، الى نشاط مصر التجارى والى موقعها الممتاز فضلا عن أسواق مصر العامرة(٥) ·

وقد بلغت ثروة بعض التجار فى مصـــر فى بداية العصـــر الاخشيدى درجة عظيمة حتى ان أحدهم وهو عفان بن سليمان البزاز

---

(٣) المستشرق Karabacek من علماء البرديات فى عصرنا الحاضر ·

(٤) دكتورة / سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الاســـلام ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ وما ذكرته من مراجع ·

(٥) النويرى نهاية الأرب فى فنون الأدب ج١ ص ٣٤١ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م) وابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٣ ـ ١٥٤ (ليدن ١٨٨٩ م) ، والمسعودى : التنبيه والاشراف : ص ٢٠ (ليدن ١٨٩٣ ـ ١٨٩٤ م) ، وابن حوقل . المسالك والممالك · ص ٨١ ومابعدها (ليـــدن ١٨٧٣ م) . واليعقوبى كتاب البلدان : ص ٣٣٤ ومابعدها (ليدن ١٧٩٢م) ، والمقدسى : أحسن التقاسيم · ص ١٩٨ (ليدن ١٨٨٧ م) . والمقريزى : الخطط ج١ ص ١٩٦ ـ ١٩٧ ، والدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٧ ـ ٩ (القاهرة ١٩٤٥ م) ·

حين توفى اســـتطاع الاخشــيد أن يأخذ من ماله نحو مائة ألف دينار(٦) ٠

أما النظم الادارية فى مصر فاستمرت كما هى منذ ان فتحها العرب دون تغيير جوهرى اللهم الا فيما يختص بمنصب الامارة أو المناصب العليا ٠

ولم تعرف مصر منصب الوزارة فى عصر الولاة ، ولما جاء الطولونيون اتخــذوا وزراء لهم تشــبها بالخلفاء(٧) ٠ واتخذ الاخشيديون أيضا وزراء لهم ٠ وكان من أشهر وزراء محمد بن طغج الاخشيد ، أبو بكر محمد بن على الماذرائى ٠

ومر بنا أن أسرة الماذرائيين كان لها نفوذ كبير فى مصر وذلك فى السياسة والادارة والمال ٠ وحين توفى عميدهم أبو بكر محمد بن على الماذرائى أيام انوجور سنة ٣٤٥ هـ حضر أونوجور وكافور الصلاة عليه ، وانتهى بموته ما كان للماذرائيين من سلطان فى ادارة مصر نحو أكثر من سبعين عاما ٠

ويبدو أن الاخشيد كان له أعوان آخرون يقومون أعمال الوزير دون أن يكون لهم لقبه فى بعض الأحيان ٠ ومن أشهر الوزراء فى العصر الاخشيدى جعفر ابن الفضل(٨) ٠ وقد وزر جعفر بن الفضل للاخشيديين من سنة ٣٣٤ هـ الى الفتح الفاطمى لمصر ٠

---

(٦) الكندى كتاب الولاة وكتاب القضاة ٠ ص ٥٤٣ ، ودكتورة سيدة كاشف . مصر فى عصر الاخشيدين ص ٢٧٩ ـ ٢٨١ وما ذكرته من مراجع ٠

(٧) انظر Dr. Zaky M Hassan Les Tulunides : PP. 194 — 195 وما ذكرته من مراجع ٠

(٨) أبوه هو الوزير العباسى أبو جعفر الفضل بن الفرات ، ومربنا أنه تصاهر مع محمد بن طغج ، وكان يعد نفسه مصريا اخشيديا ٠ ويعرف جعفر ابن الفضل باسم ابن حنزابة ـ بكسر الحاء وسكون النون ـ اسم جدته ويقال انها كانت جارية رومية ٠ (انظر . ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص ١٣٩ ، وابن دقماق ٠ الانتصار لواسطة عقد الامصار ج٤ ص ١٠) ٠

أما عن القضاء ، فبالرغم من استقلال مصر فى العصرين الطولونى والاخشيدى ، فان أمر القضاء كان لايزال مرجعه الى الخلافة . وفى العصر الاخشيدى كان لابد للقضاء من الحصول على موافقة الأمير الاخشيدى . وكان الأمير الاخشيدى فى بعض الحالات يولى القضاء لمن شاء بدون موافقة الخليفة .

وكان فى مصر الاخشيدية ــ كغيرها من أنحاء العالم الاسلامى ــ ما يسمونه النظر فى المظالم . وكان الغرض الأساسى من المظالم هو وقف تعدى ذوى الجاه والحسب ، وتعد أشبه شىء بمحكمة الاستئناف أو محكمة النقض أو مجلس الدولة فى عصرنا الحالى . وكان اختصاص الناظر فى المظالم واختصاص القاضى يلتقيان فى كثير من الأحيان ، وكان يصعب أحيانا أن نتبين أيهما أوسع سلطانا . والحق أن سلطان الناظر فى المظالم لم يكن واسعا الا حين كان هو الخليفة أو الأمير أو من يقرب من مرتبتهما ، أو من كان مؤيدا من الأمير حائزا لثقته التامة .

والمعروف فى العصر الطولونى ان خامرويه عين محمد بن عبدة للنظر فى المظالم ، وكان له كل اختصاص القاضى . وظل محمد بن عبدة بن حرب ينظر فى المظالم نحو أربع سنين ثم ولى القضاء فى سنة ٢٧٨ هـ من قبل الخليفة المعتمد وذلك بعد أن تعطل منصب القضاء نحو سبع سنين .

وفى بداية العصر الاخشيدى كان القاضى ينظر فى المظالم . وفى سنة ٣٣١ هـ أفرد للنظر فى المظالم قاض مستقل . وبعد مقتل ابن رائق وعودة الاخشيد من الشام سنة ٣٣١ هـ ، كان الاخشيد

يجلس للنظر فى المظالم بنفسه فى أيام الأربعاء • وبعده كان كافور يجلس كل سبت للمظالم(٩) •

وظهر قبيل العصر الاخشيدى المحتسب ، ووظيفة الحسبة •• والمفروض أن المحتسب يراقب مراعاة أحكام الشريعة الاسلامية ، ويسهر على حسن السلوك العام ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويشرف على نظام الأسواق ، ويعمل بوجه عام على حماية الناس من غش التجار والصناع •

وظهر منصب الحسبة قبيل ولاية الاخشيد على مصر • ونعرف أيضا أن مؤنسا الخادم عين محتسبا قبيل ولاية الاخشيد أيضا • وبعد ذلك سنجد هذه الوظيفة فى مصر الاخشيدية كما كانت فى سائر أنحاء العالم الاسلامى آنذاك ظلت هذه الوظيفة قائمة طوال عصور مصر الاسلامية •

وكانت مصر طوال العصر الاخشيدى مركزا للحياة العلمية الدينية والدنيوية ، وبرز علماء مصر فى مختلف العلوم والآداب والفنون •

وسارت مصر فى طريق الازدهار والأخذ بأسباب العلوم والآداب والفنون الى أن أصبحت زعيمة للعالم الاسلامى قاطبة • وحسبنا أن نذكر قول ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ ـ ١٤٠٦ م) : « ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر فهى أم العالم وايوان الاسلام وينبوع العلم والصنائع »(١٠) •

---

(٩) انظر عن القضاء والمظالم • دكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين : ص ٢٠٥ ـ ٢٢٨ وما ذكرته من مراجع •

(١٠) ابن خلدون : المقدمـــة : ص ٤٨١ (فصل حملـــة العلـــم فى الاسلام أكثرهم من العجم • طبعة القاهرة ١٣٤٨ هـ / ١٩٣٠ م) •

والحق أن مصر فى العصر الاخشيدى كانت غنية بالفقهاء والعلماء والأدباء • وكانت هذه الطوائف تلتقى فى مجالس الأمراء وعلية القوم وتحظى بتقديرهم ورعايتهم • وكان بالفسطاط سوق كبير للوراقين يسعى اليه أهل العلم والأدب • وقيل ان الخليفة عبد الرحمن الناصر أرسل من الأندلس عشرة آلاف دينار لتفرق على فقهاء المالكية ، فأمر كافور بعشرين ألف دينار لتفرق على فقهاء الشافعية(١١) •

والمعروف أن المذاهب الفقهيية الكبرى استقرت فى القرن الرابع الهجرى • وكانت السيادة فى مصر للمذهبين الشافعى والمالكى • وفى سنة ٣٢٦ هـ كان للشافعيين فى جامع عمرو بن العاص خمس عشرة حلقة وللمالكيين مثلها ، ولأصحاب أبى حنيفة ثلاث حلقات فقط(١٢) •

وقد عدد المؤرخون أسماء الكثير من الفقهاء والعلماء والأدباء والشعراء فى مصر الاخشيدية(١٣) • وكان زعيم الكتاب فى هذا العصر هو ابراهيم بن عبد الله بن محمد محمد النجيرمى ، ومن انشائه الكتاب الذى أرسله الاخشيد الى المانوس (رومانوس) ملك الروم(١٤) •

وكان أكبر نصيب لمصر فى الثقافة الاسلامية ما كتبه أبناؤها فى التاريخ • وقد نبغ من المؤرخين المصريين فى فجر الاسلام فى

---

(١١) ابن الزيات . الكواكب السيارة : ص ١٩٠ ــ ١٩١ •
(١٢) ابن سعيد • المغرب : ص ٢٤ (ليدن ١٨٩٩ م)
(١٣) انظر عن الفقهاء والعلماء والادباء : دكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ٣٠٠ ــ ٣٢٦ وما ذكرته من مراجع •
(١٤) انظر الكتاب فى : ابن سعيد . المغرب فى حلى المغرب ص ١٨ ــ ٢٣ ، والقلقشندى : صبح الأعشى ج٧ ص ١٠ ــ ١٨ •

مصر عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم صاحب كتاب « فتوح مصر وأفريقيا والأندلس » ، والذى توفى سنة ٢٥٧ هـ ، والذى شهد السنوات الأولى من مجىء أحمد بن طولون الى مصر · ولكن ابن عبد الحكم يمت الى عصر الولاة أكثر مما يمت للطولونيين · ومن أشهر مؤرخى الدولة الطولونية المؤرخ المعروف بابن الداية ، وهو أحمد بن يوسف ، والمتوفى سنة ٣٣٩ هـ · قدم أبوه يوسف بن ابراهيم من بغداد وعاصر أحمد بن طولون فى مصر بضع سنوات ، أما ابنه أحمد المشهور بابن الداية فقد ولد فى مصر فى منتصف القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى(١٥) · وكتب أحمد بن يوسف ، أو ابن الداية ، فى التاريخ والطب والأخلاق والمنطق والفلك وغير ذلك مما يشهد بثقافته الواسعة · وللأسف ضاعت مؤلفاته ولم يبق منها الا كتاب المكافأة ، وسيرة أحمد بن طولون وسيرة أبى الجيش خمارويه · أما العصر الاخشيدى فقد أخرج من المؤرخين ابن يونس الصدفى (نسبة الى قبلة الصدف) الذى توفى سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) ، وأبو عمر محمد بن يوسف الكندى الذى توفى سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) ، والحسن بن ابراهيم بن زولاق الذى ألف كتابا عن « سيرة الاخشيد » والذى توفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) · كذلك ألف ابن زولاق كتابا فى أخبار سيبويه المصرى الذى توفى سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) وكان سيبويه المصرى زميلا فى الدراسة لابن زولاق وكان من أدباء العصر الاخشيدى ومن علماء النحو المشهورين ·

ويعتبر الكندى صـــاحب كتاب الولاة وكتاب القضاة شـيخ المؤرخين المصريين قبل الدولة الفاطمية · ومن المؤرخين المصريين المسيحيين الذين أدركوا العصر الاخشيدى سعيد بن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (٩٤٠ م) وهو البطرك الرومى الملكانى افيتشيوس ،

---

(١٥) انظر Zaky M. Hassan : Les Tulunides : PP. 11 — 12.

وكان طبيبا مشهورا فى الفسطاط ، ثم نصب بطركا على الاسكندرية سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) ٠ وقد عنى بالتاريخ وكتب فيه مؤلفا مشهورا هو « نظم الجوهر أو التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » وتحدث فيه عن التاريخ منذ بدء الخليقة الى العصر الذى عاش فيه(١٦) ٠

ولا ننسى أن نشير هنا الى المؤرخ والجغرافى المسعودى الذى عاصر صدر الدولة الاخشيدية ، والذى زار مصر عدة مرات وأقام بها فترة من الزمن قبل وفاته فى مصر سنة ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) ٠

والمعروف أن المتنبى الشاعر زار مصر فى العصر الاخشيدى ووصل اليها فى سنة ٣٤٦ هـ ٠ وقيل انه صرح قبل قدومه انه اذا دخل مصر لا يقصد العبد ، يعنى كافورا ، وانما يقصد مولاه ، يعنى أبا القاسم أونوجور ٠ ولم يكن هذا أول عهد المتنبى بالاخشيديين ، فالراجح انه حين اتهم بادعاء النبوة فى بادية السماوة ، قبض عليه ابن لؤلؤ نائب الاخشيد فى حمص وحبسه ثم استتابه وأطلقه ٠ كما يروى للمتنبى الشعر فى رثاء محمد بن طغج الاخشيد ٠

والمعروف أن المتنبى كان متصلا بسيف الدولة الحمدانى وقال فى مدحه قصائد خالدات ، ولكن أمرا حدث بينهما أدى الى أن يبحث المتنبى عن سيد آخر يرعاه ٠

ولعله سمع ببلاط كافور وما يلقاه الشعراء والأدباء من تقدير واكرام فيه ، فعقد العزم على أن ييمم شطر مصر ٠ وقيل ان كافورا كتب اليه يستدعيه الى بلاطه ٠

---

(١٦) انظر عن المؤرخين : دكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين : ص ٣٢٦ ــ ٣٢٩ ٠

وقابل المتنبى فى الرملة ، وهو فى طريقه الى مصر ، الأمير أبا محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج ، ومدحه بعدة قصائد · ورحب كافور بالمتنبى وأخلى له دارا وخلع عليه وحمل اليه كثيرا من المال · وظل المتنبى فى بلاط كافور يقول فى مدحه القصيدة السنية بعد الأخرى ·

ولكن المتنبى كان يطمع من كافور بأكثر مما نال من عطاء ، وكان يرجو أن ينصبه كافور واليا على اقليم من دولته ، فلا عجب اذا تضاءل حماس المتنبى لكافور · وقال المتنبى فى يوم عرفة سنة ٤٥٠ هـ قبل مغادرته مصر بيوم واحد قصيدته الدالية المشهورة التى هجا فيها كافورا ، ومطلعها :

عيد بأية حــــال عـــدت ياعيد
بما مضى أم لأمر فيك تجـــديد

كذلك نظم المتنبى قصائد أخرى كثيرة فى هجاء كافور(١٧) ·

وقد عنى الاخشيديون بالجيش والأسطول مثل عناية الطولونيين بهما · وكان الجيش الاخشيدى مثل الجيش الطولونى يتألف من عناصر مختلفة مثل الترك والسودان والمغاربة ، ومماليك من أجناس مختلفة · أما البحرية فكان دور المصريين بارزا منذ فتح العرب لها ·

وكان محمد بن طغج الاخشـــيد يستعرض الجيش فى أيام الأعياد وفى بعض المناسبات الأخرى كما كان يفعل أحمد بن طولون من قبله ·

وكان قواد الجيش يشتركون مع وجوه البلاد فى التشاور بشأن تولية الأمراء واعلان الولاء لهم(١٨) ·

---

(١٧) دكتورة سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين · ص ١٣٩ ـ ١٤٤ وما ذكرته من مراجع ·

(١٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج٣ ص ٣٢٧ ·

وكان الاخشيديون يخرجون على راس الجيش فى المعـــارك المختلفة فى معظم الأحيان كما كان يفعل الطولونيون ٠

وعنى البلاط الاخشيدى فى مصر بسباق الخيل كما عنى به بلاط ابن طولون ٠ كذلك انتشـــر سباق الحمـــام فى عصـــر الاخشيديين(١٩) ٠ وكان الصيد من الرياضة المحببة الى علية القوم فى مصر فى العصرين الطولونى والاخشيدى ٠ وكان اقليم الحوف فى الشرقية من الأقاليم التى يرتادها كثير منهم لهذا الغرض ٠

وقد حدثنا المسعودى عن التسامح الدينى فى عصر الاخشيديين وعن قيام أهل الذمة بقسط وافر من الأعمال الادارية والمالية فى مصر ، وعن اشتراك الأمراء الاخشيديين فى الأعياد المسيحية مع سائر المصريين من مسلمين وقبط ٠

وكتب المسعودى عن الاحتفال بعيد الغطاس فى مصر بعد أن شاهده بعينيه فى سنة ٣٣٠ هـ ، وكان المسلمون يشاركون الأقباط فى الاحتفال بهذا العيد(٢٠) وبغيره من أعياد المسيحيين ٠

وكان العصر الاخشيدى عصر ازدهار فى تشييد العمائر وانتاج التحف والآثار الفنية التى تمثل شتى ميادين الفن الاسلامى ٠ ٠ والمشهور أن الاخشيد كان يقلد ابن طولون فى أمور شتى ومنها عنايته بالعمارة والفنون ٠

واندثر الكثير من آثار الاخشيديين وبقى وصفها وذكرها فى المصادر التاريخية ٠ وأهم هذه المنشآت قصر المختار ، والبستان الذى

---

(١٩) الغزولى ٠ مطالع البدور فى منازل السرور : ج٢ ص ١٧ (الطبعة الأولى مصر ١٢٥٩ ـ ١٣٠٠ هـ) ٠

(٢٠) المسعودى ٠ مروج الذهب ٠ ج٢ ص ٣٦٤ ، والمقريزى : الخطط ج١ ص ٢٩٥ و ٤٩٤ و ج٢ ٠ ص ١٥٤ ٠

شيده الاخشيد فى جزيرة الروضة سنة ٣٢٥ هـ · وأنشأ الاخشيد بستانا آخر شمالى الفسطاط عرف بعد ذلك باسم البستان الكافورى ·

وعنى الأمراء الاخشيديون ببناء المساجد مثل مسجد الريح ، ومسجد عبد الله ، ومسجد الزمام ، ومسجد ابن عمروس ، ومسجد الاقدام ، ومسجد موسى(٢١) ·

كذلك عنى الاخشيديون وكافور وكبار القوم مثل المادرائيين وابى الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات ، ببناء الدور والمساجد والبساتين والقيساريات والأسواق ·

ولم يبق من عمائر العصر الاخشيدى الا النذر اليسير ، أهمها مشهد آل طباطبا قرب ضريح الامام الشافعى ، ومحراب قديم فى تلك المنطقة . فضلا عن مجموعة من شواهد القبور محفوظة فى متحف الفن الاسلامى بالقاهرة ·

كذلك وصلت الينا من العصر الاخشيدى بعض قطع من النسيج عليها كتابات حاملة أسماء الخلفاء العباسيين والوزراء فى العصر الاخشيدى ·

كذلك نمت فى العصر الاخشيدى صناعة الخزف ذى البريق المعدنى ، ولكن زخارفه ظلت بدائية الى أن تم تطورها فى العصر الفاطمى · ونلاحظ أن الفن الاسلامى فى مصر فى العصرين الطولونى والاخشيدى كان مرتبطا بالأساليب الفنية التى ازدهرت فى العراق فى العصر العباسى ، وحين قامت الخلافة الفاطمية فى مصر بعد

---

(٢١) ابن زولاق · أخبار سيبويه المصرى ص ٣٢ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٥٦ (طبعة القاهرة ١٣٥٢ هـ ــ ١٩٣٣ م) ·

العصر الاخشيدى ، أصبح لمصر طراز فنى خاص بها عاش وازدهر نحو قرنين من الزمان(٢٢) ٠

وفى اعتقادنا أن الاخشيد وكافورا اســتطاعا القضاء على الفوضى واضطراب الأمن وما الى ذلك من القلاقل التى سادت فى مصر بعد سقوط الطولونيين ٠ ونعمت مصر فى عصر الاخشيديين كما نعمت فى عصر الطولونيين ، وأصبحت مقصدا للعلماء والفقهاء والأدباء ٠ ومضت الحضارة الاسلامية قدما ، وقطعت مصر أشواطا بعيدة فى كافة مجالات الحضارة ٠ وتمهدت الأمور للتطور الكبير الذى حدث فى عصر الخلفاء الفاطميين ٠

---

(٢٢) انظر عن الآثار والفنون فى العصر الاخشيدى : دكتورة سيدة كاشف ٠ مصر فى عصر الاخشيديين : ص ٢٨٥ ــ ٢٩٩ وما ذكرته من مراجـــع ٠

الباب الثانى

مصر فى عصر الفاطميين

الأستاذ الدكتور محمد جمال الدين سرور
أستاذ بقسم التاريخ ـ كلية الآداب
جامعة القاهرة



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أولا ـ مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين

تمهيـــد :

كان من أثر ما حل بالعلويين من الاضطهاد بعد قيام الدولة العباسية أن لجأ بعضهم الى بلاد المغرب لبعدها عن مركز الخلافة ٠. وكان التشـــيع قد انتشر في هذه البلاد على يد الامام ادريس بن عبد الله ابن الحســـن بن على بن أبى طالب الذى قدم الى المغرب فرارا من تعقب العباسيين له فى عهد الخليفة الهادى سنة ١٦٩ هـ ٠ وأقام الادارسة فى المغرب الأقصى دولة علوية سنة ١٧٢ هـ ، فلما توجه أبو عبد الله المشيعى الى المغرب فى أوائل سنة ٢٨٠ هـ وجد الأمور ممهدة له ، كما وجد التشيع قد استقر فى عقول البربر ٠

وقد نجح أبو عبد الله الشيعى فى نشر الدعوة الفاطمية فى تلك البلاد ، كما عمل منذ سنة ٢٨٩ هـ على نشر نفوذ الفاطميين ٠ فى شمال أفريقيا ٠ ولما انتصر على الأغالبة سنة ٢٩٦ هـ ودخل رقادة مقر امارتهم ، حذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة ، ثم وجه

اهتمامه سنة ٢٩٧ هـ الى اخذ البيعة لعبيد الله (ابن الامام الحسن ابن أحمد بن عبد الله الرضى بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق) الذى استطاع ان يهرب مع اتباعه الى المغرب الأقصى ، واقيمت الخطبة باسمه فى رقادة التى اتخذها عاصمة له ، وتلقب بالمهدى أمير المؤمنين ٠

كان عبيد الله المهدى ، يطمع فى أن يتخذ مصر قاعدة يوجه منها حملاته الى بغداد للقضاء على الخلافة العباسية المتداعية ، لذلك وجه نشاطه على أثر تأسيس خلافته بالمغرب الى الاستيلاء على مصر سنة ٣٠١ هـ ، غير ان حملاته التى أنفذها اليها لم تستطع فتحها ، فقد تصدت لها قوات العباسيين والاخشيديين فى مصر ٠

ولما ولى أبو القاسم الذى تلقب بالقائم بأمر الله الخلافة سنة ٣٢٢ هـ ، واصل سياسة ابنه المهدى فى غزو مصر ، فأرسل اليها جيوشه سنة ٣٢٣ هـ ، فوصلت الاسكندرية فى أوائل سنة ٣٢٤ هـ ، وانضم اليها بعض زعماء المصريين ، فأنفذ اليهم الاخشيد قوة كبيرة ، استطاعت أن تهزم جند الفاطميين ٠

على أن هذه الهزائم التى لحقت بالفاطميين فى مصر ، لم تثبط من عزمهم على بسط سيادتهم عليها ، فلجأ الخليفة القائم الى التودد الى محمد بن طغج الاخشيد ، فأنفذ اليه رسولا ومعه كتاب ، يطلب فيه صداقته ايثارا للمسالمة ٠ غير أن الاخشيد لم تخف عليه مطامع الخليفة الفاطمى التى تنطوى على دعوته للدخول فى طاعته ، فظل مواليا للخلافة العباسية فى بغداد حتى توفى سنة ٣٣٤ هـ ٠ (٩٤٦ م) ثم واجهت مصر بعد وفاته عدة صعوبات ، وبخاصة من ناحية سيف الدولة الحمدانى أمير حلب الذى أغار على دمشق وطمع فى المسير الى مصر للاستيلاء عليها ٠

لم يقم الفاطميون طوال عهد المنصور الذى آلت اليه الخلافة بعد وفاة ابنه القائم سنة ٣٣٤ هـ بأى محاولة لغزو مصر · ويرجع سبب ذلك الى انشغال هذا الخليفة بالعمل على ضبط الأمور فى بلاد المغرب ، فلما جاء الخليفة المعز سنة ٣٤١ هـ (٩٥٢ م) حاول اعادة الكرة للاستيلاء على البلاد المصرية ، لكنه عنى أولا بنشر الدعوة فى هذه البلاد ، فقدمت رسله الى كافور الذى كان وقتذاك يستأثر بالسلطة فى مصر تدعوه الى الاعتراف بسيادته ، فرحب بهم ولم يعطهم أى رد حاسم ، على حين استطاع دعاة الفاطميين أن يأخذوا البيعة للمعز من كثير من رجال بلاطه وكبار موظفى دولته ·

ولما توفى كافور سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) ، اضطربت الحالة السياسية فى مصر ، فوقع اختيار رجال البلاط على أبى الفوارس أحمد حفيد الأخشيد ولم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره ، ومالبث أن استقل الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات بتدبير أمور ولاية مصر · غير أن هذا الوزير لم يكن فى وسعه أن يقضى على الفوضى التى انتشرت بمصر فى أواخر عهد الاخشيديين ، بل ساءت فى أيامه الحالة المالية وحل بالبـــلاد القحط والوباء ، من جراء انخفاض النيل ، وفقدت الخلافة كل هيبة واستقرار ·

كان الخليفة المعز لدين الله ، يعد العدة لفتح مصر ، قبيل وفاة كافور ، فأمر بانشاء الطرق وحفر الآبار فى طريق مصر ، وأقام المنازل على كل مرحلة ، فلما بلغه خبر وفاته سنة ٣٥٧ هـ أخذ فى اعداد المال اللازم لتجهيز حملة لفتح مصر ، ثم وقع اختياره على جوهر الصقلى لقيادة هذه الحملة ، وخرج لوداعه يوم رحيله من القيروان فى الرابع عشر من شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٨ هـ ، فسار جوهر على رأس جيشه حتى وصل برقة ، فقدم له صاحبها فروض الطاعة ، ثم مضى فى سيره حتى وصل الاسكندرية ، فدخلها من غير مقاومة ، وواصل بعد ذلك زحفه جنوبا ، فتغلب على أنصـــار

الاخشيدية ، وأجاب أهالى الفسطاط الى ما التمسوه فى كتاب الأمان الذى كتبه وأعلنه للمصريين ٠ وقد عرض فيه لبرامج الاصلاح الذى سيقوم به كاقامة شعائر الحج واصلاح الطرقات والعمل على استتاب الأمن وتوفير الأقوات واصلاح العجلة ونشر العدل ، كما ضمنه منحهم الحرية فى اقامة شعائرهم الدينية حسب مذهبهم ، وتعهده بتأمينهم على أنفسهم وأموالهم وأهاليهم وضياعهم ٠

ولما تيسر لجوهر ضم مصر الى حوزة الفاطميين ، عدل عن اتخاذ كل من الفسطاط والعسكر عاصمة له ، وفكر فى انشاء مدينة جديدة ، تكون مقرا للخلافة الفاطمية ومركزا لنشر دعوتهم الدينية ، فوضع أساس مدينة القاهرة فى ليلة ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، كما وضع فى الليلة التالية ، أساس قصر الخليفة المعز ، وعرف هذا القصر باسم القصر الشرقى الكبير ، ثم أقام حول تلك المدينة وقصر الخليفة سورا كبيرا ، وأطلق جوهر على مدينته الجديدة ، اسم « المنصورية » نسبة الى المنصور أبى المعز ، وظلت هذه التسمية حتى قدم المعز الى مصر ، فسماها القاهرة ٠

أنشأ جوهر بسور القاهرة ، أربعة أبواب ، وهى باب النصر وباب الفتوح وبابا زويلة(١) ٠ ويعرف أحد هذين البابين باسم باب القوس ٠ وقد مر منه المعز عند قدومه الى القاهرة ، وصار الناس يتبركون بالمرور به ، أما الباب الثانى ، فقد تشاءم منه الناس وهجروه ٠

كذلك رأى جوهر ألا يفاجىء المصريين من أهل السنة فى مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمى ، خشية اثارتهم عليه ، ومن ثم

---

(١) عرف بهذا الاسم نسبة الى قبيلة زويله احدى قبائل البربر التى جاءت مع جوهر من بلاد المغرب ٠

عول على بناء مسجد يكون رمزا لسيادة الدعوة الفاطمية ، كما كانت القاهرة رمزا لسيادة الفاطميين على مصر ، فشرع فى بناء الجامع الأزهر فى اليوم الرابع من شهر رمضان سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) ، وتم بناؤه فى سنتين تقريبا ، وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة فى اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م) ٠ وقد سمى هذا الجامع فى بادىء الأمر بجامع القاهرة نسبة الى العاصمة الجديدة التى أنشأها جوهر ٠ أما تسميته بالجامع الأزهر ، فيظهر أن الفاطميين الذين ينتسبون الى فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم سموه الأزهر ، اشادة بذكر جدتهم فاطمة الزهراء ٠

شرع جوهر منذ أن وضع أساس مدينة القاهرة فى التمهيد لاتخاذها حاضرة للخلافة الفاطمية ، فأمر بحذف الدعوة لخلفاء بنى العباس التى كانت تقام بمساجد مصر وأقامها للخليفة المعز ، وضرب السكة باسم الخليفة الفاطمى بدلا من اسم الخليفة العباسى ٠ كذلك منع جوهر الناس من لبس السواد شعار العباسيين ، كما أمر بأن يؤذن فى جميع المساجد بحى على خير العمل ، وهى من العبارات التى يتخذ بها الأذان عند الشيعيين ٠

١ ـ خلافة المعز لدين الله فى مصر :

لما استقر سلطان الفاطميين فى مصر ، كتب جوهر الى المعز يستدعيه ليتولى بنفسه زمام الحكم فى البلاد ، فلقيت هذه الدعوة قبولا من نفس الخليفة الفاطمى ، وسار اليها فى موكب حافل ومعه أولاده واخوته وعشـــيرته ورفات آبائه (عبد الله المهدى والقائم والمنصور) ٠ وعندما وصل الى الاسكندرية فى شعبان سنة ٣٦٢ هـ ، استقبله أعيان البلاد ـ وعلى رأسهم ـ الوزير جعفر بن الفرات ، ثم تابع سيره حتى دخل مدينة القاهرة فى يوم الثلاثاء ٧ من رمضان

سنة ٣٦٢ هـ وأصبحت ولاية مصر بعد قدوم المعز اليها دار خلافة بعد أن كانت دار امارة تابعة للخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب ، كما حلت القاهرة محل المنصورية ، وغدت عاصمة الدولة الفاطمية ·

كانت أمور ولاية مصر ، قد أسندها المعز الى الجوهر بعد الفتح ، فأقر الوزير جعفر بن الفرات فى منصـــبه ، كما أبقى على الموظفين المصريين فى وظائفهم ، وأشرك مع كل موظف مصرى موظف آخر من المغاربة ، وصار جوهر · يشـــرف على الدواوين وجباية الخراج حتى أوائل سنة ٣٦٣ هـ ، حيث تسلم المعز منه دواوين مصر وجباية أموالها والنظر فى أحوالها ·

وهكذا ، استأثر المعز بالنفوذ والسلطان فى مصر ، ولم يشأ أن يترك لجوهر ما يساعده على الاستئثار بالحكم ، بل أبقاه بجانبه يشير عليه بما تتطلبه أحوال البلاد ، ومالبث أن صرفه عن بعض المناصب الادارية وأسندها الى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ·

لما انتقل الخليفة المعز الى القاهرة سنة ٣٦٢ هـ ، لم يعمل الفاطميون بكتاب الأمان الذى التزم فيه جوهر الصقلى اطلاق الحرية للمصـــــريين فى المعتقدات الدينية ، بل تركز الاهتمام فى تحويل المصريين الى المذهب الشـــيعى ، كذلك أمعن الفاطميون فى اظهار شعائرهم المخالفة لشعائر السنيين كالأذان بحى على خير العمل ، والاحتفال باليوم العاشر من المحرم وهو اليوم الذى قتل فيه الحسين بكربلاء وعيد الغدير المعروف بغدير خم وهو اليوم الثامن عشر من ذى الحجة) وسبب الاحتفال به ما يرويه الشيعة من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد عودته من حجة الوداع فى الســـنة العاشرة للهجرة نزل بغدير خم فى طريقه الى المدينة وأخذ بيد على بن أبى طالب ، وقال : ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من

نفسه ؟ قالوا : بلى : فقال : من كنت مولاه ، فعلى مولاه اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه · ويعلق الشيعة أهمية كبرى على هذا الحديث ، اذ يعتبرونه بمثابة مبايعة علنية من الرسول لعلى بن أبى طالب ·

أثار احياء الشعائر الشيعية فى مصر ، استياء المصريين السنيين ، لما كان يقترن بها فى كثير من الأحيان من اعتداءات الشيعيين والمغاربة عليهم · ولم ينشأ التوتر بين المصريين والمغاربة الشيعيين من احياء الشعائر الشـــيعية وحدها · بل أدى انحياز الفاطميين الى المغاربة والاعتماد عليهم فى ادارة شئون دولتهم الى استقلال نفوذهم فى الحاق الأذى بالمصريين · فقاموا بنهب أملاكهم واغتصبوا الدور وأجلوا السكان عنها مما حمل المصريين على رفع شكاياتهم الى المعز ، فأصدر أوامره الى المغاربة باخلاء هذه الدور والانتقال الى نواحى عين شمس ، وعين بنفسه المواضـــع التى ينزلون فيها ، وأقر المال المطلوب للبناء · كما جعـــل لهم واليا وقاضيا ، عهد اليهما بالنظر فى أحوالهم ·

أما عن سياسة الخليفة المعز لدين الله الخارجية ، فانه وجه سياسته بعد قدومه من المغرب الى مصر سنة ٣٦٢ هـ الى القضاء على ما بقى للقرامطة من نفوذ ببلاد الشام ، وتحقيقا لهذا الغرض رأى أن يستعين ببنى الجراح من بنى طيىء على استرداد هذه البلاد ، كما قرب اليه ظالم بن موهوب العقيلى بعد انصرافه عن تأييد الحسن بن أحمد أمير القرامطة فى بلاد البحرين ، وأسند اليه ولاية دمشق (رمضان سنة ٣٦٣ هـ) ، فقبض على واليها أبى المنجا القرمطى وعلى كثير من أتباعه القرامطة ، وبذلك تم استعادة سلطان الفاطميين على بلاد الشام ، وواصل المعز طيلة خلافته العمل على القضاء على الصعوبات التى واجهت حكمه فى تلك البلاد ·

كذلك عمل المعز على الاحتفاظ بنفوذ الفاطميين فى أفريقيا والمغرب ، فلما عزم على الرحيل الى مصر ، أسند ولاية هذه البلاد الى بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، كما حرص على ابقاء السيادة الفاطمية على جزيرة صقلية ، غير أنه لم يجعل لوالى أفريقية والمغرب حكما على صقلية ، بل صار يلى أمورها وال مستقل من قبله ، أجيز له الرجوع اليه في تصريف شئون ولايته ٠

٢ ـ خلافة العزيز بالله :

لما توفى المعز سنة ٣٦٥ هـ خلفه ابنه العزيز ٠ وقد عنى كأبيه بنشر المذهب الشيعى ، وحتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق هذا المذهب ، كما قصر المناصب الهامة على الشيعيين ، وحتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق هذا المذهب ٠

كذلك اتسم عهد العزيز بالتسامح مع النصارى لما كان بينه وبينهم من صلة النسب ، اذ تزوج من نصرانية وعين أحد أخويها بطريكا للملكانيين ببيت المقدس سنة ٣٧٥ هـ ، وعين الثانى مطران القاهرة ، ثم رقى فى عهد الحـــاكم بأمر الله بطريركا للملكانيين بالاسكندرية ٠ وبلغ من عطف العزيز على المسيحيين أن احتفل بعيد النيروز وخميس العهد وعيد الميلاد مشاركة لهم فى شعورهم ٠

وقد اتخذ العزيز يعقوب بن كلس وزيرا له ٠ وكان هذا الوزير مشغوفا بالعلوم والآداب ، وكان يعقد مجالسه العلمية تارة بالجامع الأزهر وطورا بداره ، يقرأ فيها مصنفاته على الناس ، ويحضر هذه المجالس القضاة والفقهاء والقراء والسـخاة وغيرهم من وجوه الدولة ٠ ولم يقف اهتمام يعقوب بن كلس بالنشاط العلمى عند هذا الحد ، بل أشار على العزيز بتحويل الأزهر من مســجد تقام فيه الصلاة الى معهد للدراسة ، ونقل اليه الكثير من الكتب والمصاحف ٠

وقد خصص العزيز لأساتذة هذا الجامع ارزاقا شهرية ثابتة ، كما قدم لطلابه المأكل والمسكن وكل ما يوفر عليهم وسائل المعيشة وأسباب الراحة .

أما عن سياسة العزيز الخارجية ، فانه لما تفاقم خطر القرامطة فى الشام ، عهد الى جوهر بمحاربتهم سنة ٣٦٦ هـ ، فأحلوا به الهزيمة ، ومن ثم لم يجد العزيز بدا من الخروج بنفسه للقضاء عليهم ، فسار الى بلاد الشام وانتصر على القرامطة وأختكين التركى ، الذى انضم اليهم وجاء به أسيرا الى القاهرة ، ثم عفا عنه وعامله معاملة قوامها العطف والرعاية .

كذلك أعد العزيز فى سنة ٣٧٧ هـ ، حملة بحرية لغزو بلاد الروم . وعلى الرغم من أن هذه الحملة لم تحقق أغراضه لاحتراق مراكبها ، فان رسل امبراطور الروم قدمت الى مصر تحمل هدية للعزيز وتطلب عقد صلح بين الدولتين . واشتملت الهدية على ثمان وعشرين صينية من الذهب ، فأجاب الخليفة الفاطمى طلب هؤلاء السفراء واشترط للصلح عدة شروط منها :

١ ـ أن يطلق البيزنطيون سراح من عندهم من الأسرى المسلمين .

٢ ـ أن يدعى للخليفة العزيز بجامع القسطنطينية فى خطبة الجمعة .

٣ ـ أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين مدة سبع سنوات .

لم يكن لهذه الهدنة أثر كبير فى وقف تيار الحرب بين الفاطميين والبيزنطيين ، فلما علم العزيز بتقدم البيزنطيين فى شمال الشام ، استقر رأيه على أن يسير بنفسه لصد قواتهم ، فجهز حملة برية ، كما أمر بانشاء أسطول يسير بحرا الى طرابلس . ولم

يكد يتم اعداد هذا الأسطول حتى اشتعلت فيه النيران فى ميناء المقس وأحرقت منه ستة عشر مركبا ، فثار المصريون بالروم الذين كانوا يقيمون على مقـــربة من دار الصـــناعة بالمقس واتهموهم بتدبير مؤامرة احراقه • ومالبث العزيز أن قضى على الاضطرابات التى حدثت بالقاهرة بسبب احراق الأسطول ، وأمر بانشاء أسطول آخر • ولما تم بناؤه أبحر الى انطرطوس(٢) • غير أن معظم سفنه لم تلبث أن تحطمت فى البحر على اثر هبوب عاصفة عليها ، وأسر الروم بعض رجال الأسطول المصرى • أما الحملة البرية ، فخرج على رأسها الخليفة العزيز الى بلبيس • لكن المرض اشتد عليه فجأة ، فتخلف بها وتوفى سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) •

٣ ـ خلافة الحاكم بأمر الله :

خلف العزيز ابنه المنصور الذى لقب بالحاكم بأمر الله ، وله من العمر احدى عشرة سنة ونصف سنة ، فقام بالوصاية عليه مربيه برجوان الصقلى ، وتقلد أبو محمد الحسن بن عمار زعيم الكتاميين الوساطة ، وهى دون الوزارة فى الرتبة •

على أن الحاكم ، شعر رغم حداثته بخطورة منصب الخلافة الذى يتقلده ، كما فطن الى حرص برجوان على الاستئثار بالسلطة واستهتاره به الى حد الاساءة اليه ، فأضمر له الكراهة وعهد الى الحسين بن جوهر بقتله سنة ٣٩٠ هـ •

بذل الحاكم جهودا كبيرة فى نشر الدعوة الفاطمية ، واضطهد أهل الذمة والمسلمين غير الشيعيين ، غير أنه لم يستمر على هذه السياسة ، فخفف من مظاهر تعصـــبه للمذهب الفاطمى ، وأنشأ مدرسة لتعليم المذهب السنى •

---

(٢) من اعمال طرابلس بلبنان وتقع على ساحل البحر •

ولما اشتد تيار المجون فى عهد الحاكم ، وأصبحت بعض نواحى القاهرة تغص بالملاهى وبخاصة شواطىء الخليج المصرى ، فرض قوانين جديدة لمكافحة الانحلال الاجتماعى ، ضيق فيها على حرية النساء ، وحرم سماع المغنين والمغنيات ، وفرض قيودا على بعض أنواع المأكل والمشرب ، وأمر باتلاف أشجار الكروم المزروعة فى أنحاء الديار المصرية خشية استعمال العنب فى صنع الخمر ٠

حذا الحاكم حذو المعز والعزيز فى الاهتمـــام برصد النجوم ، ومعرفة ما وراءها من الأحداث ٠ وفى الوقت الذى كثر فيه شغف الحاكم بالخروج لزيارة مرصده الذى أقامه بجبل المقطم لرصـــد النجوم ، جاء الى مصر بعض دعاة الشيعة من بلاد الفرس ٠ وكان أعظمهم تأثيرا فى السنوات الأخيرة من عصر الحاكم : حمزة بن على الزوزنى وحسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم ، ومحمد ابن اسماعيل الدرزى ٠ وكان من القائلين بألوهية الحاكم ٠ وقد شرح دعوته وأصول مذهبه فى رسالة قدمها الى الحاكم ، فقربه اليه وارتفعت منزلته عنده ٠

وقد أثار اعلان محمد بن اسماعيل الدرزى أصول مذهبه فى الجامع الأزهر يتعقبونه حتى اضطر الى الرحيل عن مصر الى الشام حيث نزل ببعض قرى بانياس ، وهناك ٠ أخذ ينشر دعوة تأليه الحاكم ، وتمكن بفضل قوة حجته أن يستميل الى جانبه كثيرا من الأنصار الذين أصبحوا يعرفون باسم الدرزية ٠

اكتنف الغموض نهاية حياة الحاكم ، فقيل انه ركب فى ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال سنة ٤١١ هـ (١٠٢١ م) ، قاصدا جبل المقطم لرصد النجوم ، ولم يعرف بعد ذلك مصيره ٠ وبينما يروى بعض المؤرخين ، أن أخته ست الملك ، دبرت وقتذاك مؤامرة لقتله لأنه اتهمها فى أخلاقها ، نرى فريقا آخر من المؤرخين

يبرىء ست الملك من جريمة قتل أخيها الحاكم ، ومن بينهم يحيى بن سعيد الأنطاكى الذى بدأ فى كتابة تاريخه سنة ٤٠٥ هـ . اذ تحدث عن مصرع الحاكم دون أن يذكر شيئا عن صلة أخته بهذا الحادث ومن ذلك الفريق أيضا المقريزى الذى قال ان اتهام ست الملك بقتل أخيها جاءنا من كلام المشارقة ٠

ومما يذكر للحاكم ، اهتمامه ببناء كثير من المنشآت ، فأتم مسجد أبيه العزيز الذى يعرف الآن بجامع الحاكم ، كما شيد جامع المقس وزاد فى بناء الجامع الأزهر ، ووقف عليه الأوقاف الكثيرة ونقل اليه كثيرا من الكتب ، وفضلا عن ذلك ، فقد أسس دار الحكمة سنة ٣٩٥ هـ لدراسة فقه الشيعة وعلوم اللغة والفلك والطب والرياضة والفلسفة والمنطق والتنجيم كما زودها بمكتبة عرفت بدار العلم حوت الكثير من الكتب فى سائر العلوم والآداب ٠

٤ ـ خلافة الظاهر لاعزاز دين الله :

كان الخليفة الحاكم قد وقع اختياره سنة ٤٠٤ هـ على ابن عمه الأمير أبى القاسم عبد الرحيم بن الياس بن أحمد بن المهدى ، ليكون ولى عهده على الرغم من أن له ولدا يسمى أبا الحسن على فى التاسعة من عمره ٠ وكان يعيش مع أمه فى قصر عمته ست الملك خوفا من قسوة أبيه عليه ٠

أفرد الحاكم لولى عهده عبد الرحيم مكانا فى قصره ٠ ودعى له على المنابر وضربت باسمه السكة ٠ وكان فى بعض الأحيان ينيبه عنه فى الاشراف على شئون الدولة أثناء طوافه بأنحاء القاهرة ، وظل على هذه الحال الى أن عينه سنة ٤٠٩ هـ واليا على دمشق ٠

على أن تعيين عبد الرحيم وليا لعهد الحاكم ، لم يلق قبولا من أخته ست الملك وكبار رجال الدولة ، فلما توفى هذا الخليفة سنة ٤١١ هـ ، بويع ولده أبو الحسن على بالخلافة فى يوم عيد الأضحى من هذه السنة ، ولقب بالظاهر لاعزاز دين الله ، وهو فى السادسة عشرة من عمره ٠

وقد قامت ست الملك عمة الخليفة الظاهر بالوصاية عليه ، فى الفترة الأولى من حكمه ، فتولت تدبير شئون الدولة وتوطيد دعائمها ، ببراعة وحزم نادرين ، وبعثت فى طلب ولى العهد السابق الأمير عبد الرحيم بن الياس من دمشق ، ثم لم تلبث بعد ذلك أن رأت فى بقائه خطرا على الخلافة ، فدست عليه من قتله ٠

رأت ست الملك خلال فترة قيامها بالوصاية على ابن أخيها أن تعيد النظر فى جميع الاقطاعات والمنح التى قررها الحاكم والتى غدت عبئا ثقيلا على موارد الدولة ، فألغت معظمها وردت ما أبطله الحاكم من المكوس ٠

لم يخل عهد وصاية ست الملك ، من بعض أعمال العنف ، فرأت أن تتخلص من الوزير الخطير رئيس الرؤساء أبو الحسن عمار بن محمد ، خشية من نفوذه وتأثيره على الظاهر الذى كان مشغوفا بملازمته ، وانتهى الأمر بقتله فى ربيع الأول سنة ٤١٢ هـ ، فخلفه بدر الدولة أبو الفتوح موسى بن الحسين فى المحرم سنة ٤١٣ هـ ، لكنه مالبث أن قبض عليه وقتله وولى الوزارة بعده الأمير شمس الملوك المكين مسعود بن طاهر ٠

لما توفيت ســـت الملك سنة ٤١٥ هـ ، استقل الخليفة الظاهر بادارة شئون الدولة ، فأبدى اعتدالا وروية فى أعماله ، وجنح الى الحلم والتواضع ٠ وأعلن بعد مضى ثلاثة أعوام على وفاة الحاكم

براءته من دعوى الألوهية التى قيلت فى أبيه وأسلافه • وكان متأثر فى ذلك برغبته الصادقة فى تطهير مصر من هذه الفتنة • ولا غرو فقد عرف هذا الخليفة بميله الى اســـتعمال العنف فى مطاردة الخارجين على الدين ، فأصدر الأوامر بتتبعهم فى سائر البلاد ، كما جاهر بانكار ما ادعاه بعض الناس من تأليه آبائه ، وهدد كل من تحدثه نفسه بذلك فى رسالة أذاعها على المصريين •

أسند الخليفة الظاهر سنة ٤١٨ هـ ، منصب الوزارة الى نجيب الدولة على بن الجرجرانى • وكان هذا الوزير من جـــرجرايا ـ احدى قرى بلاد العراق ، ثم انتقل الى القـــاهرة ، وعهد اليه الخليفة الحاكم بادارة بعض الدواوين • ولما أساء التصرف فيها ، أمر الحاكم بقطع يديه من المرافق ، وعينه واليا على ديوان النفقات سنة ٤٠٩ هـ • وظل ينتقل فى بعض الوظائف الادارية ببلاد الصعيد الى أن اختاره الظاهر ، وزيرا له ، فاتخذ القاضى أبا عبد الله القضاعى كاتبا له ، ونظم شئون الدولة ، كما أظهر حرصا شديدا على أموالها •

وكان الظاهر على النقيض من أبيه فى سياسته تجاه أهل الذمة ، فلم يكد يتولى الخلافة ، حتى عمل على اكتساب عطفهم ، بأن أصدر بيانا ، أعلن فيه أنهم أحرار فى عقائدهم وشعائرهم وأنه لا اكراه فى الدين ، وأن من آثر منهم الدخول فى الاسلام اختيارا من قلبه وهداية من ربه ، فليدخل فيه مقبولا مبرورا ، ومن آثر بقاءه على دينه من غير ارتداد كان عليه ذمته وحياطته ••

كذلك وجه الظاهر عنايته الى ترقية شئون البلاد ، وتحسين حالة الزراعة ، فأمر بمنع الناس من ذبح البقر وأباح ذبح الحيوانات التى لا تستخدم فى حرث الأرض وذلك على أثر الوباء الذى أصاب بعض الأنعام • وكتب الى الناس كتابا ، جاء فيه :

« ان الله تعالى بتتابع نعمته وبالغ حكمته خلق ضروب الأنعام وعمل فيها منافع الأنام ، فوجب أن تحمى البقر المخصوصة بعمارة الأرض المذللة لمصالح الخلق ، فان فى ذبحها غاية الفساد وضرارا للعباد والبلاد » •

ولم يقم الخليفة الظاهر ببناء كثير من المنشآت لانشغاله بضبط الأمور فى داخل البلاد المصرية • وقد تم فى عهده بناء قصر اللؤلؤة ويعد من أجمل القصور التى بنيت فى القاهرة فى عهد الفاطميين • وكان الظاهر يتنزه فى هذا القصر ، كما كان بعض الخلفاء يختلفون اليه فى وقت فيضان النيل • وقد ظل حافظا لرونقه الى ان وقع الغلاء بمصر فى عهد المستنصر بالله الفاطمى ، واضطربت الأمور فى البلاد من جراء النزاع بين الجند السودانيين والأتراك ، فأصابه بعض التلف •

على أن الأمر الذى يسترعى النظر فى خلافة الظاهر ، ما كان من تقلص نفوذ الفاطميين فى كل من بلاد الشام والحجاز بعد أن توطدت سلطتهم فيها أيام المعز والعزيز • ويرجع السبب فى ذلك الى ميل الظاهر للتسلم ، ومن ثم لم يركز اهتمامه على استعادة نفوذ مصر على هذه البلاد •

لم يستمر الظاهر طويلا فى الخلافة ، فقد توفى فى منتصف شعبان سنة ٤٢٧ هـ ببستان الدكة بالمقس ، وأخذ وزيره الجرجرانى البيعة لابنه أبى تميم معد — وكان فى السابعة من عمره — وتلقب بالمستنصر بالله •

٥ — خلافة المستنصر بالله :

ازدادت فى أوائل عهد المستنصر سلطة أبى سعيد ابراهيم بن سهل التسترى اليهودى • ويرجع السبب فى ذلك الى أن أم الخليفة كانت من قبل أمة فى بيته ، ثم أهداها الى الظاهر ، فأنجبت منه

أبنه أبا تميم معد الذى ولى الخلافة بعده وتلقب بالمستنصر • وسرعان ما علا شأن التسترى عند هذا الخليفة ، وأخذ يتدخل فى شئون الدولة •

وعندما توفى الجرجرانى سنة ٤٣٦ هـ ، خلفه فى الوزارة أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى الذى عمل على التخلص من التسترى لاستئثاره بالسلطة دونه ، وحدث فى هذه الأثناء بعض أحداث ساعدت الفلاحى على تحقيق غرضه ، ذلك أن أهالى البحيرة قاموا بثورة ، فأنفذ اليهم المستنصر جيشا تحت قيادة عزيز الدولة ريحان ، ولما تمكن من اخماد ثورتهم وانتصر عليهم شمله الخليفة بعطفه ورعايته وقربه اليه • وقد عمل ريحان على اكتساب رضاء المغاربة ، فزاد فى أعطياتهم وقلل من أعطيات الأتراك ، مما أثار التخاصم والنزاع بين الفريقين • ولما توفى ريحان ، انتهز الوزير الفلاحى هذه الفرصة ونال من خصمه التسترى الذى كان يحقد عليه لاستبداده بالسلطة ، فأذاع بين الجند أن التسترى دس السـم لريحان ، فانقض عليه ثلاثة من الأتراك وقتلوه • غير أن ذلك لم يحمل المستنصر على صرف آل التسترى عن مناصب الدولة ، فأسند الى أخيه أبى نصر ديوان خاصته ، وقلد ابنه ادارة أحد الدواوين •

لم يكن قتل التسترى بالحادث الذى تتناسـاه أم الخليفة ، بل أثار حفيظتها على الفلاحى ، فسعت فى اقصائه عن الوزارة ، ثم قتل فى أوائل سنة ٤٤٠ هـ •

وكان التسترى مكروها لدى المسلمين لانحيازه الى أبناء جلدته من اليهود ، واسناده مناصب الدولة اليهم • وقد عبر الرخى بن البواب ــ أحد الشعراء المعاصرين ــ عن استئثار اليهود بالسلطة فى هذه الأبيات :

يهــود هذا الزمــان قد بلغــوا
غــاية آمــالهم وقــد ملكوا

العــز فيهم والمــال عنــدهم
ومنهــم المســتشار والمــلك

يا أهل مصــر انى قد نصحت لكم
تهــودوا ، فقد تهــود الفــلك

كانت مصر فى أوائل عهد المستنصر تتمتع بكثير من الطمأنينة والرخاء ، ويتبين لنا ذلك مما ورد فى كتاب سفرنامه لناصــرى خسرو ، الذى طاف فى كثير من بلاد العالم الاسلامى فى القرن الخامس الهجرى ، ومن بينها مصر ، فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ٠ ولاحظ أنها تتمتع بكثير من الرخاء ٠

وصف ناصرى خسرو مدينة القاهرة المعزية ، فى الوقت الذى زارها فيه بين سنتى ٤٣٩ ، ٤٤١ هـ ، فقال انه كان بها مالا يقل عن عشرين ألف دكان ، يؤجر كثير منها بعشرة دنانير فى الشهر ، وليس بينها الا قليل ، تبلغ أجرته دينارين فى الشهر ٠ وكان فيها من الخانات والحمامات مالا يمكن حصره ٠

وكان قصر الخليفة فى وسط القاهرة ، وبينه وبين الأبنية المحيطة به فضاء يفصله عنها ، ويقوم بحراسته فى الليل خمسمائة فارس وخمسمائة حارس من الرجالة ٠ وكانت أسواره عالية ، فلا يستطيع أحد رؤيته من داخل المدينة ٠ وكان للقصر عشــر بوابات فوق الأرض ، وباب يقود الى ممر تحت الأرض ، يعبره الخليفة ليصل الى قصر آخر ٠

على أن هذا الرخاء الذى كانت تتمتع به مصر فى أوائل عهد المستنصر لم يدم طويلا ، فقد انخفض النيل سنة ٤٤٠ هـ ، وانتشرت

المجاعة فى البلاد وحل بها الوباء ، فاختل الأمن وعمت الفوضى

وقد وجه الوزير أبو محمد الحسن اليازورى ، الذى أسندت اليه الوزارة فى المحرم سنة ٤٤١ هـ ، اهتمامه الى معالجة خطر المجاعة التى كانت تهدد البلاد ، فاستولى على مخازن الغلال وقام بتوزيع ما فيها على الأهلين • وظل هذا الوزير فى منصبه حتى أول المحرم سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) حيث قبض عليه المستنصر بتهمة مراسلته طغرلبك السلجوقى ودعوته لغزو مصر ، ثم أبعده الى تنيس(٣) فظل محبوسا بها الى أن قتل فى ٢٢ صفر سنة ٤٥٠ هـ •

على أن الحالة لم تلبث أن رجعت بعد وفاة هذا الوزير الى ما كانت عليه من الفوضى ، فتعاقب على الوزارة أربعون وزيرا فى تسع سنوات ، كما قام نزاع بين عناصر الجيش ، فاشتبك الأتراك مع الجنود السودانية الذين كانوا عماد الخليفة • ويرجع السبب المباشر فى قيام النزاع بين هاتين الطائفتين الى أن بعض الأتراك كان قد رفع سيفه على أحد السودانيين الذين كانوا فى ركاب المستنصر خارج القاهرة ، فهجم عليه كثير من العبيد وقتلوه • وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر فى نفوس الأتراك ، فساروا الى المستنصر وقالوا له : « ان كان هذا عن رضاك ، فالسمع والطاعة وان كان من غير رضى أمير المؤمنين ، فلا نرضى بذلك » • فأظهر لهم المستنصر براءته مما حدث • لكن الأتراك سرعان ما عدلوا على محاربة السودانيين والتقوا بهم بناحية كوم شريك(٤) ، حيث أوقعوا بهم هزيمة منكرة فاستاءت من ذلك أم المستنصر لأنها كانت

---

(٣) كانت تقع هذه المدينة على جزيرة فى بحيرة المنزلة • ولم تزل عامرة الى سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧م) حيث حاصرها الفرنجة وعاشوا فيها نهبا وسلبا •

(٤) احدى قرى مركز كوم حماده بمحافظة البحيرة •

تتخذهم عونا لها لفرض ارادتها ، فأمدت العبيد بالأموال والسلاح سرا ، ولما وقف الأتراك على هذه المساعدة ، عادوا ثانيا الى محاربة السودانيين ، غير أن المستنصر سرعان ما ندب الوزير أبا الفرج ابن المغربى ليصلح بينهم ، فاصطلحوا صلحا يسيرا . ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى اجتمع السودانيون بالجيزة ، وخرج اليهم الأتراك تحت قيادة ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبى ، واشتبك الفريقان فى عدة معارك ، انتهى الأمر فيها بهزيمة السودانيين ، واستقرار خمسة عشر ألفا منهم بالصعيد ، حيث عاثوا فى البلاد فسادا سنة ٤٥٩ هـ .

كان من أثر الهزائم التى لحقت بالسودانيين ، أن استفحل أمر الأتراك ، وأخذوا يطالبون الخليفة بزيادة مرتباتهم سنة ٤٦٠ هـ، فزاد فى أعطياتهم حتى بلغت أربعمائة ألف دينار فى كل شهر بعد أن كانت ثمانية وعشرين ألف دينار . غير أنهم لم يقنعوا بالمرتبات التى قررها لهم المستنصر ، بل ألحوا فى زيادة مخصصاتهم . ولما أظهر لهم عجزه عن تلبية طلباتهم لقلة ايرادات الدولة ، ألزموه ببيع ذخائره ، فأخرج ما كان بقصره من الذخائر وأخذ الأتراك يقومونها بأبخس الأثمان . ولم يقتصر الامر على ذلك ، بل ارتكبوا أعمال العنف والشدة ، ونهبوا قصر الخليفة وأخذوا ما كان فيه من الأسلحة والأوانى المصنوعة من الذهب والمرصعة ، بالأحجار الكريمة . كما أغاروا على المكتبات ونهبوا ما فيها من الكتب ، وباعوا كثيرا منها بثمن بخس .

كذلك عمد ناصر الدولة بن حمدان قائد الأتراك ، بعد تغلبه على السودانيين الى الاستبداد بالأمور دونهم ، كما استأثر بأموالهم .. وكان ذلك مما جعلهم يسعون الى الخلاص منه ، فرفعوا شكاياتهم من تصرفاته الى خطير الملك وزير المستنصر ، فحسن لهم الخروج

عليه ومناهضته ، ثم توجهوا الى المستنصر وأظهروا له استياءهم من ناصر الدولة ، فبعث اليه المستنصر يأمره بالرحيل عن مصر ، فسار ناصـــر الدولة الى الجيزة ، ومالبث الخليفة أن خرج على رأس فريق من جنده لمحاربته ، وألحق به هزيمة ساحقة ، فمضى منهزما فى نفر قليل من أصحابه الى اقليم البحيرة حيث انضم اليه فريق من الأعراب .

على الرغم من أن المستنصر ، أظهر بعض الجرأة خلال هذه الاضطرابات وتمكن من هزيمة ناصر الدولة ، الا أن سلطته لم تعد تتعدى فى الواقع حدود عاصمته ، فبينما كان الجند الســـودانيون يثيرون الاضطرابات فى الوجه القبلى ، كان نحو من أربعين ألف فارس من قبيلة لواته والأعراب تحت زعامة ناصر الدولة يغيرون على الوجه البحرى وينهبون بلاده ، ويحطمون الجسور والقنوات مما ترتب عليه انقطاع المؤن والامدادات عن القاهرة والفسطاط . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ان ناصر الدولة ، أرسل الى ألب ارسلان سلطان السلاجقة رسولا من قبله ، يسأله أن يرسل اليه عسكرا ليقيم الدعوة العباسية ، على أن تؤول اليه السيادة على مصر ، فرحب ألب أرسلان بذلك ، غير أنه مالبث أن شـــغل بمحاربة الروم ، مما حال دون تحقيق أطماعه .

ولما بلغ المستنصر مراسلة ناصر الدولة آلب أرسلان ، وطلبه ارسال عسكر اليه ، جهز جندا من الأتراك لمحاربته ، فأوقع بهم ناصر الدولة الهزيمة ، وغنم منهم مغـــانم كثيرة ، وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسى فى الاسكندرية ودمياط ، وجميع أنحاء الوجه البحرى ، وحاول دون وصول الأقوات الى القاهرة ومصر .

وكان مما زاد الحالة سوءا ، تلك المجاعة التى بدأت بانخفاض النيل سنة ٤٥٧ هـ ، واستمرت سبع سنين ، فقلت الأقوات بالقاهرة ومصر وغلت الأسعار · وقد عانى الأغنياء وكبار رجال الدولة من هذه المجاعة مثل ما عاناه الفقراء ، واضطر بعض أصحاب النفوذ والأعيان الى مغادرة مصر والرحيل الى بلاد الشام والعراق ·

رأى الجند الأتراك بعدما حل بهم وبالخليفة المستنصر من الشدائد بسبب المجاعة أن يصالحوا ابن حمدان على أن يظل مقيما بالبحيرة ، ويحمل اليه مبلغ مقرر من المال ، ويكون القائد تاج الملوك شاذى نائبا عنه ، فرضى بذلك ، وأرسل الغلال الى القاهرة ومصر ، مما أدى الى توفر القوت الضرورى للأهالى ·

على أن تاج الملوك شاذى ، سرعان ما نقض هذا الصلح ، وصار لا يرسل لابن حمدان الا القليل من المال ، مما حمله على المسير فى جموع من العربان الى الجيزة حيث تمكن من القبض على تاج الملوك شاذى ، كما أطلق لجنده العنان فى الفسطاط ، فنهبوا دورها ، وأشعلوا فيها النيران ، فأنفذ اليهم المستنصر فريقا من جنده ، ودارت بين الفريقين عدة معارك ، انتهت بهزيمة أتباع ناصر الدولة وفرارهم الى البحيرة · لكن ناصر الدولة رغم ذلك واصل العمل على اضعاف شأن الخليفة الفاطمى والاستئثار بالحكم ، فحذف فى سنة ٤٦٤ هـ اسم المستنصر من الخطبة فى الوجه البحرى، وبعث الى الخليفة القائم بأمر الله العباسى ببغداد يلتمس الخلع ، ثم قدم الى الفسطاط على رأس جيش كبير ، وتولى الحكم فيها ، وأرسل الى المستنصر ، يطلب منه الأموال · وكان اذ ذاك قد امتنع بقصـــــره ·

كانت حالة المستنصر حين وفد اليه رسول ناصر الدولة تنبىء بزوال سلطان الخلافة عنه ، فلما علم بذلك ناصر الدولة ، أطلق

للخليفة مائة دينار كل شهر ، وبالغ فى اهانته ، وأظهر ميله الى مذهب أهل السنة ، واضطر كثير من أقارب المستنصر وأولاده الى المغرب والعراق ·

خشى الاتراك على أنفسهم من جراء استبداد ناصر الدولة بالأمور فى القاهرة ، واقامته الدعوة العباسية وعمله على ازالة خلافة الفاطميين ، فاتفقوا على تدبير مؤامرة لقتله ، وركب الى داره فريق منهم ذات ليلة ، وانقضوا عليه بسيوفهم ، ولم يكتفوا بذلك ، بل تتبعوا كل افراد أسرة بنى حمدان بمصر وتخلصوا منهم ·

لم تنته الفوضى والاضطرابات التى تعرضت لها مصر بقتل ناصر الدولة بن حمدان ، بل سرعان ما ازداد نفوذ قواد الأتراك واستبدوا بالأمور دون المستنصر ، حتى ضاق بهم ذرعا ، واضطر سنة ٤٦٦ هـ أن يبعث الى بدر الجمالى والى عكا ، يطلب منه القدوم ليتولى تدبير شئون دولته ، واصلاح ما فسد من أمور مصـــر ، فاشترط أن يحضر معه من يختاره من عساكر بلاد الشام ، ليستعيض بهم عن الجند الأتراك والمغاربة والسودانيين الموجودين بمصر ، فوافقه المستنصر على طلبه ·

ولما أتم بدر الجمالى اعداد عدته للرحيل الى مصر ، أبحر من عكا ومعه عدد كبير من جند الأرمن وغيرهم ، ونزل بجنده دمياط حيث اقترض من تجارها بعض المال ، ثم تابع سيره حتى وصل القاهرة على رأس جنده الأرمن ، فاستقبله الجند الأتراك استقبالا وديا لأنهم لا يعلمون شيئا عن نواياه نحوهم ، ومالبث أن دبر مؤامرة للتخلص من قوادهم ·

رحب الخليفة المستنصر بقدوم بدر الجمالى · وبلغ من تقديره لكفايته ، أنه حين شرع فى العمل على توطيد الأمن واصلاح حال

البلاد ، خلع عليه بعقد من الأحجار الكريمة ، وقلده وزارة السيف والقلم · كما زاد فى ألقابه السيد الأجل أمير الجيوش ، كافل قضاة المسلمين وداعى دعاة المؤمنين ·

كان يحيط ببدر الجمالى جنده الأرمن الذين عرفوا بالمشارقة ، تمييزا لهم عن الأتراك والبربر والسودان ، وتفانوا فى الاخلاص له ، واحتفظ كثير منهم بديانتهم المسيحية ، وكان يرافقهم بطريق خاص بهم ولم يظهر هؤلاء الأرمن تذمرا من البقاء فى مصر ، بل آثروا الاقامة بوطنهم الجديد ، على العودة الى بلادهم ، لتعذر حصولهم فيها على مقومات الحياة ·

اتخذ بدر الجمالى مقرا لاقامته بحارة برجوان بالقاهرة ، وعول على اعادة الأمن والاستقرار الى العاصمة ، واستعادة كل مايمكن أن تصل اليه يده من كنوز الخليفة التى نهبت من قصره · وعندما فرغ بدر الجمالى من اعادة الأمور الى نصابها فى العاصمة والفسطاط وجه اهتمامه الى بقية الأقاليم ، فاتجه أولا نحو الوجه البحرى ، فأخضع بنى لواته ، كما توجه الى دمياط وقتل المفسدين ثم سار الى الصعيد سنة ٤٦٩ هـ ، حيث كان الجند السودانيون وجماعة من عرب جهينة والثعالبة والجعافرة ، يثيرون الاضطرابات فهاجمهم وأخمد حركاتهم ، وأعاد نفوذ الخليفة على جميع بلاد الوجه القبلى حتى أسوان ·

ولم تكن الحالة بالاسكندرية ، أحسن منها فى غيرها من المدن المصرية فقد ثار بها سنة ٤٧٧ هـ ، الأوحد على أبيه بدر الجمالى ، والتف حوله جماعة من الأعراب ، فسار اليه أبوه وقبض عليه ، كما قتل فريقا من أتباعه ، ثم صادر كثيرا من أموال أهالى الاسكندرية ، وأنفق منها على بناء جامع العطارين الذى ظلت تقام به الخطبة الى أن استبد صلاح الدين بالأمور فى مصر سنة ٥٦٧ هـ ·

استطاع بدر الجمالى بعزمه ومهارته ، أن يعيد الى البـــلاد المصرية ما كانت تتمتع به من رخاء قبل الشدة العظمى التى حلت بها ، واستمرت سبع سنوات (٤٨٧ ـ ٤٦٤ هـ ، فعاد الفلاحون الى الأرض يزرعونها ، وتحسنت أحوالهم ، بعد أن رفع عن كاهلهم بعض الأعباء المالية ٠

كذلك عنى بدر الجمالى بتحصين مدينة القاهرة ، لصد هجمات المغيرين عليها ، فأعاد بناء السور المحيط بالقاهرة المعزية ، واستخدم الحجارة فى تجديده سنة ٤٨٠ هـ ٠ كما بنى باب الفتوح أيضا فى هذه السنة ، فى مكان آخر ، غير الذى بنى فيه جوهر بابه ٠٠ وتفيدنا النقوش التى عثر عليها أخيرا بسور القاهرة ، أن هذا الباب كان يعرف بباب الاقبال ٠ كذلك نقل بدر الجمالى باب النصر الذى بناه جوهر الى المكان الذى يوجد به الآن ٠ وبنى فى سنة ٤٨٤ هـ باب زويلة الكبير ٠ وقد استعان بدر الجمالى فى تجديد بناء هذه الأبواب بثلاثة اخوة من مدينة الرها ، بنى كل منهم بابا ٠

على أن الأمر الذى يسترعى النظر فى سياسة بدر الجمالى فى مصر ، أنه انتهز فرصة استبداده بالســـلطة فى أواخر عهد المستنصر بالله الفاطمى وعهد لابنه الأفضل الاستيلاء على مقاليد الأمور فى الدولة ،فجعله ولى عهده ٠ ولما توفى بدر فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ ، وهو فى فى الثمانين من عمره ، خلفه ابنه الأفضل شاهنشاه فى الوزارة ، وظل المستنصر فى عهد وزارته كالمحجور عليه الى أن توفى فى ١٧ ذى الحجة سنة ٤٨٧ هـ ٠

❊ ❊ ❊

أما عن سياسة الفاطميين الخارجية فى عهد المستنصر بالله ، فقد تركزت فى العمل على الاحتفاظ بالســـيادة الفاطمية فى بلاد الحجاز ، والابقاء على نفوذهم فى بلاد اليمن ، كما أن بلاد العراق

كانت محط أنظار الفاطميين على اعتبار أنها مقر الخلافة العباسية ، لذلك عهدوا الى دعاتهم بالرحيل الى العراق لنشر دعوتهم . وقد صادف هؤلاء الدعاة ، كثيرا من النجاح فى هذا السبيل ، كما لقيت الدعوة الفاطمية في بلاد الفرس تأييدا كبيرا حتى أصبح بين صفوف جند بنى بويه ، عدد غير قليل يميل الى الفاطميين . وكان ذلك مما مهد السبيل لنجاح أبى الحارث أرسلان البساسيرى فى اقامة الدعوة للخليفة المستنصر بالله الفاطمى من منابر بغداد فى منتصف القرن الخامس الهجرى . غير أن هذه الدعوة لم يكتب لها البقاء فترة طويلة ، فسرعان ما دخل السلاجقة بغداد وأعادوا الخطبة للخليفة العباسى القائم بأمر الله .

كذلك كان للفاطميين علاقات مع الدولة البيزنطية ، اتسمت بالتوتر فى كثير من الأحيان ، ويرجع السبب فى ذلك الى تهديد البيزنطيين الحدود الشمالية للشام ، واستيلائهم على بعض المدن الشامية ، وظل النزاع قائما بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية حتى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله حيث عقدت معاهدة صداقة بين هاتين الدولتين . غير أن هذه المعاهدة لم تؤد الى استمرار الوئام بين الفاطميين والبزنيطيين ، وصارت العلاقات بين الدولة الفاطمية فى عهد المستنصر وبين الدولة البيزنطية لا تستقر على حال ، فقد تحسنت فى أوائل عهده ، بعد أن عقد هدنة مع الامبراطور ميخائيل الرابع سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) ، واستغل المستنصر ، فرصة صفاء العلاقات بينه وبين الدولة البيزنطية للعمل على انعاش الحالة الاقتصادية فى دولته ، فأرسل على أثر المجاعة التى حلت بمصر سنة ٤٤٦ هـ الى الامبراطور قسطنطين التاسع ، يطلب منه أن يمده بأربعة آلاف أردب من القمح ، فأظهر الامبراطور استعداده لاجابة هذا الطلب ، لكنه لم يلبث أن توفى وخلفته الامبراطورة تيودورا ، فاشترطت لمعونة مصر ، أن يمدها المستنصر بالجنود اذا ما اعتدى

على بلادها أى معتد • غير أن المستنصر رفض هذا الشرط ، فأجابته تيودورا على ذلك بأن حالت دون ارسال الغلال الى مصر ، مما ترتب عليه توتر العلاقات بين الدولتين •

٦ ـ خلافة المستعلى بالله :

أخذ نفوذ الوزراء فى الازدياد ، منذ أواخر عهد المستنصر بالله ، وبدأ ذلك باستئثار بدر الجمالى بالسلطة دون الخليفة ، وتغالى ابنه الأفضل فى اغتصاب حقوق هذا الخليفة ، بل أقدم بعد وفاته سنة ٤٨٧ هـ ، على اقصاء ابنه نزار ولى عهده وأكبر أبنائه عن الخلافة ، وبايع أخاه الصغير أبا القاسم أحمد الذى لقب بالمستعلى بالله فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٤٨٧ هـ •

كانت أم المستعلى ، ابنة بدر الجمالى وأخت الأفضل ، لذلك فان بدرا يحبذ تعيينه خليفة بعد أبيه ، كما حرص ابنه الأفضل على تحقيق هذه الأمنية حين أراد المستنصر قبل وفاته أخذ البيعة لابنه نزار على رجال الدولة ، فتقاعد الأفضل عن ذلك وماطله حتى مات •

وكان الأفضل يعتقد أن نزارا اذا ولى الخلافة حال بينه وبين مناصب الدولة ، على حين كان أبو القاسم أحمد صغير السن ، فاذا ولاه الخلافة ، أصبح مطلق التصرف فى شئون الدولة •

أدى اقصاء نزار عن الخلافة رغم أحقيته لها الى اضطراب الأمور فى بعض البلاد المصرية ، فخرج أهل الاسكندرية على طاعة الخليفة الفاطمى الجديد وانحازوا الى نزار بعد أن قدم اليهم مع أخيه عبد الله وبايعوه بالخلافة ، ولقبوه المصطفى لدين الله ، كما رحب به واليها ناصر الدولة أفتكين •

استقر رأى الأفضل بن بدر الجمالى بعد أن بلغه نبأ هذه الفتنة التى أثارها نزار ، على المسير الى الاسكندرية ، على رأس حملة لاخمادها ، وهناك دارت بينه وبين واليها ناصر الدولة افتكين الذى وعده نزار بالوزارة ان ظفر هو بالخلافة ، معركة انتهت بهزيمة الأفضل وارتداده الى القاهرة ، حيث أعد حملة جديدة فى أوائل سنة ٤٨٨ هـ حاصر بها الاسكندرية مدة سبعة أشهر ، ارتكب فى أثنائها كثيرا من ضروب القسوة والقتل ، حتى اضطر كل من افتكين ونزار الى طلب الأمان ، فأمنهما الأفضل ، ثم أمر بانقاذهما الى القاهرة حيث نكل بهما .

أما عن الحالة الداخلية فى مصر بعد القضاء على الفتنة التى أثارها نزار ، فان الأفضل بن بدر الجمالى قبض على شئون الحكم فى البلاد واستبد بالسلطة دون المستعلى ، ومن ثم دخلت مصر فى عهد نفوذ الوزراء ، وصار وزير السيف كما يقول المقريزى : « هو سلطان مصر وصاحب الحل والعقد واليه الحكم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية ، وهو الذى يولى المناصب الديوانية والدينية .

وقد اتخذ الأفضل مسكنه بدار الملك التى بناها سنة ٥٠١ هـ ، ونقل اليها الدواوين ، وجعل فيها محال خاصة ، تقام فيها الأسمطة فى الأعياد ، واتخذ فى أحد أبهائها مجلسا ، يجلس فيه للعطاء ، كما جلب لها كثيرا من الذخائر النفيسة .

تعرضت مصر فى عهد الخليفة المستعلى بالله للأخطار الخارجية ، فبدأ الصليبيون يغيرون على بلاد الشام ، فسقطت أنطاكية فى يدهم سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٨ م) ، كما استولوا على بيت المقدس فى السنة التالية ، وظل الأفضل بن بدر الجمالى فى حروب

مســـتمرة معهم ، انتهت بتراجع القوات الفاطمية عن تلك البلاد تدريجيا حتى لم يبق فى حوزة الفاطميين سوى عسقلان ·

ومما لاشك فيه ، أن الخلافة الفاطمية فى أواخر القرن الخامس الهجرى لم تكن فى حالة تساعدها على استعادة مكانتها فى بلاد الشام ، فقد أصبحت مصر من الضـــعف بســـبب ماسادها من الاضطرابات ، وما منيت به من منازعات بين طائفة النزارية التى تدعى أن المستنصر بالله أوصى لابنه الأكبر نزار بالخلافة من بعده ، وطائفة المستعلية التى ادعت أن المستنصر أوصى بالخلافة لابنه أبى القاسم أحمد الذى لقب بالمستعلى بالله ، مما ترتب عليه عجز الفاطميين عن الاحتفاظ بما تبقى لهم من سلطان على بلاد الشام · يؤيد ذلك ما قاله المقريزى عن الخليفة المســـتعلى بالله (٤٨٧ ـ ٤٩٥ هـ) : وفى أيامه اختلت الدولة وانقطعت الدعوة من أكثر مدن الشام ، فانها صارت بين الأتراك والفرنج » ·

٧ ـ خلافة الآمر لأحكام الله :

لما توفى الخليفة المستعلى بالله سنة ٤٩٥ هـ ، أحضر الوزير الأفضل ابن بدر الجمالى ابنه أبا على ، وبايعه بالخلافة وأقامه مكان أبيه ولقبه الآمر بأحكام الله وعمره وقتذاك خمس سنين · وجاء فى سجل توليته الخلافة : « ·· وقد كان الامام المستعلى ـ قدس الله روحه ـ عند نقلته جعل لى عقد الخلافة من بعده ، وأودعنى ما حازه من أبيه عن جده ، وعهد الى أن أخلفه فى العالم وأجرى الكافة فى العدل والاحسان على منهجه المتعالم ، وأوصانى بالعطف على البرية والعمل فيهم بسيرتهم المرضية على علمه ·· » ·

استبد الوزير الأفضل بن بدر الجمالى بالسلطة دون الآمر الذى لم يبق له من الأمر سوى اسم الخلافة · وبلغ من ازدياد نفوذه ،

أنه لم يعن بالاحتفاظ برسوم الفاطميين الدينية ، بل أخذ يميل ميل السنيين · وتجلت هذه الظاهرة فى الغائه الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد ابنته فاطمة ، وعلى رضى الله عنهما ومولد الخليفة القائم بالأمر ، ولا يخفى علينا أن عمله هذا يؤدى الى اضعاف نفوذ الفاطميين الذين كانوا يحرصون على الاحتفال بهذه الأعياد لتأييد انتسابهم الى على بن أبى طالب وفاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام ·

على أن الخليفة الآمر الذى ضعفت سلطته كثيرا بتداخل الأفضل لم يلبث بعد أن بلغ سن الرشد ، أن شعر بالحاجة الى التخلص من وزيره ، وقام عبد الله بن محمد البطائحى – أحد خواص الوزير – بتدبير مؤامرة لاغتياله ، وخلفه فى الوزارة ولقب بالمأمون ·

وكان الأفضل كما قال عنه ابن ميسر فى كتابه : تاريخ مصر : من العدل وحسن السيرة فى الرعية والتجار على صفة جميلة تجاوز ماسمع به قديما وشوهد أخيرا ، ولم يعرف أحد صودر فى أيامه ولا ضبط عليه » · وذكر النويرى فى كتابه « نهاية الأرب » أن الناس نالهم بعد قتل الأفضل من الظلم والجور والعسف مالا يعبر عنه ، فجاء الناس الى باب الآمر واستغاثوا » ·

أما عن الوزير المأمون ابن البطائحى الذى خلف الأفضل ، فكان من ذوى الآراء والمعرفة التامة بتدبير الدول ، كريما ، واسع الصدر ، كثير التطلع الى أحوال الناس من الجند والعامة ، فكثر الواشون والسعاة بالناس فى أيامه ·

لم يستمر هذا الوزير طويلا فى الوزارة ، فقبض عليه الخليفة سنة ٥١٩ هـ بسبب ما وصله عن تآمره ضده : وانفرد الآمر بأمور

الخلافة ، وبقى بغير وزير ، وعهد الى صاحبى ديوان الاستخراج وهما : جعفر بن عبد المنعم ، وأبو يعقوب ابراهيم ، وضم اليهما مستوف يعرف بابن أبى نجاح وكان راهبا - باستخراج الأموال من أربابها . ولما زادت سيطرة هذا الراهب على الدواوين ، وكثرت مصادرته للكتاب والعمال والتجار وأرباب الأموال ، أمر الخليفة والى مصر بأخذه الى الشرطة وضربه بالنعال ، ومازال يضرب حتى مات ، كما عزل الآمر صاحبى ديوان الاستخراج واعتقلهما .

حرص الآمر على أن يخلفه أحد أولاده ، فلما رزق طفلا فى ربيع الأول سنة ٥٢٤ هـ ، سماه أبا القاسم الطيب ، واحتفل باعلان البشرى بولادته وتوليته الامامة من بعده . ويصف ابن ميسر فى كتابه تاريخ مصر ذلك الاحتفال فى قوله : « زينت مصر والقاهرة فى الأسواق وبأبواب القصور ولبست العساكر وزينت القصور . وأخرج الآمر من خزائنه وذخائره قماشا ومصاغا وآلات وصياغات وأوانى ذهب وفضة فزين بها ، وعلق الايوان جميعه بالســـتور والسلاح ، فأقام الحال كذلك أربعة عشر يوما » .

كان لأمراء الصـــليحيين باليمن علاقات ودية مع الخلفاء الفاطميين فى مصر ، فلما تقلدت السيدة الحرة زمام الأمور فى اليمن بعد وفاة زوجها المكرم أحمد ، ظلت تعمل جاهدة على شد أزر الدعوة الفاطمية فى اليمن ، وكانت على اتصال وثيق بالخليفة الآمر ، فتبودلت بينهما الكتب والرســـل ، وأظهرت ولاءها لهذا الخليفة ، فاعترفت بامامته ، كما اعترفت من قبـــل بامامة أبيه المستعلى ، واقامت الدعوة لهما مما ساعد على احتفاظ الفاطميين بسيادتهم على بلاد اليمن .

وكان الخليفة الآمر ينظر الى الســـيدة الحرة نظرة تقدير واجلال كذلك ، حرص على أن تظل موالية لأبنائه من بعده ، فلما

رزق ابنه أبا القاسم الطيب ، كتب الى السيدة الحرة يبشرها بمولد ولده ويعرفها أنه ولى عهده ، ويأمرها أن تذيع هذا الخبر بين أهالى بلاد اليمن ٠

وكان للمنشآت نصيب وافر من عناية الآمر ، فأمر ببناء الهودج فى جزيرة الفسطاط التى تعرف بالروضة لمحبوبته البدوية ٠ وكان يتردد اليه من حين لآخر ، وظل متنزها للخلفاء من بعده ٠ كذلك أنشأ الخليفة الآمر الجامع الأقمر سنة ٥١٩ هـ ، وبنى تحته دكاكين ومخازن من جهة باب الفتوح ٠ ولاتزال الشعائر تقام فى هذا الجامع الذى يقع فى شارع المعز لدين الله بالقاهرة ٠

انتهت حياة الخليفة الآمر بقتله فى اليوم الرابع عشر من شهر ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ بتدبير فريق من النزارية ـ أتباع نزار ابن الخليفة المستنصر ـ وكان لهم أعوان فى مصر ، يرون أن الآمر وأباه المستعلى وليا الخلافة دون حق ٠

٨ ـ خلافة الحافظ لدين الله :

لما قتل الخليفة الآمر ، سارع بعض رجال الجيش الى القبض على زمام الأمور فى القاهرة ، ووقع اختيارهم على الأمير أبى الميمون عبد المجيد ابن عم الآمر ، ليلى أمور الخلافة ، فأخفى أمر الامام الطيب وبايعه الناس بولاية العهد ، ولقب الحافظ لدين الله ، وأقيم كفيلا لحمل منتظر ، لأن الآمر لما مات ترك احدى زوجاته حاملا ٠

على أن الأمير عبد المجيد لم تتح له الفرصة للاحتفاظ بسلطته فى الدولة بسبب ثورة الجند عليه وتوليتهم قائدا يدعى أبو على أحمد ابن الأفضل الوزارة ، فبدأ هذا الوزير عمله بمنع الحافظ من التصرف فى شئون الدولة ، كما سجنه فى خزانة ، وصار

لا يسمح لأحد بزيارته الا باذنه ، وأمر الخطباء بحذف اسمه من الخطبة ، واستولى الوزير على جميع ما فى قصر الحافظ من الذخائر والأموال زاعما أن ذلك كان لأبيه ، واستأثر منذ ذلك الوقت بالسلطة والنفوذ ٠

لم يكن الوزير أبو على أحمد بن الأفضل ، اسماعيلى المذهب ، بل كان اماميا ، لهذا شـــرع على اثر توليته الوزارة فى اتخاذ اجراءات ، غايتهـــا اظهـــار مذهب الامامية واضـــعاف مذهب الاسماعيلية ، فأمر باسقاط اسم اسماعيل بن جعفر الصادق الذى تنتسب اليه الاسماعيلية من الخطبة والدعاء لمحمد المنتظر الامام الثانى عشر عند طائفة الامامية ، وضرب دراهم ودنانير جديدة باسم الامام المنتظر ٠

وعلى الرغم من أن الوزير أبا على أحمد بن الأفضل ، قد استقل بحكم البلاد المصرية ، فانه كان يرى أن بقاءه فى منصبه مستأثرا بالسلطة ، يتوقف الى حد كبير على من يلى أمر الخلافة ، بعد أن أبعد الحافظ وشدد الرقابة عليه فى سجنه ٠ وكان أهم ما يشغله ذلك المولود الذى وضعته احدى نساء الآمر ، وأثار بعض المؤرخين الى أنه كان ذكرا ٠ وظل الوزير يضيق الخناق على أهل القصر الفاطمى ، لعله يصل الى مكان وجوده ٠ وكان يود أن يظفر بهذا المولود ليتخلص منه ، انتقاما لمن قتلهم الخليفة الآمـــر من اخوته ، ، ورغبة فى التخلص من وريث شرعى للخلافة ، غير انه لم يتمكن من العثور عليه ٠

لم يتمتع الوزير أبو على أحمد بن الأفضل طويلا بالحكم ، اذ كان لســـياسته التى تنطوى على مناهضة المذهب الاسماعيلى أسوأ الأثر فى نفوس الاسماعيلية ، فكونوا معارضة قوية له بزعامة الأمير يانس الأرمنى ، وتآمروا على اغتياله فكمن له جماعة منهم

وقتلوه ، بعد أن ظل مستأثرا بالسلطة سنة وشهرا ، وأخرجوا الحافظ من سجنه ، وبذلك قضى بالفشل على محاولة نشر مذهب الامامية فى مصر ، واستعاد المذهب الاسماعيلى مكانته · واعتبر اليوم الذى أطلق فيه سراح الحافظ وأعيد الى الحكم عيدا ، عرف بعيد النصر · وظل الفاطميون ، يحتفلون به الى أن زالت دولتهم ·

لم يكن للحافظ حق شرعى فى الخلافة ، ذلك انه لم يكن ابنا للآمر ، وانما هو ابن عمه ، فلما أطلق سراحه بعد مقتل الوزير أبى على أحمد بن الأفضل ، رأى رجال الدولة فى مصر أن يعيدوه وليا للعهد ، وكفيلا لولد الآمر الذى لم يعرف مقره ·

على أن الحافظ كان يطمع فى الاستقلال بالخلافة ، ومن ثم أمعن فى البحث عن ولد الآمر ، فلما اهتدى الى مكان اقامته بعد شهرين من عودته وليا للعهد ، عمد الى التخلص منه ، ثم أعلن نفسه خليفة ، وقرىء سجل بامامته فى ٣ ربيع الأول سنة ٥٢٦ هـ ·

اتخذ الحافظ بعد أن استقرت له الخلافة الأمير يانس الأرمنى، وزيرا له ، غير أن وزارته لم يطل أمدها ، فقد توفى بعد تسعة أشهر، وتولى الحافظ أمور الدولة بنفسه ، فلم يستوزر أحدا ، وظل منصب الوزارة شاغرا حتى طمع فيه بهرام الأرمنى والى الغربية ، فقدم الى القاهرة فى شهر جمادى الثانية سنة ٥٢٩ هـ وحاصرها يوما ، فاضطر الحافظ الى توليته الوزارة على الرغم من عدم دخوله فى الاسلام ·

لم يكترث بهرام بما أظهره الناس من السخط عليه ، بل تغالى فى التحيز لبنى جنسه من الأرمن ، فبعث فى طلب كثير منهم الى مصر ، حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفا ، بعد زمن قصير · وكانت سياستهم مع المسلمين لا تنطوى على شىء من الود ، فاشتد جورهم

وصادروهم فى أموالهم ، وأكثروا من بناء الكنائس والأديرة حتى صار لكل رئيس منهم كنيسة بجوار داره مما حمل المسلمين على متابعة الشكاية ضد بهرام وأقاربه ، كما بعث أمراء الجيش وقواده الى رضوان بن ولخشى والى الغربية ، يطلبون منه القدوم اليهم لينقذهم من سطوة الأرمن ، فأجاب رضـــوان طلبهم ، وقدم الى القاهرة على رأس جيش كبير وانضم اليه الجنود المسلمون فى جيش بهرام ، فازدادت بذلك قوته ، واضطر بهرام الى الرحيل عن القاهرة والالتجاء الى أخيه الباساك والى قوص ، فخلفه رضوان فى الوزارة سنة ٥٣٠ هـ ، وتلقب بالسيد الأجل الملك الأفضل ، وهو أول من لقب بالملك من وزراء مصر ٠

اشتد رضوان فى معاملة أعوان بهرام ، فاستولى على أملاكهم وقتل الكثير منهم ٠ وشرع فى خلع الحافظ بحجة أنه ليس اماما ، بل هو كفيل لغيره ، فاستاء منه الحافظ واضطر رضوان الى المسير الى بلاد الشام ، ثم مالبث أن عاد الى مصر على رأس جيش كبير سنة ٥٣٤ هـ ، فتصدى له جند الخليفة وأرغم على المسير الى الوجه القبلى ، حيث طارده الأمير أبو الفضائل بن مصال ، الذى عرض عليه عهد الأمان ، فاستجاب له وجاء الى القاهرة ٠ غير أن الحافظ لم يف بهذاالعهد ، فاعتقله بالقصر ، ولم يزل فى معتقله حتى سنة ٥٤٢ هـ ، حيث تمكن من الفرار وجمع أنصاره حوله ٠ ثم دارت بينه وبين جند الخليفة السودانيين عدة معارك ، انتهى الأمر فيها بهزيمته وقتله ٠

لم يتخذ الخليفة الحافظ وزيرا له ، بعد أن اشتد الخلاف بينه وبين رضوان بن ولخشى ، فظل يحكم البلاد بلا وزير حتى توفى فى جمادى الآخرة سنة ٥٤٤ هـ ٠

٩ ـ خلافة الظافر بأمر الله :

خلف الحافظ بعهد منه ، ابنه أبو المنصور اسماعيل ٠ وكان فى السادسة عشرة من عمره ، وبدأ حكمه بتولية الأمير نجم الدين ابن مصال الوزارة ، ولقب بالسيد الأجل المفضل أمير الجيوش ٠

عاد التنافس فى عهد الخليفة الظافر بين رجال الدولة على تقلد منصب الوزارة ، فثار الأمير المظفر على بن السلار والى الاسكندرية والبحيرة وقصد القاهرة على رأس فرقة من أعوانه ، فاضطر ابن مصال الى الفرار وحل ابن السلار محل منافسه فى الوزارة ، وتلقب بالعادل ، ثم جهز العساكر لمحاربة ابن مصال وأخذت قواته تتعقبه حتى أوقعت به الهزيمة فى الوجه القبلى وقضت عليه ، وبذلك خلا الجو لابن السلار وقام بأعباء الوزارة ٠

كان ابن السلار من أصل كردى ، يدين بالمذهب الشافعى ٠ وقد أنشأ سنة ٥٣٦ هـ بالاسكندرية مدرسة للشافعية ، أسند ادارتها الى الفقيه الشافعى الحافظ السلفى ، وبذلك هيأ السبيل لاستعادة المذهب السنى مكانته ، وادى تعصبه لهذا المذهب ورغبته فى احلاله بمصر محل المذهب الاسماعيلى الى استياء الخليفة ورجال دولته منه ، فقتل بايعاز منه سنة ٤٥٨ هـ ، وخلفه فى الوزارة أبو الفضل عباس بن أبى الفتوح ، وينقى الى بنى زيرى فى المغرب ٠

على أن الخليفة الظافر مالبث أن أغتيل سنة ٥٤٩ هـ بتدبير من نصر بن الوزير أبى الفضل عباس ٠ وقد أثار قتل الخليفة الظافر أهالى القاهرة ، فنشبت المعارك فى طرقات المدينة ، وفر الوزير عباس وابنه نصر الى سورية ، غير أنه لقى حتفه فى طريقه على يد جماعة من الفرنجة ، أرسلتهم أخت الخليفة الظافرة فى أثره سنة ٥٤٩ هـ ٠ أما ابنه نصر ، فقد باعه الفرنجة فى عسقلان وأرسل الى

القاهرة سنة ٥٥٠ هـ فى قفص من حديد ، وطيف به فى المدينة ، ثم صلب حيا على باب زويلة ، وأحرقت جثته فى المحرم سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م ·

كان لاضطراب الأحوال الداخلية فى مصر فى عهد الخليفة الظافر ، أثر بالغ فى زوال سيطرة الفاطميين على ما بقى لهم من المدن الساحلية بالشام ، فانتهز الصليبيون فرصة الضعف الذى كانت تعانيه الدولة الفاطمية فى مصر ، وعملوا على محاصرة عسقلان سنة ٥٤٨ هـ ، فتصدى لهم أهلها ، كما قويت نفوسهم بوصول الأسطول الفاطمى الى هذه المدينة ، غير أن الصليبيين مالبثوا أن عمدوا الى تشديد الحصارة عليها ومهاجمتها ، مما اضطر أهلها الى طلب الأمان ، فأجيبوا الى طلبهم وخرج منها من استطاع الرحيل عنها بطريق البر والبحر ، وبذلك تيسر للصليبيين الاستيلاء على عسقلان ، وفقدت الخلافة الفاطمية آخر مدن فلسطين التى كانت لاتزال تخضع لسيادتها ·

١٠ ـ خلافة الفائز بنصر الله ·

بويع بالخلافة بعد مقتل الظافر لابنه عيسى وهو فى الخامسة من عمره ولقب بالفائز بنصر الله · وقد بدا عليه الفزع والاضطراب من مشاهدته القتلى فى القصر · ولم يطب له عيش مدة خلافته · كما ساد الفزع القصر الفاطمى اذ ذاك ، وبعثت عمة الفائز الى طلائع بن رزيك والى الأشمونين والبهنسا بالكتب وفى طيها شعور النساء تستصرخ به على الوزير عباس ، وطلب منه نساء القصر القدوم لانقاذهن من الأخطار المحدقة بهن · فقدم طلائع القاهرة بعساكره من العربان والأجناد فى يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول سنة ٥٤٩ هـ ، وكان يرتدى ثيابا سوداء ، ومعه أعلام سود ، وشعور النساء التى أرسلت اليه من القصر على رءوس الرماح ·

وقد علق المقريزى (اتعاظ الحنفا ، ج ٣ ٠ ص ٢١٧) على ذلك بقوله : فكان هذا من الفأل العجيب ، فان الأعلام العباسية السوداء دخلت الى القاهرة وأزالت الأعلام العلوية البيض بعد خمس عشرة سنة » ٠

تقلد طلائع بن رزيك الوزارة بعد قضائه على الاضطرابات التى حدثت بالقاهرة على أثر مقتل الخليفة الظافر ، وتلقب بالملك الصالح ، وأسند اليه الخليفة جميع أمور الدولة فى سجل توليته الوزارة ٠ وقد جاء فيه : « فقلدك من وزارته ، وفوض اليك تدبير ممالكه وكفالته ، وجعل لك امارة جيوشه الميامين وكفالة قضـــاة المسلمين وهداية دعاة المؤمنين ، وترديد ماهو مردود اليهم من الصلاة وكخطابة وارشاد الأولياء المستجيبين ، والنظر فى كل ما أغدقه الله من أمور أوليائه أجمعين وجنوده وعساكره المؤدين ، وكافة رعاياه بالحضرة وجميع أعمال المملكة ، دانيها وقاصيها ، وسائر أحوال الدولة باديها وخافيها ٠٠ » ٠

أما فيما يتعلق بالوزير عباس فانه سار مع ابنه نصر وأتباعه يريد أيله ، ليسير منها الى بلاد الشام ، فأرسلت أخت الخليفة الظافر الى الفرنج بعسقلان ، تطلب منهم التصدى لعباس وبذلت لهم الأموال ، فقاتله الفرنج حتى قتل ، وأسر ابنه نصر ، وحمل فى قفص من حديد الى القاهرة ، فى ربيع الأول سنة ٥٥٠ هـ حيث طيف به فى المدينة ، ثم صلب على باب زويلة ٠

شرع الصالح طلائع بن رزيك ، بعد قضائه على الاضطرابات الداخلية فى الاستبداد بالســـلطة ، فتتبع أرباب البيوتات والنعم والأعيان فسلبهم أموالهم ، وقبض على بعض الأمراء ، وضيق على أهل القصر مستغلا صغر سن الخليفة ، وجعل له مجلسا يحضره الأدباء في الليل ٠ وكان يعرض عليهم شعره ، فهرع اليه الناس

ودونوا ما ينظمه من الشعر ٠ وبلغ من ميله للشعر والشعراء ، أنه دعا الفقيه الشاعر نجم الدين عمارة اليمانى الى مجلسه ، حين قدم الى القاهرة برسالة من أمير الحرمين قاسم بن فلستيه سنة ٥٥٠ هـ ٠

١١ ــ خلافة العاضد لدين الله :

لما توفى الفائز فى السابع عشر من رجب سنة ٥٥٥ هـ ، دون أن يوصى لأحد بولاية العهد أو الخلافة من بعده ، أقام الوزير الصالح طلائع بن رزيك ٠ العاضد خليفة ، وفى ذلك يقول المقريزى : (اتعاظ الحنفا جـ ٣ ٠ ص ٢٤٣) : « لما مات الخليفة الفائز ، ركب الصالح بثياب الحزن واستدعى زمام القصر ، وسأله عمن يصلح فى القصر للخلافة : فقال : مهنا جماعة ، فقال : عرفنى بأكبرهم ، فسمى له واحدا ، فأمر باحضاره ، فتقدم اليه أمير ، يقال له على بن مزيد ، وقال له سرا : لا يكن عباس أحزم منك رأيا ، حيث اختار الصغير وترك الكبير ، واستبد بالأمر ، فمال (الصالح) الى قوله ، وقال للزمام : أريد منك صغيرا ، فقال : عندى ولد الأمير يوسف بن الحافظ واسمه عبد الله ، وهو دون البلوغ ، فقال (الصالح) على به ، فأحضر اليه بعمامة لطيفة وثوب مفوط ٠٠ ، وكان عمره احدى عشرة سنة ٠ ثم أمر صاحب خزانة الكسوة أن يحضر بدلة سانجة خضراء ــ وهى لبس ولى العهد اذ حزن على ما تقدمه ــ وقام فألبسه اياها ٠ وبعد أن تم تجهيز الفائز وحمله الى ترتبه » أخذ (الصالح) بيد عبد الله ، وأجلسه الى جانبه ، وأمر أن يحمل اليه ثياب الخلافة ، فألبسها وبايعه وتبعه سائر الناس فى مبايعته ، ولقب بالعاضد لدين الله ، فى يوم الجمعة الثامن عشر من رجب سنة ٥٥٥ هـ ٠

يتضح لنا مما تقدم الى أى حد زادت سلطة الوزراء فى العصر الفاطمى الأخير ، حتى أصبحوا يتدخلون فى تولية الخلفاء ، كما أن

بعضهم انصرف عن تأييد مذهب الخليفة الفاطمى وأهل دولته ، كما فعل كل من الوزير أبى على أحمد بن الأفضل وطلائع بن رزيك · وقد أظهرا مذهب الامامية وعملا على احـــلاله فى مصـــر محل مذهب الاسماعيلية · ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد كان للوزير طلائع ابن رزيك مطامع خاصة تجلت فى حرصه على زواج ابنته من الخليفة العاضد · وكان يرجو من وراء هذه المصاهرة أن ترزق ابنته منه ولدا ، فيجتمع لبنى رزيك الخلافة مع الملك ·

على أن الوزير الصالح طلائع بن رزيك الذى انتقص من سلطة الخليفة العاضد ، وكثرت مضايقته لأهل القصر ، سرعان ما قتل بتدبير من خاصة الخليفة فى رمضان سنة ٥٥٦ هـ ، وخلفه فى الوزارة ابنه أبو شجاع رزيك بن الصالح ولقب بالملك العادل الناصر أمير الجيوش ·

واجه العادل بن طلائع بن رزيك ــ بعد توليته الوزارة ــ خروج شاور بن مجير السعدى عليه ، بسبب عزله عن ولاية قوص وتولية غيره ، ثم دخل القاهرة بصحبة فريق كبير من اتباعه وتخلص من العادل ، وخلفه فى الوزارة ، فى المحرم سنة ٥٥٨ هـ · وبدأ عمله بزيادة مرتبات الأجناد والعرب وحاشية القصر ·لكنه لم يتمتع طويلا بالوزارة ، فسرعان ما ثار عليه ضرغام ــ أحد أفراد الجيش ــ وتقلد الوزارة مما اضطر شاور الى المسير الى الشام والالتجاء بنور الدين محمود صاحب دمشق ، ليمده بقوة يستعين بها على استعادة نفوذه، ووعد بأن ينزل له عن ثلث دخل مصر بعد اقطاعات العساكر ، اذا ما عاونه فى التغلب على ضرغام وانتزاع الوزارة منه ، فتردد نور الدين بادىء الأمر فى اجابة طلبه ، ثم مالبث أن قوى عزمه على تحقيق رغبته ، فأعانه بحملة ، أسند قيادتها الى أسد الدين شيركوه · فلما وصلت هذه الحملة الى القاهرة ، تصدت لضرغام وتغلبت عليه ،

وبذلك خلا الجو لشاور ، فأعيد الى منصبه فى الوزارة ، فى رجب سنة ٥٥٩ هـ ٠

على أن شاور ، سرعان ما تخلى عن حليفه نور الدين ، فلم يف بما عاهده عليه ، وأرسل الى أسد الدين شيركوه ، يطلب منه الرجوع الى الشام ٠ ولم يكتف بذلك ، بل بعث الى أماريك Amalric ملك بيت المقدس ، يستمده ويخوفه من نور الدين ان ملك الديار المصرية ، فسارع الى تلبية طلبه ، وأرسل جيشا أرغم شيركوه على العودة بجنده الى الشام ، وكان لهذه السياسة أثرها فى توجيه أنظار كل من نور الدين صاحب دمشق والفرنجة ببيت المقدس الى غزو مصر ، فأنفذ نور الدين حملة ثانية الى مصر سنة ٥٦٢ هـ بقيادة أسد الدين شيركوه ، وذلك حين ثبت لديه غدر شاور به ونقضه الاتفاق معه ، وسير بصحبته بعض الأمراء ٠ وكان صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب من بين الذين اشتركوا فى هذه الحملة ٠

رأى شاور أن يستنجد مرة ثانية بالفرنجة ، فاستقر رأيهم على تحقيق رغبته خشية أن يستولى جيش نور الدين على مصر ، ويضمها الى بلاد الشام ، فيصبح مركزهم فى بيت المقدس مهددا بالأخطار ٠ ولما وصلت عساكر الفرنجة الى مصر ، انضمت الى جيوش شاور والمصريين ٠ وكان شيركوه قد تقدم بقواته الى الصعيد فتتبعه الفرنجة والمصريون ، والتقى الفريقان فى مكان يعرف بالبابين(٥) ، فكان النصر خليف شيركوه ، الذى رأى بعد ذلك ، أن يسير الى الاسكندرية عن طريق الفيوم ، فدخلها من غير مقاومة ، وعين ابن أخيه صلاح الدين واليا عليها وأبقى معه نصف الجيش ٠

أما قوات الفرنجة والمصريين ، فعادت الى القاهرة بعد واقعة البابين ، ثم زحفت الى الاسكندرية حيث قامت بحصارها برا مدة

---

(٥) قرية جنوب المنيا ٠

ثلاثة أشهر ، بينما سار اليها أسطول الصليبيين وأخذ يحاصرها بحرا ، حتى قلت بها الأقوات . ولم يكن لدى صلاح الدين من الجند ما يمكنه من رفع الحصار ، فأسرع أسد الدين شيركوه الى نجدته ، ولم يلبث المصريون والفرنجة ، أن أرسلوا اليه يطلبون الصلح ، فأجابهم الى ذلك ، واشترط ألا يقيم الفرنجة فى البلاد المصرية .. وتسلم المصريون الاسكندرية فى منتصف شوال سنة ٥٦٢ هـ ، وعاد شيركوه الى دمشق .

على أن جميع قوات الفرنجة لم تغادر مصـــر ، تنفيذا لهذا الصلح ، بل عقد شاور مع الفرنج اتفاقا ، كان من شروطه ، أن يكون لهم بالقاهرة (شحنة) صليبية ، وأن تكون أبوابها بيد فرسانهم ليتمنع نور الدين عن انفاذ عسكر اليها ، كما اتفق الطرفان على أن يكون للفرنج من دخل ديار مصر فى كل سنة مائة ألف دينار . ومما يجدر ذكره ، أن شاور قرر لهم ذلك من غير علم العاضد ولا مشاورته ، وقد عقب أبو شامة فى كتابه (الروضتين فى أخبار الدولتين ص ١٤٢) على هذا الاتفاق بقوله : « هذا كله يجرى بين الفرنج وشاور، وأما العاضد صاحب مصر ، فليس له من الأمر شىء ولا يعلم شيئا من ذلك ، قد حكم عليه شاور وحجبه » . أما عن الفرنج ، فقد عادوا الى بلادهم وتركوا بالقاهرة جماعة من مشاهير فرسانهم .

أدى دخول الفرنجة البلاد المصرية الى اطلاعهم على ما وصلت اليه حالة هذه البلاد من الضعف والاضطراب مما جعلهم يطمعون فى الاستيلاء عليها ، ذلك انهم تحكموا فى أهلها دون أن يقف فى وجههم أحد ، وبعثوا الى ملكهم أملريك يهونون عليه أمر امتلاك هذه البلاد ، كما أن فئة من أعيان المصريين ممن كانوا يعادون شاور ، كاتبوا هذا الملك ، يحببون اليه القدوم الى مصر — وكان قد وصل اليه من بعض أعوانه أسماء قراها وخراج كل منها ، وبذلك تمهد السبيل لقوات الفرنجة ، لغزو البلاد المصرية ، فخرج أملريك على

رأس الحملة التى جهزها فى أوائل سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) ، ونزل على بلبيس وكتب بعض أعيان المصريين كتبا اليه ، يعدونه المساعدة لكراهتهم شاور · ثم تقدم الفرنجة فى زحفهم صوب القاهرة ، فاستقر رأى شاور على اخلاء الفسطاط ، وأمر أهلها بالانتقال الى القاهرة ، فحملوا معهم كل ما استطاعوا حمله من متاع وطعام ، وأشعل النار فيها حتى يكون ذلك حائلا بينه وبين الفرنجة ، واستمرت النار مشتعلة بها ، أربعة وخمسين يوما ·

ولما اشتد الفرنجة فى محاضرة القاهرة ، وضيقوا على أهلها حتى ضعفت قواهم ، رأى شاور بعد أن أيقن من عجزه عن مقاومتهم وضعفه عن ردهم على أعقابهم ، أن يعمد الى اعمال الحيلة ، فأرسل الى أملريك يذكره بما بينهما من صلة المودة ، ويخوفه من نور الدين ، ويطلب منه الصلح على أن يؤدى اليه أربعمائة ألف دينار ، ويعجل بدفع مائة ألف دينار ، وبذلك تقرر الصلح ·

على أن سياسة شاور تجاه الفرنجة ، كانت تنطوى على المخادعة ، فقد راسل نور الدين فى دمشق ، يطلب منه النجدة ، كما أن الخليفة الفاطمى العاضد ، كتب فى هذه الأثناء الى نور الدين يستنجد به ، ووضع فى رسالته خصلا من شعور النساء امعانا فى الضراعة ·

لم تكد تصل هذه الرسائل الى نور الدين ، حتى سارع الى تجهيز قوة من حرسه الخاص ، ومن التركمان بقيادة أسد الدين شيركوه ، وانضم اليه عدد كبير من الأمراء وبعض أقاربه ، ومن بينهم صلاح الدين يوسف بن أيوب · ولم يكن راغبا فى المسير الى مصر لما لقيه من المصاعب فى حصار الاسكندرية ، فأخرجه نور الدين كرها ليحق قول الله سبحانه : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) · وعلق المقريزى (اتعاظ

الحنفا جـ ٣ ٠ ص ٢٩٥) على مسير صلاح الدين الى مصر بقوله :
« فكان فى مسيره اليها تملكه اياها وغيرها من الأقاليم » ٠

وبينما كان أملريك معسكرا بقواته أمام أســوار القاهرة ، يستحث أهلها فى طلب المال ، جاءت الأخبار بقدوم أســد الدين شيركوه بالعساكر ، فأزعج ذلك الفرنج ، واضطروا الى الرحيل عن القاهرة والعودة الى فلسطين ثم دخل أسد الدين شيركوه القاهرة فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ ، فرحب به أهلها ، واستقبله الخليفة العاضد وخلع عليه ، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكبيرة ٠

أيقن شاور بعد وصول حملة شــيركوه الثالثة الى القاهرة أن غايتها القضاء عليه والاستيلاء على مصر ، فظل يوجس خيفة منه ، وصار كل منهما يكيد لخصمه ٠ ولما حاول شاور تدبير مؤامرة للقبض على شــيركوه ومن معه من الأمراء ، نهاه ابنه الكامل ، وقال : « والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين ، فقال شاور : والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعا » ، فرد عليه الكامل بقوله : صدقت ولئن نصل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين ، خير من أن نقتل وقد ملكتها الفرنج » ٠ فعدل شاور عن عزمه ٠ غير أن أسد الدين مالبث أن اتفق مع أصحابه على التخلص منه ، واضطلع بعضهم بتنفيذ هذه المؤامرة ، فقبضوا عليه وقتلوه ، ثم نهبت العامة دوره ٠ وهكذا انتهت حياة ذلك الوزير الذى استبد بالسلطة فى أواخر العصر الفاطمى واستعان بالعناصر الأجنبية لتثبيت نفوذه ولم يعد للصليبيين بعد مقتله من يحفزهم على التطلع الى غزو مصر ٠

أصبح أسد الدين شيركوه صاحب السلطان الفعلى فى البلاد بعد أن انتهى عهد شاور ، فاتخذه العاضد وزيرا له ، ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش ، وقلده جميع أمور الدولة ٠ وجاء فى سجل

تعيينه وزيرا : « وقلدك أمير المؤمنين أمر وزارته وتدبير مملكته وحياطة ما وراء سرير خلافته ، وصيانة ما استخلف عليه دعوة امامته ، وكفالة قضاة المسلمين وهداية دعاة المؤمنين ٠٠ » ، كما أوصاه بأن يحسن معاملة رعاياه ، بقوله : والرعايا قد علمت ما نالهم من اجحاف الجبايات واسراف الجنايات وتوالى عليهم من ضرر النكايات ، فأعمر أوطانهم التى خربها الجور والأذى ، وأنف من مواردهم الكدر والقذى ، وأحسن حفظ وديعة الله منهم ، وخفف الوطأة ما استطعت عنهم ، وبدلهم من بعد خوفهم أمنا » ٠

أقام أسد الدين شيركوه بدار الوزارة ، التى كان ينزل فيها شاور ومن قبله من الوزراء ، وسلك مع الخليفة العاضد مسلكا طيبا حتى أعجب به ومال اليه ، وطلب الى أعيان الفسطاط وأهلها ، الذين جلوا عنها خلال الفتنة ، وقدموا الى القاهرة الرجوع اليها ٠

استطاع أسد الدين شيركوه خلال الفترة القصيرة التى قضاها فى الوزارة ، أن يقبض على زمام الأمور فى البـــلاد ، كما وزع الاقطاعات على عساكره ، وقام بأعباء الدولة دون أن يحدث أى تغيير على أصحاب العاضد ، ولم ينكر عليهم أمرا من أمورهم ، بل أقرهم على عوائدهم ٠ غير أنه لم يبق طويلا فى الوزارة ، فقد توفى بعد أن ظل فى منصبه ما يقرب من ثلاثة أشهر ٠

اختلف خواص العاضد فيمن يتولى الوزارة بعد وفاة شيركوه كما تنازع أمراء نور الدين الذين كانوا مع شيركوه فى طلب الرياسة والوزارة ٠ لكن العاضد مال الى تولية صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وقال لأصحابه من الأستاذين وغيرهم « والله أنى لأستحى من تسريح صلاح الدين ، وما بلغت غرضا فى حقه لقرب عهد مقام عمه » (المقريزى : اتعاظ الحنفا ٠ ج ٣ ٠ ص ٣٠٨) ، ثم أرسل فى طلبه وخلع عليه خلع الوزارة ، ولقبه الملك القاهر فى اليوم الخامس

والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ · وجاء فى سجل تقليده الوزارة :

« ولما رأى الله تقلب وجه أمير المؤمنين فى سمائه ولاه من اختيارك قبله ، وقامت حجته عند الله باستكفائك وزيرا له ووزيرا للملة ، فناجته مراشد الالهام وأضاءت له مقاصد لا تعقلها كل الأفهام وعزم له على أن قلدك تدبير مملكته ·· » فتقلد وزارة أمير المؤمنين من رتبتها التى تناهت فى الأناقة ، الا أن لا رتبة فوقها الا ما جعلها الله للخلافة ·· »

شرع صلاح الدين بعد أن ولى وزارة العاضد الفاطمى فى استمالة قلوب الناس اليه · وكان لبذله الأموال عليهم أثره فى اكتساب محبتهم مما ساعد على تقوية مركزه فى مصر · كما عمل على التقرب الى الخليفة العاضد بما يرضيه ، مما جعله يكسب رضاه ·

على أن صلاح الدين مالبث آن استغل توليته الوزارة فى العمل على ازدياد سلطته واضعاف شأن الخليفة العاضد ، فأمر بذكر اسم نور الدين محمود فى الخطبة بعد الخليفة الفاطمى ، وأقطع أصحابه البلاد ، وأسند اليهم بعض المناصب ، واستبد بجميع الأمور ، ومنع العاضد من التصرف ، وبذلك كشف القناع عن حقيقة نواياه ازاء الخلافة الفاطمية ، وتجلى للناس حرصه على القضاء عليها ·

ولما ثقلت وطأة صلاح الدين على أهل القصر الفاطمى ، وتجلى استبداده بأمور الدولة واضعافه جانب الخلافة ، حنق عليه رجال القصر ودبروا المكائد للتخلص منه · وكان يتزعمهم جوهر مؤتمن الخلافة ــ وهو من أكابر خدام القصر ــ واتفق رأيهم على مكاتبة الفرنجة ودعوتهم الى مصر ، فاذا ما خرج صلاح الدين الى لقائهم ،

قبضوا على من بقى من أصحابه بالقاهرة ، وانضموا الى الفرنجة فى محاربته والقضاء عليه ٠

على أن صلاح الدين مالبث أن وقف على ما دبره له أعداؤه ، فشدد الرقابة على مؤتمن الخلافة جوهر ، فى أواخر سنة ٥٦٤ هـ ، وأرسل اليه صلاح الدين جماعة من أصحابه ، تمكنوا من اغتياله فى أواخر سنة ٥٦٤ هـ ، وأحل محله فى منصب زمام القصور بهاء الدين قراقوش الأسدى ٠ وأدى قتله الى ثورة جند الخليفة وأكثرهم من السودانيين ، فساروا فى جمع كثير من الأمراء المصريين وعوام البلد ، وكانوا يزيدون على الخمسين ألفا ، ودار بينهم وبين قوات صلاح الدين قتال عنيف فى المكان المعروف بين القصرين بالقاهرة ، أحرق فيه كثير من الدور ٠ كما أحرق حيهم المعروف بالمنصورية ، وحلت بهم الهزيمة ومضت فلولهم الى الجيزة ، ومازال صلاح الدين يتتبعهم فى الصعيد الى أن قضى على نفوذهم نهائيا سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) ٠

لم تكن الصعاب التى واجهت مصر فى الفترة التى قضاها صلاح الدين وزيرا للعاضد مقصورة على الفتن التى أثارها رجال القصر الفاطمى ، وأتباعهم من الجند ، بل كان الفرنجة فى بيت المقدس يرقبون اذ ذاك ازدياد نفوذ نور الدين المتواصل فى مصر ، ويرون فيه خطرا يهدد كيانهم ، ولذلك استقر رأى ملك بيت المقدس على الاستنجاد بملوك أوربا لاحباط أطماع نور الدين ٠ لكن دعوته لم تلق استجابة منهم لانشغال غالبيتهم بمسائل تتعلق بدولهم ، فلجأ الى مانويل امبراطور الدولة البيزنطية الذى رحب بمد يد المعونة اليه، ومن ثم توجهت قواتهم الى دمياط ، يعاونهم أسطول بيزنطى ، مزود بالمؤن والعتاد الحربى ، فوصلوا اليها فى صـــفر سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) ٠ وكان الامبراطور البيزنطى ، يرجو أن تحقق هذه الحملة أطماعه فى توسيع رقعة البلاد الداخلة فى دائرة نفوذه ٠

رأى صلاح الدين بعد أن بلغه خبر الحملة التى أنفذها الفرنجة الى دمياط ، أنه لابد من النهوض لصدهم ، فأرسل جنده عن طريق النيل بقيادة ابن أخيه تقى الدين عمر وخاله شهاب الدين محمود ، وأمدهما بالسلاح والذخائر والمال ، واضطر صلاح الدين للبقاء بالقاهرة ، خشية أن يقوم رجال القصر الفاطمى وجند السودان الناقمون عليه بتدبير المؤامرات ضده ، وبعث الى نور الدين يستنجده ويشكو اليه ما هو فيه من المخاوف ، وأنه ان تخلف عن دمياط ملكها الفرنجة ، وان سار اليها دبر له أعداؤه من المصريين المكائد ، وبذلك يصبح الفرنجة أمامه والمصريون خلفه ، فاستجاب نور الدين لدعوة صلاح الدين وبعث اليه الأمداد · وكان كلما جهز فرقة من الجند ، أرسلها اليه ، كما حرص الخليفة العاضد على اعانته بالمال طوال مدة حصار الفرنجة لدمياط · وقد نوه صلاح الدين بمعاونة العاضد له بقوله : ما رأيت أكرم من العاضد ، أرسل الى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار ، سوى ما أرسل الى من الثياب وغيرها » ·

لم يتيسر للمغيرين على دمياط من الفرنجة وحلفائهم البيزنطيين تحقيق غرضهم ، فقد تسرب القلق الى نفوسهم من جراء ما عانوه فى سبيل تموين قواتهم ، كما وقع الخلف بين قوادهم على الخطة التى يتبعونها لمهاجمة هذه المدينة ، وفضلا عن ذلك ، فان ما بلغهم عن قيام نور الدين بمهاجمة حصن الكرك وغيره من النواحى التى فى أيديهم حملهم على الاسراع فى رفع الحصار عن المدينة والرجوع بجيوشهم الى بلادهم فى ربيع الآخر سنة ٥٦٥ هـ · وبذلك فشلت هذه الحملة فى غزو دمياط والاستيلاء على مصر ·

كان لاحباط خطة الفرنجة والبيزنطيين فى مهـــاجمة دمياط ورحيلهم الى بلادهم منهزمين ، أثره البالغ فى توطيد سلطة صلاح الدين فى مصر ، فقد اعتبره المصريون حاميا لهم ، واتفقوا معه على

محاربة الفرنجة أعدائهم جميعا • كما أن صلاح الدين حرصا منه على تدعيم مركزه ، رأى أن يحيط نفسه بأهل بيته ، فطلب من نور الدين أن يرسل اليه أباه وأقاربه ، فوصلوا الى القاهرة فى جمادى الآخرة سنة ٥٦٥ هـ (١١٧٠ م) ومالبث أن أسند اليهم بعض المناصب الهامة ، فجعل أباه على بيت المال واقطع اخوته بعض النواحى •

لما أيقن صلاح الدين أن سلطته قد استقرت ، وجه اهتمامه الى القضاء على المذهب الشيعى فى مصر ، فأنشأ سنة ٥٦٦ هـ مدرسة لتدريس المذهب الشافعى وأخرى لتدريس المذهب المالكى بجوار جامع عمرو بن العاص ، وعزل قضاة مصر من الشيعة ، وعين صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعى قاضيا للقضاة فى جميع أنحاء البلاد المصرية ، فأناب عنه فى سائر البلاد قضاة شافعية ، فاستعاد بذلك المذهب السنى قوته ، وأخذ المذهب الاسماعيلى فى الاختفاء تدريجيا حتى لم يبق له أنصار فى مصر •

كان لسياسة صلاح الدين التى تنطوى على اضعاف المذهب الاسماعيلى أثرها فى زوال الخلافة الفاطمية ، فقد انهارت منذ ذلك الوقت سلطة الخليفة العاضد ، وكثر القول من صلاح الدين وأصحابه فى ذمه ، كما تحدثوا بخلعه واقامة الدعوة العباسية • لكن صلاح الدين رغم استبداده بأمور مصر لم يســـارع الى اقامة الخطبة للمستضىء بالله العباسى ، بل أعرض فى بادىء الأمر عن تنفيذ رغبة نور الدين محمود الذى أرسل اليه يأمره باحلال اسم الخليفة العباسى فى الخطبة محل الخليفة الفاطمى ، واعتذر بتخوفه من أن يثير هذا العمل غضب أهالى مصر • غير أن نور الدين أبى قبول هذا العذر ، وبعث اليه يلزمه بقطع الخطبة للخليفة العاضد ، فرأى صلاح الدين أن يشاور أصحابه فى ذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة بدل الخليفة الفاطمى ، فوافقه بعضهم وأظهروا استعدادهم لمعاونته على تحقيق هذه الرغبة وخشى آخرون من الاقدام على ذلك • وكان قد

وفد الى القاهرة رجل فارسى يعرف بالأمير العالم ، فلما رأى ماهم فيه من الاحجام وأن أحدا لا يتجاسر على اقامة الخطبة للمستضىء أبدى حرصه على القيام بنفسه بالدعاء لهذا الخليفة ، فصعد المنبر قبل الخطيب بالجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) فى أول جمعة من شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ ودعا للمستضىء العباسى · ولما لم يظهر أحد اعتراضه على ذلك ، أمر صلاح الدين فى الجمعة التالية الخطباء بمصر والقاهرة باسقاط اسم العاضد من الخطبة وذكر اسم الخليفة العباسى بدلا منه · وكان العاضد اذ ذاك مريضا ، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك ، ثم توفى فى العاشر من المحرم سنة ٥٦٧ هـ · وقيل انه علم قبل وفاته بحذف اسمه من الخطبة ، فاعتل وتوفى بعد خمسة أيام ، فجلس صلاح الدين للعزاء ، وأنفذ رسائل الى البلاد ، تضمنت وفاة العاضد واقامة الخطبة للمستضىء بأمر الله العباسى ·

وكان الناس فى مصر يتطلعون الى اقامة خليفة بعد العاضد من أهله · غير أن هذه الرغبة لم يرض عنها صلاح الدين ، بل انه امتنع عن مبايعة داود بن العاضد عندما طلب منه ذلك ، وبعث اليه يقول : « أنا نائب عن أبيك فى الخلافة ولم يوص بأنك ولى عهده » · وقبض عليه وعلى بقية أولاد العاضد · وأقاربه ، وأمر بنقلهم من القصر فى رمضان سنة ٥٦٩ هـ الى دار المظفر التى أنشأها بدر الجمالى لتكون سكنا له ، ومقرا لوزرائه ·

وهكذا زال سلطان الخلافة الفاطمية فى مصر ، وظلت الخلافة العباسية قائمة على الرغم من تطرق الضعف اليها والانحلال ·· ويرجع السبب فى ذلك ، الى رغبة المسلمين فى الاحتفاظ بها ، لاعتقادهم أنها نظام لابد منه لصلاح العالم الاسلامى ·



ثانيا ـ الحضارة فى عصر الخلفاء الفاطميين

١ ـ نظم الحكم والادارة :

(أ) الادارة :

حرص الفاطميون منذ قيام دولتهم على أن تنتقل الامامة من الأب الى الابن عن طريق التعيين · لكن بعض الأحداث حملتهم على الخروج على هذا النظام ، فحاول الخليفة الحاكم بأمر الله أن يحرم ابنه أبا الحسن على الذى ولى الخلافة من بعده وتلقب بالظاهر من ولاية العهد ، ويعهد بها لابن عمه عبد الرحيم بن الياس ، غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل وخلفه ابنه الظاهر · كذلك خولف هذا النظام بعد وفاة الخليفة الآمر ، حين ولى الخلافة بعده ابن عمه الحافظ ، كما أنه بعد وفاة الفائز ولى الخلافة ابن عمه العاضد لدين الله ·

وكان الخليفة الفاطمى يعين ولى عهده قبل وفاته · ولم يكن له الحق فى أن يعهد بالامامة من بعده لأكثر من واحد · وهذا ما يميز ولاية العهد عند الفاطميين عن ولاية العهد عند الأمويين والعباسيين : فكان الأمويون والعباسيون من بعدهم ، يعهدون بالخلافة لأكثر من واحد ·

وأحاط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بهالة من التقديس ، ويتجلى لنا ذلك من حديث الداعى هبة الله الشيرازى الذى وصف فيه مقابلته الخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى مجلس الخلافة بالقاهرة ، فقال : « فلم تقع عينى عليه الا وقد أخذتنى الروعة ، وغلبتنى العبرة وتمثل فى نفسى أنى بين رسول الله وأمير المؤمنين – صلى الله عليهما – ماثل ، وبوجهى الى وجهيهما مقابل ، واجتهدت عند وقوعى الى الأرض ساجدا لولى السجود ومستحقه ، أن يشفعه لسانى بشفاعة حسنة بنطقه ، فوجدته بعجمة المهابة معقولا ، وعن مزية الخلافة معزولا .. ، ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لسانى بنطق ولايهتدى لقول ، وكلما استطرد الحاضرون منى كلاما ازددت اعجابا .. ، وهو – خلد الله ملكه – ، يقول دعوه حتى يهدأ ويستأنس ، ثم قمت وأخذت يده الكميمة فترشفتها وتركتها على عينى وصدرى ، وودعت وخرجت .. » .

وكان الخلفاء الفاطميون ، يرون فى تقديس الناس لهم اعلاء لشأنهم ، واعتبروا أنفسهم هداة لهم . وكانوا يلقبون أنفسهم بألقاب كثيرة منها الخليفة الفاطمى أو العلوى أو أمير المؤمنين . وكان السنيون يطلقون عليهم العبيديين ، نسبة الى عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب ، كما أطلق عليهم الفاطميون نسبة الى السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم .

أما عن الوزارة فى عهد الفاطميين ، فان جوهر الصقلى لما فتح مصر أقر الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات فى منصبه حتى لا يحدث عزله اضطرابا فى شئون ولاية مصر ، ولم يقدم على عزل أحد من الموظفين السنيين واحلال المغاربة وغيرهم من أنصار الفاطميين محلهم لأنه لم يوجد من المغاربة فى أول الأمر خبير بالشئون الادارية فى مصر . وحرص جوهر الصقلى على أن يشرك مع كل موظف مصرى موظف مغربى حتى اذا ما تدرب أنصار

الفاطميين على الادارة ، انفردوا بالوظائف • كذلك عمل جوهر على اضعاف سلطة الوزير جعفر بن الفرات بأن عين له خادما يلازمه فى داره ويسير فى ركابه ليكون عينا عليه • وساء الوزير ابن الفرات أن يرى نفسه فى هذه الحال ، لذلك انتهز فرصة قدوم الخليفة المعز الى مصر واعتذر له عن البقاء فى منصب الوزارة ، فاظهر له الخليفة رغبته فى ضرورة بقائه فى البلاد المصرية بعد اعتزاله منصبه ليستأنس برأيه فى مهام الأمور ، فأجابه الى ذلك • ثم عهد الخليفة المعز الى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن المغربى فى ادارة شئون الدولة الفاطمية المدنية والحربية ، وقلدهما أمور الدولة التى يضطلع بها الوزراء • على ان ابن كلس لم يسند اليه منصب الوزارة ويلقب بلقب وزير الا فى عهد الخليفة العزيز بالله •

كانت الوزارة فى العصر الفاطمى الأول (٣٥٨ ــ ٤٦٥ هـ) وزارة تنفيذ لأن الخلفاء كانوا على جانب كبيرمن القوة بحيث استأثروا بادارة شئون الدولة • وحرص الخلفاء الفاطميون على اختيار وزرائهم من المختصين بتدبير الأموال ، كما كان لحكام الولايات وكبار موظفى الدولة على اختلاف درجاتهم الحق فى تقلد منصب الوزارة اذا توافرت عندهم الكفاية اللازمة لهذا المنصب • وبلغ من تسامح الفاطميين أن عهدوا الى بعض ذوى الشأن من أهل الذمة بتولية الوزارة •

لم تظهر تسمية الوزير وزيرا بوضوح الا فى أيام الخليفة العزيز ، مع أن هذا المنصب كان معروفا فى عهد الطولونيين والاخشيديين • ومن وزرائه يعقوب بن كلس • وكان يجلس للمظالم كل يوم بعد صلاة الصبح ، فيدخل عليه الناس بظلاماتهم • واتخذ فى قصره عدة دواوين ، خص بعضها بالنظر فى شئون الجيش والمالية والسجلات وما يتعلق بجباية الخراج ، وعين لكل ديوان مايحتاج اليه من الموظفين •

ضعف شأن الوزارة بعد وفاة يعقوب بن كلس ، وتحولت الى ما يسمى الوساطة خشية ازدياد نفوذ الوزراء ، ففى أوائل عهد الخليفة الحاكم بأمر الله عزل عيسى بن نسطورس لاسناده مناصب الدولة الى أهل ملته من المسيحيين ، وتقلد الحسن بن عمار زعيم الكتامين الوساطة وتلقب بلقب أمين الدولة ٠

ومن أشهر رجال العصر الفاطمى الذين تقلدوا الوساطة والوزارة أبو الحسن على بن جعفر بن فلاح الذى لقب وزير الوزراء ذى الرياستين ، وأبو القاسم على بن أحمد الجرجرائى الذى تقلد بعض المناصب العليا فى عهد الحاكم ، ثم أسندت اليه الوساطة فى أوائل خلافة الظاهر الفاطمى ، لكنه لم يل الوزارة الا فى سنة ٤١٨ هـ ، وظل شاغلا هذا المنصب الى أن توفى الخليفة الظاهر ، فأقره الخليفة المستنصر فى منصبه ، فلما توفى سنة ٤٣٦ هـ خلفه فى الوزارة أبو منصور صدقة بن يوسف الفلاحى ٠ غير أن هذا الوزير لم يتمتع بما تمتع به غيره من نفوذ بسبب اتساع سلطة أبى سعد التسترى اليهودى الذى تقرب من الخليفة المستنصر بالله وعظم شأنه فى عهده ٠

أصبحت الوزارة منذ أواخر عهد المستنصر بالله الى نهاية العصر الفاطمى وزارة تفويض ، تقلدها كثير من أرباب السيوف بعد أن كانت وزارة تنفيذ أو ساطة ، يرجع من تقلدها الى أمر الخليفة ونهيه ٠ ومن أشهر وزراء هذا العصر بدر الجمالى الذى كان واليا على عكا ، ثم استدعاه المستنصر ليصلح الأمور فى مصر ، فلما قدم الى القاهرة ، فوض اليه جميع سلطاته ، فقد جاء فى سجل توليته الوزارة « وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره » ٠ وبذلك أصبح بدر الجمالى صاحب الحل والعقد ، له أن يولى كبار موظفى الدولة ويعزلهم ٠

ضعف نفوذ الخلفاء الفاطميين كثيرا في العصر الفاطمي

الثانى ، بينما زادت سلطة الوزراء الذين استفحلت قوتهم وتضخمت ثروتهم ، وأصبح فى أيديهم أمر تعيين الخلفاء وعزلهم · وكان بعضهم يؤثر اختيار أحد أمراء البيت الفاطمى الضعاف حتى يكون ألعوبة فى أيديهم · وقد تجلت هذه الظاهرة فى عهد الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى الذى كان يتمتع بسلطة مطلقة ، فأصبحت فى قبضة يده موارد الدولة الواسعة · وقد نقل الدواوين الى داره التى بناها سنة ٥٠١ هـ كما جلب اليها كثيرا من الذخائر النفيسة ·

وكان من ألقاب وزراء التفويض : أمير الجيوش ، وكافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين ، ثم أضيف اليها لقب ملك بعد أن ولى الوزارة رضوان بن ولخشى فى عهد الخليفة الحافظ ، وفى ذلك يقول المقريزى : « أول من لقب بالملك منهم مضـــافا الى بقية الألقاب رضوان بن ولخشى عندما وزر للحافظ لدين الله ، فقيل له : السيد الأجل الملك الأفضل ، وذلك فى سنة ثلاثين وخمسمائة ، وفعل ذلك من بعده ، فتلقب طلائع بن رزيك بالملك المنصور ، كما تلقب صلاح الدين بالملك الناصر ·

* * *

كانت مصر تنقسم فى العصر الفاطمى الى أربع ولايات أو أقاليم كبيرة ، وهى : ولاية قوص ويحكم متوليها جميع بلاد الصعيد ، ولاية الشرقية وتشمل على وجه التقريب الأراضى الواقعة شرقى فرع دمياط ، وولاية الغربية وتشمل جميع البلاد الواقعة بين فرعى رشيد ودمياط من الشمال الى الجنوب · أما الولاية الرابعة ، فهى ولاية الاسكندرية ، ويضاف اليها البحيرة · وقد منحت الحكومة الفاطمية كل وال من ولاة هذه الأقاليم الأربعة الحرية فى تعيين العمال على المدن والنواحى والقرى الداخلة فى نطاق ولايته ، كما أجازت له العناية بمرافق اقليمه دون الرجوع اليها ·

وكان على القاهرة وال ، كما تولى على الفسطاط وال آخر وتمتع كل منهما بمركز ممتاز عند الخليفة . غير أن مرتبة والى القاهرة كانت أعلى من مرتبة والى الفسطاط . كذلك كان لكل من تنيس وعيذاب وال يحكمهما لأهميتهما التجارية .

أما شئون الادارة فى العصر الفاطمى بمصر ، فكان يشـــرف عليها عدة دواوين ، نذكر من بينها : ديوان الانشاد ، ودواوين الادارة المالية التى تقوم بجباية الأموال وانفاقها ، ودواوين الادارة المحلية التى تحكم الولايات . وتنقسم الدواوين الرئيسية بدورها الى عدة دواوين يختص كل منها بعمل معين .

كان الموظفون فى العهد الفاطمى يتقاضون الرواتب الكبيرة ويمنحون الملابس والهدايا الثمينة فى الأعياد والمواسم ، وأصبحوا بفضل هذه الرواتب والمنح فى رغد من العيش مما سهل عليهم القيام بواجباتهم على أحسن وجه ، فلم يألوا جهدا فى العمل على تقدم مرافق البلاد الاقتصادية ودفع اغارات الأعداء عنها .

وقد حرص الفاطميون على أن يكون موظفوا الادارة من بين ذوى الخبرة ، كما اهتموا بتدريب كتاب الدواوين على جميع الأعمال الكتابية ، وأحسن مثل لذلك ابن منجب الصيرفى الذى عمل قبيل توليته ديوان الانشاء – فى عهد الخليفة الآمر – فى ديوان المكاتبات ودواوين الجيش والمالية . وكانت هذه الطريقة تهيىء لأرباب الوظائف قدرا كبيرا من الثقافة الادارية .

كان ديوان الانشاء من أهم دواوين الادارة فى عهد الفاطميين ، وأطلق عليه ابن منجب الصيرفى « ديوان الرسائل » . وازدادت أهمية ديوان الانشاء عما كان عليه فى عهد الطولونيين والاخشيديين لأن مصر أصبحت مركزا للخلافة الفاطمية التى امتد نفوذها من بلاد المغرب الى بلاد الشام وجزيرة العرب ، وصارت فى حاجة للقيام

بدعاية واسعة لخلفائها مما يتطلب من هذا الديوان مجهودا كبيرا ٠ وكان يتولى شئون هذا الديوان كاتب يقال له صاحب ديوان الانشاء ، ومن واجباته تسلم المكاتبات الواردة ثم عرضها على الخليفة لبحثها واعتمادها ٠ وكان صاحب الانشاء يتقاضى راتبا شهريا قدره مائة وخمسون دينارا ، ويتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعملون تحت ادارته ثلاثين دينارا ٠

ويلى صاحب الانشاء فى الرتبة صاحب القلم الدقيق الذى كان ومهمته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق وعرضها على شهر ، ويلى صاحب القلم الدقيق فى الرتبة صاحب القلم الجليل ، يوقع على المظالم ويجالس الخليفة ٠ وكان يتقاضى مائة دينار كل الخليفة ٠

وكان صاحب ديوان الانشاء يتولى فى بعض الأحيان ادارة البريد ، فيذكر المقريزى أن الخليفة الحاكم بأمر الله ، قلد الحسين ابن جوهر البريد والانشاء فى شوال سنة ٣٨٦ هـ ، واهتم الفاطميون بالبريد اهتماما كبيرا ، وصار أصحابه يعرفون فى أيامهم بأصحاب الأخبار ٠ وكانوا يوافونهم بكل ما يصل اليهم من الأحداث ، وبذلك لم يعد يخفى عليهم شىء من أمور دولتهم ٠

وكانت الشـــرطة من النظم الادارية الهـامة التى عنى بها الفاطميون وتختص بحفظ النظام واستتباب الأمن ، ويتولى رئيسها الذى يعرف بصاحب الشرطة تنفيذ أحكام القضاة ٠ وكان حكام الولايات المصرية يقومون بأعمال صاحب الشـــرطة فى ولاياتهم ويعاونهم جماعة من الجند ٠

ومما تجدر ملاحظته ، أن الشرطة قسمت فى العصر الفاطمى بمصر الى قسمين وهما : الشرطة العليا فى القاهرة ، والشـــرطة السفلى فى مصر (الفسطاط والعسكر) ٠ وكان هذا التقسيم متبعا منذ العصر الطولونى ، غير أن الشـــرطة العليا كانت فى مدينة

العسكر ، والشرطة السفلى كانت فى الفسطاط ، فلما تأسست مدينة القاهرة وأصبحت العاصمة ، اقتضى ذلك ، نقل الشرطة العليا اليها وبقية الشرطة السفلى فى الفسطاط ·

* * *

(ب) التنظيم الحربى :

كذلك ، كان للتنظيم الحـــربى ، نصـــيب موفور من عناية الفاطميين ، فقد رأوا أنهم بحاجة الى جيش قوى ، يحمى دولتهم ويساعدهم على امتداد نفوذهم فى أراضى الدولة الاسلامية ، كما اهتموا بانشاء أسطول لصد الأعداء الذين يغيرون على دولتهم من ناحية البحر وليكون عونا لقواتهم البرية ·

وقد سار الفاطميون فى تحقيق هذه السياسة على ما كان سائدا فى ذلك الوقت ، فكونوا جيوشهم من عدة عناصر ، لم يكن بعضها معروفا فى مصر · وكان المعز منذ استقر له الأمر فى البلاد المصرية يعتمد على المغاربة – وهم يكونون معظم جيشه ، ويشملون عدة طوائف من البربر ، نذكر منها : الكتامية والباطلية والمصامدة والجودرية · ·

ولما ولى العزيز بالله الخلافة ، استخدم الأتراك والديلم ، ثم ظهر عنصر السودان فى الجيش فى عهد الحاكم بأمر الله ، وتضاعف عدده فى خلافة المستنصر بالله حتى بلغ عدد السودانيين فى الجيش خمسين ألفا · وظل هذا العنصر يكون فرقة كبيرة فى الجيش الفاطمى حتى زالت الدولة الفاطمية · وقد أدى تعدد العناصر فى الجيش الى قيام التنافس والتشاحن بين طوائف الجند ، وليس أدل على ذلك مما حدث فى عهد المســـتنصر ، حيث قام خلاف بين طائفتى الأتراك والسودانيين كان له أسوأ الأثر فى حالة مصر الداخلية ·

وكان فى الجيش الفاطمى أيضا عناصر أجنبية ، وفدت الى مصر مع بعض الذين تقلدوا الوزارة ، منها جند الأرمن • وقد أحضرهم بدر الجمالى من بلاد الشام ، كما عمل بهرام الأرمنى أثناء توليه الوزارة على استجلاب عدد كبير منهم الى مصر • كذلك أتى الأكراد مع أسد الدين شيركوه وصلاح الدين يوسف بن أيوب فى عهد الخليفة العاضد •

ومن طوائف الجيش فرق من الجند ، تنسب الى الخلفاء أو الوزراء ، فمن طوائف الخلفاء : الآمرية والحافظية والظافرية والعاضدية •

ومن طوائف الوزراء : الوزيرية وتنسب الى الوزير يعقوب بن كلس • وقد سمح له الخليفة العزيز بتكوين حرس خاص به • وهناك طوائف أخرى ، ظهرت فى العصر الفاطمى الثانى ، منها الجيوشية نسبة الى أمير الجيوش بدر الجمالى ، والأفضلية نسبة الى ابنه الأفضل ، والبرقية وهم جماعة من أهل برقة • وقد أنشأ الوزير طلائع بن رزيك فرقة منهم وجعل ضرغاما مقدمهم •

لم يعمل الفاطميون على اشراك المصريين فى جيشهم ، غير أنه فى أواخر العصر الفاطمى حين أصبحت مصر مهددة من جانب الصليبيين ، اشترك المصريون فى الدفاع عن بلادهم ، فأصبح يتكون الجيش الفاطمى من جند وأمراء مصريين ، فضلا عن الطوائف الفاطمية الأخرى •

اتخذ الفاطميون للجيش أحياء خاصة ، فأنزل جوهر الصقلى عساكر المعز – وكانت تتكون من عدة عناصر – فى مواضع بالقاهرة عرفت بالحارات وخصص لكل طائفة حارة ، يقيم فيها الجند وأسرهم ، وبها دكاكين وأسواق • ويرجع السبب فى اتخاذ أماكن معينة لاقامة الجند الى منعهم من مضايقة سكان القاهرة •

ويتألف الجيش الفاطمى من الأمراء وهم القادة وطوائف الجند ويتميز الأمراء بعضهم من بعض بعلامات فى الأعياد والمواكب الرسمية بحسب مراتبهم ، فالأمراء الكبار يحملون حول أعناقهم أطواق الذهب ، ويقود كل منهم ألف جندى • وهناك فريق آخر من الأمراء ، يعرفون بأصحاب القضب ، يحملون فى أيديهم قضب الفضة وهى رماح فضية ، ويقود كل منهم مائة جندى •

وكان الفاطميون لا يألون جهدا فى سبيل تجهيز جيشهم بكل ما يحتاج اليه من أسلحة ، فانشأوا خزانة السلاح • وكانت تحتوى على خوذات وسيوف ورماح وسهام ودروع وأقواس مختلفة الأشكال • وهناك خزائن أخرى تمد الجيش بمعداته منها خزانة الخيام وبها عدة أنواع من خيام الجند ، وخزائن لصناعة السروج اللازمة للدواب فى الحرب • ويذكر المقريزى (خطط • حـ ٢ • ص ٣) أن الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى لما فكر فى الرحيل الى المشرق ومهاجمة بغداد ، أعد فى هذه الخزائن سروجا مجوفة ومبطنة بصفائح من قصدير يوضع فيها الماء ليشرب منها الفارس • وكان كل سرج منها ، يسع سبعة أرطال ماء •

وقد أظهر الجند الفاطمى مهارة فى استخدام أسلحة الحرب التى شاع استعمالها اذ ذاك كالحراب والسيوف وآلات الحرب الضخمة كالمجانيق التى ترمى الأسوار بالحجارة • كما زود الجيش بفرقة من النفاطين الذين يقومون باعداد القوارير المملوءة بالنفط ورميها على قوات الأعداء لتحول دون تقدمها •

كان هناك دواوين لاعداد الجيش وتجهيزه وتنظيم النفقة عليه ، ويعمل فيها موظفون مدنيون وهى : ديوان الجيش وديوان الرواتب ، وديوان الاقطاع ، ويشرف ديوان الجيش على الجنود واعدادهم ، ويختص ديوان الرواتب بتسجيل عطاء الجنود وجميع موظفى

الدولة • وقد طرأ على العطاء عدة تغيرات فى عهد الدولة الفاطمية • فكان يبلغ عطاء الجندى عشرين دينارا فى كل شهر • أما ديوان الاقطـاع ، فكان مختصـا بما هو مقطع للأجناد ، ويتولى اثبات الاقطاعات والأموال التى يدفعها المقطعون لبيت المال • ولم تكن هذه الاقطاعات والأموال التى يدفعها المقطعون لبيت المال من الكثرة كما كانت فى عهد الأيوبيين والمماليك فى مصر •

أما فيما يتعلق بالقوات البحرية ، فقد اتخذ الفاطميون مراكز لانشاء السفن الحربية فى مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) وجزيرة الروضة التى عرفت فى العصر الفاطمى باسم (جزيرة مصر) ، والمقس التى أنشأ بها المعز لدين الله الفاطمى دارا لصـناعة السـفن ، والاسكندرية ودمياط •

تنوعت السفن الحربية التى يتكون منها الأسطول فى العصر الفاطمى ، فمنها الشوانى (جمع شينى أو شونى) التى تميزت بأبراج للدفاع والهجوم ، واحتوت على اهراء لخزن القمح وصهاريج لخزن الماء العذب • ومن سفن الأسـطول أيضا الحراريق (جمع حراقة) وهى من المراكب الحربية الكبيرة المخصصة لمهاجمة سفن العدو بالنفط الذى يرمى بالمجانيق أو السهام • كذلك كان من سفن الأسطول الطرائد (جمع طريدة) ، وتستخدم فى نقل الخيول ، والشلنديات وهى مراكب مسطحة يستعان بها فى حمل العتاد والجند، والحمالات وتستخدم فى حمل الذخيرة •

ويشرف على الأسطول عشرة قواد بحريين ، يختار من بينهم رئيس يعرف بأمير الأسطول • وتحمل كل سـفينة حربية عددا من المقاتلة عدا البحارة • وهناك أشخاص معروفون عند ديوان الجهاد يسمون « النقباء » ، يقومون بجمع المقاتلة من أنحاء البلاد اذا ما تأهب الأسطول للخروج • ولم يكن أحد يجبر على العمل فى السفن

الحربية • وكان الناس يقدرون أعمال البحارة فى الأسطول ويسمونهم : « المجاهدين فى سبيل الله والغزاة فى أعداء الله » •

وكان للأسطول ديوان ، يعرف بديوان الجهاد ، يقوم بالاشراف على بناء السفن وتجهيزها بالمعدات الحربية ودفع مرتبات الرجال العاملين منها • أما عن نفقات الأسطول ، فقد خصصت له الحكومة الفاطمية ميزانية ضخمة من مستغلات الاقطاعات المحبوسة • ولم يزل الأسطول محل عناية الفاطميين حتى زال حكمهم من مصر سنة ٥٦٧ هـ •

وكان من مظاهر اهتمام الفاطميين بقواتهم البرية والبحرية ، الاحتفال بتوديعها عند تأهبها للرحيل لمحاربة الأعداء ، فاذا ما خرج الجيش الفاطمى ، جلس الخليفة بمنظرة باب الفتوح وعلى الأخص حين تكون الحملة متجهة الى بلاد الشام • وفى هذه المنظرة كان يؤذن لقائد الحملة بالمثول بين يدى الخليفة ، فيخلع عليه خلعة مزركشة بالذهب ، ثم يأمر الجيش بالمسير •

أما فى حالة خروج الأسطول ، فيحضر الخليفة بصحبة الوزير والأعيان الى منظرة المقس ، حيث يكون مقدم الأسطول فى انتظاره ، وبعد أن يستعرض الخليفة المراكب الحربية ، يأذن للمقدم بالمثول بين يديه ، فيخلع عليه ، ثم يودعه ويبدأ الأسطول فى المسير • وعند عودة الأسطول مظفرا ، يقام احتفال كالذى أقيم عند رحيله ، فيحضر الخليفة بصحبة رجال الدولة ليشهد أسطوله الذى أحرز النصر •

٢ ـ الحالة الاقتصادية :

اهتم الفاطميون بالزراعة على اعتبار أنها من أهم مصادر الثروة فى مصر ، وكانت زراعة القمح تشغل الجزء الأكبر من الأراضى المصرية الخصبة التربة ـ وعلى الأخص أنحاء الدلتا

والوجه القبلى ـ لأنه الغذاء الرئيسى لأهل البلاد . أما الذرة فلم تكن معروفة فى مصر فى ذلك العهد .

وكان الكتان يزرع فى الأراضى المنخفضة التى تظل مغمورة بالمياه مدة طويلة ، لذلك انتشرت زراعته فى الدلتا والفيوم . أما قصب السكر . فقد توسع المصريون فى زراعته فى العصر الفاطمى . ونستدل على ذلك من قول ناصر خسرو الذى زار مصر سنة ٤٤٠ هـ « وتنتج مصر عسلا كثيرا ومسكرا » .

وكانت مصر تشتهر أيضا بانتاج أنواع مختلفة من الفواكه ، من أهمها : الكروم ، وتزرع فى نواحى مريوط والجيزة والفيوم وقليوب ، وبعض جهات الوجهين القبلى والبحرى . وكذلك كان شجر النخيل مغروسا فى مختلف أنحاء القطر . وقد ذكر الأدفوى (كتاب الطالع السعيد) أنه كان يغرس بالصعيد أشجار النخيل على شاطىء النيل من الجانبين الشرقى والغربى ، كما قال ان محصول اسنا من التمر ، بلغ فى احدى السنوات أربعين ألف أردب . وكانت أسوان أكثر نخيلا من غيرها من جهات الصعيد . وبلغ مجموع محصولها من التمر فى سنة واحدة ستة وثلاثين ألف أردب .

كذلك اهتمت الحكومة الفاطمية بغرس أشجار الغابات حتى يتسنى لها الحصول على الأخشاب اللازمة لبناء أسطولها الحربى ومراكبها التجارية . ومن أشهر مناطق الغابات فى العصر الفاطمى : البهنسا والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص .

وعلى الرغم من اهتمام الفاطميين بالرى والزراعة ، فلم يخل عهدهم من أحداث أثرت فى الانتاج الزراعى ، فكثيرا ما نقص فيضان النيل عن المستوى العادى اللازم لرى الأراضى كما حدث سنة ٤٥٧ هـ ، فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى حيث حل بالبلاد

المصرية الشدة العظمى التى استمرت سبع سنوات • وكان من مظاهرها اهمال الزراعة وارتفاع أسعار الحبوب والمواد الغذائية وانتشار الوباء • وقد اقترنت هذه الشدة بقيام الفتن والحروب الأهلية • فلما ولى بدر الجمالى الوزارة سنة ٤٦٦ هـ ، قضى على المفسدين • ووجه اهتمامه الى اصلاح حال البلاد ، فسادت الطمأنينة وعاد الفلاحون الى زراعة الأرض • وعنيت الحكومة الفاطمية بالترع والجسور ، فزاد خراج مصر فى أيامه الى أكثر من ثلاثة ملايين دينار •

بلغ من عناية الفاطميين بالزراعة أن أنشأوا ادارة خاصة تشرف على أمورها ، كما قاموا بمشروعات عظيمة الأهمية لتنظيم رى الأراضى ، نخص بالذكر منها الخليج الذى أشرف على حفره أبو النجا متولى ديوان جهات الدلتا الشرقية فى عهد وزارة الأفضل ابن بدر الجمالى • وكان هذا الخليج يخرج من النيل لرى الأراضى الواقعة فى شرق فرع دمياط •

وكان الفاطميون يعاملون الفلاحين معاملة تنطوى على التسامح والرعاية ، فلم يتركوا تقدير الخراج للمقطعين ، بل حددوا مقداره ، كما حرصوا منذ امتد نفوذهم الى مصر على عدم انتزاع الأراضى من أيدى أصحابها ، فقد جاء فى عهد الأمان الذى أعطاه جوهر للمصريين : « ولكم على أمان الله التام العام ، الدائم المتصل ، الشامل الكامل ، المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام ، فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورياعكم •• » أما الأراضى التى تمتلكها الدولة ، فأخذوا فى توزيع أجزاء منها على بعض أعوانهم والمختصين بهم • وكانت هذه الأراضى اذا نزلت عنها الحكومة صارت ملكا للمقطعين ، ولكن اذا منحت الأرض لبعض الأفراد مقابل دفع مبلغ معين من المال تصبح اقطاع استغلال • وهذا النوع من الاقطاع كان يعطى للأجناد فى العصر الفاطمى •

وقد أدخل تعديل كبير على الاقطاعات فى عهد وزارة الأفضل ابن بدر الجمالى ، ذلك أنه لماشكا صغار المقطعين من قلة دخل اقطاعاتهم على حين زاد المتحصل من اقطاعات الأمراء ، أمر الوزير الأفضل بن بدر الجمالى بحل جميع الاقطاعات واعادة توزيعها ، ولم يتعرض للأرض المملوكة ، بل أبقاها فى أيدى ملاكها • ومن قوله فى هذا الشأن : « ان كل من كان له ملك فهو باق عليه لا يدخل فى الاقطاع وهو محكم ان شاء باعه وان شاء أجره » • وكان أكثر المقطعين فى ذلك الوقت من الأجناد • وقد سمح لهم الأفضل بن بدر الجمالى بأن يشتغلوا اقطاعاتهم مدة ثلاثين سنة ، وفى ذلك باقية فى أيديهم الى مدة ثلاثين سنة لا يقبل عليها فيها زائد » •

وكان المقطع فى أواخر العصر الفاطمى يدفع ضريبة منتظمة عن كل فدان مقدارها ديناران وخمسة قراريط ، واذا انقضت مدة الاقطاع ، عليه أن يرد الأرض المقطعة كما تسلمها ، ولا ينقل شيئا من المنشآت التى اقيمت عليها •

(أ) الصـــــناعة :

استحدثت فى العصر الفاطمى أساليب جديدة فى الصناعة المصرية • وكان مما ساعد على تقدمها استقرار الأمور فى البلاد ، فضلا عن حياة الترف والبذخ التى سادت المجتمع فى بعض المدن المصرية وبخاصة القاهرة والفسطاط • وكان لهذه الحياة تأثير كبير فى الانتاج الصناعى ، فأصبح عمل المصانع ليس مقصورا على امداد الجيش والأسطول الفاطمى بالسلاح والعتاد الحربى والملابس لطوائف الجند ، بل تنوعت المنتجات لسد حاجة الخلفاء والوزراء ورجال الدولة وغيرهم •

وكان من الصناعات التى ازدهرت فى هذا العصر وتنوعت أصنافها : صناعة النسيج ، اذ بلغت من الرقى فى مصـــر بحيث أصبح من اليسير صنع بعض الأقمشة الصوفية ، فامتازت بلدة القيس بعمل المنسوجات الصوفية ، كما اشتهرت طحا – احدى قرى الصعيد – بصناعة الثياب الصوفية الرفيعة • ويذكر الرحالة ناصر خسرو ، أن منسوجات الصعيد الصوفية ، كانت تصدر الى بلاد الفرس حيث عرفت هناك باسم « المصرى » •

وكانت القاهرة فى عهد الفاطميين مركزا هاما لصـــناعة المنسوجات الحريرية • وقد أنشأ المعز لدين الله فيها دار الكسوة ، حيث كانت تفصل الثياب لموظفى الدولة على اختلاف درجاتهم • وكان يصنع بهذه الدار أيضا كسوة الكعبة والخلع التى يمنحها الخلفاء للوزراء والأفراد والأشراف وكبار رجال الدولة فى عيد الفطر حتى سمى هذا العيد بعيد الحلل • كذلك عمل الفاطميون على النهوض بصناعة النسيج ، فأنشأوا عدة مصانع لانتاج الأنواع الفاخرة •• وكانت دار الديباج منذ عهد الأفضل بدر الجمالى تنتج نوعا من الحرير يعرف بالحرير الديباج • كما أن خزانة البنود التى بناها الخليفة الظاهر الفاطمى كان بها ثلاثة آلاف صانع لصنع أفخر أنواع الثياب •

وكان لصناعة المنسوجات الكتانية شأن كبير فى مصر ، فى العصر الفاطمى • ومن المراكز الرئيسية لهذه الصناعة : الفيوم وتنيس ودمياط وشطا ودبيق • وينسب الى هذه المدينة الأخيرة أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى بالدبيقى •

كذلك تقدمت صناعة الزجاج والخزف فى العصر الفاطمى • وكانت الفسطاط من أكبر مراكز صناعة الزجاج • ومن البلاد التى اشتهرت بهذه الصناعة أيضا الفيوم والأشمونين والاسكندرية • أما

الخزف فقد أشار ناصر خسرو الى أن المصريين كانوا يصنعون أنواعا مختلفة منه وبلغ من انتشار استعماله فى مصر أن البقالين وغيرهم من التجار كانوا يضعون ما يبيعونه فى أوان من الخزف بدلا من الورق ٠

التجـــــارة :

ازداد النشاط التجارى فى الفسطاط والقاهرة حيث يقيم الأعيان وأصحاب الاقطاعات ، ويكثر توافد الناس ٠ وكانت الفسطاط من أهم مراكز مصر التجارية لموقعها على النيل وتوسطها بين الوجهين القبلى والبحرى واتصالها بكافة البلاد المصرية عن طريق النيل ، وفضلا عن ذلك ، فانه كان يخرج منها طرق برية تسير فيها القوافل متجهة نحو الحجاز وبلاد الشام والمغرب ٠

ولم يؤثر انشاء القاهرة على مركز الفسطاط التجارى ، لأن المدينة الجديدة ظلت أشبه بمعسكر يقيم فيه الجنود والموظفون ، كما أن موقعها بالنسبة للنيل كان دون موقع الفسطاط ، مما جعل الأسعار فى الفسطاط أقل منها فى حاضرة الخلافة الفاطمية ٠

وكانت الفسطاط تتمتع برخاء عظيم فى العصر الفاطمى فكثرت بها المتاجر والأسواق ، كما كان يأتى اليها كثير من المراكب ٠ ويقول ناصر خسرو فى وصفه لها ، انه كانت بها الأسواق التى تباع فيها جميع أنواع السلع كسوق القناديل الزاخر بالتحف النادرة ، وبها الخانات ومالا يقل عن عشرين ألف دكان يتراوح ايجار الواحد منها بين دينارين وعشرة دنانير مغربية ٠

ومن مراكز التجارة الداخلية ، مدينة دمياط التى تميزت عن غيرها من المدن بازدهار التجارة والصناعة فيها ، وأصبحت الميناء

المصرى الوحيد فى الجزء الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ٠٠ كذلك كانت مدينة قوص من مراكز التجارة الداخلية ، فكثرت بها الأسواق الكبيرة لوقوعها عند نهاية طريق القوافل بين البحر الأحمر والنيل ٠ وكان لأسوان أيضا شأن كبير فى التجارة الداخلية بسبب ورود تجارة النوبة والسودان اليها ٠

أما عن التجارة الخارجية ، فقد اتسع نطاقها مع البلاد الآسيوية والأوربية ، فكانت مصر تستورد الكثير من غلات الهند والصين ، كما أن حاجتها من المواد الخام كالخشب والحديد ، حملها على استيرادها من بعض الدول الأوربية ٠ وصارت الاسكندرية من المراكز الرئيسية للتجارة ، فتنقل منها البضائع الآسيوية اللازمة للصناعة المصرية ٠ ولم تكتف مصر بأن تكون طريقا لمرور الغلات الآسيوية ٠ بل كان لديها ما تصدره الى البلاد الأوربية كالنطرون والشب والمنسوجات على اختلاف أنواعها ٠

وقد ارتبطت مصر بعلاقات تجارية مع المدن الايطالية وبخاصة جنوة والبندقية ، فأخذت سفن البندقية تنقل الخشب والحديد الى الموانى المصرية ، كما أقدم تجار جنوة على التعامل مع القاطميين فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر ، وصارت سفنهم تبحر الى الموانى المصرية ٠ وقد استجاب الخلفاء الفاطميون لرغبة هؤلاء التجار فى الحصول على أمان لهم ولسفنهم تشجيعا لهم على الاتجار مع بلادهم ٠

وعلى الرغم من المنازعات السياسية بين مصر والدولة البيزنطية ، فان العلاقات التجارية بينهما لم تنقطع ، فكان البيزنطيون يستوردون المنسوجات المصرية من مصانع تنيس ودمياط ٠ كما أن مصر كانت تستورد بعض منتجات الدولة البيزنطية وبخاصة الغلال ٠

أذنت الحكومة الفاطمية فى مصر للتجار الايطاليين وغيرهم من الأوربيين ، بانشاء الفنادق الخاصة بهم · وكان لكل جالية أجنبية بالاسكندرية فندق وهو عبارة عن بناء يقيم فيه التجار الأوربيون ويحفظون فيه بضائعهم اما فى داخل المدينة أو فى خارجها · وكانوا عادة يختارون أحد أفراد الجالية للاشراف على تنظيم الاقامة فى الفندق ·

كذلك أقيمت فى مصر فى ذلك العصر الوكالات ، وهى كالفنادق وينزل بها التجار القادمون من بلاد الشرق الاسلامى ، فيذكر ابن ميسر فى كتابه تاريخ مصر ، أن الوزير المأمون البطائحى ، أمر سنة ٥١٦ هـ ببناء وكالة بالقاهرة لمن يصل من العراق والشام من التجار ·

وكان هناك بجانب هذه المنشآت التى أعدت للتجار أبنية اخرى أطلق عليها اسم القياسر · وكانت القيسارية مجموعة من المبانى العامة ، وبها حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن · وكان فى بعض القياسر مساجد لتجار المسلمين ويعلوها رباع ، يقيم فيها الصناع والتجار بأجر · وقد انشىء بمصر فى العصر الفاطمى عدد غير قليل من هذه القياسر ·

* * *

اما عن نظم المعاملات التجارية . فقد شاع فى مصر استعمال الدنانير الذهبية واستمر الدينار فى مصر قاعدة التعامل حتى بعد الفتح الفاطمى ، غير أن جوهر القائد ، بادر الى سك دنانير جديدة ، أطلق عليها المعزية ، وأبقى التعامل بالدينار الراضى (نسبة الى الخليفة العباسى الراضى) ·

ولما عهد المعز لدين الله الفاطمى ، فى أوائل سنة ٣٦٣ هـ الى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بالاشراف على الخراج ، صار

ابن كلس يجبى خراج الدولة بالدينار المعزى ، فانحطت بذلك قيمة الدينار الراضى · ومن ذلك يتضح لنا كيف حملت الحكومة الفاطمية أهالى البلاد المصرية على التعامل بنقودها ·

ولم تكتف الحكومة الفاطمية بأن يكون الدينار المعزى وحدة للتعامل ، فأصدرت دراهم جديدة فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، وقررت أن يكون كل ثمانية عشر درهما بدينار أو من المرجح أن ضرب الدراهم الفضية فى ذلك العهد ، انما أريد به تيسير التعامل فى السلع القليلة الثمن · وهكذا أصبحت مصر تتعامل بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية ·

* * *

٣ ـ مظاهر الحياة الاجتماعية :

اتخذت الحياة الاجتماعية بمصر فى العصر الفاطمى مظاهر خاصة ، كما تقلبت بين ألوان من البذخ والترف ، قل أن نجدها فى عصر آخر من عصور مصر الاسلامية · وقد تجلى بذخ الخلفاء فيما أورده المقريزى (خطط · ج ١ ص ٤١٦ ـ ٤٢٥) عن خزائن الفرش والأمتعة والجوهر والخيم والشراب ، كما نستدل أيضا على ترفهم من القصور التى بنوها ليتخذوها مساكن لهم ولأفراد أسرتهم . ومن أشهرها القصر الشرقى الكبير · وقد أسس الخليفة العزيز بالله الفاطمى بهذا القصر قاعة الذهب التى يجتمع فيها مجلس الملك · وكانت مؤثثة بأفخم الأثاث ومزينة بالستور والطنافس الحريرية ·

وليس أدل على مظاهر العظمة وأبهة الحياة الاجتماعية عند الخلفاء فى آخر العصر الفاطمى من هذا الوصف الذى كتبه غليوم رئيس أساقفة صور عن زيارة رسولى أملريك ملك بيت المقدس للقصر الفاطمى فى عهد الخليفة العاضد ، ومما جاء فيه : « ··· وسار

السفراء يقودهم الوزير شاور بنفسه الى قصر له رونق وبهجة ، وفيه زخارف أنيقة . وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم ... ، فوجدوا فى هذا القصر حراسا عديدين ، وسار الحراس فى طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة ، وقادوا السفراء فى ممرات طويلة .. ثم وصل الموكب الى فناء مكشوف ، تحيط به أروقة ذات أعمدة وأرضية مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان . وكان وسط الفناء نافورة ، يجرى الماء الصافى منها فى أنابيب من الذهب والفضة الى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام .. وفى هذا المكان حل محل الحراس المرافقين للسفراء ، بعض العظماء من الأمراء المقربين الى الخليفة .. وبعد أن عبر السفيران أبوابا عديدة ، وصلا الى القصر الكبير حيث يقيم الخليفة . وقد فاق هذا القصر كل مارأوه قبل ذلك .. وأدخل المبعوثان فى قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان . ولم يكن فى هذه القاعة أحد .. ثم ارتفعت الحبال فجأة وانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق .. وظهر (السلطان العاضد) لأعين السفراء .. وكان على وجهه نقاب يخفيه تماما ، وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة .

وكان الوزراء الفاطميون يعيشون أيضا عيشة الترف ، فأقام يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمى فى قصره مطابخ خاصة له ولأضيافه وأخرى لغلمانه وحاشيته وأتباعه .

كذلك كان الوزير الأفضل بن بدر الجمالى مترفا فى حياته ، فاتخذ مسكنه فى دار الملك التى بناها سنة ٥٠١ هـ ، وجعل فيها محالا لاقامة الأسمطة فى الأعياد ، واتخذ فى أحد ابهائها مجلسا ، يجلس فيه للعطاء . وقد وجد بهذه الدار بعد وفاته مالا يحصى من الأدوات والثياب والبسط والستور المصنوعة من خيوط السجاد .

* * *

اهتم الخلفاء الفاطميون فى مصر بالاحتفال بالأعياد الدينية فى شيء كثير من الأبهة والعظمة ، فمنها عيد الفطر وعيد الأضحى ورأس السنة الهجرية ، ومولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ومولد ولديه الحسن والحسين ومولد السيدة فاطمة الزهراء ، ويوم عاشوراء هذا الى مواسم أخرى وهى ليلة أول رجب وليلة نصفه وليلة أول شعبان وليلة نصفه ٠

وكان ينظم فى ليلة عيد الفطر بالايوان الكبير الذى يواجه مجلس الخليفة سماط ضخم ، تنثر عليه صنوف الفطائر والحلوى الشهية ، فاذا ما انتهى الخليفة من أداء صلاة الفجر ، عاد الى مجلسه ، وفتحت أبواب القصر والايوان على مصاريعها وهرع الناس من جميع الطبقات الى السماط الخليفى ، وتناولوا ما عليه من الطعام بمشهد من الخليفة ووزرائه ٠ وحينما تبزغ الشمس يخرج الخليفة فى موكبه الى الصلاة ٠

أما عيد الأضحى ، فيحتفل فى أول يوم منه بركوب الخليفة الى الصلاة على النحو الذى اتبع فى عيد الفطر ، غير انه يمتاز بخروج الخليفة الى المنحر ثلاث مرات متواليات فى أيامه الثلاثة الأولى واشتراكه فى اجراءات النحر ٠ وكان الخليفة اذا انقضى اليوم الثالث خلع على وزيره ثوبه الأحمر الذى كان يرتديه يوم العيد ٠

وكانت تقدم الحلل الى الوزراء وبعض الأمراء والأشـــراف وغيرهم فى عيد الفطر ، كما كان هناك مناسبات أخرى ، يجود فيها الخلفاء على كبار رجال الدولة بالخلع ، كيوم أول رمضان والاحتفال بالجمع الثلاث الأخيرة منه ، ووفاء النيل ٠

كذلك حرص الخلفاء الفاطميون على الاحتفال بليلة مولد النبى صـــلى الله عليه وســـلم ، احتفالا باهرا ، يليق بمكانته فى نفوس المسلمين ، بعد أن كان ذلك بدعة فى نظر المتمســـكين بالعادات

الاسلامية · لكن أهل الصلاح والورع من المسلمين رغبة منهم في تكريم النبى ، رأوا منذ بداية القرن الرابع الهجـــرى أن يحتفلوا بمولده · ومن المظاهر الدينية المألوفة فى هذا العيد قراءة السيرة النبوية فى المساجد ·

* * *

كذلك كثر الاهتمام بالغناء والموسيقى فى العصـــر الفاطمى بمصر ، فأقبل وجوه القوم فى مجالسهم الخاصة ومآدبهم على سماع المغنيين والمغنيات · وكان معظم المغنيات من الجوارى · وكانت مجالس الطرب والغناء واللهو تقام على شواطىء الخليج بالقاهرة، فى أوائل عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى ، فلما تجلى الانحـــلال الاجتماعى من جراء هذه المجالس ، أصدر الحاكم قوانين ، يمنع بعضها سماع الموسيقى ويحرم البعض الآخر الغناء والملاهى التى تعد خطرا على الأخلاق العامة ·

على أن هذه المجالس مالبثت أن عادت الى الظهور بعد وفاة الحاكم ، فقد أولع بعض من جاء بعده من الخلفاء بالغناء والموسيقى، فكان الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، يميل الى سماع المغنيات · وقد ذكر بعض المؤرخين ، أنه كان من مظاهر الاحتفال باستيلاء البساسيرى على بغداد واقامة الخطبة باسم المستنصر على منابرها أن وقفت احدى المغنيات تحت قصر الخليفة ، تنشد بعض الأبيات ، فأعجب المستنصر بغنائها وأجزل لها العطاء ·

وكانت المجالس الاجتماعية ، تعقد فى قصور الخلفاء والوزير والأعيان حيث يجتمع العلماء والأدباء للمناظرة والمناقشة ، كما كانت المجالس الخاصة ، تعقد فى داخل المنازل لسماع النوادر والأحاديث التى تجلى فيها اللباقة العقلية ·

٤ ـ الحيـــاة الثقـــافية :

اهتم الفاطميون منذ استقر سلطانهم فى مصر بالعمل على نشر الثقافة العلمية والأدبية ، فضلا عن الثقافة المذهبية التى تتصـــل بالدعوة الاسماعيلية كالفقه والتفسير · وكان للجامع الأزهر أثر كبير فى النهوض بالحياة الثقافية فى مصر · وقد ظهرت فكرة الدراسة به فى أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمى حين قام قاضى القضاة أبو الحسن على بن النعمان المغربى بشرح كتاب « الاقتصار » الذى وضعه أبوه ، ويشتمل على مسائل فقهية ، استمدها من أئمة أهل البيت ، ثم توالت حلقات بنى النعمان فى الأزهر بعد ذلك ·

وفى أوائل عهد العزيز بالله ، جلس الوزير يعقوب بن كلس بالجامع الأزهر ، وقرأ على الناس رسالة ألفها فى الفقه الشيعى على المذهب الاسماعيلى . تسمى الرسالة الوزيرية ، تضمنت ماسمعه فى ذلك من المعز لدين الله وولده العزيز · وكان يفد الى ســـماعه الفقهاء والقضاة وأكابر رجال الدولة · وصار ابن كلس يعقد مجالسه العلمية تارة بالجامع الأزهر وطورا بداره ، يقرأ فيها مصنفاته على الناس ·

على أن الجامع الأزهر مالبث أن فاقت شهرته جميع المساجد الجامعة فى مصر ، منذ أن أشار الوزير يعقوب بن كلس سنة ٣٧٨ هـ على الخليفة العزيز بتحويله الى جامعة يتلقى فيها الطلاب العلوم النقلية والعقلية وظل الأزهر مركز الفقه الفاطمى الى أن بنى جامع الحاكم بأمر الله ، فانتقل اليه الفقهاء لالقاء دروسهم ·

كذلك اتخذ الفاطميون من قصورهم مراكز لنشـــر الثقافة ، فألحقوا بها مكتبات وزودوها بأندر المؤلفـــات فى مختلف العلوم والفنون حتى تميزت مكتبة القصر التى أنشئت بالقصر الشـــرقى

الكبير على غيرها ، من مكتبات العالم الاسلامى بما فى خزائنها من كتب قيمة ٠

وكان بمكتبة القصر اربعون خزانة كتب فى سائر العلوم ، وتحتوى كل خزانة على عدة رفوف ، والرفوف مقطعة بحواجز ، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائة ألف مجلد فى الفقه على سائر المذاهب ، والنحو واللغة والحديث والتاريخ وسير الملوك والفلك والكيمياء ٠

ومن المراكز الثقافية بمصر دار الحكمة التى أسسها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ ، وأطلق عليها هذه التسمية رمزا الى الدعوة الشيعية ، لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة ٠ وقد زود الحاكم هذه الدار بمكتبة عرفت باسم دار العلم ٠ وسمح لسائر الناس على طبقاتهم بالتردد عليها ٠

اختلفت مناهج التعليم فى دار الحكمة عن مناهج التعليم فى المساجد الفاطمية المعاصرة ، اذ كانت تغلب عليها الصبغة العلمية بينما كانت تغلب على مناهج المساجد الصبغة الدينية ٠ وكان بين أساتذة دار الحكمة كثير من أساتذة الحساب والمنطق والطب والنجامة ، من أمثال ابن يونس المنجم ، وأبو على الحسن بن الهيثم، وعلى بن رضوان ٠

وقد استطاعت دار الحكمة بفضل هؤلاء الأساتذة ، وما كان لها من مناهج منوعة جمعت بين الدراسات العلمية والفقهية أن تجتذب كثيرا من أعلام المشرق ، من أمثال الرحالة الفارسى ناصر خسرو ، والداعى الحسن بن الصباح اللذين وفدا الى مصر فى عهد المستنصر بالله الفاطمى ٠

ظلت دار العلم مفتوحة ، ينتفع الجمهور بما فيها من الكتب الى سنة ٥١٦ هـ ، حيث أمر الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى

باغلاقها بسبب ما وصل اليه من أن رجلين يعتنقان عقائد الطائفة المعروفة بالبديعية التى يدين أشياعها بمذاهب السنة الثلاثة وهى الشافعى والحنفى والمالكى يترددان على دار العلم ، وأن كثيرين من الناس أصغوا اليهما واعتنقوا هذا المذهب • على أن فترة اغلاق دار العلم لم يطل أمدها . فقد أعادها الخليفة الآمر الى ما كانت عليه بعد وفاة الأفضل •

فقدت مكتبة العصر الفاطمى عددا غير قليل من الكتب القيمة التى كانت بها فى غضون الشدة العظمى التى حلت بمصر فى عهد المستنصر بالله ، فاستولى الجند والأمراء على الكثير مما فى خزانة الكتب • وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد بقى فى خزائن القصر بعض كتب لم تصل اليها يد العبث ، واستطاع الفاطميون فيما بعد تعويض بعض ما فقدوه ، فجلبوا الى مكتبة القصر كثيرا من الكتب الجديدة ، حتى أصبح فى قصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مكتبة كبيرة •

* * *

ازدهرت الحركة العلمية والأدبية فى العصر الفاطمى بمصر ، بفضل تعضيد الخلفاء الفاطميين وبعض وزرائهم لها • وكان للبيئة العلمية التى شب فيها المعز أثرها فى تنمية مداركه وسعة اطلاعه وتضلعه فى العلوم الدينية حتى انه كان يحاضر العلماء من النحاة والفقهاء وغيرهم • وقد فتح أبواب قصره للعلماء والطلاب ، وأباح لهم جميعا الاطلاع على الكتب المختلفة بمكتبة القصر ، وحذا الخلفاء من بعده حذوه ، فصاروا يعقدون المجالس العلمية والأدبيـــة فى قصـــورهم ويدعون اليها الفقهاء والعلماء والأدباء ، فيتناظرون بحضـــرتهم • ولم تكن هذه المجالس تقل فى قيمتها التعليمية عن الدروس التى تلقى بالجامع الأزهر أو بدار الحكمة •

وقد أدى مجيء الفاطميين الى مصر بمذهب شيعى له اسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة فى مصر الى ظهور فريقين من العلماء ، يعمل أولهما على تأييدهم ، ويفند الفريق الآخر آراءهم، واستتبع ذلك نشاط علماء الدعوة الفاطمية فى تأليف الكتب ٠ وكان لأبى حنيفة النعمان المغربى وأبنائه وهم جميعا من كبار رجال القضاء والأدب الفضل الأكبر فى نشر الثقافة المذهبية التى تتصل بالدعوة الاسماعيلية ٠

عاصر أبو حنيفة الفاطميين بالمغرب ٠ وكان مالكى المذهب كسائر أفراد أسرته ، ثم تحول الى المذهب الاسماعيلى وقدم الى مصر هو، وأبناؤه فى ركب المعز ٠ ويعد النعمـــان من أهم دعـــائم الدعوة الاسماعيلية وله فى الفقه الاسماعيلى عدة مؤلفات منها : « دعائم الاسلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام » ٠ وقد استغل النعمان ميوله المذهبية في تأليف هذا الكتاب حتى اننا نراه يضيف الى قواعد الاسلام الخمس الولاية وهى حب أهل البيت ، والطهارة ٠

كان دعاة الاسماعيلية يرجعون الى كتاب دعائم الاسلام فى أحكامهم ، ومنهج الوزير يعقوب بن كلس فى كتابه « مصنف الوزير » منهج كتاب الدعائم ، وأشاد بذكر هذا الكتاب حميد الدين الكرمانى ، داعى الحاكم بأمر الله فى فارس ، فى كتابه « راحة العقل » ، حتى جعله فى المرتبة التى تلى القرآن والحديث ٠

وعلى الرغم من تعصب الفاطميين للمذهب الاسماعيلى وتشجيعهم فقهاءه ، فقد ظهر فى عهدهم بعض الفقهاء الشـــــافعية والمالكية والحنفية ، نخص بالذكر منهم أبا بكر محمد النعالى المالكى المتوفى سنة ٣٨٠ هـ ٠ وكانت حلقته بجامع عمرو بن العاص ، تدور على سبعة عشر عمودا ، لكثرة من يحضرها ٠ وكان فقهاء المذهب السنى

فى مصر يستنكرون تعاليم الفاطميين ولكنهم لا يستطيعون الجهر بذلك ·

كان لتشجيع الفاطميين للعلماء والكتاب ، أثر فى ظهور طائفة كبيرة منهم فى مصر ، ونشاط الحركة الفكرية تبعا لذلك ، فاشتهر من المؤرخين فى العصر الفاطمى : أبو الحسن على الشابشتى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ · وقد اتصل بخدمة الخليفة العزيز ، فولاه خزانة كتبه واتخذه من جلسائه وندمائه وله كتاب الديارات ، أورد فيه أخبار طريفة عن أديرة العراق والجزيرة والشام ومصر ، وما قيل فى كل منها من الأشعار · كما نبغ من المؤرخين فى هذا العصر : الأمير المختار عز الملك · المعروف بالمسبحى الذى ولد بمصر ٣٦٦ هـ وتوفى سنة ٤٢٠ هـ · وكان من جلساء الخليفة الحاكم بأمر الله وخاصته · وقد تولى فى عهده بعض المناصب الهامة ، وشغف بكتابة التاريخ ، وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى « تاريخ مصر » ، ولا يوجد منه الا الجزء الأربعون بمكتبة الاسكوريال باسبانيا · وقد نقل عن هذا الكتاب كل من المقريزى وأبى المحاسن ·

ومن أعلام المؤرخين : أبو عبد الله القضاعى ، الذى ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وتوفى بها سنة ٤٥٤ هـ · وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعى · وقد ولى القضاء وغيره من مهام الدولة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، وأوفده هذا الخليفة سفيرا الى تيودورا امبراطورة الدولة البيزنطية سنة ٤٤٧ هـ ، ليحاول عقد صلح بينها وبين مصر ، وله عدة مصنفات فى الفقه والتاريخ ، منها :

« مناقب الامام الشافعى وأخباره » ، وكتاب فى خطط مصر ، سماه : « المختار فى ذكر الخطط والآثار » ، يتضمن تاريخ مصر

والقاهرة حتى عصره . وكان هذا الكتاب عونا للمقريزى على كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» .

ومن الكتاب والمؤرخين الذين ظهروا فى أواخر العصر الفاطمى : أبو القاسم على بن منجب الصيرفى . وقد اشتهر ذكره وعلا شأنه فى البلاغة والشعر ، كما برع فى الخط ، وتدرج فى بعض الوظائف ، حتى ولى ديوان الانشاء للخليفة ألآمر بأحكام الله ، وظل فيه الى سنة ٤٣٦ هـ . ومن تصانيفه كتاب « قانون ديوان الرسائل » ، والاشارة الى من نال الوزارة الذى ألفه للمأمون البطائحى وزير الآمر ، وتتبع فيه وزراء الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز حتى أيامه . وتوفى ابن الصيرفى فى عهد الخليفة الحافظ .

كذلك نبغ فى العصر الفاطمى بعض العلماء من أمثال : أبى على محمد بن الحسن بن الهيثم . وأصله من البصرة ، ثم قدم الى مصر بدعوة من الخليفة الحاكم بأمر الله لما بلغه أن له نظرية هامة فى توزيع مياه النيل . وكان ابن الهيثم مصدر حركة فلسفية كبيرة ، وخاصة فى الطبيعيات والرياضيات . وقد ألف نحو مائتى كتاب من الرياضة والطبيعة والفلسفة . ولم يزل مكبا على التأليف حتى توفى سنة ٤٣٠ هـ .

واشتهر من الأطباء والفلاسفة : أبو الحسن على بن رضوان وهو مصرى المولد من الجيزة . وقد نشأ فقيرا معدما ، وأصبح بفضل جده واجتهاده رئيس الأطباء فى البلاط الفاطمى . وتدل الكتب التى ألفها فى الطب على سعة فكره واطلاعه ، كما أن له كتبا فى الفلسفة

والمنطق ، وغيرهما من علوم الحكمة ٠ وكان على بن رضوان مجددا فى صناعته ، فلم يعمد فى مؤلفاته الى نقل وشرح كتب من كان قبله من الأطباء ، بل كانت له ناحية خصبة من التفكير والابتكار ، وظل طيلة حياته فى كفاح وعمل متصل الى أن توفى حوالى سنة ٤٦٠ هـ فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى ٠

وصفوة القول ، أن الحركة العلمية فى العصر الفاطمى ، سارت بخطى واسعة نحو التقدم والارتقاء ، وتميزت بنشاطها ، فكان بمصر طائفة من علماء الدعوة الفاطمية والمؤرخين والفلاسفة والأدباء ، أسهموا فى النهضة الثقافية التى تجلت فى ذلك العصر ٠

المصـــــادر

١ ـ ابن الأثير : (ت ٦٣٠ هـ ، ١٢٣٨ م) على ابن أحمد بن أبى الكرم (الكامل فى التاريخ) ٠ (١٢ جزءا ـ القـــاهرة ١٣٠٣ هـ) ٠

٢ ـ أحمد أمين :

ظهور الاسلام ٠ (الجزء الأول ـ القاهرة ١٩٤٥ م) ٠

٣ ـ الادفوى : (ت ٧٤٨ هـ) كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب بن جعفر بن على الأدفوى الشافعى ٠ الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد ٠

٤ ـ ابن أبى أصيبعة (ت ٦٦٧ هـ ، ١٢٧٠ م) أبو العباس أحمد ابن القاسم بن خليفة موفق الدين ٠

كتاب عيون الأنباء فى أخبار الأطباء (جزءان ـ القاهرة ١٢٩٩ ـ ١٣٠٠ هـ) ٠

٥ ـ حسن أبراهيم حسن :

(أ) الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص (١٩٣٢ م) تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٥٩ م) ٠

٦ ـ (ب) تاريخ الاسلام السياسى (الجزء الثالث ـ القاهرة ـ ١٩٤٩م) ٠

٧ ـ (حـ) المعز لدين الله امام الشيعة الاسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى مصر (القاهرة ١٩٤٨ م) ٠

٨ ـ حسن حبشى :

(أ) الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٤٧ م) ٠

٩ ـ (ب)نور الدين والصليبيون (القاهرة ١٩٤٨ م) ٠

١٠ ـ ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ ، ١٤٠٥ ـ ١٤٠٦ م) عبد الرحمن ابن محمد « العبر وديوان المبتدأ والخبر » (٧ أجزاء ـ بولاق ١٢٧٤ هـ) ٠

١١ ـ ابن خلكان : (ت ٦٨١ هـ ، ١٢٧١ م) شمس الدين أبوالعباس أحمد بن ابراهيم بن أبى بكر الشافعى ٠
وفيات الأعيان ٠ (جزءان ـ بولاق ١٢٨٣ هـ) ٠

١٢ ـ راشد البراوى :
حالة مصـــر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ٠ (القاهرة ١٩٤٨ م) ٠

١٣ ـ زكى محمد حسن :
كنوز الفاطميين (القاهرة ١٩٣٧ م) ٠

١٤ ـ أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ ، ١٢٦٧ ـ ١٢٦٨ م) عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان شهاب الدين الملقب بأبى شامة كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ٠

١٥ ـ ابن شداد : (ت ٦٣٢ هـ ، ١٢٣٤ م) القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ٠
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ٠

١٦ ـ عبد المنعم ماجد :
نظم الفاطميين ورسـومهم فى مصر ٠ جزءان (القاهرة ١٩٥٣ م) ٠

١٧ ـ فييت : جاستون فييت — Wiet G.

(أ) Histoire de La Nation Egyptienne 7· Vol. Paéis 1931 — 1940.

Vol IV, 1939 : L'Egypte Arabe (ed. by Hanotau)

١٨ ـ (ب) Précis de L'Histoire d'Egypte 4 Vols. (Le Caire — Rome, (1932 — 1935).

T.H. (L'Egypte Musulmane)

١٩ ـ ابن القفطى : (ت ٦٤٦ هـ ، ١٢٤٨ م) جمال الدين على بن يوسف ابن ابراهيم بن عبد الوهاب ٠

اخبار العلماء بأخبار الحكماء ٠ (القاهرة ـ ١٣٢٦ هـ) ٠

٢٠ ـ ابن القلانس : (ت ٥٥٥ هـ ، ١١٦٠ م) أبو يعلى حمـزة
ذيل تاريخ دمشق (بيروت سنة ١٩٠٨ م) ٠

٢١ ـ لينبول : ستانلى ٠ — Lane-Poole : Stanley

(أ) A History of Egypt in the Middle Ages. (London, 1901).

٢٢ ـ (ب) Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem· (London, 1893).

٢٣ ـ أبو المحاسن : (ت ٨٧٤ هـ ، ١٤٦٩ م) جمال الدين يوسف ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، (نشر دار الكتب المصرية)

٢٤ ـ محمد جمال الدين سرور :

(أ) النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ١٩٦٤ م .

٢٥ ـ (ب) النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ١٩٦٤ م .

٢٦ ـ (حـ) الدولة الفاطمية فى مصر (سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة فى عهدها) ١٩٧٩ م .

٢٧ ـ (د) تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشـــرق ـ (القاهرة ١٩٧٣ م) .

٢٨ ـ المقريزى : (ت ٨٤٥ هـ ، ١٤٤١ م) تقى الدين أحمد بن على (أ) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . جزءان ـ بولاق ١٢٧٠ هـ .

٢٩ ـ (ب) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا . ٣ أجزاء .

الجزء الأول نشر : د . جمال الدين الشيال ١٣٨٧ هـ ، ١٩٦٧م
الجزء الثانى : نشر د . محمد حلمى أحمد ١٣٩٠ هـ ، ١٩٧١م
الجزء الثالث نشر : د . محمد حلمى أحمد ١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٣م

٣٠ ـ ابن منجب الصيرفى (ت ٥٤٢ هـ ، ١١٤٧ م . أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم على .

الاشارة الى من نال الوزارة .

٣١ ـ ابن ميسر : (ت ٦٧٧ هـ ، ١٢٧٨ م) محمد بن على بن يوسف ابن جلب ـ تاريخ مصر . طبعة هنرى ماسيه Henri Massé

٣٢ ـ ياقوت : (٦٢٦ هـ ، ١٢٣٩ م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى · معجم البلدان ـ ١٠ أجزاء (القاهرة ١٩٠٦ م) ·

٣٣ ـ السجلات المستنصرية

سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين ، الى دعاة اليمن وغيرهم (نشر وتحقيق عبد المنعم ماجد · سنة ١٩٥٤ م ·

٣٤ ـ مجموعة الوثائق الفاطمية ·

(جمعها وحققها جمال الدين الشيال · (القاهرة ١٩٥٨ م)



الباب الثالث

مصر فى عصر الأيوبيين والمماليك

دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بكلية الآداب بجامعة القاهرة



أولا : مصر في عصر الأيوبيين والمماليك

تمهيـــــد :

يستطيع المدقق فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى الاسلامية الممتد فى الفترة الزمنية الواقعة بين الفتح العربى الاسلامى لمصر سنة ٢١ هـ (٦٤١ م) والغزو العثمانى لها سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) أن يقسم هذا التاريخ الى ثلاث حلقات . لكل حلقة منها طابعها المميز ، مع وجود صلات قوية تربط بينها جميعا ، وفقا لمبدأ استمرارية التاريخ ٠

أما هذه الحلقـــات فأولاهـــا عصــــر الولاة والطولونيين والاخشيديين ٠ ويتميز هذا العصر بانتشار الاسلام بين أهالى مصر انتشارا تدريجيا هادئا من جهة ، وبتعريب مصر من جهة ثانية ، فضلا عن تبعية مصر فى صورة أو أخرى للخلافة الاسلامية فى المدينة المنورة أو فى دمشق أو فى بغداد من جهة ثالثة ٠ واذا كان عصر الولاة قد انتهى باستقلال بعضهم عن الخلافة ، مما أدى الى تعاقب دولتين مستقلتين فى حكم مصر ، هما دولتا الطولونيين ثم

الاخشيديين ــ فان هاتين الدولتين ربطتهما فى صورة أو أخرى علاقات وروابط بالخلافة العباسية · كل ما فى الأمر هو أن هذه العلاقات والروابط ربما ظهرت على السطح حينا ، أو اختفت وتحولت الى قطيعة وعداء أحيانا ، ولكن الباحث المدقق يشعر دائما بأن هناك خيوطا ظلت تربط مصر بالخلافة العباسية فى زمن هاتين الدولتين ، كالدعاء للخليفة فى خطبة الجمعة ، وضرب السكة باسمه، وارسال مبالغ من المال سنويا الى حاضرة الخلافة · هذا الى أن مؤسسى الدولتين الطولونية والاخشيدية ــ وهما أحمد بن طولون ومحمد بن طغج الاخشيد ــ وليا حكم مصر بوصفهما واليين عينهما الخليفة العباسى لينوبا عنه فى حكم البلاد · واذا كان كل منهما قد استقل عن سيده ليكون بيتا حاكما قصير العمر ، فان صفة التبعية ــ ولو اسميا ــ ظلت تربط أصول كل بيت بالخلافة العباسية فى بغداد ، فضـــــلا عن أن هذا الاســـــتقلال لم يكن تاما فى غالب الأحيان(١) ·

أما الحلقة الثانية فى تاريخ مصر فى العصور الوســـطى الاسلامية ، فتتمثل فى الدولة الفاطمية ، وفيها يشعر المؤرخ بأن مصر غدت لأول مرة منذ الفتح العربى مستقلة تماما عن أية سلطة خارجية وأنها صارت مقرا لخلافة جديدة غريبة قائمة بذاتها ، لها طابعها الخاص المميز ،تدين بالمذهب الشيعى ، وتتخذ من مصر بموقعها وثروتها قاعدة لنشر هذا المذهب شرقا وغربا · ومن أجل تنفيذ هذه السياسة أضفى الفاطميون على الحياة الاجتماعية فى البلاد ثوبا

---

(١) انظر : ابن الداية : سيرة ابن طولون ، ص ٢١ ــ ٢٤ ، ٦٨ ــ ٦٩ (برلين ١٨٩٤م) البلوى :سيرة ابن طولون ، ص ٣٠٤ ــ ٣٠٥ (دمشق ١٣٥٨ هـ) ، الكندى . كتاب الولاة والقضاة ، ص ٢٤٨ وما بعدها (بيروت ، ١٩٠٨) · ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٣ ص ٦ وما بعدها ، ص ٢٣٦ وما بعدها ·

زاهيا براقا ، يحبب الناس فى حكمهم ومذهبهم • وأقاموا مؤسسات عديدة ـ دينية وعلمية ـ لتدريب الدعاة الشيعة وتلقين الناس أصول مذهبهم • وجاء هذا النشاط على حساب المذهب السنى وعلمائه ومؤسساته • ومهما يقل من أن الأمان الذى كتبه القائد جوهر الصقلى لأهل مصر تضمن مبدأ الحرية المذهبية لأهل البلاد ، ومن أن المذهب الشيعى لم يصادف قبولا من عامة أهل مصر ، فان العبرة هنا بالطابع العام للحكومة وسياستها ، والسلطة وطابعها • وقد أشار الأدفوى وابن حجر والعينى والمقريزى وغيرهم ، الى أن بعض مظاهر التشيع ظلت باقية بمصر حتى القرنين الثامن والتاسع للهجرة ـ الرابع عشر والخامس عشر للميلاد ـ مما ترجع أصوله حتما الى العصر الفاطمى(٢) ولاشك فى أن هذا كله يعطى انطباعا بأن ثمة تغييرا ـ ولو من النوع السطحى الباهت الخفيف ـ الم بصورة مصر فى العصر الفاطمى •

وربما ازدادت صورة هذا التغيير وضوحا فى ضوء العداء الدفين الذى ظهر فى ذلك العصر بين خلافتى القاهرة وبغداد ، وهو العداء الذى اتخذ شكل صدام مسلح بينهما على أرض الشام حينا ، وشكل مؤامرات مستترة يديرها كل طرف للآخر أحيانا •

كذلك زاد من روح التغيير فى تلك المرحلة أن مصر فى العصر الفاطمى ارتبطت بالمغرب اكثر من ارتباطها بالمشرق ، وذلك بحكم ان الدولة الفاطمية ذاتها ولدت على أرض المغرب • ومن المغرب ـ وبمساعدة بعض قبائله مثل كتامة وزويلة ـ نجح الفاطميون فى

---

(٢) انظر • ابن حجر . الدرر الكامنة ، ج٣ ص ١٣٠ ، ترجمة على بن المظفر الاسكندرانى . العينى : عقد الجمان . سنة ٦٥٩ هـ ، المقريزى : كتاب السلوك ج١ ص ٤٤٠ • وكذلك الأدفوى الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، ص ٣٤١ (القاهرة ١٩٦٦) •

فتح مصر وارساء قواعد حكمهم فيها ، مما جعل الخيط متصلا بين مصر والمغرب ، فى الوقت الذى ظهر العداء واضحا بين حكام مصر وخلافة المشرق الاسلامى ، طوال العصر الفاطمى ·

أما الحلقة الثالثة والأخيرة من تاريخ مصر فى العصور الوسطى الاسلامية فتشمل عصر الأيوبيين والمماليك · وتمتاز هذه الحلقة بصفات خاصة أكسبت تاريخ مصر فيها طابعا له ملامحه المميزة · ذلك أن الأمر لايقتصر على استعادة مصر وجهها السنى بسقوط الدولة الفاطمية وقيام دولة بنى أيوب ، وانما يتعدى ذلك الى أن ذلك التغيير جاء مصحوبا بتطور واضح فى مكانة مصر السياسية والحضارية فضلا عن وضعها فى العالم الاسلامى وغير الاسلامى · ونحب أن نؤكد هنا على أن هذه التغييرات التى بدأت مع قيام الدولة الأيوبية ظلت فى نمو حتى أواخر دولة سلاطين المماليك ، مما يجعل من هاتين الدولتين وحدة متكاملة فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى الاسلامية ·

ذلك أن الأيوبيين يمثلون فى أصلهم قوة أو ظاهرة أرتبطت أساسا ببعض البيوت الحاكمة – أو الاتابكيات – التى تفرعت عن دولة سلاطين السلاجقة · وقد أحضر الأيوبيون معهم الى مصر كثيرا من النظم والأوضاع المألوفة عند السلاجقة ، وطبقوها فى مصر لأول مرة منذ الفتح العربى لهذه البلاد · فلما انتهى حكم دولة بنى أيوب وقامت دولة سلاطين المماليك ، أبقى المماليك على النظم والأوضاع التى طبقها الأيوبيون ، مما جعل من حكم الأيوبيين والمماليك وحدة متكاملة ذات طابع خاص فى التاريخ المصرى · وفى ذلك يقول القلقشندى « أعلم أن الدولة الأيوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلفتها فى الديار المصرية ، خالفتها فى كثير من ترتيب المملكة ، وغيرت غالب معالمها ، وجرت على ما كانت عليه الدولة الأتابكية عماد الدين زنكى بالموصل ، ثم ولده الملك العادل نور الدين

محمود بالشام »(٣) وفى موضع آخر من موسوعته يقول القلقشندى « ذكر ما استقر عليه الحال من ابتداء الدولة التركية (دولة سلاطين المماليك) والى زماننا على رأس الثمانمائة (للهجرة) ، مما أكثره مأخوذا من ترتيب الدولة الأيوبية التى هى أصل الدولة التركية »(٤) ويؤكد المؤرخ المقريزى نفس المعنى ، فيقول « فلما انقرضوا (الأيوبيون) وقامت دولة الأتراك (المماليك) من بعدهم ، أبقوا سائر شعائرهم . واقتدوا بهم فى جميع أحوالهم ، وكانوا يفتخرون بالانتماء اليهم»(٥) ·

ثم ان صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية لم يرث عن سيده نور الدين محمود دولته فى مصر والشام فحسب ، بل أهم من ذلك ورث عنه سياسته فى تجميع القوى الاسلامية فى الشرق الأدنى للنهوض بحركة جهاد كبرى ضد القوى المعادية للاسلام ، وهذه السياسة نفسها هى التى تمسك بها سلاطين المماليك حتى أن المؤرخ ابن واصل أطلق على المماليك اسم « داوية الاسلام » تشبيها لهم بجماعة الداوية وهم فئة من الفرسان الرهبان أبلوا بلاء حسنا فى الدفاع عن الكيان الصليبى ببلاد الشام ، وهكذا ظهرت مصر طوال عصر الأيوبيين والمماليك فى صورة حصن الاسلام الحصين ، وقلب المقاومة الاسلامية ، وقلعة الصمود فى حركة الجهاد الاسلامى ، والمخزن الكبير الذى استمد منه المجاهدون امداداتهم البشرية والمادية فى حروبهم الطويلة ، وبخاصة ضد الصليبيين والمغول ·

ثم أن تحول جهاز الحكم من المذهب الشيعى الى المذهب السنى نتيجة لسقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، ترتب عليه

---

(٣) القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الانشا . ج٤ ص ٥ ·
(٤) المصدر السابق ، ج٧ ص ١١٩ ·
(٥) المقريزى · النقود ، ص ٦٠ (تحقيق الأب انستاس الكرملى) ·

نشاط واسع فى الحركة الدينية العلمية فاكثر سلاطين الأيوبيين من انشاء المدارس ، واقتفى سلاطين المماليك أثرهم فى هذه السياسة ٠ وأدى انتقال الخلافة العباسية الى القاهرة بعد سقوطها على أيدى المغول فى العراق الى أن غدت مصر « محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء » على قول السيوطى(٦) ٠ ولاشك فى أن الحروب الصليبية أدت الى انفتاح الغرب المسيحى على الشرق الاسلامى ، فنشطت العلاقات الاقتصادية بين جمهوريات ايطاليا التجارية من ناحية ومصر من ناحية أخرى ، مما عاد على مصر بثروة طائلة ٠

وكان أن أدت تلك العوامل مجتمعة الى قيام نهضة كبيرة فى مصر ، شملت الآداب والعلوم والفنون ، وبلغت أوجها فى عصر سلاطين المماليك ، واخترنا أن نطلق عليها اسم النهضة الثانية فى الاسلام ٠

وثمة ميزة يمتاز بها عصر الأيوبيين والمماليك بين أواخر القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلاد) وأوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر للميلاد) ، وهى أنه يمثل بالنسبة لمصر الاسلامية فى العصور الوسطى عصرا من عصور القوة والهيبة ٠

ففى ذلك العصر غدت القاهرة قبلة السفراء والمبعوثين من بلاد الشرق والغرب ، من داخل العالم الاسلامى وخارجه ٠ وهؤلاء وفدوا يخطبون ود سلاطين مصر ويطلبون مساعدتهم أو على الأقل مسالمتهم ٠

ولم يتوقف دور جيوش مصر وأساطيلها فى ذلك العصر عند حد الدفاع عن البلاد وحماية حدودها ، وأنما تخطى ذلك الى القضاء على الخطر فى منابعه ، فخرجت الحملات من مصر الى آسيا

---

(٦) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٩٤ (القاهرة ، ١٩٦٨) ٠

الصغرى واقليم الجزيرة شمالا والى دولة النوبة المسيحية جنوبا ، والى شبه الجزيرة العربية شرقا ٠٠ فى حين غزت الأساطيل المصرية قبرص ورودس ـ وقامت بدورها فى تأمين مياه البحرين الأبيض والأحمر ٠

ويشهد التاريخ منذ القدم على أنه مامن عصر من عصور القوة فى التاريخ المصرى الا وحرص حكام مصر على ضم بلاد الشام فى نطاق وحدة مع مصر ، بوصف تلك البلاد تمثل الباب الشـــرقى والرئيسى الذى تسلكه الغزوات الرئيســـية التى تهدد دلتا النيل فبصرف النظر عن الهجمات المحدودة التى تعرضت لها مصر من ناحية الشمال ـ أعنى البحر المتوسط ـ مثل غزوات شعوب البحر والرومان وبعض الحملات الصليبية ثم الحملة الفرنســـية فالغزو الانجليزى فى العصور الحديثة ، فان طريق الشرق ظل دائما أنجح الطرق أمام الغزاة وأشدها خطرا على مصر واهلها ، وعن هذا الطريق تعرضت مصر لغزوات الهكسوس والفرس واليونانيين فى العصور القديمة ، والغزو العربى ثم الصليبى فى العصور الوسطى، والغزو العثمانى والانجليزى فى العصور الحديثة ٠

أما البوابة الغربية ، فان طبيعة الشعوب التى جاورت مصر على حدوده غير ذات خطر جدى على مصر عبر عصور مصر من جانب حدودها الغربية الا لغزوة العصور القديمة ، وهؤلاء وصفهم قدماء الم البدو والرعاة ، عديمى المعرفة بشئون الحرب ، حركتهم دوافع اقتصادية بحتة ، مما جعل غزوتهم ضئيلة الأثر والنتائج ٠

وربما كانت أنجح الغزوات التى تعرضت لها مصر عبر تاريخها الطويل والتى وفدت عن طريق الغرب ، هى الغزوة الفاطمية فى

العصور الوسطى ، ولكن نجاح هذه الغزوة يرجع فى رأينا الى ظروف مصر القلقة واضطراب أحوالها الداخلية فى تلك المرحلة ٠ أما فى العصور الحديثة ، فان قوات المحور التى غزت مصر من البوابة الغربية أثناء الحرب العالمية الثانية لم تلبث أن تعرضت للكسرة عند العلمين غربى الاسكندرية ٠

وهكذا ، فان احساس حكام مصر فى عصور القوة بأهمية الخطر الذى يمكن أن يهدد البلاد عن طريق الجبهة الشرقية هو الذى جعلهم يحرصون على ضم بلاد الشام ، حيث جاءت هذه الظاهرة عبر التاريخ تعبيرا عن قوة مصر ٠ ونستطيع أن نقرر أن وحدة مصر والشام لم تحدث طوال التاريخ المصرى أقوى وأكمل مما حدثت به فى عصر الأيوبيين والمماليك ٠ حقيقة أن نفوذ مصر امتد الى أجزاء من بلاد الشام فى عصور الطولونيين والاخشيديين والفاطميين ولكن هذا الامتداد جاء مبتورا ناقصا بسبب العقبات التى اعترضته من جانب الخلافة العباسية والقوى التى هيمنت عليها فى مرحلة لاحقة كالسلاجقة من ناحية ، أو من جانب القوى المستقلة التى ظهرت فى فترات معينة فى بلاد الشام كالحمدانيين والاتابكة من ناحية أخرى ٠

أما فى العصر الأيوبى المماليكى فقد كان على رأس الدولة سلطان مقره القاهرة ، يعبر عن رأس السلطة فى الدولة ، ودان له بالولاء والطاعة ملوك بنى أيوب الذين اقتسموا بلاد الشام تحت رئاسته من جهة ، أو نواب السلطنة فى العصر المماليكى من جهة أخرى ٠

وفى غالب الأحوال كانت قبضة السلطان على أتباعه أو نوابه فى كافة انحاء بلاد الشام ـ من شمالها حتى جنوبها ـ قوية ، بمعنى أنه كان سلطان مصر والشام ، مما أعطى العصر الأيوبى المماليكى طابعا مميزا فى التاريخ المصرى ٠

ويمكننا أن نقف على كافة الاعتبارات التى كيفت تاريخ مصر فى عصر الأيوبيين والمماليك ، وأكسبته طابعه الخاص المميز باستعراض المسيرة التاريخية لمصر فى ذلك العصر ٠

١ ـ صلاح الدين وقيام الدولة الأيوبية :

تعرض الوطن الاسلامى فى الشرق الأدنى فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد (الخامس الهجرى) لهزة عنيفة نتيجة لوصول الحملة الصليبية الأولى الى الشام سنة ١٠٩٧ (٤٩٠ هـ) ، وما نجم عن ذلك من تغييرات ونتائج بعيدة المدى فى أوضاع المنطقة من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ٠ ولعل أبرز النتائج السياسية فيما يتعلق بتاريخ مصر بالذات هو سقوط الخلافة الفاطمية وانتقال الحكم فى مصر الى دولة جديدة هى دولة الأيوبيين ٠

ذلك ان انتصار الصليبيين على المسلمين فى الحملة الصليبية الأولى ، ونجاحهم فى تأسيس امارات فى الرها وانطاكية وطرابلس فضلا عن مملكة بيت المقدس الصليبية لم يكن مرده قوة الصليبيين بقدر ما كان ضعف المسلمين عندئذ وانحلال أمرهم ٠ فالصليبيون وصلوا الى الشرق الأدنى فى وقت كانت تتازع الولاء الروحى للمسلمين فى المنطقة خلافتان متداعيتان دب فيهما العطب والوهن ، وبدا واضحا ان كلا منهما تعانى آلام الموت التدريجى البطىء ، الخلافة العباسية السنية فى بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة ٠ وفى الوقت الذى اشتدت الخصومة المذهبية بين هاتين الخلافتين ، كانت سلطنة السلاجقة الكبرى قد انقسمت الى عدة فروع أو سلطنات ٠

ورغم ان الخلافة العباسية نفسها كانت تحت حماية سلطنة سلاجقة فارس فان هذه السلطنة ـ شأنها شأن زميلاتها ـ أخذت

تسير سريعا فى طريق الضـــعف والانحلال فى الوقت الذى دهم الصليبيون بلاد الشام · اما بلاد الشام نفسها فظلت يتجاذبها النفوذ الفاطمى حينا والنفوذ العباسى أحيانا ، حتى امتد اليها سلطان السلاجقة ، فصارت البلاد مقسمة الى عدد من الوحدات أو الاتابكيات الصغرى التى عبرت عن الأثر السلجوقى ، فضلا عن البيوت العربية التى نجحت فى تكوين امارات مستقلة ·

وهكذا غدت بلاد الشام نهبا وميدانا للصراع بين الخلافتين العباسية والفاطمية ، وبين السنة والشيعة ، وبين العرب والترك وبين صغار الأمراء والاتابكة بعضهم وبعض ، مما سهل على الصليبيين تحقيق مكاسب كبرى سريعة على حساب الجميع(٧) ·

واذا كانت الخلافة الفاطمية فى مصر قد خدعت فى البداية فى أمر الحركة الصليبية ولم تتبين حقيقة أهدافها ونواياها ، الا أن الفاطميين أفاقوا عندما رأوا أن الصليبيين لم يكتفوا بالسيطرة على شمال الشـــام ــ مثلما كان يفعل الروم أو البيزنطيون فى غزواتهم القريبة السابقة ــ وانهم أوغلوا فى البلاد حتى استولوا على بيت المقدس حيث أحدثوا فى المسلمين مذبحتهم الشهيرة بالحرم الشريف سنة ١٠٩٩ م · وعندئذ لم يستطع الفاطميون السكوت ، فحشدوا امكانات مصر البشرية ، والمادية لمقاومة هذا الخطر الذى بدا فى طبيعته من نوع جديد ، غير الأخطار الخارجية التى اعتاد الفاطميون أو اعتاد المصريون أن يواجهوها فى الشام من قبل ·

وكان ان خرجت عدة حملات برية وبحرية من مصر فى نهاية القرن الحادى عشر وأوائل الثانى عشر للميلاد لصـــد الخطر

---

(٧) Gibb : The Damascus Chronicle of the Grucudes, P. 14 (London, 1932).

الصليبى(٨) · ولكن يبدو أن الدولة الفاطمية عندئذ ـ فى خريف عمرها صارت أضعف من أن تنهض بمهمة مواجهة الخطر الصليبى فحلت الهزيمة بالجيوش الفاطمية مرة بعد أخرى ، الأمر الذى مكن بلدوين الأول ملك بيت المقدس الصليبى من السيطرة على وادى عربة ، حتى وصل الى أيلة على البحر الأحمر ثم اخترق شبه جزيرة سيناء وأوغل فى أرض مصر حتى تنيس جنوبى بحيرة المنزلة ، حيث مات سنة ١١١٨ م ـ (٥١٢ هـ) ، نتيجة لمرض مفاجىء فعاد أصحابه بجثته بعد أن حنطوها ، وألقوا باحشائه فى مكان مازال ينسب اليه قرب مدينة بورسعيد الحالية ، يعرف باسم سبخة البردويل وهو التحريف العامى لاسم بلدوين(٩) ·

ولم يرض أهل مصر عن ذلك الوضع، فجاهروا بحنقهم على البيت الفاطمى وسياسته ، وعمت مصر فترة من الاضطرابات اشتد فيها التنافس بين الوزراء من ناحية وتلاعب الوزراء بالخلفاء أنفسهم من ناحية أخرى · وقامت حركة كبرى تدعوه الى جهاد الصليبيين · وتزعم هذه الحركة رضوان بن الولخشى الذى ولى منصب الوزارة سنة ١١٣٧ م (٥٣١ هـ) فأنشأ فى القاهرة ديوانا جديدا أسماه ديوان الجهاد (١٠) غير أن هذه الحركة لم يلبث ان كسر شوكتها وأضعف من شأنها النزاع الداخلى حول منصب الوزارة ، وهو النزاع الذى اشـــتد منذ سنة ١١٦٣ م · (٥٥٨ هـ) بين رجلين هما شـــاور وضرغام ، حتى استعان كل منهما بقوة خارجية لتأييده ضد خصمه ، فكان ذلك بدءا لمرحلة جديدة فى تاريخ مصر وتاريخ الشرق الأدنى ·

---

(٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، حوادث ٤٩٥ وما بعدها ·

(٩) ابن تغرى بردى · النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج٥ ص ١٧١ ·

(١٠) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ج٢ ، ص ٨٢ ·

ذلك أن تفاقم خطر الصليبيين يوما بعد آخر فى منطقة الشرق الأدنى واتساع نفوذهم من الجزيرة والفرات شمالا الى شبه جزيرة سيناء ومشارف دلتا النيل جنوبا ، أحدث رد فعل عنيف فى العالم الاسلامى ، الأمر الذى استثار بعض الزعماء المخلصين فى المشرق الاسلامى ودفعهم الى القيام بحركة جهاد واسعة ضد الصليبيين وسرعان ما اكتشف المسلمون أن نجاح حركة الجهاد هذه لا يتحقق الا فى ظل جبهة اسلامية متحدة ،توحد بين القوى الاسلامية المبعثرة بين النيل والفرات وتجعل من هذه القوى بنيانا مرصوصا يستطيع الصمود فى وجه الخطر الصليبى • وعلى رأس حركة الجهاد هذه برز عماد الدين زنكى أتابك الموصل الذى نجح فى ضم حلب وبذلك حقق جبهة امتدت من شمال العراق الى شمال الشام • وبعد عماد الدين زنكى خلفه ابنه نور الدين محمود الذى نجح فى ضم دمشق سنة ١١٥٤ م (٥٤٩ هـ) وبذلك صارت الخطوة التالية هى ضم مصر لتمتد الجبهة الاسلامية المتحدة من الفرات الى النيل وتقع مملكة بيت المقدس الصليبية بين فكى الكماشة ، أى بين القوى الاسلامية شمالا فى دمشق وجنوبا فى مصر(١١) •

وكان ذلك فى الوقت الذى اشتد الصراع فى مصر بين شاور وضرغام ، فاستعان أولهما بنور الدين محمود فى دمشق ، واستعان الثانى بالملك عمورى الصليبى فى بيت المقدس • وكان الأخير لا يفتأ يتطلع الى مصر وثروتها ، بل لقد غزا عمورى مصر فعلا قبل أن يستعين به ضرغام ، الأمر الذى نبه نور الدين الى ذلك الخطر وخاصة أن الخلافة الفاطمية باتت على درجة من الضعف لا تقوى معها على الحركة •

---

(١١) ابن القلانسى . ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٨ ، ابن الأثير : الكامل ، سنة ٥٤٩ هـ ، ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى ايوب ، ج١ ، ص ١٢٨ •

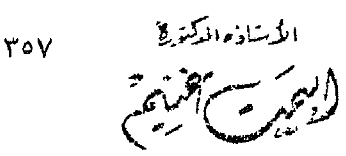
وهكذا غدت مصر بين سنتى ١١٦٤ م (٥٥٩ هـ) ، ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) ميدانا لصراع مرير بين نور الدين والصليبيين ٠ وفى تلك الفترة أرسل نور الدين ثلاث حملات الى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه يعاونه ابن أخيه صلاح الدين ، فى حين غزا عمورى مصر على رأس جيوشه الصليبية ثلاث مرات ــ عدا المرة الأولى التى كان قد وصـــل فيها الى بلبيس سنة ١١٦٣ م قبل أن يســـتنجد به ضـــرغام(١٢) ٠

ولا شك فى أن الكلمة الأخيرة فى هذا الصراع كانت لأهل مصر الذين انضموا الى جانب شيركوه وقوات نور الدين ، وقاوموا الملك الصليبى عمورى الأول ومن حالفه من رجال الخلافة الفاطمية ٠٠ وأخيرا لم يجد الملك عمورى الصليبى حليفا يعتمد عليه فى مصر ، فانسحب عائدا الى فلسطين فى يناير سنة ١١٦٩ م ٠ (٥٦٤ هـ) ومعه رجاله « خايبين مما أملوه » ، فى حين استقبل المصريون فى القاهرة القائد شيركوه استقبال البطل ، واختاره الخليفة العاضـــد الفاطمى وزيرا له(١٢م) ٠

على أن شيركوه لم يلبث أن توفى بعد شهرين ، فخلفه ابن أخيه صلاح الدين وزيرا للخليفة الفاطمى من ناحية ، وقائدا لقوات نور الدين محمود من ناحية أخرى ٠ ولاشك فى أن الازدواج الوظيفى كان مصدر حرج كبير لصلاح الدين ، الذى كان سنيا شافعى المذهب يتبع سيده نور الدين محمود الذى كان بدوره يدين بالتبعية للخلافة العباسية السنية فى بغداد ، وفى نفس الوقت كان على صلاح الدين

Schlumberger (G.) : Campagnes du Rois Amaury de Jerusalem en Egypte, P.P. 38 — 48, 58, 101 — 102, 11n. (Paris, 1906).

(١٢م) ابو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج١ ص ١٧١ ، ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٨ ٠



أن يقوم بمهام الوزارة للخليفة الفاطمى الشيعى ، رغم ما كان هناك من عداء دفين بين الطرفين • ويبدو ان اتباع الخلافة الفاطمية فى مصر لم يرضوا عن هذا الوضع فاشعلوا الثورات واحدة بعد أخرى ضد صلاح الدين ورجاله ، ولكنه صمد لهم وتغلب على مؤامراتهم وأخمد حركاتهم ، فى الوقت الذى تحبب الى الناس بتخفيف المكوس عنهم وتحقيق الاستقرار لهم ، « فمال اليه الناس وأحبوه وضعف أمر العاضد »(١٣) •

وزاد من حرج موقف صلاح الدين فى تلك المرحلة أن عمورى الأول ملك بيت المقدس الصليبى لم يرض عن النتيجة التى انتهى اليها أمر الصراع حول مصر بينه وبين غريمه نور الدين ، فاستعان بالروم أو الامبراطورية البيزنطية فى القسطنطينية ، وقام الطرفان بهجوم مشترك على دمياط سنة ١١٦٩ م (٥٦٥ هـ) فهاجمها الأسطول البيزنطى بحرا وحاصرها الصليبيون برا • ولكن صلاح الدين صمد لذلك الخطر واستطاعت دمياط أن تقاوم الهجوم والحصار ، فى الوقت الذى نفد تموين الأسطول البيزنطى واشتدت هجمات نور الدين محمود على ممتلكات الصليبيين بالشام ، فاضطروا الى رفع الحصار عن دمياط والانسحاب عنها خائبين(١٤) •

ولم تستطع الخلافة الفاطمية أن تعيش طويلا فى ظل الحماية السنية • وعندما أحس نور الدين محمود فى الشام بأن الأمور فى مصر غدت مهيأة للدعوة للخلافة العباسية ، شدد على صلاح الدين فى القيام بهذا الانقلاب • ويقال ان صلاح الدين كان يخشى اتخاذ هذه الخطوة الخطيرة نظــرا لما قد يترتب عليها من نتائج داخلية فضلا عن وضعه هو فى مصر • ولكنه اضطر الى ذلك تحت تأثير

---

(١٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٣٥٥ •
(١٤) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٥ هـ •

الحاج نور الدين محمود ، فتم الدعاء فى أول جمعة من عام ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) للخليفة العباسى المستضىء « أمير المؤمنين » ويقال ان الخليفة العاضد الفاطمى كان عندئذ مريضا فمات بعد الانقلاب بثلاثة أيام دون أن يسمع خبر زوال دولته وسقوط خلافته · وبعد ذلك أخذ صلاح الدين يعمل بسرعة لمحو آثار الخلافة الفاطمية من مصر ، مما يعتبر دون شك نقطة تحول فى تاريخ البلاد ·

والواقع أن سقوط الخلافة الفاطمية لم يكن مجرد انقلاب عادى، وانما كان حدثا خطيرا فى تاريخ العالم الاسلامى بوجه عام وفى تاريخ مصر بوجه خاص · وفى تلك الأثناء دبت الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين بسبب رغبة الأول فى الاستئثار بمصر وتخوف الثانى من هذه الاتجاه · ويبدو أن صلاح الدين أخذ يتخوف عندئذ من نوايا سيده نور الدين بعد أن أشيع أنه سيأتى الى مصر بنفسه لاخراج صلاح الدين وأسرته منها · وفى ضوء هذه الحقيقة يفسر بعض المؤرخين الحملة التى أرسلها صلاح الدين بقيادة أخيه شمس الدولة توران شاه الى النوبة لفتحها حتى يأوى اليها بنو أيوب فى حالة اخراجهم من مصر · فلما اتضح أن النوبة غير صالحة لاقامة دولة فيها وانها فقيرة « قليلة الجدوى » أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه الى اليمن على رأس حملة سنة ١١٧٤ م (٥٧٠ هـ) فتمكن من فتحها لتصبح تابعة لصلاح الدين(١٦) ·

وكان ان ابتسم الحظ لصلاح الدين عندما توفى سيده نور الدين فجأة سنة ١١٧٤ م وهو يستعد للقيام بحملته على مصر · وكان

(١٥) سعيد عبد الفتاح عاشور · الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٥٦٩ (الطبعة الرابعة ١٩٦٨) ·

(١٦) ابن الاثير : الكامل ، حوادث ٥٦٩ هـ ، ابو شامة : كتاب الروضتين · ج١ ق٢ · ص ٥٣٠ ، ٥٥١ ــ ٥٥٥ ·

صلاح الدين عندئذ مشغولا بمواجهة مؤامرة كبرى ، اشترك فى حبك أطرافها جميع العناصر الناقمة على الوضع الجديد فى مصر ، سواء بقايا الخلافة الفاطمية وأتباعها ، أو الصليبيون وحلفاؤهم النورمان فى جزيرة صقلية ، أو الباطنية الحشيشية ، وهم القوة الهدامة الكبرى بالشام • ورسمت خطة المؤامرة بدقة بالغة ، بحيث يبعث الحشيشية بعض رجالهم لاغتيال صلاح الدين ، وتقوم القوات الصليبية بغزو مصر برا من ناحية الشرق ، ويخرج أسطول النورمان من صقلية لمهاجمة الاسكندرية بحرا ، فى الوقت الذى يشعل المتآمرون نار الثورة فى القاهرة والفسطاط •

ولكن شاء حسن حظ صلاح الدين أن يكتشف المؤامرة قبيل الشروع فى تنفيذها • فقبض على زعمائها وصلبهم ، وعلى رأسهم الشاعر الشيعى عمارة اليمنى(١٧) • وعندما علم عمورى الأول ملك بيت المقدس الصليبى خبر انكشاف المؤامرة توفى مقهورا ، فى حين لم ينجح الأسطول النورمانى الذى وصل الى الاسكندرية فى غزو المدينة ، اذ صمد أهلها وأحرقوا بعض السفن المعادية وأغرقوا البعض الآخر ، فاضطر النورمان الى الانسحاب فاشلين • وكان ذلك فى الوقت الذى نجح صلاح الدين فى اخماد ثورة أخرى قامت فى أسوان أشعلها أحد قادة الفاطميين ــ واسمه كنز الدولة الذى جمع حوله بعض العناصر من الشيعة وأوهمهم • أنه يملك البلاد ويعيد الدولة العبيدية (الفاطمية) المصرية »(١٨) •

وهكذا جاءت وفاة نور الدين محمود من ناحية ، ونجاح صلاح الدين فى التغلب على الأخطـــار الداخلية والخارجية التى واجهت

---

(١٧) ابن واصل مفرج الكروب ، ج١ ، ص ٢٤٤ وما بعدها •

(١٨) ابن شداد . النوادر السلطانية ، ص ٧٩ ، المقريزى : كتاب السلوك ، ج١ ، ص ٥٧ ــ ٥٨ •

دولته الناشئة فى مصر من ناحية أخرى ، لتفتح صفحة جديدة ارتبطت بتاريخ الدولة الأيوبية فى مصر والشام · ذلك أن صلاح الدين عز عليه أن يرى الجبهة الاسلامية المتحدة التى امتدت من الفرات الى النيل تتفتت ، وخاصة أن سيده نور الدين محمود لم يترك الا ابنا صغيرا كان عند وفاة أبيه فى الحادية عشرة من عمره ، مما أثار أطماع أمراء نور الدين فى الشام وهدد بانفصال حلب عن دمشق ، فى الوقت الذى فرح سيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل بوفاة عمه نور الدين محمود وأســـرع الى الاحتلال بعض المواقع فى الجزيرة(١٩) ·

وعندما رأى صلاح الدين فى مصر أن الصليبيين فى الشام هم وحدهم المستفيدون من تلك الفرقة التى دبت بين القوى الاسلامية فى الشرق الأدنى ، اعتبر نفسه الوريث الوحيد لسيده نور الدين ، لا فى ممتلكاته فحسب ، بل أيضا فى سياسته التى استهدفت توحيد قوى المسلمين من ناحية ثم ضرب الصليبيين من ناحية أخرى ·· وكان ان خرج صلاح الدين الى الشـــام فى أواخر سنة ١١٧٤ ، (٥٧٠ هـ) حيث دخل فى صـــراع مرير ضد القوى الاســـلامية الانفصالية ، فضلا عن القوى الأخرى التى أيدتها مثل الصليبيين والباطنية فى شمال الشام والجزيرة ، حتى نجح أخيرا سنة ١١٨٦ م (٥٨٢ هـ) فى اعادة بناء الوحدة الاسلامية الكبرى من الفرات الى النيل ، معتمدا فى المقام الأول على موارد مصر الضخمة فى تنفيذ سياسته · وبعدان غدا صلاح الدين سيد مصر والشام · والزعيم الأول والأوحد للجبهة الاسلامية المتحدة فى الشرق الأدنى ، رأى ان الوقت حان لتنفيذ الشطر الثانى من سياسته وهو القيام بحركة جهاد كبرى ضد الصليبيين الدخلاء فى بلاد الشام ·

---

(١٩) ابن واصل · مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٩ ، ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٦٩ هـ ·

على ان صلاح الدين ادرك أن دخوله فى حرب طويلة المدى ضد الصليبيين سيتطلب منه الاقامة بالشام مكتفيا بالاعتماد على ما تمده به مصر من طاقة بشرية ومادية · ولا شك فى ان اقامة صلاح الدين بالشام من شأنها ان تجعله يتخوف على مصر من أن تدهمها فى غيابه حملة صليبية كبرى · ولم يكن صلاح الدين مبالغا فى مخاوفه هذه ، اذ تثبت الشواهد التاريخية أن الصليبيين فى بيت المقدس ظلوا يتطلعون الى مصر ، وان ثمة اتصالات قوية دارت سنة ١١٧٧ م (٥٧٣ هـ) بين الصليبيين والبيزنطيين للقيام بمحاولة جديدة لغزو مصر(٢٠) · لذلك شرع صلاح الدين قبل الخروج الى بلاد الشام لجهاد الصليبيين فى القيام بسلسلة من التحصينات القوية لحماية مصر وعاصمتها وثغورها ومراكزها الحيوية ضد أى هجوم صليبى مباغت ، وليس من المستبعد أن يكون صلاح الدين الذى نشأ وشب وقضى معظم سنى عمره فى بلاد الشام ، قد استرعى نظره الفارق الكبير بين الأوضاع الدفاعية للمدن والثغور فى بلاد الشام وبين ما كان عليه الوضع فى مصر · ففى الوقت الذى كان لكل مدينة كبرى فى لاد الشام قلعتها الحصينة التى تحميها ، وأسوارها المنيعة التى تحيط بها ، اذ بصلاح الدين يجد القاهرة عاصمة البلاد بلا قلعة تذود عنها فى حين كان سورها قد « تهدم أكثره وصار طريقا لا يرد داخلا ولا خارجا !!! »(٢١) ·

واذ كان صلاح الدين قد قام بمحاولة لترميم سور القاهرة القديم سنة ١١٧١ م (٥٦٧ هـ) قبل سقوط الخلافة الفاطمية ، الا أنها كانت محاولة محدودة ، لأن صلاح الدين كان وزيرا للخليفة الفاطمى من ناحية وتابعا لسيده نور الدين محمود من ناحية أخرى ،

---

(٢٠) Grousset, (R.) : Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem. 11, P.P. 644 — 645 (Paris, 1943 — 1946).

(٢١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص ٩٢ (طبعة النيل) ·

فلم يكن منتظرا منه أن يقوم بأكثر مما تسمح له به مسئولياته وامكاناته • ولكن الوضع تغير بعد ذلك عندما غدا صلاح الدين سيد البلاد ولا سلطان لأحد عليه ، فقرر بناء سور ضخم من الحجارة يحيط بالقاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع يحمى عاصمة البلاد وأهلها من أى هجوم خارجى ، كما قرر بناء قلعة ضخمة على جبل المقطم تكون مركزا للحكم ولحماية القاهرة • وعهد صلاح الدين ببناء السور والقلعة الى الأمير أبى سعيد قراقوش عبد الله الأسدى الملقب ببهاء الدين ، فجلبت الأحجار اللازمة للبناء من منطقة أهرام الجيزة ، كما ساعدت فى البناء اعداد من أسرى الصليبيين(٢٢) •

وقد اكتشفت أجزاء من هذا السور الذى بناه صلاح الدين ، وهو فى الواقع ثالث الأسوار التى بنيت حول القاهرة ، اذ بنى السور الأول جوهر الصقلي وبنى الثانى بدر الدين الجمالى • ولكن السورين الأولين كانا من اللبن ، فى حين بنى سور صلاح الدين من الحجارة •

أما قلعة الجبل فتقع على أحد المرتفعات المتصلة بجبل المقطم ، وهى تتألف من مساحتين من الأرض مستقلتين ، الشمالية تقترب من شكل المستطيل ولها أبراج بارزة ، ويفصلها عن الجنوبية جدار سميك ذو أبراج • وفى وسط الجدار باب القلعة الذى يعرف الآن باسم الباب الجوانى • والجزء الشمالى من القلعة كان الحصن نفسه ، أما الجزء الجنوبى فكان يضم الملحقات والقصور السلطانية ، وما يتبعها من اسطبلات وغيرها • ويغلب على الظن أن الجزء الشمالى تم تشييده على أيام صلاح الدين نفسه ، فى حين أن الجزء الجنوبى

---

(٢٢) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، ص ٥١ وما بعدها (القاهرة ، ١٩٦٩) . نظير حسان سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ، ص ٩٢ ، ١٠٣ ـ ١٠٨ •

الذى يشمل الملحقات استكمل على عهد السلطان الكامل الأيوبى . وقد سار العمل فى بناء القلعة بهمة كبيرة تشهد على قوة قراقوش وحزمه . وفى الجهة الجنـــوبية من القلعة نحت قراقوش بئرا فى الصخر أطلق عليه اسم بئر يوسف نسبة الى صلاح الدين يوسف . وعرف هذا البئر باسم الحلزون ، ويتألف من طابقين عمق الأول نحو خمسين مترا والآخر نحو أربعين ،ولكل طابق منهما ساقية لرفع المياه بواسطة الدواب . وقيل ان ماء البئر كان عذبا فى أول الأمر حتى أراد قراقوش توسيعها فاتصلت بعين مالحة أفسدت ماء البئر الأمر الذى جعـــل القلعة بعد ذلك تعتمد على النيل فى امـدادها بالماء(٢٣) .

وثمة قلاع أخرى بناها صلاح الدين فى مختلف أنحاء البلاد اهمها قلعة سيناء قرب عين صدر ، وقلعة فرعون فى جزيرة فرعون فى خليج العقبة ، والغرض منهما منع الخطر الصليبى من الوصول الى البحر الأحمر . ويروى المؤرخ أبو شامة ان صلاح الدين خرج الى دمياط سنة ١١٧٧ م (٥٧٢ هـ) وبصحبته ولداه الأفضل على والعزيز عثمان فتفقد تحصينات الميناء ، ثم رحل الى الاسكندرية حيث تفقد سورها الدائر وفحص الزيادات التى أمر بانشائها غداة استيلائه على حكم البلاد . كذلك تفقد صلاح الدين الأســـطول بالاسكندرية وأمر بعمارته وتجديد سفنه « وما انصرف حتى أمر باتمام الثغر وتعمير الأسطول » . وقد حدث سنة ١١٨١ م (٥٧٧ هـ) ان أغار الصليبيون على تنيس ــ على بحيرة المنزلة ــ فخشى صلاح الدين أن يكون المقصود بتلك الغارة سبر غور المسلمين تمهيدا لغزو مصر من ناحية البحر ، لذلك أمر بمضاعفة العناية بتحصين دمياط وتنيس « ورتبت المقاتلة على البرجين بدمياط ، وجهزت خمسمائة

---

(٢٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣٧٦ ــ ٣٧٧ .

دينار لعمارة سورها والنظر فى السلسلة التى بين البرجين · وعمل تقرير باسم ما يحتاج اليه سور تنيس واعادته كما كان فى القديم » ·

كذلك أمر صلاح الدين فى العام نفسه ببناء برج بالسويس « ورتبت فيه الفرسان »(٢٤) ·

٢ ـ صلاح الدين وجهاد الصليبيين :

وبعد أن اطمأن صلاح الدين الى قوة تحصين مصر غادرها الى الشام فى مايو سنة ١١٨٢ م (٥٧٨ هـ) ليقوم بحركة جهاد شاملة ضد الصليبيين · وكانت هذه آخر مرة يرى فيها صلاح الدين وجه القاهرة ، اذ قدر له أن يظل بعد ذلك ببلاد الشام « ولم يعد بعدها الى مصر حتى أدركه الحمام »(٢٥) ·

ومع أن صلاح الدين اتخذ دمشق مركزا لعملياته الحربية فى ذلك الدور ، الا أنه اعتمد اعتمادا واضحا على موارد مصر وقوتها فى تنفيذ سياسته · من ذلك أنه حدث فى العام السابق أن أرناط الصليبى صاحب الكرك اتجه من أيلة فى عدة سفن فى البحر الأحمر مستهدفا الاغارة على الحرمين الشريفين فى الحجاز وهدم مقام الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة · وعندئذ أرسل صلاح الدين مسرعا الى أخيه العادل الذى كان ينوب عنه فى مصر يأمره بمطاردة الصليبيين فى البحر الأحمر والحيلولة بينهم وبين تنفيذ أهدافهم · وكان أن خرج الأسطول المصرى فى البحر الأحمر

---

(٢٤) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج١ ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ، المقريزى كتاب السلوك ، ج١ ، ص ٧٢ ـ ٧٤ ·

(٢٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج٢ ، ص ٢٨ ، المقريزى : كتاب السلوك ، ج١ ، ص ٧٧ ·

مطاردا السفن الصليبية ، حتى لحق بها عند الحوراء على ساحل الحجاز فى مقابلة المدينة ، فظفر المصـــريون بالصليبيين وأحرقوا سفنهم ، ومن نجا منهم من القتل حملوه أسيرا الى مصر حيث تم استعراضهم فى شوارع مصر والقاهرة · هذا وان كان أرناط نفسه قد تمكن من الفرار فى قلة من رجاله(٢٦) ·

وازاء تلك الاستفزازات من جانب أرناط الذى استغل موقع امارته ليقطع طريق الاتصال البرى بين مصر والشام ، ويغير على القوافل الآمنة رغم ما كان بين المسلمين والصليبيين من هدنة ، قرر صلاح الدين أن « ينصرف بكليته الى الفرنج » · وقد بدأ صلاح الدين بعدة مناوشات أدرك بعدها الصليبيون نوايا صلاح الدين فعبأوا قواتهم ضده ، ولكنه نجح فى أن ينزل بهم هزيمة كبرى فى موقعة حطين سنة ١١٨٦ م (٥٨٢ هـ) ، وهى الموقعة التى انتهت بالقضاء على الجيش الصليبى بأكمله بين قتلى وأســـرى · وكان من جملة الأسرى جاى لوزجنان ملك مملكة بيت المقدس الصليبية فضلا عن أرناط صاحب حصن الكرك ، الذى عوقب على جرائمه ضد المسلمين بالقتل(٢٧) ، وسرعان ما تتابعت انتصارات صلاح الدين ، فاتجه أولا للاستيلاء على الموانى الساحلية ليحرم الصليبيين من أية معونة تأتيهم من غرب أوروبا عن طريق البحر · وكان ان استولى على عكا والناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ، فى حين زحف أخوه العادل على رأس الجيش المصرى واستولى على يافا · وفى الوقت الذى استولى المسلمون على حصـــن تبنين وصـــرفند وصـــيدا ،

---

(٢٦) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٢٧ وما بعدها ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٩ ــ ٣٠ (القاهرة ، ١٩٥٥) ، أبو شامة : كتاب الروضتين، ج٢ ، ص ٣٥ وما بعدها ·

(٢٧) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٥ (القاهرة ، ١٩٦٢) ، عماد الدين الأصفهانى : الفتح القسى ، ص ٢٣ (القاهرة ، ١٣٢٢ هـ) ·

واصل صـــلاح الدين تحركاته على الســـاحل فاســـتولى على بيروت وجبيل وعســـقلان ٠ وبعد ذلك أدرك صلاح الدين أن دور بيت المقدس قد حل بعد أن حرمها من واجهتها البحرية ، فنجح فى الاستيلاء عليها فى اكتوبر سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) ٠ وشاءت الظروف أن يوافق دخـول المســـلمين المدينة ، ذكرى ليلة الاســـراء والمعراج ، فاحتفل المســـلمون بهذه المناســـبة الدينية فى الحرم الشـــريف(٢٨) ٠

ثم كان ان اتجه صلاح الدين بعد ذلك الى تقليم أظافر الصليبيين فى شمال الشام ٠ واذا كانت مدينة صور قد استعصت عليه بعد أن تجمعت فيها البقايا الصليبية التى تركها صلاح الدين تخرج آمنة من المدن التى استولى عليها ، فانه نجح فى الاستيلاء على كثير من المدن والقلاع والحصون التابعة لامارتى طرابلس وانطاكية الصليبيتين مثل هونين وصفد وكوكب وبانياس وجبلة واللاذقية والقصير وبغراس ودربساك حتى غدت امارتا طرابلس وانطاكية « مقصوصتى الجناح » على قول أحد المؤرخين المعاصرين(٢٩) ٠

على أن الانتصارات التى حققها صلاح الدين على الصليبيين استثارت الغرب الأوروبى ، فخرجت الحملة الصليبية الثالثة الى الشام ٠ ورغم ما أصاب جيوش المسلمين عندئذ من انهاك ، فقد صمد صلاح الدين صمودا شجاعا أمام جيوش الصليبيين ، ودارت بين الطرفين أحداث ووقائع مثيرة ، وانتهت بفشـــل ريتشارد قلب الأسد فى استرداد مدينة بيت المقدس ، فعقد صلح الرملة مع صلاح الدين سنة ١١٩٢ م ٠(٥٨٨ هـ) ، وبمقتضاه صارت للصليبيين

---

(٢٨) أبو شامة : كتـــاب الروضـــتين ، ج٢ ص ٩٢ ، عماد الديـــن الاصفهانى : الفتح القسى . ص ٤٧ ٠

(٢٩) ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج٢ ، ص ١٣٢ ــ ١٣٣ ٠

فى فلسطين المنطقة الساحلية من صور الى يافا ، وماعدا ذلك بما فيه بيت المقدس ظل بأيدى المسلمين . وقد احتفظت دولة الصليبيين باسم مملكة بيت المقدس وان غدا مركزها فى عكا . أما صلاح الدين فلم يلبث أن توفى بعد مرض قصير فى دمشق فى مارس سنة ١١٩٣ م (٥٨٩ هـ)(٣٠) .

٣ ـ مصر فى عصر خلفاء صلاح الدين :

ترك صلاح الدين عند وفاته فراغا ضخما ، لم يستطع احد من أبنائه أو أهل بيته أن يملأه فى سهولة . وكان أن انقسمت الدولة الأيوبية الكبيرة فى مصر والشـــام وأطراف الجزيرة الى ممالك ووحدات سياسية بين أبناء البيت الأيوبى(٣١) . وعلى رأس هذه الوحدات السياسية التى انقسمت اليها الدولة الأيوبية ظلت مصر تتمتع بمكان الصدارة بحكم ما توافر لها من امكانات بشرية ومادية فضلا عن اتساع رقعتها . ويفسر هذه المكانة الخاصة التى انفردت بها مصر أن صاحبها اختص بلقب سلطان فى معظم الحالات ، دون غيره من حكام بقية الوحدات الأيوبية التى لم يحظ اصحابها الا بلقب « ملك » . ومعنى ذلك أن صاحب مصر من بنى أيوب كانت له غالبا الزعامة العليا على بقية ملوك البيت الأيوبى . ومهما تكن هذه الزعامة اسمية فى بعض الحالات ، فانها تشهد على الدور البارز الذى كان على مصر أن تنهض به فى تلك الفترة المضطربة ، بسبب ما قام من منازعات وخلافات وحروب بين أبناء البيت الأيوبى بعضهم وبعض من ناحية ، وما قام بينهم وبين الصليبيين الذين ما فتئوا

---

(٣٠) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤١٠ .

(٣١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث ٥٨٩ هـ ، عماد الدين الاصفهانى : الفتح القسى ، ص ٣٥٨ وما بعدها .

يعملون من حصونهم وقواعدهم ضد المسلمين فى بلاد الشام من ناحية أخرى ٠

وقد تعاقب فى حكم مصر بعد وفاة صلاح الدين ستة حكام من البيت الأيوبى هم :

١ ـ العزيز عثمان بن صلاح الدين

(١١٩٣ ـ ١١٩٨ م = ٥٨٩ ـ ٥٩٥ هـ)

٢ ـ الأفضل نور الدين بن على بن صلاح الدين

(١١٩٩ ـ ١٢٠٠ م = ٥٩٥ ـ ٥٩٦ هـ)

٣ ـ العادل سيف الدين أبو بكر أخو صلاح الدين

(١٢٠٠ ـ ١٢١٨ م = ٥٩٦ ـ ٦١٥ هـ)

٤ ـ الكامل بن العادل

(١٢١٨ ـ ١٢٣٨ م = ٦١٥ ـ ٦٣٥ هـ)

٥ ـ العادل الثانى (الصغير) ابن الكامل

(١٢٣٨ ـ ١٢٤٠ م = ٦٣٥ ـ ٦٣٧ هـ)

٦ ـ الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل

(١٢٤٠ ـ ١٢٤٩ = ٦٣٧ ـ ٦٤٧ هـ)

٧ ـ المعظم توران شاه ابن الصالح أيوب

(١٢٤٩ ـ ١٢٥٠ م = ٦٤٧ ـ ٦٤٨ م)

وطوال العصر الأيوبى الذى استمر بعد صلاح الدين أكثر من نصف قرن ، استمرت مصر تنهض بدورها القيادى فى منطقة الشرق الأدنى ، فرغم المنازعات التى دبت بين بنى أيوب بعضهم وبعض فقد بقيت مصر تمثل قلعة الصمود ضد الخطر الصليبى من ناحية ،

والقبلة التى يتجه اليها أهل الشام وحكامهم للخلاص من الأخطار الداخلية والخارجية التى حاقت بهم فى ذلك الدور من ناحية أخرى ٠

وهكذا لم تتخل مصر عن دورها الرائد فى المنطقة ، مع استمرار تفاعل عديد من التيارات الداخلية بين أرجائها ٠ وقبل أن نتطرق الى دور مصر فى التصدى للحركة الصليبية بعد صلاح الدين، يصح أن نلقى نظرة عامة سريعة على أوضاعها فى العصر الأيوبى ٠

٤ ـ نظم الحكم والادارة والمالية فى العصر الأيوبى :

لما كان صلاح الدين كثير التغيب عن مصر بسبب انشغاله بأمر الجهاد فى الشام فانه صار عليه أن يترك شخصا يعتمد عليه فى حكم مصر ورعاية شئونها أثناء غيابه ٠ لذلك استحدث صلاح الدين فى مصر وظيفة النائب ، وهو الذى ينوب عن الحاكم وقد أناب صلاح الدين عنه فى حكم مصر طوال تواجده فى بلاد الشام ـ أخاه العادل سيف الدين مما يعتبر البداية الحقيقية لنشأة وظيفة نائب السلطنة فى العصر الأيوبى(١٢) ٠ ومن الواضح أن انشـــاء وظيفة نائب السلطان فى العصر الأيوبى أضعف من أهمية الوزير ٠ فالوزارة التى كان لها شأن كبير فى العصر الفاطمى ، انحطت مكانتها فى العصرين الأيوبى ثم المماليكى ، بعد أن استحوذ نائب السلطنة على ماكان للوزير من سلطات ٠ وهكذا غدا الوزير فى العصر الأيوبى « وزير تنفيذ » لا غير أى يقتصر عمله على مجرد تنفيذ ما يأمر به السلطان ، حتى أن بعض خلفاء صلاح الدين استغنوا أحيانا عن وظيفة الوزير ٠

---

(١٢) يلاحظ أن العادل سيف الدين لم يلقب أثناء نيابته عن أخيه صلاح الدين فى حكم مصر بلقب « نائب السلطان » لأن صلاح الدين نفسه لم يتخذ فى حياته لقب سلطان ، وانما أضفى عليه المؤرخون والمعاصرون هذا اللقب تكريما له ٠

وبالاضافة الى وظيفة الوزارة وجدت وظائف اخرى سامية فى الدولة الأيوبية ، بعضـــها يختص بالبلاط والبعض الآخر يختص بالدواوين • فمن وظائف البلاط وظيفة الحاجب الذى يقوم بادخال الناس على السلطان •ووظيفة الاستادار الذى ينظر فى ادارة البيوت السلطانية ، ووظيفة الدوادار الذى يقوم بابلاغ الرســـائل ورفع القصص والشكاوى الى الســلطان والحصـــول على توقيعة على المراسيم والمناشير السلطانية ووظيفة ناظر الخاص ، المكلف برعاية شئون السلطان المالية •

وقد وجد بمصر فى ذلك العصر عدد كبير من الدواوين ــ أشبه بالوزارات اليوم ، قامت بتصريف مختلف شئون الدولة ، مثل ديوان الانشاء وديوان بيت المال ، وديوان الجيش • ولكل من هذه الدواوين ناظر ــ أى رئيس ــ وميزانية خاصة ، وعدد من الموظفين يتبعون الناظر وينفذون أوامره • وكان ابن مماتى المصرى المتوفى ســـنة ١٢٠٩ هـ (٦٠٦ هـ) ناظرا لديوان بيت المال فى أوائل العصر الأيوبى وألف كتابا مستفيضا بعنوان « قوانين الدواوين » تكلم فيه باسهاب عن الدواوين والوظائف الادارية فى مصر فى العصر الأيوبى(٣٣) •

يضاف الى ذلك عدد من الوظائف فى الدولة بعضها ذو صبغة ادارية مثل والى القاهرة والبعض الآخر ذو صبغة دينية مثل قاضى القضاة والمحتسب •

وجدير بالذكر ان صلاح الدين كان شافعى المذهب ، ولذا حرص على أن يكون قاضى القضاة شافعيا • وظل الشافعية يتمتعون بذلك التكريم حتى أوائل دولة المماليك عندما عين السلطان بيبرس قاضيا

---

(٣٣) ابن مماتى : كتـــاب قوانين الدواوين (تحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣) •

للقضــــاة من كل مذهب فأصــــبح عددهم أربعة يمثلون المذاهب السنية(٣٤) ٠

أما فيما يتعلق بالنظم المالية ، فان العصر الأيوبى شهد تحولا من النظام النقدى الى النظام الاقطاعى ٠ ومن الثابت فى تطور النظم الاقطاعية فى الشـــرق والغرب فى العصور الوسطى أن الاقطاع اتخذ طابعا حربيا فى بعض الدول التى خيم عليها الطابع الحربى ٠ ذلك أن الحكام والملوك كانوا يجدون أنفسهم فى حاجة الى محاربين وفرسان مزودين بالســـلاح والخيول ، مما يتطلب أموالا ونفقات لا تتحملها مواردهم ، فيعمدون الى توزيع اراض فىصورة اقطاعات على الأمراء والأجناد ، مقابل ما يؤدونه من خدمات عسكرية للحكام ٠ ولم يكن هذا الاقطاع وراثيا ، وانما صار للمقطع أن يتمتع بالأرض المقطعة له طالما يؤدى الخدمة العسكرية المتفق عليها فى شـــروط الاقطاع ٠ وما كاد صلاح الدين يوطد أقدامه فى مصر حتى قام « باقطاع البلاد والتوقيع بها على الأجناد »(٣٥) ٠ وقد حرص خلفاء صلاح الدين من حكام بنى أيوب على ترسيخ قواعد النظام الاقطاعى فى مصر ، فوزعوا الأرض اقطاعات على أمرائهم وأجنادهم ومماليكهم واختصوا أولادهم بالاقطاعات الكبرى ٠

ولاشك فى أن انتقال النظـــام المالى فى الدولة الأيوبية من الاقتصاد النقدى الى الاقتصاد الاقطاعى أدى الى ضعف ثم زوال ديوان المال ، ليحل محله ديوان جديد اختص بالنظر فى جميع شئون المالية من ايرادات ومصروفات ، سمى ديوان النظر ٠ وقد واجهت مصر فى بداية الدولة الأيوبية ضائقة مالية بسبب هروب الذهب منها نتيجة لعدم استقرار الأوضاع فىأواخر العصر الفاطمى ٠

---

(٣٤) المقريزى : كتاب المواعظ والاعتبار ، ج٢ ، ص ٣٤٤ (بولاق)
(٣٥) ابو شامة . كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، ج٢ ، ص ١٦ (القاهرة ١٢٨٧ هـ) ٠

ولكن صلاح الدين واجه الموقف فى حزم وسك عملة ذهبية جديدة كاملة العيار حازت ثقة المتعاملين ٠ على أنه يبدو أن أعباء الحرب الطويلة التى شنها صلاح الدين ضد الصليبيين الجأته سنة ١١٨٨ م (٥٨٣ هـ) الى ضرب درهم نصفه من الفضة ونصفه من النحاس فضاق الناس بهذه الدراهم الرديئة ، مما جعل السلطان الكامل الأيوبى يصدر فلوسا نحاسية ٠ وبالجملة فان أحوال النقد ظلت مضطربة أيام الأيوبيين ، بسبب العبء الكبير الذى تحملته مصر فى الدفاع عن الوطن العربى فى منطقة الشرق الأدنى ضد الصليبيين، مما أثر تأثيرا واضحا فى النشاط الاقتصادى داخل البلاد(٣٦) ٠

٥ ـ النشاط الاقتصادى فى العصر الأيوبى :

اعتمدت مصر فى حياتها الاقتصادية ـ طوال تاريخها ـ على الزراعة بوجه خاص ٠ فبالزراعة اشتغل غالبية أهلها ، وعلى الانتاج الزراعى عاش معظم سكانها ٠ والمعروف ان مصر لم تستخدم الرى الدائم لأول مرة الا فى القرن التاسع عشر للميلاد ، ولذلك أعتمدت الزراعة فى العصور الوسطى ـ ومن جملتها العصر الأيوبى ـ على رى الحياض ، بمعنى تقسيم الأراضى الزراعية الى حياض كبيرة تغمر بمياه الفيضان مدة كافية ، حتى اذا ما انحسرت عنها مياه الفيضان تبذر فيها البذور ٠ ولاشك فى أن اتباع هذه الطريقة أدى الى جعل البلاد والعباد تحت رحمة الفيضان ٠ فاذا جاء مستوى الفيضان طبيعيا تمكن الناس من زراعة الأرض فى اطمئنان ، وظهر المحصول طبيعيا فى مقداره وأثمانه ، أما اذا جاء الفيضان منخفضا فمعنى ذلك ضعف المحصول وارتفاع أسعار الغلال، مما يترتب عليه حدوث المجاعات وانتشار الأوبئة فى البلاد ٠

---

(٣٦) حسنين محمد ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ، ص ٩٤ وما بعدها (القاهرة ، ١٩٦٤) ٠

وفى ضوء هذه الحقيقة يمكن تفسير ما حدث بمصر فى تلك العصور من أزمات اقتصادية • ومن أمثلة ذلك ماحدث سنة ١٢٠١م (٥٩٧ هـ) فى عهد السلطان العادل الأيوبى ، اذ يروى المؤرخ ابن تغرى بردى انه « كان هبوط النيل •• واشتد الغلاء والوباء بمصر ، فهرب الناس الى المغرب والحجاز واليمن والشام ، وتفرقوا وتمزقوا كل ممزق ••• » ثم يروى المؤرخ كيف كان الناس خلال تلك الأزمة يأكلون لحوم أبنائهم بدافع الجوع ، فيذبح الرجل ولده ، وتساعده أمه فى طبخه وشيه !! • ومهما يكن فى هذه الأوصاف من مبالغات فانها تدل على سوء أحوال البلاد وأهلها ، وما كانت تتعرض له من ظروف اقتصادية عصبية عند انخفاض الفيضان(٣٧) •

ولا ينتظر فى مثل هذه الأوضاع أن يحيا الفلاح حياة آمنة مستقرة ، طالما كان تحت رحمة الطبيعة من ناحية وتحت رحمة الحكام والاقطاعيين من ناحية أخرى •

واذا كانت الطبيعة تشدد قبضتها على الفلاح حينا وترحمه أحيانا ، فان الحكام كانوا لا يرحمونه فى الغالب ، فاثقلوا عليه الالتزامات والرسوم ، ولم يتهاونوا فى جمع المفروض عليه من ضرائب وأموال • وربما خفف من هذا الوضع أن النظم التى وضعها الأيوبيون حرصت على أن تحمى الفلاحين من عسف السادة الاقطاعيين ، فكان التوقيع الخاص بالاقطاع فى ذلك العصر يأمر المقطع بضرورة الأمر بالمعروف واتباع العدل ، والمحافظة على الاقطاع وعمارته وحسن ادارته والاهتمام بالقضاء وعدم أخذ رشوة من الناس(٣٨) •

---

(٣٧) ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ١٧٣ •

(٣٨) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١١ ، ص ٣٣ ـ ٣٤ ، ج١٣ ، ص ١٤٤ ـ ١٤٨ •

هذا فضلا عن أن الأيوبيين عنوا بشئون الزراعة ، من ذلك ما يقال من أن صلاح الدين عهد الى الأمير قراقوش الأسدى بالعناية بأمر القناطر والجسور . وكانت الجسور فى ذلك العصر تنقسم الى قسمين : جسور سلطانية تستفيد منها سائر البلاد ، ولذا تعهدت الحكومة باقامتها والانفاق عليها ، وجسور خاصة بجهة معينة ويعود نفعها على تلك الجهة لا غير ، ولذا اختص الأهالى فيها ـ من الفلاحين والمقطعين ـ باقامتها والعناية بأمرها(٣٩) .

وبالاضافة الى الزراعة أسهمت الصناعة والتجارة فى تدعيم النشاط الاقتصادى فى مصر فى العصر الأيوبى . فمن الصناعات التى ازدهرت فى ذلك العصر صناعة المنسوجات الكتانية والحريرية والقطنية والصوفية ، وكانت أهم مراكز هذه الصناعة الفسطاط وتنيس ودمياط والبهنسا وأخميم . هذا فضلا عن صناعة الزجاج والتحف المعدنية وصناعة استخراج الزيوت من السمسم والكتان وغيرهما ، وصناعة الصابون ـ وخاصة فى قفط ـ من هذه الزيوت . أما السكر فكانت مصر تنتج منه كميات وفيرة يستهلك بعضها داخل البلاد ويصدر البعض الآخر(٤٠) .

أما من ناحية التجارة فان الحروب الصليبية أسهمت بشكل واضح فى تنشيط التبادل التجارى بين الشرق والغرب ، وخاصة أن القوى البحرية الايطالية وعلى رأسها البندقية وجنوا وبيزا ـ رأت فى الانفتاح الذى أتاحته الحروب الصليبية على الشرق فرصة لتدعيم نشاطها التجارى مع البلدان العربية . وهنا نلاحظ أن العداء لم يظل مستحكما بين المسلمين والصليبيين طوال عصر الحروب الصليبية وانما كانت جذوة الحروب تشتعل حينا وتخمد نارها أحيانا .

---

(٣٩) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج١ ، ص ١٠١ (بولاق) .
(٤٠) المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٠٢ .

وفى الفترات التى كان يتوقف القتال حدثت اتصالات حضارية ومعاملات اقتصادية على جانب خطير من الأهمية بين المسلمين والصليبيين · وقد عبر صلاح الدين عن هذه الحقيقة فى احدى رسائله التى جاء فيها « ·· ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبيازنه (البياشقة) والجنوية ، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفارا يحتكمون على الاسلام فى الأموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الحكام المرهوبة ·· » ·

ولم تفلح المراسيم التى أصدرتها البابوية لمنع التجار الأوروبيين من التعامل التجارى مع المسلمين فى الشرق الأدنى ، اذ أدى حرص الجمهوريات التجارية الايطالية على مواصلة نشاطها التجارى الى سعيها لتجديد المعاهدات الاقتصادية مع السلطان العادل بعد وفاة صلاح الدين · كذلك أدت سياسة التسامح التى اتبعها العادل والكامل الى اتجاه كثير من التجار الأوروبيين بسفنهم نحو شواطىء مصر وكان ان شهدت الاسكندرية ودمياط ـ بصفة خاصة ـ نشاطا تجاريا واسعا نتيجة للامتيازات التى منحها سلاطين الأيوبيين لتجار المدن الايطالية حتى أنه وجد بميناء الاسكندرية فى شتاء سنة ١١٨٧ ـ ١١٨٨ م (٥٨٣ هـ)(٤١) سبع وثلاثون سفينة ايطالية تجارية ، وهو عدد ضخم بالنسبة لفصل الشتاء بالذات ·

أما التجارة الداخلية فكانت لا تقل نشاطا فى العصر الأيوبى ، حتى ان الرحالة ابن جبير الذى زار مصر فى ذلك العصر ، وصف مدنها الداخلية ـ مثل منفلوط وأبى تيج وغيرها ـ فقال بأن « فيها الأسواق وسائر ما يحتاج اليه من المرافق »(٤٢) · وتشهد كتب

---

(٤١) Heyd : Hist. du Commerce du Levant, Tome 11, P.P. 391 — 399.

(٤٢) رحلة ابن جبير ، ص ٣١ (تحقيق حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥) ·

الحسبة التى ألفت فى العصر الأيوبى على مدى النشاط التجارى الداخلى فى ذلك العصر ، وعلى ما كان هناك من اشراف دقيق على الأسواق والباعة(٤٣) ٠

٦ ـ الحياة الاجتماعية فى العصر الأيوبى :

جاءت الدولة الأيوبية فى مصر من الناحية الزمنية بين دولتين اتصفتا بالبذخ وامتازت الحياة الاجتماعية فيهما بالاسراف والمبالغة فى احياء الحفلات ، هما الدولة الفاطمية والدولة المماليكية ٠ ولكن دولة الأيوبيين أحاطت بنشـــأتها ظروف غير الظروف التى أحاطت بالدولة السابقة لها أو الدولة اللاحقة بها ، اذ ولدت الدولة الأيوبية فى وقت كان الصليبيون بالشام أشد ما يكونون قوة وعنفا، حتى هدد خطرهم بابتلاع البلدان العربية ، ليس فى الشام فحسب ، بل أيضا فى مصر والحجاز ٠ لذلك لم تكن هناك فرصة أمام الأيوبيين ليحيوا حياة اجتماعية مترفة ، اذ غلبت فكرة الحروب على السلاطين وتغلبت عقيدة الجهاد على أحاسيس الناس ومشاعرهم ، مما لم يترك مجالا للتوسع فى الاحتفالات وحياة الترف ٠ واذا توافر الوقت أحيانا فى العصر الأيوبى لحياة الترف ، فان المال لم يتوافر عندئذ ، لأن حراسة القوافل وتحصين المدن والقلاع واعداد الجيوش وبناء السفن والأساطيل وصناعة العدد والآلات الحربية ٠٠ كل ذلك كان كفيلا بأن يستنفد كل درهم فى خزانة سلاطين بنى أيوب ٠ وحسبنا أن أول ما فكر فيه الخليفة المعز لدين الله الفاطمى عند وصوله الى مصر كان العناية بقصوره وتعمير القاهرة بالأسواق والمنشآت ورعاية الحفلات الدينية والمبالغة فى احيائها ، فى حين كان أول ما اهتم به

---

(٤٣) انظر على سبيل المثال كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة تأليف الشيزرى (تحقيق البلز العريني ١٩٤٦) ٠

صلاح الدين هو تحصين البلاد وبناء القلعة وسور القاهرة وتقوية استحكامات الثغور ٠

وقد وصف ابن شداد صلاح الدين الأيوبى وصفا يصور روح العصر ، فقال عنه ان « حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما بحيث ما كان له حديث الا فيه ، ولا نظر الا فى آلته ، ولا كان له اتمام الا برجاله ولا ميل الا الى من يذكره وبحث عليه ٠ لقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة »(٤٤) ٠

وبينما نقرأ عن خلفاء الفاطميين وسلاطين المماليك فى مصر أن كلا منهم مات تاركا فى خزائنه أكوام المال وعديد التحف ، اذا بكتب التاريخ المعاصرة تروى أن صلاح الدين مات ولم يترك فى خزانته سوى سبعة وأربعين درهما من الفضة « ولم يترك دارا ولا عقارا ٠٠ » لقد استنفد الجهاد كل دينار فى خزانته(٤٥) ٠

وليس معنى ذلك ان الحياة الاجتماعية فى مصر زمن الأيوبيين صارت مجدبة كل الجدب ، خشنة كل الخشونة ، اذ لم يخل الأمر من احتفالات دينية وغير دينية ومن أسمطة مدها سلاطين الأيوبيين ودعوا اليها أعيان الدولة فى أكثر من مناسبة ، ولكن كل ذلك تم غالبا فى غير اسراف وبدون تهتك ٠

والمؤرخ المقريزى عندما يصف بعض الاحتفالات فى العصر الأيوبى ، لا يشير الى ألوان الاباحية والمنكرات التى انتقدها فى مرارة عند كلامه عن الاحتفالات فى العصرين الفاطمى والمماليكى ٠

---

(٤٤) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ٤٤ (تحقيق محمد محمود صبح) ٠

(٤٥) المقريزى : كتاب السلوك ، ج١ ص ١١٣ ـ ١١٤ ٠

ومن ناحية أخرى ، فانه يفهم مما ذكره عبد اللطيف البغدادى ـ الذى زار القاهرة فى العصر الأيوبى ـ ان المجتمع المصرى بلغ درجة كبيرة من الرقى فى ذلك العصر ، فقال البغدادى عن حمامات القاهرة انه لميشاهد فى البلاد الأخرى التى زارها اتقن منهـــا صنعة واحكاما ، لما امتازت به من أرض مكسوة بالرخام الجميل ، وأحواض واسعة يجرى فيهاالماء الساخن والبارد ، ومقاصـــير بأبواب للمستحمين(٤٦) . كذلك أفاض ابن جبير فى وصـــف عناية السلطان صلاح الدين بالأغراب الذين يفدون الى الاسكندرية وغيرها من مدن مصر لطلب العلم ، فأمر السلطان « بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مارستان لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم اطباء يتفقدون أحوالهم .. » . أما أبناء السبيل من المغاربة فكانت تصرف لهم جرايات من الخبز وغيره أثناء مرورهم بمصر فى طريقهم الى الحج(٤٧) .

ولم تكن مدن الصعيد أقل رقيا فى مستواها عنمدن الوجه البحرى والقاهرة ذكر الرحالة ابن جبير عن بعض مدن الصعيد ـ مثل قنا وقفط ـ انها كانت فى العصر الأيوبى ممتازة « حسنا ونظافة بنيان واتقان صنع » كذلك امتدح ابن جبير تحشم نساء الصعيد « وصون نساء أهلها والتزامهن البيوت ، فلا تظهر فى زقاق من أزقتها المرأة البتة »(٤٨) .

٧ ـ الحياة الدينية والعلمية فى العصر الأيوبى :

كان أهم ما اتصفت به الحياة الدينية فى العصر الأيوبى هو القضاء على آثار المذهب الشيعى وتدعيم المذهب السنى فى انحاء

---

(٤٦) البغدادى : كتاب الافادة والاعتبار ، ص ٢١٣ .
(٤٧) رحلة ابن جبير ، ص ١٠ ـ ١١ .
(٤٨) المصدر السابق ، ص ٣٦ .

مصر • واذا كانت بعض بقايا المذهب الشيعى قد ظلت قائمة فى البلاد حتى عصر المماليك ، فان هذه البقايا غدت ضعيفة لا تقوى على الظهور حتى تختفي بعد قليل •

وثمة ظاهرة بنية أخذت تزداد وضوحا فى العصر الايوبى هى ظاهرة انتشار التصوف ، وما تبعها من بناء منازل للصوفية عرفت باسم الخانقاوات • ويفهم مما كتبه المقريزى ان صلاح الدين انشأ أول خانقاه بمصر - وهى خانقاه سعيد السعداء سنة ١١٧٣ م (٥٦٩ هـ) ، وولى عليها شيخا عرف بشيخ الشيوخ ، ووقف الأوقاف للانفاق على من فيها من الفقراء (الصوفية) ، كما خصص لهم فى كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، وبنى لهم حماما بجوارهم(٤٩) • ولم تلبث ظاهرة التصوف أن أخذت تنتشر فى مصر حتى تركت أثرا خطيرا فى الحياتين الدينية والاجتماعية على عصر سلاطين المماليك •

وأما عن النشاط العلمى فقد عرف عن سلاطين الأيوبيين حبهم للعلم والعلماء وهى صفة ورثوها عن مؤسس الأسرة صلاح الدين الذى جمع حوله رجال العلم واستمع اليهم وحضر مجالسهم وشاركهم فى أبحاثهم(٥٠) • وقد وصف المقريزى بعض سلاطين بنى أيوب مثل السلطان الكامل - بأنه « كان يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم ، وعنده شغف بسماع الحديث النبوى •• وكان يناظر العلماء وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بها ، فمن أجاب عنها قدمه وحظى عنده • وكان يبيت عنده بالقلعة ، جماعة من أهل العلم •• فينصب لهم أسرة ينامون عليها بجانب سريره ليسامروه •• »(٥١) •

---

(٤٩) المقريزى • المواعظ والاعتبار ، ج٢ ص ٤١٥ (بولاق) •
(٥٠) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، ج٤ ، ص ٣٢٩ •
(٥١) المقريزى كتاب السلوك ، ج١ ، ص ٢٥٨ •

وقد ظهر تقدير سلاطين بنى أيوب للعلم فى عنايتهم بالمكتبات ودور العلم • ومن أمثلة المكتبات تلك التى عنى بها السلطان الكامل بالقلعة وكانت فى الأصل تؤلف مكتبة القاضى الفاضل ، حتى استولى عليها السلطان الكامل ونقلها الى القلعة لتصبح نواة مكتبة كبرى ضمت ثمانية وستين ألف مجلد(٥٢) •

وأما دور العلم فعلى رأسها تأتى المدارس التى توسع الأيوبيون فى انشائها فى مصر • ومهما يقل من أن صلاح الدين الأيوبى انما قصد بانشاء المدارس نشر تعاليم المذهب السنى ومحاربة المذهب الشيعى ، فان التوسع فى انشاء المدارس فى حد ذاته جاء مظهرا قويا لرقى الحياة الفكرية فى عصر الأيوبيين • وقد بلغ عدد المدارس التى أنشأها صلاح الدين فى القاهرة وحدها خمس مدارس ووقف عليها الأوقاف لتنفق من ريعها وتتمكن من الاستمرار فى اداء رسالتها • واستمر سلاطين الأيوبيين بعد ذلك فى سياسة بناء المدارس تقربا الى الله ، لما كان يدرس فيها من علوم دينية(٥٣) . ومن أهمها المدرسة الكاملية التى أنشأها السلطان الكامل ١٢٢٤ م (٥٢١ هـ) والمدرسة الصالحية التى بناها الصالح نجم الدين أيوب سنة ١٢٤١ م (٦٣٩ هـ) • وكانت هذه المدرسة الأخيرة أول مدرسة تجمع بين مذاهب السنة الأربعة •

والواقع ان هذه المدارس كانت أشبه بالجامعات ، بمعنى انها كانت معاهد للتعليم العالى ، ولكل مدرسة مذهبها الذى تتبعه ، وان كان بعضها يشمل أربع كليات للمذاهب الأربعة • واذا كان المفروض فى المدرسة أن تكون مركزا للعلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وغيرها ، فان الوضع لم يلبث ان تطور حتى غدت المدارس مراكز

---

(٥٢) سعيد عاشور : الايوبيون والمماليك فى مصر والشام ، ص ١٥٣ •
(٥٣) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج٢ ص ٣٦٣ •

لتدريس النحو والفلسفة والعلوم الطبيعية فضلا عن العلوم الدينية ٠ وكان يقوم بالتدريس فى المدرسة مدرس أو أكثر من كبار علماء عصره ، ويعاونه معيد يعيد على الطلاب ما القاه عليهم المدرس ٠٠ وللمدرسة مكتبة بها عدد من الموظفين على رأسهم الخازن ـ وهو أمين المكتبة ـ يعاونه نساخ ومجلدون ومناولون ٠

وبالاضافة الى المدارس التى كانت تمثل نوعا من التعليم العالى ، وجدت فى العصر الأيوبى كتاتيب لتعليم الصغار القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن ٠ وقد أنشأ صلاح الدين عددا من هذه الكتاتيب لتعليم « أبناء الفقراء والايتام خاصة مما جعل الرحالة ابن جبير الذى زار مصر فى ذلك العصر يعتبر ذلك من « مآثره الكريمة ، المعربة عن اعتنائه بأمور المسلمين عامة »(٥٤) ٠

وكان ان نشطت مختلف الدراسات فى مصر فى العصر الأيوبى ٠ ففى الجانب الأدبى انجهت القرائح الى الأدعية ومدح النبى وكذلك المعانى الصوفية ، وذلك كله نتيجة للأزمة التى أحس بها المسلمون فى عصر الحروب الصليبية ٠

ومن أشهر شعراء مصر فى ذلك العصر ابن سناء الملك المصرى المتوفى سنة ١٢١١ م (٦٠٨ هـ) وقد استكثر من الموشحات وأجاد فيها ، وعمر بن الفارض المتوفى فى سنة ١٢٣٥ م (٦٣٢ هـ) وقد اتصف شعره بمسحة واضحة من التصوف ، وبهاء الدين زهير المتوفى سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) ٠ أما النثر فى ذلك العصر فأتصف باتقان الصناعة اللفظية ، والتفنن فى البديع والجناس والسجع

---

(٥٤) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢ ٠

والمبالغة فى التنميق ، كما يبدو بوضـــــوح فى كتابة عماد الدين الاصفهانى ورسائل القاضى الفاضل(٥٥) ·

كذلك شهد العصـــــر الأيوبى نشاطا كبيرا فى علوم اللغة ، وخاصة النحو والصرف أما علم التاريخ فقد ألفت فيه كثير من الموسوعات وكتب التراجم ، مع العناية بصفة خاصة بتسجيل أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين ·

٨ ــ الجيش والأسطول فى العصر الأيوبى :

وفى ختام كلامنا عن أحوال مصر فىالعصر الأيوبى ينبغى أن ننوه بالرعاية الفائقة التى لقيها الجيش والأسطول فى ذلك العصر · ذلك ان الدولة الأيوبية جاءت وليدة أحداث الحروب الصليبية ، وعاصرت أشد مراحل تلك الحروب ضراوة وعنفا ، ولذلك كان لابد وأن يكون الاهتمام بالجيش أول ما استأثر بجهود حكامها ·

ويبدو أن صلاح الدين أعاد تنظيم جيشه عدة مرات حتى جعل منه قوة ضاربة ، يتألف من فرسان ومشاه ، وينقسم الى أطلاب على رأس كل طلب أمير أى ضابط ، وبالاضافة الى الجيش الدائم ، ضم جيش صلاح الدين فرقا مساعدة من التركمان والأكراد والعرب ، وهؤلاء كانوا بمثابة جند غير نظاميين ، وان كانوا لا يقلون فى حالات كثيرة عن الجند النظاميين حماسة ورغبة فى الجهاد(٥٦) ·

---

(٥٥) ياقوت : معجم الأدباء ، ج١٩ ، ص ٢٥٦ ، السيوطى : حســن المحاضرة ، ج١ ، ص ٢٣٧ . ابن خلكان : وفيات الأعيان . ج١ ص ١٩٤ ، ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج٢ ص ٢٤٢ ·

(٥٦) المقريزى : كتاب السلوك ، ج١ . ص ٧٥ ، ابو شامة : كتاب الروضتين ، ج٢ ، ص ٧٦ ·

أما الأسطول المصـــرى فكان فى حالة سيئة عند قيام الدولة الأيوبية نتيجة لاهماله فى أواخر العصــر الفاطمى ، مما عرض شواطىء مصر ، فضلا عن الثغور الاسلامية فى بلاد الشام ، لهجمات خطيرة من جانب الصليبيين • لذلك اهتم صلاح الدين بأمر الأسطول اهتماما بالغا ، وخصص أموالا كبيرة لديوان الأسطول ، حتى غدا الأسطول المصرى قوة ضاربة منذ سنة ١١٧٩ م (٥٧٥ هـ) تضم أنواعا متباينة من القطع الحربية وناقلات الجند والخيول(٥٧) • وبفضل هذه القوى تمكن الأسطول المصرى من انزال ضربات قوية بالصليبيين فى البحرين المتوسط والأحمر ، فضلا عن مساعدة صلاح الدين ــ بعد حطين ــ فى الاســتيلاء على بعض الموانى والثغور الشـــامية •

وعلى الرغم من أن خلفاء صلاح الدين أهملوا أمر الأسطول وفترت همتهم عن العناية به الا أن تعرض مصر لحملتين صليبيتين بحريتيين كبيرتين فى النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة) ، جعل سلاطين بنى أيوب يفيقون الى رشدهم ويعاودون العناية بأمر الأسطول • وقد ظهر ذلك فى الوصية الشهيرة التى كتبها الصالح نجم الدين أيوب لابنه توران شاه والتى جاء فيها « فالأسطول أحد جناحى الاسلام ، فينبغى أن يكونوا شباعا ••»(٥٨)

٩ ــ مصر والحروب الصليبية :

يدل الاتجاه العام للحركة الصليبية منذ بداية القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة) على أن مصر بالذات غدت موضع اهتمام دعاة الحروب الصليبية وزعمائها ، بعد أن آمن الصليبيون

---

(٥٧) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٩ ــ ٣٤٠ •
(٥٨) النويرى : نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ورقة ٩٢

بالشام وأنصارهم فى الغرب الأوروبى بأن مصر غدت مركز المقاومة الحقيقية فى العالم الاسلامى ضد الحركة الصليبية ، وأنه منذ نجح نور الدين فى توحيد مصر والشام فى اطار جبهة واحدة ، والصليبيون شبه مطوقين بالمسلمين . هذا فضلا عما أثبتته التجارب فعلا من أن الأيوبيين كثيرا ما اعتمدوا على مصر ــ ذات الموارد البشرية والمالية الضخمة ــ فى الحصول على الامكانات التى مكنتهم من ضـــرب الصليبيين بالشام .

وبعبارة أخرى فان دعاة الحركة الصليبية والمتحمســـين لها وصلوا فى نهاية القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر الى نتيجة حاسمة لا شبهة فيها ولا جدال حولها ، هى أن مفاتيح بيت المقدس توجد فى القاهرة ، وأن عليهم البدء بمصر أولا اذا أرادوا تحقيق أهدافهم فى فلسطين والشام ، حتى لقد نادوا بأن القاهرة هى الطريق الطبيعى ــ الذى لا طريق غيره ــ للوصول الى بيت المقدس . وظهرت هذه العقيدة بوضوح فى أقوال زعماء الحركة الصليبية ودعاتها ، فهم حينا يشبهون مصر بأنها رأس الأفعى وأحيانا يشبهونها بالقلب فى الجسم .. الى غير ذلك من التشبيهات العديدة التى فاضـــت بها كتب دعاة الحروب الصليبية فى أواخر العصور الوسطى ، والتى ان دلت على شىء فانما تدل على أن الصليبيين أدركوا أن الخطر الحقيقى الذى هدد بقاءهم واعترض وجودهم وعرقل مشاريعهم فى بلاد الشام انما نبع من مصر بالذات(٥٩) .

وأدى الايمان بهذه الفكرة والتمسك بها ، الى تغيير هام خطير طرأ على اتجاه الحركة الصليبية ، فغدت مصر منذ بداية القرن الثالث عشر للميلاد تستأثر بجهود الصليبيين ، ووضعت الخطط

---

(٥٩) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٧٥٩ ــ ٧٦١ (طبعة ١٩٦٨) .

الخاصة بجميع الحملات الصليبية ماعدا النذر اليسير منها ــ منذ بداية القرن الثالث عشر ــ على أساس الاتجاه ضد مصر لضرب الوطن العربى الاسلامى فى قلبه النابض . من ذلك أن حملة صليبية كبرى تجمعت فى الغرب الأوروبى فى أوائل القرن الثالث عشر لمحو آثار حروب صلاح الدين فى الشرق واغتصاب بيت المقدس مرة أخرى من أيدى المسلمين . وكان أن تقرر ان تكون مصر بالذات هدف هذه الحملة بغية انزال ضربة قاصمة بها بوصفها مركز المقاومة الحقيقى ضد الصليبيين بالشام والمخزن الكبير الذى استمد منه الأيوبيون مواردهم البشرية والمادية فى محاربة الصليبيين . وبعد أن تحددت وجهة الحملة نهائيا ، اتصل الصليبيون بالبندقية لتقوم باعداد السفن اللازمة لنقل الصليبيين الى شواطىء مصر . ولكن البنادقة الذين كانوا يغلبون دائما مصالحهم الاقتصادية والتجارية على الصالح الصليبى انحرفوا بالحملة الصليبية سنة ١٢٠٤ نحو القسطنطينية ، وهاجم الصليبيون تلك المدينة المسيحية ، واستولوا عليها بحجة سياسة الدولة البيزنطية فى عرقلة المشاريع الصليبية بالشرق(٦٠) .

ولكن اذا كانت الحملة الصليبية الرابعة قد خرجت عن طريقها الموضوع لمهاجمة مصر ، فان ذلك لم يصرف أصحاب المشاريع الصليبية فى الشرق والغرب عن سياستهم مما جعل مصر تتعرض فى النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد لحملتين صليبيتين كبيرتين ، هما الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢١٨ والحملة الصليبية السابعة سنة ١٢٤٩ م . وهنا نلاحظ التشابه الكبير بين الحملتين اللتين فصلت بينهما قرابة ثلاثين سنة ، فكلاهما اتجه الى دمياط ، وكلاهما وقع فى نفس الاخطاء سواء فى اختيار مكان الرسو

---

(٦٠) سعيد عبد الفتاح عاشور . الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٧٣٣ وما بعدها (طبعة ١٩٨٦) .

والنزول أو فى تحديد طريق الزحف فى عمق البلاد ، وانتهى الأمر بأن كليهما تعرضت لنفس المصير من الفشل والهزيمة(٦١) ·

أما الحملة الصليبية الخامسة فكان الهدف منها تقويم الانحراف الذى وقعت فيه الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ م باتجاهها ضد القسطنطينية بدلا من مصر · وعندما اكتمل توافد الصليبيين من الغرب ، خرجت الحملة الخامسة من عكا فى مايو ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) متجهة الى دمياط ، بزعامة حنادى برين ملك مملكة بيت المقدس الذى آمن ايمانا قويا بفكرة ضرب مصر بوصفها القلعة التى تعترض الوجود الصليبى بالشام · ولم يفت الصليبيون عندئذ آن يتصلوا بدولة الحبشة المسيحية لتحريض النجاشى على التعاون معهم فى محاربة المسلمين والقيام بغزو الحجاز وهدم الكعبة(٦٢) ·

على انه يلاحظ أن حملة حنادى برين وقعت فى عدة أخطاء ، أولها أنه حاول غزو مصر عن طريق دمياط والنيل بدلا من أن يستفيد من تجارب الملك عمورى الأول ، وهى التجارب التى أثبتت أن الوصول الى القاهرة يكون أسهل عن طريق الصحراء الشرقية ، وربما اختار الصليبيون طريق دمياط لأنها أقرب الموانى المصرية الى الصليبيين بالشام ، فضلا عن أنهم ظنوا أن فرع دمياط يمثل طريقا سهلا يؤدى بهم الى جوف البلاد والقاهرة ، ويربطهم بقواعدهم بالشام · ولكنهم نسوا مايمكن أن يتعرضوا له فى غزوهم مصر عن طريق النيل من عقبات طبيعية تتمثل فى السدود والترع والقنوات العديدة ، بالاضافة الى مياه الفيضان التى تغمر كافة الأراضى بلا استثناء فى وقت

---

(٦١) المقريزى : كتاب السلوك . ج١ ص ١٩٥ ، ٣٣٤ وما بعدها ·

(٦٢) Colbeaux : Hist. Politique et Religieuse de L'Abyssinie, · Ps. 556 (Paris, 1929).

ارتفاع النيل ، وذلك فى عصور لم تعرف مصر كلها سوى أسلوب رى الحياض(٦٣) ٠

أما الخطأ الثانى الذى وقع فيه الصليبيون فهو رسوهم على الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط ، بدلا من النزول على الضفة الشرقية حيث تقوم مدينة دمياط نفسها ، مما آثار أمامهم مشكلة عبور النيل ، فى وقت كان مدخل النيل محصنا تحصينا قويا ، وتمتد بعرض مجراه عند مصبه مآصر ، وهى سلاسل ضخمة من الحديد تحول دون دخول السفن العادية مجرى النهر ٠ هذا بالاضافة الى برج السلسلة وهو بمثابة حصن بناه المسلمون وسط مجرى النيل لحماية دمياط ودفع أى عدوان يقع عليها ، واعتبر المعاصرون ذلك البرج « قفل الديار المصرية »(٦٤) ٠

وأخيرا فان الصليبيين أضاعوا كثيرا من الوقت عقب نزولهم على شاطىء مصر ، بدلا من الاستفادة بشن هجوم سريع مفاجىء ، مما أعطى المصريين فرصة طيبة للاستعداد ، فأسرع الملك الكامل الأيوبى ـ الذى كان ينوب عن أبيه السلطان العادل فى مصر ـ ونصب معسكره جنوبى دمياط ، فى الوقت الذى أمر العادل ابنه الملك الأشرف بمهاجمة ممتلكات الصليبيين وأراضيهم فى الشام ليجبرهم على رفع يدهم عن مصر ٠

وهكذا لم يستطع الصليبيون الاستيلاء على برج السلسلة وتحطيم المآصر التى تحمى مدخل النيل الا بعد ثلاثة أشهر ٠ ويقال ان السلطان العادل كان مريضا فلم يحتمل أثر تلك الاخبار السيئة

---

(٦٣) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, P. 190

(٦٤) ابو شامة : ذيل الروضتين (Rec. Hist. Cr. Or., 5. P. 161).

ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦١٤ هـ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، ج٧ ، ص ١٩٦ ٠

ومات فى نهاية أغسطس سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) فخلفه ابنه الكامل فى حكم مصر · وقد حاول الكامل القيام باجراءات دفاعية سريعة فشيد جسرا بعرض النيل وأغرق عدة مراكب كبيرة فى مجرى النهر لمنع السفن المعادية من التقدم ، ولكن الصليبيين تغلبوا على تلك العقبات · وكان ذلك فى الوقت الذى استمر اخوة الكامل - وهما المعظم عيسى والأشرف موسى - يشددون هجماتهم على الصليبيين بالشام(٦٥) ·

وزاد موقف المسلمين حرجا وصول امدادات كبيرة للصليبيين من غرب أوروبا ، وعلى رأس هذه الامدادات الكاردينال بلاجيوس مندوبا عن البابا ، فى الوقت الذى أخذ أحد قادة الكامل وهو ابن المشطوب يدبر مؤامرة ضده ، مما جعل الكامل يستنجد بأخيه المعظم الذى جاء مسرعا من الشام · على ان ذلك لم يفلح فى انقاذ دمياط التى صمدت فى شجاعة للحصار الصليبى المفروض عليها ، وتصدت فى بسالة لصد الهجمات المعادية ، حتى ساءت حالتها فاضطرت الى التسليم فى نوفمبر ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) ، وعندئذ بالغ الصليبيون فى أعمال السفك والعدوان داخل المدينة(٦٦) ·

على أن الاستيلاء على دمياط لم يكن بالنسبة للصليبيين أنتصارا سهلا رخيص الثمن ، اذ الواقع أن الصليبيين دفعوا ثمنا باهظا فى الأرواح والمعدات نتيجة للمقاومة العنيدة التى أبداها المصريون ·· وكان أن دب الخلاف بين قائدى الحملة الصليبية ، حنادى برين ملك الصليبيين والكاردينال بلاجيوس المندوب البابوى ، فانسحب الأول عائدا الى عكا فى أواخر مارس ١٢٢٠ م (٦١٧ هـ) ، وعندئذ تجمد وضع بلاجيوس فأضاع بقية ذلك العام والنصف الأول من عام

---

(٦٥) ابن العديم زبدة الحلب ، ج٣ ، ص ١٨٠ (دمشق . ١٩٦٨) ·
(٦٦) المقريزى : كتاب السلوك ، ج١ ، ص ٢٠١ ·

١٢٢١ م (٦١٧ ـ ٦١٨ هـ) فى حالة ركود تام . ولم يكن ذلك الا فى أواخر عام ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) عندما قرر بلاجيوس الزحف على القاهرة ، فأرسل الى حنادى برين يرجوه العودة ومساعدته ، وعندئذ خشى الملك الصليبى ان يتهم بعدم التعاون فعاد الى دمياط فى أوائل يوليو ، فى الوقت الذى شرع الصليبيون فى الزحف فعلا بمحاذاة مجرى النيل متجهين جنوبا(٦٧) .

أماالأيوبيون فلم يضيعوا ذلك الوقت ، وانما حاولوا فتح باب المفاوضات مع الصليبيين ، وعندما استنفدوا كافة وسـائل الحل السلمى أمام عناد الصليبيين وغرورهم ، لم يبق الا السلاح والحرب ، فأقام الكامل منزلة على الضفة الشرقية للنيل أطلق عليها اسـم المنصورة ، واجتمع المصريون فى حماسة بالغة ليقيموا خطا دفاعيا قبالة طلخا . هذا فى الوقت الذى اتخذت السفن الاسلامية مكانها فى نهر النيل لتسد الطريق فى وجه السفن الصليبية(٦٨) .

وفى أواخر يوليو سنة ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) اجتمع الأخوة الثلاثة ـ الكامل والمعظم والأشرف ـ فى المنصورة استعدادا للمعركة الفاصلة ، فى الوقت الذى أخذ الصليبيون يواصلون زحفهم جنوبا بحذاء النيل . وهنا يلاحظ أن الصليبيين ارتكبوا خطأ جديدا ، اذ لم يكتفوا بأنهم اختاروا أسـوأ الطرق وهو طريق النيل والمزارع والطمى للتوغل داخل البلاد ، بل اختاروا أيضا أسوأ فصول السنة لاتمام زحفهم . فبعد أن أضاعوا بضعة أشهر فى الانتظار أو فى خلافاتهم الداخلية ، قرروا الشروع فى زحفهم فى وقت فيضان النيل وهو وقت يمتلىء فيه مجرى النهر ، فضلا عن الترع والقنوات العديدة بالماء . ونسى الصليبيون ـ أو ربما أدى بهم جهلهم بطبيعة البلاد ـ

---

(٦٧) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٧٧٣ ـ ٧٧٤ (القاهرة ١٩٨٦) .

(٦٨) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٢٤١ .

الى عدم ادراك حقيقة خطيرة هى أنهم أثناء زحفهم انما يسيرون وسط مثلث كبير تحيط به المياه من ثلاث جهات ، وهى بحيرة المنزلة شرقا وفرع دمياط غربا والبحر الصغير جنوبا . وهكذا حتى وصل الصليبيون الى نقطة تفرع البحر الصغير (بحر أشموم) من فرع دمياط ، وهى النقطة التى تمثل رأس المثلث الذى تحيط به المياه من ثلاث جهات ، وعندئذ قطع المصريون السدود ، فانطلقت مياه الفيضان فى قوة تغمر الأرض الواسعة ، ولم يشعر الصليبيون بأنفسهم الا وقد غاصوا بخيولهم وآلاتهم فى الماء والوحل(٦٩) .

وعندما تنبه الصليبيون الى خطورة موقفهم حاولوا الارتداد بسرعة نحو دمياط ، ولكن السلطان الكامل كان قد أنزل شماليهم – عند شار ساح شمالى شربين – ألفى فارس ليقطعوا على الصليبيين خط الرجعة .. وهكذا تجمد موقف الصليبيين ، وأحاطت بهم المياه من حولهم ومن تحت أرجلهم ، فلاهم يستطيعون القتال فى الوحل ، ولا هم يستطيعون العودة الى قواعدهم ، ولم يبق أمامهم الا طلب السماح والعفو لتركهم ينسحبون من البلاد ، والمعروف عن السلطان الكامل الأيوبى أنه اشتهر بتسامحه ، فوافق على الصلح الذى عرضه الصليبيون ، وتم جلاؤهم عن دمياط خائبين فاشلين فى سبتمبر ١٢٢١ م (٦١٨ هـ)(٧٠) .

وعلى الرغم من الخلافات التى دبت بين الكامل الأيوبى فى مصر ، وأخويه المعظم والأشرف فى الشام ، الا أن مصر استمرت فى ذلك الدور – بعد جلاء الصليبيين عن دمياط سنة ١٢٢١ م – تنهض بدورها فى حماية الوطن الاسلامى فى المنطقة وخاصة ضد الخطر

---

(٦٩) ابن الاثير الكامل ، حوادث سنة ٦١٤ ، المقريزى . السلوك ، ج١ ، ص ٢٠٧ .

(٧٠) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ، ٦١٤ هـ ، ابو شامة : ذيل الروضتين ج٢ . ص ٢٠٩ .

الصليبى • وليست هناك أهمية خاصة للأحداث التى دارت فى الربع قرن الذى أعقب جلاء الصليبيين عن دمياط ، سوى مجىء حملة صليبية صغيرة ، هى الحملة السادسة بزعامة فردريك الثانى امبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى الغرب ، تمكنت من اعادة بيت المقدس — عن طريق المفاوضات والحلول السلمية — الى حوزة المسيحيين سنة ١٢٢٩ م (٦٢٦ هـ) ، وهو الأمر الذى لم يرض عنه المسلمون وأعلنوا سخطهم الشديد عليه (٧١) • وكان ان توفى السلطان الكامل سنة ١٢٣٨ م (٦٣٥ هـ) ، فأدى ذلك الى فترة من عدم الاستقرار بسبب المنازعات بين أبناء البيت الأيوبى ، انتهت بقيام الصالح نجم الدين أيوب — ابن الكامل — فى منصب السلطنة سنة ١٢٤٠ م (٦٣٧ هـ) ، وفى عهد السلطان الصالح هذا استرد المسلمون بيت المقدس نهائيا — اذ لم يقدر لجيش مسيحى أن يدخلها بعد ذلك أبدا حتى الحرب العالمية الأولى — وتمت هذه العملية على أيدى الخوارزمية سنة ١٢٤٤ م (٦٤٢ هـ) (٧٢) • وسرعان ما أدت هذه العملية الى تمكين الصالح نجم الدين أيوب من اعادة توحيد الدولة الأيوبية ، فنجح فى السيطرة على دمشق وبيت المقدس فضلا عن القاهرة • وهذه الوحدة مكنته من الاستفادة من امكانات مصر مرة أخرى فى انزال عدة ضربات بالصليبيين فى الشام سنة ١٢٤٧ م (٦٤٥ هـ) فانتزع منهم قلعة طبرية ، كما استولى على عسقلان وبذلك انحسرت حدود الصليبيين وانكمشت الى أبواب يافا (٧٣) •

على أن استيلاء المسلمين على بيت المقدس سنة ١٢٤٤ م

---

(٧١) ابو الفدا : المختصر ، سنة ٦٢٢ هـ ، العينى : عقد الجمان ، سنة ٦٢٦ هـ •

(٧٢) ابن واصل . مفرج الكروب ، ج٥ ، ص ٣٣ •

(٧٣) ابو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٤٥ هـ ، العينى : عقد الجمان ، حوادث ٦٤٥ هـ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٥ ، ص ٣٧٨ •

(٦٤٢ هـ) من ناحية ، والضربات التى انزلها الصالح أيوب بالكيان الصليبى فى الشام من ناحية أخرى ، كان لها صدى عنيف فى الغرب الأروبى ، فقامت البابوية كعادتها تدعو لحملة صليبية جديدة ، وهى الدعوة التى صادفت قبولا فى نفس لويس التاسع ملك فرنسا · وبعد ان اكتملت استعدادات الملك لويس التاسع خرج على رأس حملته الى جزيرة قبرص سنة ١٢٤٨ م (٦٤٦ هـ) حيث قضى الصليبيون بضعة أشهر ، حتى استقر رأيهم أخيرا على مهاجمة مصر بوصفها قلب المقاومة الاسلامية(٧٤) ·

وهكذا تكررت فصول الحملة الصليبية الخامسة قبل ذلك بثلاثين عاما ، فخرج الملك الفرنسى على رأس حملته الصليبية من قبرص قاصدا دمياط فى مايو سنة ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) · والشىء الغريب الذى يسترعى الانتباه هو أن الحملة الصليبية السابعة بزعامة لويس التاسع لم تستفد مطلقا من الدروس التى تلقتها الحملة الخامسة بزعامة حنادى برين ، وانما وقعت فى نفس الاخطاء سواء فى الرسو على الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط بدلا من الضفة الشرقية التى تقع عليها دمياط ذاتا ، أو فى اضاعة خمسة أشـــهر كاملة (يونيو ــ نوفمبر ١٢٤٩ م = ٦٤٧ هـ) عقب سقوط دمياط فى قبضة لويس التاسع ، ثم اختيار أسوأ الطرق وهو طريق النيل الملىء بالترع والقنوات فى الزحف على القاهرة ·

حقيقة ان الســـلطان الصالح نجم الدين أيوب توفى فى تلك الأثناء ــ فى نوفمبر ١٢٤٩ م (٦٤٧ هـ) ــ ولكن زوجته شجرة الدر قبضت على زمام الأمور فى حزم ومهارة ، وأرسلت تستدعى على عجل ابنه توران شاه الذى كان خارج البلاد ينوب عن أبيه فى حصن كيفا بشمال العراق · ومرة أخرى وصل الصليبيون عند رأس المثلث

---

(٧٤) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٨٣٥ (طبعة ١٩٨٦) ·

« بحر » النيل مركزا لهم · ومعظم هؤلاء المماليك البحـــرية من الأتراك ، جلبوا من بلاد القفجاق ــ شمالى البحر الأسود ــ ومن بلاد القوقاز قرب بحر قزوين · والمعروف عن الأتراك القفجاق أنهم امتازوا عن غيرهم من طوائف الترك بحسن الطلعة وجمال الشكل وقوة البأس فضلا عن الشجاعة ·

وكان أن حقق المماليك البحرية الغرض من انشـــاء فرقتهم واثبتوا جدارتهم وكفايتهم عندما أحرزوا انتصـــاراتهم على لويس التاسع وحملته ــ بين المنصورة وفارسكور ــ سنة ١٢٥٠ م (٦٤٧هـ) · وصادف ذلك وصول السلطان الجديد توران شاه ــ ابن الصالح نجم الدين أيوب ــ الذى وصفته المصادر المعاصرة بالطيش والخفة والهوج ، فلم يقدر حقيقة الدور الذى نهض به المماليك البحرية ولم يدرك أهمية تلك الفرقة ، وانما حسدهم على ما صار لهم من نفوذ نتيجة للانتصارات التى حققوها ، وأخذ يخطط للخلاص من زعمائهم · وجاء ذلك فى الوقت الذى استثار توران شاه حفيظة زوج أبيه شجرة الدر بعد أن تنكر لها ونسى أنها حفظت له عرش أبيه بعد وفاته وأرسلت تستدعيه من حصن كيفا ، فاتهمها بانها أخفت ثروة أبيه ، وأخذ يكيد لها · ولم يلبث أن تم اتصال بين المماليك البحرية من ناحية وشجرة الدر من ناحية أخرى للتخلص من العدو المشترك ، حتى انتهى الأمر بقتل توران شاه سنة ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) ، وبمقتله انقرضت دولة بنى أيوب من مصر بعد أن حكموها احدى وثمانين سنة(٧٩) ·

ويبدو أن شجرة الدر كانت أبرز شخصية على مسرح الأحداث بعد مقتل توران شاه فاختيرت لمنصب السلطنة ، نظرا لما اشتهرت

---

(٧٩) ابو الفدا : المختصر فى اخبـــار البشـــر ، ج٣ ، ص ١٨١ ، المقريزى : كتاب السلوك ، ج١ ، ص ٣٥٨ ــ ٣٦٠ ، ابن تغـــرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٣٧٢ ·

به من أنها كانت « خيرة ، دينة ، رئيسة ، عظيمة فى النفوس » .
وكانت شجرة الدر أول أمرها جارية للخليفة المستعصم العباسى ، قبل أن يشتريها الصالح نجم الدين أيوب ويعتقها ويتزوجها ، ولذا فانها من ناحية الأصل والنشأة أقرب الى المماليك ، مما جعل المؤرخين يعتبرونها أولى سلاطين المماليك فى مصر ، فقال عنها المقريزى أنها « أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك »(٨٠) .

وبعبارة أخرى ، فانه بقيام شجرة الدر فى الحكم سنة ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) بدأت دولة سلاطين المماليك فى مصر ، وهى الدولة التى استمرت فى حكم البلاد أكثر من قرنين ونصف من الزمان ، أى حتى الغزو العثمانى سنة ١٥١٧ م (٩٢٢ هـ) . وقد انقسمت هذه الدولة الى قسمين أو دولتين ، الأولى دولة المماليك الترك أو البحرية الذين استمروا فى الحكم حتى سنة ١٣٨١ م (٧٨٤ هـ) والثانية دولة المماليك الجراكسة أو البرجية ــ نسبة الى أبراج القلعة التى نشأوا وربوا فيها ــ واستمرت حتى سقطت على يد السلطان سليم العثمانى سنة ١٥١٧ م (٩٢٢ هـ) .

واذا كان معظم مماليك الدولة الأولى من عنصــــر الأتراك القفجاق ، ومعظم مماليك الدولة الثانية من عنصر الجركس أو الشراكسة ، فليس معنى ذلك ان عصر سلاطين المماليك فى مصر لم يعرف غير هذين العنصرين . ففى عصر دولة المماليك الأولى وصلت دفعات من المماليك من أصل مغولى ، وهؤلاء ارتقوا بسرعة فى وظائف الدولة حتى أن السلطان كتبغا نفسه ١٢٩٤ ــ ١٢٩٦ هـ ــ (٦٩٤ ــ ٦٩٦ هـ) كان مغولى الأصلى . وفى ضوء هذه الظاهرة يمكننا أن نفسر انتشار بعض عادات المغول فى مصر بين المماليك ،

---

(٨٠) المقريزى : كتاب السلوك ، ج١ ، ص ٣٦١ .

مثل أكل لحوم الخيل فى الحفلات والمناسبات ، وصناعة بعض أنواع الخمور من لبن الخيل بالذات(٨١) ٠

وعندما وجد تجار الرقيق ان سلاطين المماليك وأمراءهم فى مصر يقدرون بضاعتهم ويدفعون فيها الأموال الطائلة ، نشطوا فى جلب المماليك ، وأسهم فى هذه التجـارة بعض التجار الأوروبيين ـ وخاصة من المدن التجارية الايطالية ـ الذين نافســوا التجار الشرقيين فى جلب المماليك الى مصر ٠ وهكذا نجد أصول المماليك فى مصر وقد أخذت تتنوع تنوعا واضـــحا ، فوجد منهم المغول والصقالية والروم والأسبان والألمان ٠٠ وغيرهم ، فضلا عن الأتراك والشراكسة ٠ وقد انتسب هؤلاء المماليك غالبا الى أساتذتهم ، أى سادتهم الذين اشتروهم بالمال من التجار وأشرفوا على تربيتهم ٠٠ فالمماليك الظاهرية بيبرس نسبوا الى السلطان الظاهر بيبرس والمماليك الأشرفية خليل نسبوا الى السلطان الأشرف خليل ٠٠٠ وهكذا ٠٠ وأحيانا نسب المملوك الى تاجره الذى جلبه اذا كان معروفا بحسن بضاعته وجودتها ، كالمماليك العثمانية الذين نسبوا الى الخواجا عثمان أحد كبار تجار الرقيق فى ذلك العصر ٠ وربما نسب المملوك الى قيمته التى اشترى بها اذا كانت كبيرة تستحق الفخر ، لما لها من دلالة على عظم المواهب والصفات المتوفرة فى ذلك المملوك مثل قلاون الالفى الذى اشترى بألف دينار(٨٢) ٠

---

(٨١) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ١٢ ٠

(٨٢) المقريزى : كتاب المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٩١ (بولاق) ابن قاضى شهبة . الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج٤ ، ص ٢٧٣ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص ١٤١ ٠

٢ ـ نظام المماليك وحياتهم :

حكم المماليك مصر بوصفهم ارستقراطية عسكرية ممتازة . سيطرت على البلاد وأهلها • وكان لهم فى أصلهم ونشأتهم وطريقة تربيتهم وأسلوبهم الخاص فى الحياة سياج اكسبهم واكسب دولتهم طابعا خاصا مميزا • وعلى الرغم من أن المماليك يرجعون الى أصول وعناصر أجنبية ـ وفدت على البلاد من الشرق والغرب ، الا أنه لا يمكن أن نعتبر حكمهم حكما أجنبيا • ذلك انهم غدوا بعد جلبهم الى البلاد ، جزءا من مصر وتاريخها ، ونجحت مصر فى استيعابهم وهضمهم وتشكيلهم فاعتنقوا الاسلام ، وأحسوا بأحاسيس أهل البلاد ، وانفعلوا بحضـــارتهم • وبذلك أمدوا الوطن العربى الاسلامى ـ ليس فى مصر فقط بل فى الشام أيضا ـ بدماء جديدة حتى غدوا درع المنطقة الذائدين عنها ، لا يعرفون لهم وطنا الا مصر ولا أرضا غير أرض العروبة ولا دينا عدا الاسلام • ونسمع عن بعضهم عندما شب وكبر وأصاب قدرا من حسن الحظ فى الحياة ، واستدل على مسقط رأسه الأول ، أنه أرسل يستدعى أبويه وأهله الى مصر ، بوصفها وطنه الذى غدا لا يعرف وطنا غيره • وبعبارة أخرى فان أصول المماليك الأجنبية لا تتعارض مطلقا مع ما صاروا اليه قطعة من مصر وتاريخها وحضارتها • وما أشبه المماليك فى ذلك العصر بالشعب الأمريكى الذى ترجع أصوله اليوم الى مختلف الجنسيات والأصول ولكنهم غدوا قطعة من أمريكا يشكلون تاريخها ولا ينتسبون الا اليها ، ويعملون من أجلها ، والتشبيه مع الفارق •

وكان السلطان اذا اشترى عددا من المماليك ، فانه يرسلهم أولا الى الأطباء لفحصهم ، ثم ينزلهم فى الطباق ـ وهى البيوت المخصصة لتربيتهم فى القلعة ـ فيشملهم الطواشى المقدم على الطبقة • وقد خصص لكل طبقة من هذه الطباق فقيه يحضر اليها لتعليم المماليك

القرآن والخط واحكام الدين وآداب الشريعة(٨٠) ٠ فاذا كبر المملوك وأدرك سن البلوغ بدأ تعليمه فنون الحرب من « الرمى بالنشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل وأنواع الفروسية » ٠ وعندما ينتهى المملوك من هذه المرحلة التعليمية يظل يتقدم درجة بعد درجة ، حتى يتحرر ويرتقى ليصير من الأمراء ٠

وعندما يتحرر المملوك ويصبح أميرا كان من حقه أن يقتنى بدوره عددا من المماليك يتناسب مع درجة امارته ٠ وأرقى درجات الامارة كانت « أمير مائة مقدم ألف » ومن حق هذا الأمير الكبير أن يمتلك مائة مملوك ويقود أثناء الحرب ألفا من المماليك(٨٤) ٠

والواقع أن المملوك اذا تحرر وصار من الأمراء فانه يصبح سلطانا صغيرا ، أو على قول القلقشندى « سلطانا مختصرا » ، تدق على بابه الطبول والزمور ، ويكون له اسطبل خاص أى مجموعة من المبانى تضم مسكنه وبيوت مماليكه وموضع خيوله ومخازن مؤنتها وسروجها ، وله ادارات خاصة ــ تعرف باسم البيوت الكريمة ــ تشرف على مصالحه مثل الطشت خاناه ، والفراش خاناه وغيرهما ٠ ويعتمد فى حياته على الاقطاع الذى يهبه السلطان اياه والذى كان يتراوح عادة بين زمام قرية وعشر قرى(٨٥) ٠

ولم تكن الرابطة الأسرية ــ أى ارتباط الزوج بزوجه وأولاده وأسرته ــ هى أقوى الروابط بين المماليك ، وانما فاقتها رابطة الأستاذية أى الرابطة التى تربط المملوك بسيده ، أى أستاذه الذى اشتراه رقا فى صغره وتعهده بالتربية والرعاية حتى كبر واعتقه ٠

---

(٨٣) المقريزى : كتاب السلوك ، ج٢ ، ص ٥١٤ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص ١٤ ٠

(٨٤) القلقشندى : كتاب صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ١٤ ــ ١٥ ٠

(٨٥) المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٦٠ ٠

وقد كرس السلاطين والأمراء الجزء الأكبر من عنايتهم لمماليكهم ، ولم يضنوا عليهم بالأرزاق والأموال ، وانما خصصوا لهم الأطعمة المختلفة من لحوم وحلوى وفواكه ، كما عينوا لهم الكسوات الفاخرة ، بل ان الأمير كان لا يتناول طعاما مع زوجه وأولاده وانما يتناوله صحبة مماليكه « ولا يمكن أن ياكل الا وجميع أجناده معه»(٨٦) ٠

ذلك ان السلطان أو الأمير كان يعرف جيدا أن هؤلاء المماليك هم عصبيته وحماته والملتفون حوله وقت الأزمات ، ودرعه ضد خصومه ، والمنتسبون اليه ٠ ومن ناحية أخرى فان المملوك كان يشب وينشأ لا يعرف أبا الا أستاذه الذى اشتراه صغيرا وسهر على تربيته ، ولم يضن عليه بمال أو عطف ٠ وهكذا بلغت رابطة الأستاذية ـ التى تربط المملوك بأستاذه ـ درجة من القوة جعلت بعضهم يوصى فى الحجج الشرعية الخاصة بأوقافهم بصرف جزء من ريع الوقف « على تربةأستاذه »(٨٧) ٠

ويضاف الى هذه الرابطة رابطة أخرى هى رابطة الخشداشية ـ أى الزمالة ـ بمعنى ان يحس المماليك المنتمون الى أستاذ واحد برابطة قوية تربط بينهم حتى وكأنهم اخوة ينتمون الى أب واحد ٠ هذا فضلا عن رابطة الزمالة بين المماليك جميعا وبين أفراد كل طائفة من طوائفهم(٨٨) ٠

---

(٨٦) المقريزى المواعظ والاعتبار ، ج١ ، ص ٨٧ ـ ٨٨ ٠

(٨٧) عبد اللطيف ابراهيم ٠ دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر المماليك مجلد ١ ، ص ٣٩ (رسالة لم تطبع) ٠

(٨٨) محمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة فى تاريخ دولة المماليك بمصر (بحث نشر فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، ١٩٣٦) ٠

على أنه يبدو أن المماليك أحسوا من أول الأمر بأنهم لا يمتلكون حقا شرعيا فى الحكم ، اذ اغتصبوا الملك من سادتهم بنى أيوب ٠ هذا فضلا عن احساسهم بعقدة نفسية خطيرة مصدرها أصلهم غير الحر ، وأنهم كانوا رقيقا فى يوم من الأيام مما يضعف من مكانتهم فى نظر المحكومين ٠ من ذلك ما تعرضوا له من ثورات فى بداية حكمهم من جانب بقايا البيت الأيوبى فى الشام من ناحية ، ومن جانب الأعراب فى مصر من ناحية أخرى ، وهم الذين أبو الخضوع لأناس « قد مسهم الرق »(٨٩) ٠

ولهذا وذاك من العوامل لجأ المماليك الى احياء الخلافة العباسية فى مصر بعد أن كانت قد سقطت على أيدى التتار - أو المغول - فى بغداد سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) ٠ ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس استحضر أحد أبناء البيت العباسى الى مصر ، وبعد أن شهد الشهود على صحة نسبه بويع بالخلافة فى القاهرة سنة ١٢٦١ م (٦٥٩ هـ) ، فقام الخليفة العباسى الجديد بدوره بتقليد السلطان الظاهر بيبرس « البلاد الاسلامية » ، مما أضفى على سلطان المماليك وحكمه صبغة شرعية ، بوصفه متمتعا ببيعة الخلافة العباسية(٩٠) ٠

على أنه يبدو أن هذه الخطوة لم تكن كافية للتغلب على مركب النقص الذى أحس به المماليك من ناحية أصلهم غير الحر ، ومن ثم دأبوا على الظهور فى صورة حماة السلام الذابين عنه ليتكسبوا حب المعاصرين وتقديرهم ، ذلك أنهم لم يكتفوا برعاية المنشآت والمؤسسات

---

(٨٩) المقريزى ٠ البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب ، ص ٩ ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، ص ٣٨٦ - ٣٨٨ ٠

(٩٠) النويرى : نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص ١٨ - ١٩ (مخطوط) ، المقريزى : كتاب السلوك ، ج١ ص ٤٤٨ وما بعدها ٠

الدينية ورجالها ، وانما قاموا بحركة جهاد واسعة أظهرتهم فعلا فى صورة القوة الكبرى التى حمت الاسلام فى الشرق الأدنى من الأخطار العديدة التى ألمت به ، وعلى رأسها خطر الصليبيين من ناحية ، وخطر التتار من ناحية أخرى ، فضلا عن خطر مملكة النوبة المسيحية التى ظلت عندئذ تهدد حدود مصر الجنوبية من ناحية ثالثة ٠

٣ ـ المماليك والتتار :

قامت دولة سلاطين المماليك فى مصر فى وقت دهم منطقة الشرق الأوسط خطر ضخم من نوع جديد هو خطر التتار أو المغول ٠ فبعد أن نجح جنكيزخان فى توحيد قبائل التتار غدوا قوة رهيبة فى أوائل القرن الثالث عشر ، وانطلقوا غربا نحو شرق أوروبا ووسطها من ناحية والشرق الأوسط من ناحية أخرى ، فى صورة غزوات هدامة يسفكون الأرواح بالجملة ويفسدون الزرع والضرع ويخربون المدن والقرى ، وينشرون الدمار والرعب فى كل مكان ٠ ولم يكتفوا بالاستيلاء على بلاد فارس ، وانما غزوا العراق واقتحموا بغداد ليسقطوا الخلافة العباسية ويقتلوا ثمانمائة ألف من أهلها فى مذبحة رهيبة سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) ، مما أثار موجة من الرعب فى بلاد الشام ومصر ، وهما على التوالى الخطوتان التاليتان فى خط سير الزحف التترى(٩١) ٠

واذا كان ملوك الأيوبيين فى بلاد الشام قد ضعفوا أمام ذلك الخطر ، فاستسلم بعضهم وصانعوا العدو وأعلنوا خضوعهم له ، فى حين فر البعض الآخر تاركا بلاده ، تسقط فى قبضة التتار أتباع هولاكو ، مما مكنهم من الاستيلاء على ميافارقين وحلب ودمشق ٠٠

---

(٩١) أبو الفدا : المختصر ، حوادث ٦٥٦ هـ ، رشيد الدين الهمذانى : جامع التواريخ ، ص ٢٣٦ وما بعدها ٠

فان المماليك فى مصر صــــمدوا ووقفوا موقفا كريما يذكره لهم التاريخ . ذلك ان السلطان قطز ما كاد يتسلم رسالة من هولاكو ، يطلب منه فيها الاستسلام ، وينذره بالويل والثبور اذا حدثته نفسه بالمقاومة . حتى هب قطز يدق طبول الحرب معتمدا على امكانات مصر الواسعة ، فأمر بقتل رسل التتار الأربعة وتعليق رؤوسهم على باب زويلة ، وشرع فى تعبئة قواته على أوسع نطاق(٩٢) .

ومرة أخرى خرج جيش كبير ضخم من مصر لينقذ بلاد الشام من موجة خطر جديد . وشاء حسن حظ المماليك عندئذ أن يضطر هولاكو نفسه الى العودة مسرعا الى جوف القارة الآسيوية عندما سمع بموت خاقان المغول العظيم ، وانكان ذلك لم يوقف موجة الزحف المغولى التى أخذت تمتد الى جنوب فلسطين فى اتجاه حدود مصر . وفى ذلك الوقت كان جيش المماليك بزعامة سلطانهم قطز قد زحف عن طريق غزة والساحل متجها صوب بحيرة طبرية(٩٣) .

وفى موقعة عين جالوت التى دارت بين المسلمين والمغول سنة ١٢٦٠ م (٦٥٨ هـ) تفوق المغول فى أول الأمر ، وعندئذ أظهر قطز مزيدا من الثبات حتى يقال انه ألقى خوذته عن رأسه الى الأرض وصاح « واسلاماه » ، وحمل على المغول حملة صادقة زعزعهم بها ، فانهارت صفوفهم ، وقتل كتبغا قائدهم وكثير من رجاله ، وولى الباقون الادبار(٩٤) .

ولاشك فى أن موقعة عين جالوت كانت نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الشرق الأدنى . ومهما يقل من أن المغول كانوا بوصولهم الى

---

(٩٢) المقريزى : كتاب السلوك ، ج١ ، ص ٤٢٩ .
(٩٣) ابو الفدا : المختصر ، حوادث سنة ٦٥٨ هـ .
(٩٤) ابن تغرى . المنجوم الزاهدة ، ج٧ ، ص ٧٩ .

عين جالوت قد بلغوا نهاية الشوط فى حركتهم التوسعية فى ذلك الاتجاه ، فان موقف مصر وحكامها هو الذى انقذها ـ فضلا عن الشام ـ من خطر المغول وجعل دولتهم فى فارس تقف عند حدود العراق • أما بالنسبة للمماليك أنفسهم فان انتصارهم فى عين جالوت أضفى عليهم وعلى دولتهم الناشئة هالة من المجد كانوا فى أشد الحاجة اليها • ويكفى أنهم تغلبوا على الخطر الكاسح الذى لم تستطع قوة أخرى أن تصمد أمامه وبذلك أنقذوا الشام ومصر من خطر التتار الوثنيين • يضاف الى ذلك انالمماليك بعد عين جالوت بسطوا سيطرتهم على كل بلاد الشام ، فطاردوا المغول وردوهم الى الجزيرة والعراق من ناحية ، وانتزعوا ممتلكات البيت الأيوبى فى الشام من ناحية أخرى • ولاشك فى ان تقاعس ملوك البيت الأيوبى عن صد التتار ، ونفورهم من الجهاد ، بل تواطأ بعض ملوك بنى أيوب بالشام مع التتار واشتراكوا معهم ضد اخوانهم المسلمين ف عين جالوت ، أفقد الأيوبيين أى حق شرعى فى حكم البلاد(٩٥) •

وهكذا غدا المماليك بعد عين جالوت سادة الموقف فى « بلاد الشام كلها من الفرات الى حدود مصر » ، مما أدى الى اعادة رباط الوحدة بين مصر والشام مرة أخرى ، وهى الوحدة التى سبق ان مكنت صلاح الدين من تقليم أظافر الصليبيين بالشام • أما عامة الناس فى مصر فقد أنساهم نصر عين جالوت أصل المماليك غير الحر ، وتناسوا كذلك أن المماليك فى حقيقة أمرهم مغتصبو العرش من سادتهم الأيوبيين ، ولم يعد الناس يذكرون الا حقيقة واحدة هى أن المماليك انقذوهم من خطر التتار ، وان بقاء المماليك فى الحكم غدا ضرورة لحماية كيان المسلمين فى الشرق الأدنى • وفى ضوء هذه الحقيقة يمكننا أننضيف الى أهمية عين جالوت أنها كانت بمثابة

---

(٩٥) سعيد عبد الفتاح عاشور . العصر المماليك فى مصر والشام ، ص ٣٦ •

الحد الفاصل فى الصــــراع بين المماليك فى مصر والأيوبيين فى الشام ، وانها جاءت ايذانا بغروب شمس دولة بنى أيوب وارتفاع نجم نجم دولة المماليك فى مصر والشام جميعا ٠

على أن خطر مغول فارس لم يتوقف بعد عين جالوت ، اذ استمروا يخرجون من العراق للاغارة على بلاد الشام ٠ ولكن هذه الغزوات لم تتخذ شكلا كاسحا مثلما كان الحال من قبل ، وانما اتخذت صفة متقطعة تنتهى بالانسحاب السريع عندما تخرج لهم الجيوش من مصر ٠ وقد ظل سلاطين المماليك بعد قطز متيقظين لذلك الخطر ، فانزلوا بالتتار كثيرا من الضربات عند أعالى الفرات وشرق آسيا الصغرى(٩٦) ٠ وظل الوضع على ذلك حتى أوائل القرن الرابع عشر للميلاد (القرن الثامن الهجرى) عندما انتشر الاسلام بين المغول من ناحية ، وتعرضت دولتهم فى فارس والعراق للضــعف من ناحية أخرى ٠

ثم كان ان تجدد خطر التتار مرة أخرى فى أواخر ذلك القرن عندما ظهر تيمورلنك الذى ينتمى الى بيت من أشراف التتار ، ولد فى مدينة سمرقند وتألق نجمه فيها ، واتخذها قاعدة لاعماله التوسعية فى بلاد الشرق الأوسط فضـــلا عن الهند ٠ ولم يكتف تيمورلنك بالاستيلاء على بغداد سنة ١٣٩٣ م (٧٩٥ هـ) وتخريبها وقتل كثير من أهلها ، وانما استولى على حلب ودخل دمشق ، مما أحدث هزة عنيفة فى مصر ٠ وكانت دولة المماليك عندئذ تعانى بعضا من مشاكلها الداخلية الأمر الذى جعل سلطانها فرج بن برقرق يعقد صلحا مع تيمور لنك سنة ١٤٠١ م (٨٠٤ هـ) ولم يلبث أن توفى تيمور لنك بعد ذلك بأربع سنوات ، مما عرض دولته الواسعة للتمزق

(٩٦) انظر على سبيل المثال : المقريزى . كتاب السلوك ، ج١ ص ٥٢٤ ، ٥٨٤ ، ٦٨٠ ٠

بسبب النزاع بين ورثته ، وبذلك انكســـرت حدة خطرالتتار على دولة المماليك فى مصر والشام(٩٧) ٠

هذا ، ويلاحظ أنه فى الوقت الذى سادت العلاقات العدائية بين المماليك من ناحية وتتار فارس والعراق من ناحية أخرى ، كانت هناك علاقات ودية ربطت بين المماليك وفرع آخر من التتار هم تتار القفجاق قرب بحر قزوين وشمالى البحر الأسود ٠ وكان تتار القفجاق ـ أو القبيلة الذهبية وفقا للون مخيماتهم الذهبى ـ قد اعتنقوا الاسلام منذ وقت مبكرا مما أدى الى تقارب بينهم وبين القرى الاسلامية فى الشرق الأوسط وعلى رأسها دولة المماليك فى مصر والشام ٠ وقد ظهر هذا التقارب فى صورة تبادل السفارات والهدايا ، فضلا عن عقد اتفاقيات ضد العدو المشترك ممثلا فى تتار فارس والعراق(٩٨) ٠

---

(٩٧) ابراهيم على طرخان مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٧٢ وما بعدها ٠

(٩٨) العينى : عقد الجمان ، ج٢٠ ، المجلد الثالث ورقة ٤٩٤ (مخطوط) ابن واصل . مفرج الكروب . ج٢ ، ص ٤٢٢ (مخطوط) ٠ المقريزى : كتاب السلوك ، ج٢ ، ص ٧ ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ القلقشندى : صبح الاعشى ، ج٧ ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ٠ النويرى . نهايـــة الأرب ، ج٣٠ ، ورقة ١٣٧ (مخطوط) ٠

٤ ـ ســـلاطين المماليك البحرية

(الدولة التركية)

١ ـ شجرة الدر (٦٤٨ هـ ـ ١٢٥٠ م)

٢ ـ المعز عز الدين أيبك (٦٤٨ هـ ـ ١٢٥٠ م)

٣ ـ المنصور نور الدين على (٦٥٥ هـ ـ ١٢٥٧ م)

٤ ـ المظفر سيف الدين قطز (٦٠٧ هـ ـ ١٢٥٩ م)

٥ ـ الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى (٦٥٨ هـ ـ ١٢٦٠ م)

٦ ـ السعيد ناصر الدين بركة خان (٦٧٦ هـ ـ ١٢٧٧ م)

٧ ـ العادل بدر الدين سلامش (٦٧٨ هـ ـ ١٢٧٩ م)

٨ ـ المنصور سيف الدين قلاون الألفى (٦٧٨ هـ ـ ١٢٧٩ م)

٩ ـ الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاون (٦٨٩ هـ ـ ١٢٩٠ م)

١٠ ـ الناصر ناصر الدين محمد بن قلاون (٦٩٣ هـ ـ ١٢٩٣ م)

١١ ـ العادل زين الدين كتبغا (٦٩٤ هـ ـ ١٢٩٤ م)

١٢ ـ المنصور حسام الدين لاجين المنصورى (٦٩٦ هـ ـ ١٢٩٦ م)

١٣ ـ الناصر ناصر الدين محمد (للمرة الثانية) (٦٩٨ هـ ـ ١٢٩٨ م)

١٤ ـ المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير (برجى) (٧٠٩ هـ ـ ١٣٠٨ م)

١٥ ـ الناصر ناصـــر الدين محمد للمرة الثالثة) (٧٠٩ هـ ـ ١٣٠٩ م)

١٦ ـ المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد (٧٤١ هـ ـ ١٣٤١ م)

١٧ ـ الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد (٧٤٢ هـ ـ ١٣٤١ م)

١٨ ـ الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد (٧٤٣ هـ ـ ١٣٤٢ م)

١٩ ـ الصالح عماد الدين اسماعيل بن الناصر محمد (٧٤٣ هـ ـ ١٣٤٣ م)

٢٠ ـ الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد (٧٤٦ هـ ـ ١٣٤٥ م)

٢١ ـ المظفر سيف الدين حاجى بن الناصر محمد (٧٤٧ هـ ـ ١٣٤٦ م)

٢٢ ـ الناصر ناصر الدين الحسن بن الناصر محمد (للمرة الأولى) (٧٤٨ هـ ـ ١٣٤٧ م)

٢٣ ـ الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد (٧٥٢ هـ ـ ١٣٥١ م)

٢٤ ـ الناصر ناصر الدين الحسن بن الناصر محمد (للمرة الثانية) ٧٥٥ هـ ـ ١٣٥٤ م)

٢٥ ـ المنصور صلاح الدين محمد بن حاجى (٧٦٢ هـ ـ ١٣٦١ م)

٢٦ ـ الأشرف ناصر الدين شعبان (٧٦٤ هـ ـ ١٣٦٣ م)

٢٧ ـ المنصور علاء الدين على بن شعبان (٧٧٨ هـ ـ ١٣٧٦ م)

٢٨ ـ الصالح صلاح الدين حاجى بن شعبان (المرة الأولى) (٧٨٣ هـ ـ ١٣٨١ م)

٢٩ ـ برقوق (برجى) (٧٨٤ هـ ـ ١٣٨٢ م)

٣٠ ـ حاجى (للمرة الثانية ، وفيها تلقب بالمنصور) (٧٩١ هـ ـ ١٣٨٩ م)

٥ ـ المماليك والصـــليبيون :

على أن خطر التتار لم يكن الخطر الوحيد الذى هدد منطقة الشرق الأدنى فى ذلك العصر ، والذى كان على سلاطين المماليك ان يواجهوه معتمدين على قوة مصر وامكاناتها البشرية والمادية · وانما كان على المماليك ان يواجهوا خطرا آخر خطر الصليبيين ·· وبينما كان خطر التتار من النوع الداهم المفاجىء الذى لا يرتبط الا بالرغبة فى التوسع والنهب والسلب ، ولا يتصف الا بسفك الدماء والتدمير الحضارى الشامل ، اذ بالخطر الصليبى على الشـــرق الأدنى يرتبط وقت قيام دولة المماليك ـ بأصول قديمة وعوامل ربما يرجع بعضها الى بداية حركة الفتوح العربية الاسلامية فى القرن السابع الميلادى ·

وقد رأينا أن دولة المماليك فى مصـــر جاءت وليدة الحركة الصليبية اذ كان الدور الذى قام به المماليك البحرية فى المنصورة ثم فى فارسكور ضد حملة لويس التاســـع هو البداية الحقيقية لظهورهم على سطح الأحداث والوصول الى النفوذ والسلطان · ثم ان دولة المماليك قامت والصليبيون على أرض مصر يحتلون دمياط رغم أن ملكهم لويس التاسع كان أسيرا فى المنصورة · وطالما كانت دمياط ـ وهى ميناء مصر الأول فى ذلك العصر ـ فى قبضة الصليبيين فانه صار من الممكن اتخاذها رأس جسر لجلب مزيد من الجيوش والأساطيل الصليبية ، من الشام أو من الغرب ، لاعادة الكرة ضد مصر والمسلمين ، وفى ذلك الخطر الجسيم · لذلك حرصت شجرة الدر أولى سلاطين المماليك ـ على ابرام الصلح مع الصليبيين وترتب على ذلك فك أسر لويس التاسع الذى اختار ان يتجه الى عكا حيث

قضى أربع سنوات محاولا أن يعيد تنظيم صفوف الصليبيين بالشام ودعم جهودهم(١) ٠

ثم كان ان انتصر المماليك على التتار فى عين جالوت ، وبذلك تغلبوا على أول خطرين خارجين هددا دولتهم الناشئة وهما خطر التتار وخطر الأيوبيين بالشام ٠ ومادام المماليك قد ورثوا الأيوبيين فى ملكهم في مصر والشـــام ، فانه كان من الطبيعى أن يرثوا عن الأيوبيين سياستهم في جهاد الصليبيين وتقويض دعائم ملكهم بالشام، هذا الى أن المماليك ظلوا بعد عين جالوت فى حاجة الى مزيد من النشاط الذى يضفى عليهم قسطا من الأهمية ونوعا من الشرعية ٠

وكانت المعاقل الكبرى للصليبيين بالشام عند قيام دولة سلاطين المماليك هى أنطاكية وطرابلس ، وكل منهما كانت مركزا لامارة صليبية يتبعها عدد غير قليل من الحصون والقلاع الداخلية ، فضلا عن عكا التى كانت مركزا لمملكة بيت المقدس الصليبية ، وهى المملكة التى غدت منذ أواخر عهد صلاح الدين تمتد فى صورة أو أخرى على شاطىء فلسطين من صور الى يافا ٠ ومن الواضح أنه كان من الصعب على المسلمين أن يقبلوا هذا الجسم الغريب ــ ممثلا فى جماعات أتت من الغرب واعتمدت فى بقائها وعدوانها على الغرب ــ داخل جسدهم ٠ لذلك ما كاد الظاهر بيبرس يلى منصـــب سلطنة المماليك سنة ١٢٦٠ م (٦٥٨ هـ) حتى أراد أن يجعل من نفسه صلاح الدين الثانى ، فوضع برنامجا ضخما أبرز أركانه الاعتماد على موارد مصر وامكاناتها الضخمة فى تأمين بلاد الشام من خطر التتار وتقويض البناء الصليبى ٠ وكان أن قام بيبرس ــ الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة المماليك ــ بهجمات شاملة متعددة ضد الصليبيين ،

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٨٥٧ ـ ٨٥٩ (١٩٨٦) ٠

توجها بالاستيلاء على أنطاكية سنة ١٢٦٨ م (٦٦٦ هـ)(٢) ٠ وكان لسقوط انطاكية فى قبضة المسلمين دلالة بالغة الأهمية بوصفها أولى الامارات التى أسسها الصليبيون فى الشام ، وثانى الامارات التى أسسوها بالشرق ـ بعد الرها ـ عند مجيئهم لأول مرة فى أواخر القرن الحادى عشر للميلاد ٠ لذلك جاء استيلاء بيبرس عليها دليلا على بداية انهيار البناء الصليبى من أساسه ٠

وعندما اعتلى عرش سلطنة المماليك سنة ١٢٧٩ م (٦٧٨ هـ) السلطان المنصور قلاون ، استأنف سياسة الجهاد ضد الصليبيين ، فخرج من مصر الى الشام سنة ١٢٨٩ م (٦٨٨ هـ) على رأس جيش كبير مكنه من الاستيلاء على طرابلس فى تلك السنة(٣) ٠

وبذلك لم يبق للصليبيين من ملكهم العريض ببلاد الشام سوى عكا عاصمة مملكتهم ، فضلا عن بعض المعاقل الأخرى الأقل أهمية مثل صيدا وصور وعثليث ٠ وقد عكف السلطان قلاون فى مصر بعد ذلك على تعبئة قواته استعدادا للاستيلاء على عكا ، وخاصة بعد أن وصلت اليها حملة صليبية صغيرة من الغرب اعتدت على المسلمين وقتلت عددا منهم رغم الصلح الذى كان معقودا بين الطرفين ٠ ولكن حدث عندما هم السلطان قلاون بمغادرة القاهرة على رأس جيشه لمحاربة الصــــليبيين بالشام أن دهمه الموت سنة ١٢٩٠ م (٦٨٩ هـ) فخلفه ابنه الأشرف خليل الذى خرج الى الشام على رأس

---

(٢) المقريزى : كتاب السلوك ، ج١ ، ص ٥٦٨ ، النويرى : نهاية الأدب ، ج٢٨ ورقة ٣٠٨ (مخطوط) ، مفضل بن أبى الفضائل ٠ كتاب النهج السديد ، ص ١٧١ ـ ١٧٢ ٠

(٣) المقريزى : كتاب السلوك ، ج١ ، ص ٧٤٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٣٢١ ٠

الجيوش التى أعدها أبوه ، وتمكن بعد جهد كبير من الاستيلاء على عكا سنة ١٢٩١ م (٦٩٠ هـ)(٤) ٠

ولاشك أن سقوط عكا ـ آخر البقايا الصليبية الكبرى بالشام ـ جعل بقية المعاقل الصليبية الصغيرة تتساقط فى أيدى المسلمين واحدة بعد أخرى ، فاحتل المماليك صـــور وصيدا وحيفا ، ثم انطرطوس وعثليث ، وبذلك احتفظ المماليك بشرف تطهر بلاد الشام تماما من الدخلاء الغربيين ٠

وكانت الحروب الصليبية فى بلاد الشام قد تمخضت فى الجزء الأخير من القرن الثانى عشر الميلاد (القرن السادس الهجرى) عن مولد مملكتين صليبيتين فى الشرق الأدنى ، أولاهما هى مملكة أرمينيا الصغرى فى اقليم قليقية فى الركن الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى ، والثانية هى مملكة آل لوزجنان فى جزيرة قبرص ٠ وقد اكتشف المماليك أثناء محاربتهم الصليبيين بالشام مدى ما تقدمه هاتان المملكتان المسيحيتان من دعم لهم ، وهو أمر لم تستطع أن تغفره سلطنة المماليك فى مصر ٠ لذلك أرسل السلطان الظاهر بيبرس جيشا من مصر سنة ١٢٦٦ م (٦٦٥ هـ) لمهاجمة أرمينية الصغرى ، أحرق عاصـــمتها سيس وخرب مدنها الكبرى أذنة والمصـــــيصة وطرسوس ، وأسر كثيرا من رجالها ٠ وقد تكرر هجوم بيبرس على مملكة ارمينية الصغيرى بعد ذلك ، فهاجمها سنة ١٢٧٥ م (٦٧٣ هـ) وخرب المصيصة ودخل سيس وخرب اياس ٠ ويبدو أن بيبرس قام بهذه الضربة عقابا لمملكة أرمينية الصـــغرى لتحـالفها مع تتار فارس(٥) ٠

---

(٤) ابو الفدا : المختصر ، حوادث ٦٩٠ هـ المقريزى : كتاب السلوك ، ج١ ، ص ٧٦٤ ـ ٧٦٥ ، ابن تغرى بردى ٠ المنجوم المزاهرة ج٨ ، ص ٦ وما بعدها ٠

(٥) مفضل بن ابى الفضائل : كتاب المنهج السديد ، ص ١٥٢ ـ ٢٣٦ ٠

ومع أن ملوك أرمينية الصغرى دابو بعد ذلك على شـــراء مسالمة دولة المماليك الا أن السلطان الأشرف خليل ما كاد يفرغ من الاستيلاء على عكا حتى أغار على أطراف تلك المملكة واستولى على قلعة الروم سنة ١٢٩٢ م (٦٩٢ هـ) ، وفى عهد الســـلطان المنصور لاجين (١٢٩٦ ــ ١٢٩٨ م = ٦٩٦ هـ ــ ٦٩٨ هـ) خرجت حملة أخرى أغارت على مدن أرمينية الصـــغرى · وهكذا توالت الضربات التى وجهتها سلطنة المماليك الى تلك المملكة المسيحية التى لم تفتأ تساعد الصليبيين فى الشام حينا ، والتتار فى العراق وفارس أحيانا ، حتى كانت سنة ١٣٠٤ م فخرجت حملة كبرى من مصر فى سلطنة الناصر محمد الثانية ــ لتأديب مملكة أرمينية الصغرى ، وأنزل المماليك بها كثيرا من الدمار(٦) ·

ولم تلبث ان ساءت أحوال تلك المملكة ولم تعد تتحمل تلك الضربات المتوالية ، فاضطرت الى الاستسلام سنة ١٣٣٧ م (٧٣٧ هـ) وسلمت قلاعها للمماليك · وبذلك غدت فى حالة تبعية لسلطنة المماليك فى القاهرة ، وصار عليها أن تدفع جزية سنوية فاذا تأخرت عن دفع هذه الجزية ، أغارت عليها جيوش المماليك مثلما حدث سنة ١٣٤٣ م (٧٤٤ هـ) · ويبدو أن أحوال مملكة أرمينية الصغرى ساءت بدرجة أقعدتها عن دفع هذه الجزية مما جعل السلطان اشرف شعبان يرسل ضدها حملة سنة ١٣٧٥ م (٧٧٦ هـ) أسرت آخر ملوكها ليو السادس وأتت به الى القاهرة حيث ظل سجينا ثمان سنوات حتى جمعت البابوية المال اللازم لدفع فدائه فأطلق سراحه ليعود الى أوروبا · ويأسر ليو السادس سنة ١٣٧٥ م سقطت مملكة أرمينيا الصغرى

---

(٦) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٢٣ ــ ٢٤ (مخطوط) ، المقريزى : كتاب السلوك ، ج١ ، ص ٩٤٩ ، أبو الفدا : المختصر ، ج٤ ص ٤٦ ·

نهائيا ، وصارت اقليما تابعا لنيابة حلب ، احدى نيابات سلطنة المماليك بالشام(٧) ٠

وهكذا فان طرد آخر البقايا الصليبية من الشام فى أواخر القرن الثالث عشر ، لايعنى نهاية قصة الحروب الصليبية ، اذ استمرت بقية فصول تلك القصة فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ونهضت دولة المماليك بدورها كاملا فى حمل اعباء تلك الحركة ٠٠ واذا كانت مملكة أرمينيا الصغرى بحكم موقعها الجبلى المتطرف فى الركن الجنوبى الشرقى من آسيا الصغرى ، لم تستطع أن تقوم الا بدور محدود فى تنفيذ أركان السياسة الصليبية فى الشرق ، وخاصة أنها تتصل اتصالا بريا مباشرا بأرض الشام مما جعلها فى متناول فرسان المماليك ، فان مملكة آل لوزجنان الصليبية التى قامت فى جزيرة قبرص فى الركن الشمالى الشرقى من حوض البحر المتوسط كانت فى موقع مكنها من ان تقوم بدور أضخم فى تلك المرحلة الأخيرة من مراحل الحروب الصليبية ٠

وفى تلك الأثناء لم يغفل سلاطين المماليك فى مصر عن الدور الذى قام به ملوك قبرص من آل لوزجنان فى مساندة القوى الصليبية بالشام من ناحية وفى الاعتداء على السفن والموانى الاسلامية فى شرق البحر المتوسط من ناحية أخرى ٠ لذلك أرسل السلطان الظاهر بيبرس حملة بحرية سنة ١٢٧٠ م (٦٦٨ هـ) لغزو قبرص ، ولكن هذه الحملة أصيبت بالفشل بسبب ريح عاصفة هبت على السفن

---

(٧) ابن دقماق : الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، ص ٤٢٩ ــ ٤٣٠ ٠ (تحقيق الباحث ١٩٨٢) ٠

سعيد عبد الفتاح عاشور : سلطنة المماليك ومملكة ارمينية الصغرى ٠ (بحث فى كتاب : بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى بيروت ، ١٩٧٧) ٠

الإسلامية قرب شواطىء الجزيرة ، فتحطم بعضها ، وعاد البعض الآخر دون أن يحقق نتيجة ما(٨) ٠

والمعروف ان الحروب الصليبية دخلت دورا جديدا منذ نهاية القرن الثالث عشر عندما تم طرد آخر البقايا الصـــليبية من بلاد الشام ، مما أثار رد فعل عنيف فى الغرب الأوربى ، وجعل المتحمسين للحروب الصليبية ــ وعلى رأسهم البابوية ــ ينادون بأن دولة المماليك هى السبب فى الكارثة التى حلت بالصليبيين وانه لاسبيل لاستعادة بلاد الشام الا باضعاف دولة المماليك فى مصر ٠ ولما كانت دولة سلاطين المماليك تستمد ثروتها وقوتها من احتكار التجارة بين الشرق والغرب ، فان أصحاب المشاريع الصليبية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد نادوا بفرض حصار اقتصادى شديد على شواطىء دولة المماليك فى مصر والشام لمنع التجار الأوروبيين من الوصول اليها ، مما يصيب تجارة المماليك بالكساد والبوار ويؤدى الى اضعاف دولتهم ٠ ولتنفيذ هذه السياسة تقرر اتخاذ جزيرة قبرص ــ لما لها من موقع ممتاز فى شرق البحر المتوسط ــ مركزا لمراقبة شواطىء مصر والشام من ناحية وشن غارات مفاجئة على موانى سلطنة المماليك من ناحية أخرى(٩) ٠

وكان أن صادفت هذه السياسة هوى فى نفوس ملوك قبرص من آل لوزجنان ، وهم الذين عرفوا بحماستهم الصليبية الشديدة ، فقام أحدهم ــ وهو الملك بطرس الأول لوزجنان ــ بحملة صليبية كبرى على مدينة الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م (٧٦٧ هـ) ، انتهت بنجاح

---

(٨) سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ٤٧ ــ ٤٨ ٠

(٩) Heyd : Hist. du Commerce du Levant; I, Ps. 7,378 & II, Ps. 56, 57, 436.

الصليبيين فى اقتحام المدينة حيث قضوا ستة أيام تعتبر من أحلك الأيام فى تاريخ الثغر ، اذ انتشر الصليبيون فى شوارع الاسكندرية وأزقتها « فاستلموا الناس بالسيف ، ونهبوا الحوانيت والدور ، وأحرقوا الخانات والقصور ، وخربوا المساجد والزوايا ٠ واعتدوا على النساء والبنات » ٠ وبعد أن حمل الصليبيون فى سفنهم ماخف حملة وغلا ثمنه ــ فضـــلا عن عدد كبير من الأسرى ــ هربوا فى سفنهم عائدين الى قبرص عندما سمعوا باقتراب جيش المماليك الذى خرج مسرعا من القاهرة لانقاذ الثغر(١٠) ٠

ويبدو أن دولة المماليك البحرية فى أواخر أيامها عندئذ كانت تعانى شيئا من الانحلال وعدم الاستقرار ، فلم تتمكن من الثأر السريع من قبرص وملوكها ٠ ولكن أهل مصر لم يستطيعوا أن ينسوا ما حل بالاسكندرية على أيدى القبارصة من خراب ودمار فى الحملة السابقة ٠ لذلك ما كادت الأمور تستقر بقيام دولة المماليك الجراكسة أو البرجية سنة ١٣٨٢ م (٧٨٤ هـ) حتى بدأت الأنظار تتجه للثأر من جزيرة قبرص وملوكها ، وخاصة أن أعمال العدوان على موانى مصر والشام فضلا عن السفن الاسلامية فى شرق البحر المتوسط لم تتوقف ٠ وكان أن أرسل السلطان الأشرف برسباى ثلاث حملات لغزو قبرص سنة ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ م (٨٢٧ هـ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ هـ) ، نجحت الحملة الأخيرة فى انزال هزيمة كبرى بالقبارصة وأسر الملك جانوس واحضاره مع عدد كبير من الأسرى الى القاهرة حيث زفوا فى شوارعها ٠ ومنذ ذلك الوقت وجزيرة قبرص تعتبر « من جملة بلاد السلطان » ، أى تابعة لمصر وتدفع لها جزية سنوية ،

---

(١٠) النويرى : الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام ، ج١ ، ص ١٧٤ ، ١٦٤ (طبعة حيدر اباد) ٠

حتى سقوط سلطنة المماليك على أيدى العثمانيين سنة ١٥١٧ م (٩٢٢ هـ)(١١) ٠

على أن جزيرة قبرص لم تكن وحدها مصـــدر الخطر على المسلمين فى الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط فى ذلك الدور الأخير من أدوار الحركة الصليبية ، وانما شاركتها جزيرة رودس فى ذلك ، وكانت رودس قد غدت منذ سنة ١٣١٠ م (٧١٠ هـ) مركزا للفرسان الاسبتارية ، وهم فرقة من فرسان الصليبيين قاموا فى بلاد الشام بدور كبير فى خدمة الهدف الصليبى ، حتى اذا ما دالت دولة الصليبيين بالشام ، غادروها الى قبرص ومنها الى رودس ليواصلوا نشاطهم ضد المسلمين فى شرق حوض البحر المتوسط ٠ وعندما تأكد سلاطين المماليك فى مصر من حقيقة الدور الذى يقوم به فرسان رودس فى مهاجمة سفن المسلمين وشواطىء بلادهم ، قام السلطان الظاهر جقمق بارسال ثلاث حملات من مصر لغزو رودس ســـنة ١٤٤٠ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ م (٨٤٤ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ هـ) انتهت بعقد صلح بين الطرفين ، دون أن يفلح المماليك فى اخضاع رودس مثلما نجحوا فى اخضاع قبرص(١٢) ٠

واخيرا ، فان نشاط المماليك الحربى لتأمين الوطن الاسلامى فى مصر والشام لم يقف عند حد ما قاموا به من حروب ضد التتار من جهة والصليبيين من ناحية أخرى وانما أنفذ سلاطين دولة المماليك الأولى أو البحرية عدة حملات الى البلاد الواقعة جنوبى مصر حيث قامت مملكة مسيحية كبيرة ــ عرفت باسم مملكة النوبة ــ دأبت

---

(١١) المقريزى : كتاب السلوك ، ج٤ ، ص ٦٢١ ، ٧٢٤ ــ ٧٢٥ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٤ ، ص ٢٧٨ ــ ٢٨٠ ، ٣٠٣ ــ ٣٠٤ ابن حجر : انباء الغمر ، ج٨ ، ص ٧٢ ــ ٧٣ ، ١٠٤ ــ ١٠٥ (حيدر أباد)

(١٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٥ ، ص ٣٤١ ــ ٣٦٢ ٠

على الاغارة على حدود مصر الجنوبية ، اما بدافع العصبية الدينية أو رغبة فى السلب والنهب · وقد نجح سلاطين المماليك فى كسر شوكة تلك المملكة واضعافها ، حتى كان أوائل القرن الرابع عشر فأخذت تصطبغ بصبغة عربية واضحة نتيجة لهجرة بعض القبائل العربية الى النوبة واستقرارهم فيها · ومع هذا التيار كان انتشار الاسلام ، مما أحدث تغييرا جذريا فى العلاقات بين سلطنة المماليك فى مصر وتلك البلاد(١٣) ·

وهكذا غدت مصر فى عصر سلاطين المماليك مركزا لدولة قوية ، خافها الاعداء ، واحترمها الأصدقاء ، ونجحت فى أن تقوم بدورها كاملا فى حماية المنطقة وتأمينها ضد الأخطار التى هددتها · ولم يلبث أن امتد نفوذ المماليك على الحجاز وبلاد اليمن(١٤) ، وغدت القاهرة فى عصرهم قبلة السفراء والمبعوثين من بلاد الشرق والغرب جميعا ، يطلبون صلحا أو هدنة ، أو عقد اتفاقية تجارية ، أو تأييدا ضد خصومهم ، بحيث حققت مصر لنفسها زعامة مرموقة فى الوطن الاسلامى مشرقه ومغربه بوجه عام ، وفى منطقة الشرق الأدنى بوجه خاص ·

ودعم هذه المكانة ما تمتعت به مصر فى ذلك العصر من رخاء اقتصادى مرموق انعكست صورته فى نظم الحكم والادارة من ناحية

---

(١٣) النويرى : نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص ١٠٩ ، ج٢٩ ، ص ٢٧٤ ، ج٣٠ ص ٩٥ ــ ٩٦ (مخطوط) ·
ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٧ ، ص ٤٥ ــ ٤٦ ، ج٨ ص ٨٢ ابن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور ، ص ١٥٣ ــ ١٥٥
مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ص ١٥٣ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٩ ·

(١٤) المقريزى : كتاب السلوك ، ج١ ، ص ٤٤٥ ، ٥٦٠ ، ٥٧٩ ، ٥٦٣ ٥٩٥ ، ٦٢١ ، ج٢ ، ص ٣٣ ــ ٣٨ ، ١٩٧ ، ٢٣٩ ، ٢٥٩ ــ ٢٦٠ ·

وفيما اتصفت بهالحياة الاجتماعية والعلمية والدينية من نشاط من ناحية أخرى · وهى الجوانب التى تتضح بالقاء نظرات سريعة عليها ·

٦ ـ النشاط الاقتصادى فى عصر سلاطين المماليك :

كانت ثروة مصر فى عصر سلاطين المماليك هى الدعامة التى التى مكنتهم من القيام بذلك النشاط الواسع فى داخل البلاد وخارجها · وعند الكلام عن النشاط الاقتصادى فى ذلك العصر تحتل التجارة مكانة خاصة ، بوصفها المصدر الأول لثراء المماليك وقوة دولتهم · ذلك أن الظروف شاءت أن يكون قيام دولة المماليك فى مصر فى منتصف القرن الثالث عشر مصحوبا بازدهار طريق البحر الأحمر وموانى مصر ، واضمحلال ماعداه من طرق التجارة الرئيسـيـة الأخرى بين الشرق والغرب · وقد رأينا أنه لم يكد يمضى على قيام دولة المماليك سنوات معدودة حتى استولى التتار على بغداد سنة ١٢٥٨ م ، وامتد نفوذهم الى الشام وآسيا الصغرى ، فضلا عن بلاد فارس التى اتخذها هولاكو مركزا لدولته فى الشرق الأوسط ، وبذلك لم يبق آمنا بعيدا عن سيطرة التتار وخطرهم من طرق التجارة بين الشرق والغرب سوى طريق مصر والبحر الأحمر ·

وكان أن أفاد سلاطين المماليك فى مصر من ذلك الموقف فائدة ضخمة فعملوا على تأمين طرق التجارة داخل مصر بحيث تصل المتاجر الواردة من الشرق سليمة من موانى البحر الأحمر ـ خاصة عيذاب ـ الى موانى البحر المتوسط وخاصة دمياط والاسكندرية حيث يفد التجار الأوربيون والايطاليون لشـرائها وحملها · هذا بالاضافة الى تأمين الملاحة فى البحر الأحمر نفسه · ومن ناحية أخرى فان سلاطين المماليك عملوا على اغراء تجار الشرق على جلب بضاعتهم الى مصر ، ثم اغراء التجار الأوربيين على التردد على

مصر وموانيها لشراء تلك البضائع ، وقد دأب السلاطين المماليك على اصدار التعليمات لنوابهم بالثغور بحسن معاملة التجار وملاطفتهم والتودد اليهم وترغيبهم · بل ان السلطان قلاون كتب منشورا الى التجار « من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم » ·· يرحب بقدومهم الى مصر ويصف لهم محاسنها ·· « لأنها فى الدنيا جنة عدن لمن قطن ، ومسلاة لمن تغرب عن الوطن ·· »(١٥) · وهكذا اكتظت المدن والثغور المصرية بمؤسسات التجارة مثل الفنادق التى كان ينزلها التجار الأوربيون ، والوكالات والخانات التى كان ينزل بها التجار الشرقيون والمسلمون فيجدون فيها الراحة والمأوى ويعقدون صفقاتهم التجارية من بيع وشراء ، ويحفظون أموالهم وبضائعهم(١٦) ·

وعلى رأس البضائع التى قامت عليها عظمة دولة المماليك وثروتها ، كانت التوابل من فلفل وبهار وقرنفل ونحوها · وقد عرف تجار التوابل باسم الكارمية ، واتخذوا مدينة قبرص فى صعيد مصر سوقا تجاريا واسعا لمنتجات وسط أفريقيا والهند والحبشة واليمن · وساعد على ذلك ان البضائع كانت تنتقل اليها من ميناء عيذاب على البحر الأحمر عبر الصحراء الشرقية ، ومن قوص كانت تنقل فى النيل شمالا الى القاهرة ودمياط والاسكندرية(١٧) · على أنه يبدو أن الثروة الكبيرة التى حصلت عليها دولة المماليك من ذلك النشاط التجارى ، دفع بعض سلاطين الدولة الجركسية أو البرجية الى تطبيق سياسة الاحتكار التجارى ـ وخاصة فيما يتعلق بالتوابل والبخور ما أدى الى ارتفاع أثمانها ارتفاعا فاحشا ، وأنزل الضرر بالتجار

---

(١٥) القلقشندى . صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص ٣٤٠ ـ ٣٤١ ·
(١٦) المقريزى · المواعظ والاعتبار ، ج٢ ، ص ٨٦ ـ ١٠٧ (بولاق)
(١٧) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٢ ، ص ٣٨٢ ، المقريزى : كتاب السلوك ، ج٢ ، ص ١٣٢ ـ ١٣٣ ، ١٠٣ .

الأوربيين والمستهلك الأوربى • ومازال الوضع يتأزم ، حتى دفع الضيق القوى البحرية الايطالية فى أواخر العصور الوسطى الى البحث عن طريق آخر يوصلها الى الهند والشرق الأقصى غير طريق مصر وسلطنة المماليك ، وهو الأمر الذى انتهى باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، مما حرم مصر من الثروة الهائلة التى كانت تجنيها نتيجة لاحتكار تجارة الشرق ، وأدى بالتالى الى اضعاف دولة المماليك وذبولها (١٨) •

ومن الطبيعى أن تنتعش التجارة الداخلية فى مصر فى ظل نشاط التجارة الخارجية • وقد اشتهرت المدن المصرية ــ وعلى رأسها القاهرة ــ بأسواقها العامرة بالبضائع • وأهم ما يلاحظ على هذه الأسواق ان كلا منها اختص بنوع معين من البضائع ، فسوق الشماعين اختص ببيع الشمع ، وسوق النحاسين اختص ببيع النحاس وهكذا • ومن محاسن هذا النظام ان التاجر لم يستطع أن يشذ عن جيرانه أو أن يرفع أسعار السلعة التى يتجر فيها ، لأن منافسيه على مقربة منه ، كما أن المشترى ان لم يعجبه نوع السلعة أو ثمنها فانه يستطيع أن ينتقل فى سهولة من متجر لآخر دون أن يتحمل أدنى مشقة • أما عيوب هذا النظام فأهمها أن الفرد اذا أراد شراء عدة أصناف متباينة من البضائع ، فعليه أن يقطع المدينة كلها طولا وعرضا حتى يقضى حاجاته لانه لن يجد فى السوق الواحد سوى نوع واحد من البضائع •

ولم يترك سلاطين المماليك حركة البيع والشراء فى الأسواق دون رقابة وانما دأب المحتسبون على الطواف بالأسواق للتفتيش على الباعة وضبط من يحاول التلاعب بالأسعار أو الأوزان • وكانت رقابة المحتسب أشد ما تكون على الأطعمة والمشروبات التى تباع فى الأسواق

---

(١٨) [illegible] P. 5 73 & Roncière : La Découverte de l'Afrique au Moyen Age, Tome 3, P. 31.

والطرقات للتأكد من سلامتها ونظافتها حرصا على صحة الناس ، فاذا وجد بعضها فاسدا أخذ البائع بالشدة(١٨) ٠

وبالاضافة الى التجارة ،ظلت الزراعة تمثل ركنا أساسيا فى حياة مصر الاقتصادية فى تلك العصور ، فأهتم سـلاطين المماليك بالزراعة بوصفها الحرفة الأولى لغالبية السكان والمورد الأول الذى عاش عليه معظم الأهالى ٠ وظهر هذا الاهتمام فى العناية بالترع والجسور ومقاييس النيل ونحوها ٠ واشتهرت مصر فى ذلك العصر بانتاج القمح الذى كان محصوله يزيد عن حاجة البلاد ، مما جعل السلاطين يمدون بلاد الشام والحجاز بمقادير وفيرة منه ٠ هذا فضلا عن الكتان وقصب السكر والخضروات والفواكه وغيرها(١٩) ٠

ويرتبط بالانتاج الزراعى الثروة الحيوانية التى عنى سلاطين المماليك بتنميتها وتنويعها ، فأكثروا من انتاج الأغنام وجلب الأنواع الممتازة منها لتربيتها ٠ ويقال ان السلطان الناصر محمد بن قلاون قام بمشروع هام للعناية بالثروة الحيوانية ، اذ بنى حظيرة كبيرة على قطعة أرض بجـوار قلعة الجبل وجرى اليها الماء من القلعة وأنشأ بها بيوتا للدواجن وأخرى للأغنام والمواشى ، ثم أودع بها الفى رأس من الضأن بعث فى طلبها من بلاد الصعيد وأربعة آلاف من الوجه البحرى ، فضلا عن عدد كبير من البقر ، هذا الى أنه بعث فى طلب الأغنام الممتازة من بلاد النوبة واليمن(٢٠) ٠

---

(١٨) ابن بسام : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة تحقيق حسام الدين السامرائى ص ١٧ وما بعدها (بغداد ، ١٩٦٨) ٠
(١٩) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج١ ، ص ١٠١ (بولاق)
(٢٠) المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٢٩ ٠

أما الصناعة والفنون فقد ازدهرت فى عصر سلاطين المماليك نتيجة للثراء الذى اشتهرت به مصر وحكامها • والمعروف عن الصانع أو الفنان أنه يحاول دائما أن يرقى بانتاجه اذ اطمأن الى أنه سيجنى فى النهاية ثمن أتعابه ويتقاضى أجرا يتناسب مع ما يبذله من جهد ووقت • ومن ناحية أخرى فان المستهلك اذا ارتفع مستواه المادى وعظمت ثروته وزادت عن مطالبه الأساسية ، فانه يفكر فى اقتناء الكماليات ويتألق فى اقتناء التحف والنفائس • وهذا وذاك كانا من العوامل التى أثرت فى ارتقاء الصناعة والفنون فى مصر فى عصر سلاطين المماليك(٢١) •

فبالاضافة الى الصناعات الحربية من أسلحة وسفن ونحوها ، ارتقت صناعة المنسوجات وصناعة المعادن وصناعة الزجاج وصناعة الأخشاب وصناعة الجلود وغيرها • فعن المنسوجات اشتهرت مصر بانتاج الاقمشة الحريرية والقطنية والصوفية والكتانية التى امتازت جميعا بدقة الصناعة وجمالها وجودة الخامة ومتانة النسيج ، وهو الأمر الذى تشهد عليه قطع النسيج المتبقاة من ذلك العصر • وعن صناعة المعادن استخدم النحاس بصفة خاصة فى صناعة الثريات والأوانى المنزلية والأباريق والصحون والطسوت ، فضلا عن تغطية بعض أبواب المساجد وقصور السلاطين والأمراء •

وانتشرت فى عصر سلاطين المماليك صناعة تكفيت ــ أى تطعيم ــ البرونز والنحاس بالذهب والفضة واشتهرت بهذه الصناعة سوق الكفتيين بالقاهرة • وعن صناعة الزجاج فى مصر كانت أهم مراكزها الفسطاط والفيوم والاشمونين والاسكندرية •

---

(٢١) سعيد عبد الفتاح عاشور . العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص ٢٧٨ •

وتشهد المشكاوات الزجاجية المحفوظة فى مختلف دور الآثار فى العالم والتى صنعت فى مصر فى ذلك العصر على مدى تقدم هذه الصناعة وتقدمها ٠ هذا فضلا عن الخزف الذى كانت مصر مركزا أساسيا من أكبر مراكز صناعته فى العالم ، والذى صنعت منه أنواع متعددة الاشكال والألوان ، بعضها صنع خصيصا للسلاطين والأمراء وعليه الرنك أو الشعار الخاص بكل منهم ٠ ومثل ذلك يقال عن المصنوعات الخشبية التى استخدم فى زخرفتها الخرط والتعطيم والحشوات ٠ وكان تطعيم الخشب يتم عادة بالعاج أو الأبنوس لاسيما فى الكراسى والمناضد والأبواب وحوامل المصاحف ٠ أما المصنوعات الجلدية ـ خاصة السروج ـ فكانت لا تقل جمالا وحسنا عن أنواع المصنوعات السابقة(٢٢) ٠

وبالاضافة الى هذه الصناعات التى ترتبط فى معظمها بما يمكن تسميته الفنون الصغرى ، ارتقت الفنون الكبرى ـ وهى العمارة والتصوير والنحت ـ رقيا كبيرا فى مصر على عصر سلاطين المماليك ٠ ومازالت العمائر ـ دينية ومدنية ـ القائمة فى القاهرة وغيرها من المدن من جوامع ومدارس وقصور وقباب وغيرها تشهد كلها على ما بلغته تلك الفنون من رقى فى مصر فى عصر سلاطين المماليك ، ومن أجمل هذه العمائر الخالدة جامع ـ أو بمعنى أصح مدرسة ـ السلطان الناصر حسن وقبة ومدرسة وبيمارستان السلطان قلاون ، ومدفن برقوق ، وقصر الأمير بشتاك وغيرها ٠(٢٣) ٠

وكثير من هذه العمائر كسيت بالرخام وزخرفت زخارف جميلة، من وحدات نباتية أو رسوم هندسية ، فضلا عن بعض الآيات القرآنية

---

(٢٢) المقريزى ٠ المواعظ والاعتبار ، ج٢ ص ٩٦ ـ ٩٩ ، ١٠٢ ـ ١٠٥ (بولاق) ٠

(٢٣) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٧١ ، ص ٧٧ ـ ٨٤ ٠

المكتوبة بالخط الكوفى المزخرف الجميل مما يشهد على رقى فن الرسم والزخرفة فى ذلك العصر ، وهو الفن الذى ظهر أيضا فى زخرفة الخزف والمنسوجات والتحف المعدنية والزجاج والبللور ، فضلا عن أغلفة الكتب ، أما فن النحت والحفر فارتقى بأنواعه المختلفة ، سواء النحت فى الحجر والرخام أو الحفر فى الخشـــــب ، أو فى العاج والعظم . وتوجد فى العمائر التى ترجع الى ذلك العصر فضلا عن التحف المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة ومختلف دور الآثار والمتاحف فى العالم ، أمثلة ونماذج لتحف رائعة ترجع الى عصر المماليك وتشهد على ما بلغه فن النحت والحفر من رقى وجمال(٢٤) .

٧ ـ نظم الحكم والادارة والقضاء فى عصر سلاطين المماليك :

على أن النشاط الاقتصادى الذى اتصف به التاريخ المصرى فى عصر سلاطين المماليك ليس وحده مصدر القوة الكامنة وراء تلك الطاقة الضخمة التى مكنت مصر فى ذلك الدور من اتمام تلك المنجزات العظيمة فى الداخل والخارج ، وانما كانت تساند ذلك النشاط نظم محكمة عملت دولة المماليك فى ظلها ، وظلت هذه الدولة محتفظة بمكانتها طالما بقيت النظم التى قامت على أسسها سليمة محترمة . فلما اختلت تلك النظم اختل توازن الدولة وتضعضعت أحوالها مما أدى الى سقوطها .

فعلى رأس دولة المماليك وجد سلطان لم يتول الحكم نتيجة لحق شرعى موروث ، وانما رشحته قوته ومواهبه وكثرة مماليكه

---

(٢٤) زكى محمد حسن : أطلس الفنون الزخرفة والتصاوير الاسلامية ص ٤٢٣ ـ ٤٢٧ ديماند . الفنون الاسلامية . ترجمة أحمد محمد عيسى ، ٨٧ ، ١١٠ ، ١٣٢ ـ ١٣٣ .
حسن الباشا : التصوير الاسلامى فى العصور الوسطى . ص ١٦٥ .

لتولى ذلك المنصب . فاذا توفى السلطان القائم اتيحت الفرصة لأقوى الأمراء أن يخلفه فى الحكم . فاذا رأى ذلك الأمير أن الظروف غير مواتية وأن هناك من زملائه الأمراء من ينافسه ، فانه يلجأ فى هذه الحالة الى تعيين ابن السلطان المتوفى مكان أبيه ، لا اعتقادا من المماليك فى أحقية ذلك الابن ، ولكن كحل مؤقت حتى يسهل على أقوى الأمراء عزله واحتلال عرش السلطنة . وبعبارة أخرى ، فان المماليك لم يؤمنوا بمبدأ الوراثة فى الحكم .

ومع أن السلطان تمتع بنفوذ واســـع ، وخاصة فيما يتعلق بتأمير الأمراء وملء المناصب الكبرى فى الدولة وتوزيع الاقطاعات ، الا أنه لم يستغن فى أحوال كثيرة عن استشارة كبار رجال الدولة فى مهام الأمور ، وبخاصة المسائل المتعلقة بشن الحرب أو عقد السلم . ولذلك وجد فى عصر المماليك مجلس المشورة الذى كان يعقد برئاسة السلطان أو من يقوم بالوصاية عليه ، وعضوية أتابك العسكر والخليفة العباسى والوزير وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئين وعددهم أربعة وعشرون أميرا . هذا مع ملاحظة أن السلطان لم يكن ملزما بدعوة مجلس المشورة أو الأخذ برأيه وانماترك ذلك لرغبة السلطان ومشيئته(٢٥) .

والى جانب السلطان وجد عدد من كبار الموظفين ، مهمتهم مساعدته فى شـــئون الحكم والادارة ، ومن هؤلاء الموظفين نواب السلطان ، واحد بالقاهرة يعتبر ساعده الأيمن فى تصريف شئون الدولة ، وستة فى الشام فى النيابات الكبرى على رأســـهم نائب دمشق . والى جانب نواب السلطان وجد الأتابك ، وهو القائد العام

(٢٥) خليل بن شاهين : زبدة كشف المماليك ص ١٠٦ ، المقريزى : كتاب السلوك ، ج٢ ، ص ٤٩٨ .

للجيش ، والوزير الذى تضــاءل نفــوذه نتيجة لوجــود نائب للسلطنة(٢٦) ٠

أما الادارة المحلية فى المدن والاقاليم فقد أشرف عليها عدد من الولاة اختيروا دائما من أمراء المـــاليك ، فيما عدا مـدينة الاســكندرية التى عين لها نائب ســلطنة منذ ســنة ١٣٦٥ م (٧٦٧ هـ)(٢٧) ٠

واعتمد هذا الجهاز الادارى الضخم على مجموعة من الدواوين الكبيرة ، وهى أشبه بالوزارات اليوم ،منها ديوان الجيش وديوان الانشاء ، وديوان الاحباس أو الأوقاف وديوان النظر الذى اختص بمراقبة حسابات الدولة ٠

واما شئون القضاء والعدالة فقد أولاها سلاطين المماليك جانبا كبيرا من اهتمامهم وعنايتهم ٠ وكان أهم تطور فى النظام القضائى فى عصر المماليك هو ما قام به الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٥ م (٦٦٥ هـ) من تعيين أربعة من قضاة القضاة يمثلون المذاهب الأربعة لأهل السنة بعد أن كان الوضع منذ أيام صلاح الدين هو وجود قاضى قضاة واحد يمثل المذهب الشافعى(٢٨) ٠

وقام القضاة فى ذلك العصر بدور هام فى المجتمع اذ امتدت اختصاصاتهم الى مختلف أنواع القضايا المدنية والجنائية ٠ هذا فى

---

(٢٦) القلقشندى ٠ صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ١٦ – ١٧ ، ص ١٨ ٠

(٢٧) الخالدى المقصد الرفيع ، ص ١٢٦ ،
القلقشندى . صبح الاعشى ، ج٣ ص ٤٠٤ ، ج٤ ص ٢٤ ، ج١١ ص ٤٠٥ ٠

(٢٨) المقريزى . كتاب السلوك ، ج١ ص ٥٢٨ – ٥٣٩ ، خليــل بن شاهين ٠ زبدة كشف المماليك ، ص ٩٢ ٠

حين اختص قضاة العسكر بالنظر فى القضايا التى يكون طرفاها أو أحدهما من الجند · أما محكمة المظالم فكانت تعقد برئاسة السلطان للنظر فى القضايا التى اختص السلطان بها مباشرة أو التى يستأنفها أصحابها أمام السلطان غير راضين عن الحكم الذى أصدره القضاء فيها ، أو تلك التى تنشأ بين الحكام والمحكومين(٢٩) ·

٨ ـ النظام الاقطاعى والفلاح :

كانت دولة المماليك دولة اقطاعية بكل معانى الكلمة فقسمت أراضى مصر فى عصر سلاطين المماليك الى أربعة وعشرين قيراطا ، اختص السلطان منها بأربعة قراريط ، والأمراء بعشرة ، والأجناد بعشرة · وكان الاقطاع أمرا شخصيا بحتا لا دخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه ، بمعنى أنه كان مفروضا فى المقطع أن يحل محل السلطان فى التمتع بغلات الاقطاع وايراده فحسب ، فاذا أخل المقطع بشروط الاقطاع ، جاز للسلطان أن يستولى على اقطاعه فورا ·· وكذلك كان يستبعد غير القادرين على الخدمة العسكرية فتصادر اقطاعاتهم لتوزع على الأكفاء القادرين(٣٠) ·

وقد حدث فى عصر سلاطين المماليك أن مسحت أراضى مصر مسحا شاملا أكثر من مرة ، ليعاد قياسها وحصرها فى سجلات مع تقدير قيمتها ومدى خصوبتها · وتشبه هذه العملية فى عصرنا الحالى

---

(٢٩) القلقشندى صبح الاعشى ، ج١٠ ، ص ٢٤٣ ، ٣٣٤ ـ ٣٣٦ ، ابن قاضى شهبة الاعلام ، ج١ ، ص ١٢

(٣٠) القلقشندى صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٥٨ ·

ما يعرف بفك الزمام ، فى حين سميت فى عصر المماليك « الروك » ، وكان يتبعها اعادة توزيع الاقطاعات(٣١) ·

اما الأمراء والمماليك المسنون الذين لا يقومون على تحمل تبعات الاقطاع ، فاعتاد سلاطين المماليك أن يمنحوهم بدل الاقطاع رواتب نقدية تخصص لها جهات معينة يتناول المقطع نصيبه منها · ويذكر المقزيزى انه جاء وقت أصبحت فيه معظم الضرائب والمكوس المفروضة فى مصر « عليها اقطاعات الأمراء والأجناد » · فلما راك السلطان الناصر محمد بن قلاوون البلاد سنة ١٣١٥ م (٧١٥ هـ) ، أبطل هذا النوع من الرواتب التى تحمل صفة الاقطاع ، وقصر الاقطاعات كلها على الأراضى ·

---

(٣١) المعينى عقد الجمان . ج٢٣ ق١ ص ٥٤ ،
المقريزى . السلوك . ص ٨٤٥ ·
المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج١ ص ٨٨ ·

٩ ـ سلاطين المماليك البرجية
(دولة الجراكسة)

١ ـ الظاهر سيف الدين برقوق (٧٨٤ هـ ـ ١٣٨٢ م)

٢ ـ المنصور حاجي (من البحرية) (٧٩١ هـ ـ ١٣٨٩ م)

٣ ـ الناصر ناصر الدين فرج بن برقوق (٨٠١ هـ ـ ١٣٩٩ م)

٤ ـ المنصور عز الدين عبد العزيز بن برقوق (٨٠٨ هـ ـ ١٤٠٥ م)

٥ ـ الناصر فرج (للمرة الثانية) ٨٠٨ هـ ـ ١٤٠٥ م)

٦ ـ الخليفة العباسى العادل المستعين بالله (٨١٥ هـ ـ ١٤١٢ م)

٧ ـ المؤيد سيف الدين شيخ المحمودى (٨١٥ هـ ـ ١٤١٢ م)

٨ ـ المظفر شهاب الدين أحمد بن المؤيد شيخ) ٨٢٤ هـ ـ ١٤٢١م)

٩ ـ الظاهر سيف الدين ططر (٨٢٤ هـ ـ ١٤٢١ م)

١٠ ـ الصالح ناصر الدين محمد بن ططر (٨٢٤ هـ ـ ١٤٢١ م)

١١ ـ الأشرف سيف الدين برسباى (٨٢٥ هـ ـ ١٤٢٢ م)

١٢ ـ العزيز جمال الدين سيف بن برسباى (٨٤١ هـ ـ ١٤٣٨ م)

١٣ ـ الظاهر سيف الدين جقمق (٨٤٢ هـ ـ ١٤٣٨ م)

١٤ ـ المنصور فخر الدين عثمان بن جقمق (٨٥٧ هـ ـ ١٤٥٣ م)

١٥ ـ الأشرف سيف الدين اينال العلائى (٨٥٧ هـ ـ ١٤٥٣ م)

١٦ ـ المؤيد شهاب الدين أحمد بن اينال (٨٦٥ هـ ـ ١٤٦١ م)

١٧ ـ الظاهر سيف الدين خشقدم (٨٦٥ هـ ـ ١٤٦١ م)

١٨ ـ الظاهر سيف الدين يلباى (٨٧٢ هـ ـ ١٤٦٧ م)

١٩ ـ الظاهر تمربغا (٨٧٢ هـ ـ ١٤٦٧ م)

٢٠ ـ الأشرف سيف الدين قايتباى (٨٧٢ هـ ـ ١٤٦٨ م)

٢١ ـ الناصر ناصر الدين محمد بن قايتباى (٩٠١ هـ ـ ١٤٩٦ م)

٢٢ ـ الظاهر قانصوه (٩٠٤ هـ ـ ١٤٩٨ م)

٢٣ ـ الأشرف جانبلاط (٩٠٥ هـ ـ ١٥٠٠ م)

٢٤ ـ العادل سيف الدين طومان باى (٩٠٦ هـ ـ ١٥٠١ م)

٢٥ ـ الأشرف قانصوه الغورى (٩٠٦ هـ ـ ١٥٠١ م)

٢٦ ـ الأشرف طومان باى (٩٢٢ هـ ـ ١٥١٦ م)

أصـــبح من القواعد المتبعة ألا يكون الاقطاع وحدة متماسكة من الأرض ، بل يوزع اقطاع الفرد الواحد بين عدة جهات مختلفة مما جعل زمام القرية الواحدة مقسما بين عدة مقاطع(١) ٠

وفى ظل هذا النظام عاش الفلاح المصرى فى عصر سلاطين المماليك مربوطا الى الأرض التى يفلحها ويفنى حياته فى خدمتها وليس له من خيراتها الا القليل ، لأن أراضى مصر الزراعية ظلت نهبا موزعا بين السلطان وأمرائه ومماليكه ، دون أن يبقى للفلاحين سوى العدل والسخرة ودفع الأموال وهم صاغرون ٠ لذلك لم يكن عجبا اذا أجمعت المصادر المعاصرة على سوء حال الفلاح المصرى فى ذلك العصر وأنه فى آخر مأكوله لا يأكل الا الشعير والجبن

القريش والبصل ٠ وقد أدرك المقريزى ريف مصر وأهله يشترون الكثير من حوائجهم ببعض الدجاج وبنخال الدقيق ، لأن « الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف ، الذين تزايدت فى اللذات رغباتهم ، فخرب معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد »(٢) ٠

ومما زاد حال الفلاحين فى ذلك العصر سوءا ، كثرة المغارم والمصادرات التى حلت بهم من الولاة والحكام ، ليأخذوا منهم « غير العادة أضعافا » ٠ كذلك فرض الولاة على أهل القرية الواحدة نظام المسئولية المشتركة فيما يستحق عليهم من أموال ، بمعنى أن يكون كل فلاح شريكا بالنسبة لزملائه فى الوفاء بما هو مفروض على القرية من مال ٠ وعند وصول المشد ـ أو الجابى ـ الى القرية توزع نفقات اقامته على الفلاحين من حيث الأكل والشرب وما تحتاج اليه

---

(١) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص ٥٢ ،
(٢) المقريزى . اغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٣٦ ، ٤٦ ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دوابه من عليق ، ويلتزم الفلاح بكل ذلك قسرا مهما يبلغ فقره ٠٠ وربما هرب الفلاح لضيق ذات يده فتلتزم زوجته وأولاده بالمطلوب ، وتضطر الى بيع ماليديها لشراء مايلزم ذلك الحشـــد من دجاج ولحم(٣) ٠

أما القرية المصرية عندئذ ، فكانت على ماهى عليه من بيوت ضيقة مشيدة من الطوب اللبن وتعلوها الأحطاب ٠ وظلت حياة الفلاح تسير على وتيرة واحدة بين منزله وحقله فى حين تشاركه زوجته بنصيب كبير فى تحمل عبء الحياة ٠ فعليها تقع مهام جلب مياه الشرب من النهر أوالترعة ، وغسل الملابس فيها ، ووقيد الفرن لخبز الخبز « وتدميس الفول وطبيخ البيسار وتقمير البتاو »(٤) ٠

١٠ ـ الحياة العامة فى المدن فى عصر سلاطين المماليك :

واذا كانت هذه حياة الفلاحين ـ وهم الغالبية العظمى من أهل البلاد ـ فى القرى ، فان الصورة اختلفت تماما فى المدن المصرية فى عصر سلاطين المماليك ، وخاصـــة المدن الكبرى مثل القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد ٠ وقد أشاد الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر فى ذلك العصر بعظمة المدن المصرية وكثرة سكانها ، اذا قيست بغيرها من المدن الأوربية المعاصرة مثل روما وفلورنســـا وباريس ٠ وكان أهم ما استرعى انتباه أولئك الرحالة هو تلاصق منازل تلك المدن وضيق حاراتها واكتظاظ طرقاتها بالمارة والسوقة

---

(٣) ابن اياس . بدائع الزهور . ج٢ ، ص ٣٠٢ ،
الشربينى ٠ هز القحوف فى شرح قصيد أبى شادوف . ص ١١٠ ـ ١١١ (بولاق ، ١٨٩٠) ٠

(٤) الشربينى : هز القحوف ، ص ٥٤ ٠

والدواب ، فضلا عن كثرة الباعة الجائلين فى الطرقات(٥) . فالخيول يركبها المماليك يركضون بها وسط الدروب والأسواق المزدحمة ، وهم يضربون الناس يمنة ويسرة ليشقوا طريقهم ، غير مبالين اذا سقط بعض المارة تحت حوافر الخيل ، والجمال العديدة يطوف بها السقاؤون ، وهى تحمل القرب لامداد المنازل والأسواق بحاجاتها من الماء . وقدر البلوى المغربى - الرحالة الذى زار مصر فى عصر المماليك - عدد الجمال فى القاهرة بما يتراوح بين خمسين ألفا ومائتى ألف جمل ، وعدد السقائين بين خمسة آلاف وستين ألف سقاء ، سجلوا أنفسهم عند المحتسب وقاموا بدفع ضريبة معينة للحكومة مقابل ما يأخذونه من ماء النيل . اما الحمير التى قامت بدور سيارات الأجرة فى أيامنا فقد بلغت عددا كبيرا ، وعنى أصحابها بتطهيرها ليستأجرها الناس فى قضاء حاجاتهم وسفرياتهم(٦) .

وعندما زار التاجر الروسى باسل مصر فى ذلك العصر وصف القاهرة بأن بها أربعة آلاف شارع ودرب ، كل منها له بابان وحارسان وبكل شارع منها عدد كبير من المنازل فضلا عن سوق كبير لسد حاجات السكان اليومية . وفى الليل تضاء تلك الشوارع بالمصابيح بعد أن تغلق أبوابها وتشدد الحراسة عليها ، فيرتب لها جماعة من الطوائف لكشف الأزقة وغلق الدروب ، وتفقد أصحاب الأرباع ، وتاديب المخالف ، ومن سار فى الليل لغير سبب قبض عليه . وعنيت السلطات بالقاهرة بنظافة الشوارع بالكنس والرش بالماء . وهى المهمة التى قام بها الباعة وأصحاب الحوانيت . كذلك أمر أصحاب

---

(٥) Dopp (P.H.) : Le Caire Vu par les Voyageurs Occidentaux du Moyen Age (Bulletin de S.R.G. d'Egypte — Tome 23; 1950 & Tome 24, 1951 & Tome 26, 1953).

(٦) رحلة البلوى المغربى ، ص ٥٥ (مخطوط) ، رحلة ابن بطوطة ، ص ٣٢ (بيروت ، ١٩٦٨) .

الحوانيت بأن يضعوا على أبواب حوانيتهم آنية مملوءة بالماء لتسهيل اطفاء ما يقع من حرائق (٧) ٠

وزخرت المدن المصرية عامة والقاهرة خاصة فى عصر المماليك بكثير من المنشآت العامة من الوكالات المعدة لاستقبال التجار وبضائعهم ، والمارستانات أو المستشفيات لعلاج المرضى ، والأسبلة لتيسير حصول الناس والدواب على ماء الشرب ، والحمامات التى اختص بعضها بالرجال والبعض الآخر بالنساء ، فضلا عن عديد المساجد والمدارس ٠ أما سجون ذلك العصر فكانت على أنواع منها ما هو خاص بالأمراء والمماليك والجند ، ومنها ماهو خاص بأرباب الجرائم من اللصوص وقطاع الطرق وغيرهم ومنها ماهو خاص بالنساء المذنبات ٠ ويفهم من المصادر المعاصرة أن السجون بلغت درجة مخيفة من الحطة والقذارة ، وسوء معاملة السجناء داخلها ، حتى ان الاعدام كان فى كثير من الحالات أخف وطأة من عقوبة السجن (٨) ٠

وعلى الرغم من المتاعب والأزمات التى تعرض لها الناس أحيانا فى عصر سلاطين المماليك ــ بسبب انخفاض الفيضان وانتشار الأوبئة أو بسبب الفتن بين طوائف المماليك أو عسف بعض الحكام ــ فان روح المرح والرغبة فى التسلية والترويح عن النفس ظلت هى الغالبة على أهالى المدن المصرية ٠ وقد اعتاد الناس فى ذلك العصر الخروج الى الحدائق والمتنزهات مثل بركة الرطلى وبركة الحبش وجزيرة الروضة ، أو الى شواطىء النيل ــ حيث الأشجار والزهور ــ طلبا للتسلية والترويح ٠ وكثيرا ما كانوا يستأجرون القوارب فى

---

(٧) المقريزى : كتاب السلوك ، ج٣ ، ص ١٩ ، ج٤ ص ٦٦٧ ،

(٨) المقريزى ٠ المواعظ والاعتبار ، ج٢ ، ص ١٨٧ وما بعدها ، كتاب السلوك ، ج٢ ، ص ٦٨٦ ــ ٦٨٧ ، ٤٩١ ، ٥١٩ ٠

النيل ويصطحبون معهم المغاني وآلات الطرب لقضاء وقت سعيد على صفحات النهر الخالد • كذلك اشتهر من وسائل التسلية فى عصر المماليك خيال الظل ، فضلا عن ولع الناس بالتلهى بتطيير الحمام ونطاح الكباش ومناقرة الديوك والمصارعة وغيرها من الألعاب التى كانت تتم عن طريق الرهان(٩) •

واشتهرت الحياة فى المدن المصرية فى عصر المماليك بالحفلات الصاخبة التى كانت تقام بين حين وآخر لاحياء مختلف المناسبات العائلية والدينية والقومية • فمن أشهر الحفلات العائلية حفل الزواج ، وفيه جرت العادة باقامة الولائم الحافلة واستحضار المغنيات وضاربات الدفوف ، ويشارك الأهل والأحباب بتقديم الهدايا والنقوط •• ومثل ذلك يقال عن الحفلات الخاصة بالولادة ـ لاسيما اذا كان المولود ذكرا ـ وختان الطفل ••• وغير ذلك من المناسبات السعيدة(١٠) • أما الاحتفالات القومية فى عصر سلاطين المماليك فكانت كثيرة ومتنوعة ، منها ماارتبط بالسلاطين مثل الاحتفال بتولية سلطان جديد أو ابلال السلطان من مرض أو عودته سالما من سفر أو ظافرا من حرب • وفى جميع هذه الحالات كانت القاهرة تزين بالزينات الفاخرة ، ويخرج السلطان فى موكب حافل ، فى حين

---

(٩) ابن دقماق • الانتصار لواسطة عقد الامصر ، ج٥٤ ص ١١٠ (بولاق ١٨٩٣) ،

ابن اياس بدائع الزهور ، حوادث سنة ٨٦٦ هـ ، ابن تغرى بردى • النجوم الزاهرة ، ج٦ ص ١٣٦ •

Paul Kahle : The Arabic Shadow Play in Egypt (P.P. 31 — 31) (J.R.A.S. 1940).

(١٠) السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٣٠٢ ، المقريزى : كتاب السلوك ص ٣٠٥ ، ٦٠١ ابن الحاج • المدخل ، ج٣ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٨ ، ٢٩٠ ـ ٢٩١ ،

ابن دقماق الجوهر ص ٢٧٦ ، وابن حجر : أنباء الغمر ، ج٢ ص ٢٧٦ •

يحتشد الناس للفرجة وسط قرع الطبول وزغاريد النساء . وثمة مناسبة سعيدة حرص المصريون على احيائها والاحتفال بها كل عام ، هى عيد وفاء النيل ، فكان يحتفل فى عصر المماليك بكسر الخليج فى موكب حافل تسير فيه السفن المزينة بالأعلام . وعند وصول السلطان أو نائبه الى مقياس الروضة يمد سماط كبير من الشواء والحلوى والفاكهة وسط ابتهاج الناس وفرحهم . وأما المناسبات الدينية مثل عيد رأس السنة الهجرية والمولد النبوى ودوران المحمل وشهر رمضان وعيدى الفطر والأضحى ، فكان يحتفل بها على نطاق واسع فتقام الزينات وتوزع الصدقات وتمد الأسمطة والولائم ، وتضاء الأضواء فى الجوامع والمدارس وغيرها حيث يجتمع الناس لسماع المقرئين والمنشدين والوعاظ ، ويقيم الصوفية حلقات الذكر .. وغير ذلك من مختلف الوسائل للتعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم(١١) .

وهكذا كانت الحياة العامة فى المدن المصرية ــ وخاصة القاهرة ــ فى عصر سلاطين المماليك حياة نشطة حافلة بالحركة مفعمة بالحيوية مما أضفى على المجتمع المصرى فى ذلك العصر طابعا خاصا مميزا . وبينما أهل القاهرة يحيون هذه الحياة ، كان سلطان المماليك يعيش على مرأى منهم فوق جبل المقطم فى مدينة صغيرة أطلق عليها اسم قلعة الجبل . ذلك أن هذه القلعة لم تكن فى عصر سلاطين المماليك مجرد مركز للحكم ودار اقامة للسلطان فحسب ، وانما صارت بمثابة مدينة تضم طباق المماليك السلطانية ، ودورا لخواص الأمراء ونسائهم وأولادهم ومماليكهم ودواوينهم ، فضلا عن دار الوزارة التى اشتملت على قاعة الانشاء وديوان الجيش وبيت المال وخزانة الخاص .

---

(١١) ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ، ج٥ . ص ٥٧٥ ، ابن الحاج . المدخل ، ج٢ ص ٢ ، ١١ ، ٢٥ .
المقريزى : كتاب السلوك ج٤ ص ٤٢٠ حوادث ٨٢٥ هـ ،
السخاوى : التبر المسبوك ، سنة ٨٤٥ ، ٨٤٩ هـ .

وكانت قلعة الجبل موضع عناية سلاطين المماليك دائما ، فاقاموا فيها العمائر الكثيرة والقصور والمساجد العديدة ، مما جعلها مثار دهشة الرسل والسفراء الأجانب فى ذلك العصر • وأشرف على أعمال الصيانة العامة بالقلعة ديوان الدولة الشريفة الذى تولى ناظره الانفاق على قصور السلاطين من عمائر وأسمطة وصدقات ، وكل ما تحتاج اليه البيوت السلطانية • أما هذه البيوت فكانت عديدة لكل منها مباشر أى رئيس أو مشرف من الأمراء ، له مساعدون عديدون ، وأطلق عليها اسم البيوت الشريفة ومن هذه البيوت الشراب خاناه ـ أى بيت الشراب ـ ويحوى مختلف أنواع الأشربة والأدوية التى يحتاج اليها السلطان ، والطشت خاناه ، وفيه أنواع الأوانى والطشوت والأباريق اللازمة لغسل الأيدى والوضوء والاستحمام ، والفراش خاناه ، وفيه أنواع الفرش والبسط والخيام والتخوت والوسائد •• وغيرها(١٢) •

وسارت الحياة فى قلعة الجبل حسب تقاليد خاصة فى عصر سلاطين المماليك ، منها دق الكوسات عند أبوابها ، وهى صنجات من نحاس يدق بها مع طبول وشبابة مرتين كل ليلة ، ويدار بها فى جوانب القلعة مرة بعد العشاء ومرة فى الفجر قبل التسبيح على المآذن ، وتسمى كل منهما « الدورة » • ومنها الزفة بالطبلخاناه وهى طبول متعددة معها أبواق وزمر تختلف أصواتها على ايقاع مخصوص تدق كل يوم بالقلعة صباحا وبعد صلاة المغرب فيصدر لها دوى عظيم يعرف به موعد فتح أبواب القلعة وغلقها من مسافة بعيدة ••

---

(١٢) القلقشندى : صبح الاعشى ، ج٣ ، ص ٣٧٦ ، ج٤ ، ص ٩ وما بعدها •

المقريزى المواعظ والاعتبار ، ج٢ ، ص ٢٠١ وما بعدها •

النويرى . نهاية الأرب ، ج ٨ ، ص ٢٢٤ وما بعدها

خليل بن شاهين زبدة كشف الممالك ، ص ٩٧ ـ ١٢٤ •

وجرت العادة أن يحتفظ الســــلطان فى المســاء بمفاتيح القلعة ، فيحضرها اليه المتولون على الأبواب مساء ويتسلمونها صباحا(١٣) ٠

أما حياة سلاطين المماليك ـ داخل القلعة وخارجها ـ فاتصفت بالثروة والبذخ ٠ فالقصور السلطانية داخل القلعة استكملت كل أسباب الترف من أثاث ورياش ، ونافورات ، وصنابير للمياه الباردة أو الساخنة حسب الحاجة ، بل ان الثلج كان يجلب لهم من جبال الشام لتبريد الماء صيفا ، وذلك « لكمال الرفاهية والأبهة » ، فقرروا له هجنا فى البروسفنا تحمله فى البحر ـ فى برادات وبطريقة خاصة ـ حتى يصل الى القلعة حيث يحفظ بالشرابخاناه(١٤) ٠

كذلك أمعن ســلاطين المماليك فى لبس الفاخر من الثياب ، فأبدلوا ملابسهم فى اليوم الواحد ثلاث مرات ، ومع ذلك فان الرداء الذى يخلعه السلطان كان لا يلبسه مرة أخرى مطلقا ، وانما توضع الملابس المخلوعة فى خزانة خاصة حتى ينعم بها على بعض خاصته ٠ وعند مبيت السلطان يظل حوله عدد من أمرائه ومماليكه للسهر على حراسته ، فيقسمون الليل بينهم ، كلما انقضـــت نوبة فئة أيقظوا أصحاب النوبة الذين يلونهم(١٥) ٠

أما الحريم السلطانى ، فاحتوى على عدة قاعات تحيط بها البساتين والأشجار والطيور والحيوانات الجميلة ، وقد خصصت لكل واحدة من زوجات السلطان الأربع قاعة خاصة بها ، وأحيطت

(١٣) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ، ج١ ، ص ١١٨ ، النجوم الزاهرة ، ج٨ ص ١٧٠ . القلقشندى . صبح الاعشى ج٤ ص ٩ ٠

(١٤) خليل بن شاهين · زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ ـ ١١٨ ، القلقشندى : صبح الاعشى ج١٤ ، ص ٣٩٥

(١٥) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص ٤٩ ، ج٥ ص ٤٥٩ ٠

كل واحدة منهن بعدد من الوصيفات ، كما خصص لكل واحدة منهن أربعة طواشية (خصيان) بمثابة حرس دائم لها ، ولا يفارقنها فى أى مكان تذهب اليه · فاذا رزق السلطان بولد ذكر من احدى زوجاته دقت البشائر بالقلعة وأنعم على الأمراء بالخلع(١٦) ·

بالاضافة الى شغف كثير من سلاطين المماليك بالموسيقى والغناء فان معظمهم أظهر ولعا كبيرا بالألعاب الرياضية وخاصة الخروج لسرحات الصيد أو ميادين لعب الكرة والرمى بالبندق · هذا فضلا عن الخروج للنزهة فى أماكن متفرقة ظاهر القاهرة ، مثل خليج الزعفران أو الجيزة أو غيرها(١٧) ·

وفيما عاد ذلك فان الحياة الرسمية فى البلاط داخل القلعة اتصفت بالتعقيد وأحيطت بمختلف مظاهر التفخيم والبروتوكول · وكانت الاستقبالات والمجالس الرسمية تمثل جزءا هاما أساسيا فى حياة سلاطين المماليك ، مما جرى العرف على تسميته المواكب ·· وأشهر هذه المواكب التى كانت تجرى داخل القلعة موكب استقبال الرسل والسفراء الأجانب ، عندما كان السلطان يرتدى أفخر ملابسه ويظهر حوله الأمراء فى أبهى صورة · ويجلس السلطان على سرير الملك وهو منبر من الرخام بصدر الايوان ، مغطى بالمخمل · وفى أركان القاعة بعض المنشدين والموسيقيين يعزفون فى هدوء على مختلف الآلات الموسيقية من رباب وعود وغيرها · وقبل أن يتشرف السفير بالمثول بين يدى السلطان ينبهه رجال الحاشية الى قواعد

---

(١٦) خليل بن شاهين · زبدة كشف الممالك ، ص ٢٦ ــ ٢٧ ،
المقريزى السلوك . ج٢ ، ص ٧٦٤

(١٧) السخاوى التبر المسبوك ، حوادث ٨٤٩ هـ ،
العينى عقد الجمان . حوادث ٨٢١ هـ

البروتوكول السلطانى ، من ضرورة تقبيل الأرض أمام السلطان وعدم البصق فى حضرته ...(١٨) .

ولاستكمال هذه الصورة ، ينبغى أن نشير الى أنه وجد من سلاطين المماليك من اتصف بالتقوى والورع وحب البحث فى المسائل العلمية والدينية . فالأشرف قايتباى عرف عنه اشتغاله بالعلم وكثرة مطالعة الكتب « وله اذكار وأوراد جليلة تتلى فى الجوامع » . أما السلطان ططر فقد اعتاد انشاد الشعر بين يديه . هذا فى حين حرص السلطان الغورى على أن يعقد بالقصر السلطانى بالقلعة مرة أو مرتين أو ثلاث كل أسبوع ، مجالس علمية أو دينية ، يدعو اليها كبار العلماء ورجال الدين والأدباء للتباحث فى مختلف المسائل العلمية والدينية . ولاشك فى أن الحياة الدينية والعلمية فى عصر سلاطين المماليك بالذات تتطلب منا وقفة خاصة(١٩) .

١١ ـ الحياة الدينية والعلمية فى عصر سلاطين المماليك :

وعندما نتكلم عن الحياتين الدينية والعلمية نلاحظ التداخل الشديد بين هاتين الحياتين حتى لتبدوان حياة واحدة تجمع بين العلم والدين . ذلك أن العلوم التى كانت تدرس فى تلك العصور كانت فى المقام الأول علوما دينية ، ورجال العلم كان معظمهم من الفقهاء ورجال الدين ، والجوامع ـ كالجامع الأزهر ـ كانت تستخدم فى التدريس وتلقين العلوم ، فى حين أن المدارس ـ كمدرسة السلطان

---

(١٨) القلقشندى . صبح الأعشى ، ج٤ . ص ٦ ـ ٧ ،
Schefer : Voyage du Magnifique et tres illustré Chevalier Dominice Trevisan, P. 184. (Paris, 1864).

(١٩) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ١٨٢ ،
السخاوى : التبر المسبوك ، ص ٢٢١ ـ ٤١٥
عبد الوهاب عزام . مجالس الغورى ، ص ٤٩ .

حسن ـ كانت تعتبر مؤسسات دينية يستهدف بناؤها التقرب الى الله ، وحسبها أنها كانت تقام فيها الصلوات ، وتدرس فيها علوم الدين ٠

وقد سبق أن أشرنا الى أن سلاطين المماليك فى مصر أحسوا منذ البداية بأنهم أغراب عن البلاد وأهلها ، مغتصبون للحكم والعرش من أصحابه الشرعيين ، مجرحون بسبب أصلهم غير الحر ، ولذا عملوا على التغلب على كافة هذه العقد ، حينا بالجهاد ومواصلة الحروب ضد الأعداء للظهور فى صورة حماة الوطن المدافعين عنه ضد المعتدين ، وأحيانا بالحرص على اقامة شعائر الدين واحياء سنن الأولين وتعمير مساجد وزوايا ومدارس يذكر فيها اسم الله كثيرا ، مما يقربهم الى قلوب رعاياهم ٠ هذا فضلا عن حماسة بعضهم للاسلام ، وهى الديانة الجديدة التى اعتنقوها صغارا وتشبع كثير منهم بحبها والاخلاص لها ٠

وهكذا شهدت الحياة الدينية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك نشاطا واسعا منقطع النظير ، وحسب مصر فى ذلك العصر أنها صارت مقر الخلافة العباسية بعد أن احياها فيها السلطان بيبرس ـ كما سبق أن أشرنا ٠ ويعلق أحد مؤرخى عصر المماليك ـ وهو السيوطى ـ على ذلك ، فيقول « اعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الاسلام فيها ، وعلت فيها السنة، وعفت منها البدعة ، وصارت محل سكن العلماء ، ومحط رحال الفضلاء »(٢٠) ٠

---

(٢٠) السيوط : حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، ج٢ ص ٩٤ (القاهرة ، ١٩٦٨) ٠

هذا وان ظل الخليفة العباسى نفســــه ، منذ احياء الخلافة العباسية بمصر سنة ١٢٦١ م (٦٥٩ هـ) ، وخلافته « ليس فيها أمر ولا نهى ، انما حظه أن يقال له أمير المؤمنين » • ذلك أن الذى استقر عليه حال الخلفاء العباسيين بالديار المصرية فى عصر ســـلاطين المماليك ، هو أن يفوض الخليفة الأمور العامة الى السلطان ، ويكتب له عنه عهدا بالسلطنة ، ويدعى له قبل السلطان على المنابر ، وفيما عدا ذلك يستبد السلطان بكافة شئون الدولة فى حين يقنع الخلفاء بالتردد على أبواب الســــلاطين والأمـــراء لتهنئتهم بالشــــهور والأعياد(٢١) •

ومن ناحية أخرى ، فان سلاطين المماليك لم يكتفوا بالمبالغة فى احياء الشعائر والاحتفال بالأعياد الدينية ، وانما حرصوا على انشاء كثير من الجوامع والمساجد الفاخرة ، حتى قدر المقريزى عدد الجوامع التى تقام بها الجمعة فى القاهرة والفسطاط بمائة وثلاثين ، فى حين قدر غيره عدد المساجد فيهما بأكثر من ألف مسجد • ويكفى أن نشير الى أنه فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون تم تشييد ثمانية وعشرين مسجدا ، شيدها السلطان الناصر وأمراؤه(٢٢) •

على أن الظاهرة الواضحة التى اتصفت بها الحياة الدينية فى مصر فى عصر سلاطين المماليك كانت اشتداد تيار التصوف مما ترك أثرا واضحا فى الحياة الاجتماعية فضلا عن الدينية • ذلك أنه وفد على مصر منذ القرن السابع الهجرى (الثالث عشر للميلاد) كثير من مشايخ الصوفية الذين نزح معظمهم من المغرب والاندلس ، مثل

---

(٢١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٢٧٥ ،
المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج٢ ، ص ٢٤٢ •
(٢٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج٢ ، ص ٢٤٢ وما بعدها ،
خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ، ص ٣١ •

أبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى ، وأبى القاسم القبارى والسيد أحمد البدوى ، فوجدوا من المصريين استجابة لأسلوبهم نظرا للظروف الخاصة التى أحاطت عندئذ بأهل مصر خاصة وبالمسلمين عامة ، مما جعل كثيرين يجدون فى الزهد والعبادة والعودة الى طريق الله خير وسيلة للخلاص من الشدائد التى كانوا يعانون منها . وانقسم الصوفية الى فرق عديدة لكل فرقة شيخها وشعارها ، فالطائفة الأحمدية مثلا نسبت الى شيخها أحمد البدوى وشعارها اللون الأحمر . وأطلق الصوفية على أنفسهم اسم الفقراء وذلك « لأن الفقر شعار الصالحين » ولكل واحد من هؤلاء الفقراء شيخه الذى يرتبط به وبطريقته وبأوامره . أما حياة الصوفية فقامت على أساس التقشف فى الملبس والمأكل وغير ذلك من أركان الحياة ، ففضلوا ارتداء الصوف مبالغة منهم فى الخشن ، كما لبسوا المرقع من الثياب . هذا فى حين وجهوا نشاطهم نحو العبادة والذكر ، وباشروا ذلك النشاط فى البيوت التى خصصت لهم والتى أطلقت عليها أسماء الخانقاوات والربط والزوايا . وقد اهتم سلاطين المماليك وأمراؤهم بانشاء هذه البيوت الصوفية ، وعينوا لكل منها شيخا أو أكثر وعددا من الصوفية ووقفوا عليها الأوقاف . وكانت كل خانقاه تؤلف وحدة قائمة بنفسها ، ويداخلها عدد معين من الخلوات خصصت كل منها لأحد الصوفية ، والحق بالخانقاه حمام ومطبخ وخزانة للأدوية(٢٣) .

هذا وقد شهدت حياة التصوف بعض الانحرافات فى أواخر عصر المماليك ، كما تطرف بعضهم فى آرائهم وأفعالهم ، فنشأت عن ذلك طائفة أطلق عليها اسم المجاذيب « أو » الدراويش » ، وقد حلق

---

(٢٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ١٦٢ وما بعدها .

بعضهم لحاهم وحواجبهم وأتوا أعمال غير طبيعية لا تتفق مع أصول الدين(٢٤) ٠

وجاء هذا النشاط الدينى الذى شهدته مصر فى عصر سلاطين المماليك مرتبطا بنشاط علمى واسع النطاق ، حتى ان الرحالة البلوى المغربى الذى زار مصر سنة ١٣٣٦ م (٧٣٧ هـ) لم يستطع أن يخفى اعجابه الشديد بازدهار الحياة العلمية فى البلاد فقال ان مصر منبع العلم ٠ ولا أدل على النشاط العلمى فى ذلك العصر من ذلك العدد الضخم من المدارس والمكاتب والمكتبات التى تسابق علماء العصر على العمل بين جوانبها ، فضلا عن التراث العملاق الذى خلفه عصر سلاطين المماليك من موسوعات أدبية ، وكتب تاريخية ، ومؤلفات فى العلوم الدينية والنقلية والعقلية ٠ ومازالت مكتبات العالم ومتاحفه زاخرة بآلاف المخطوطات التى ترجع الى ذلك العصر بالذات ، والتى لم يستطع العلماء حتى الآن تحقيقها ونشرها أو حتى استيعاب كل ما جاء فيها من حقائق ومعلومات ٠

وقد تركز الجزء الأكبر من النشاط العلمى فى ذلك العصر فى المدارس التى أكثر سلاطين المماليك من انشائها ، حتى قال عنهم القلقشندى انهم بنوا من المدارس « ما ملأ الأخطاط وشحنها »(٢٥) ، أما الرحالة ابن بطوطة الذى زار مصر فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر للميلاد) فقال عن مدارس مصر انه « لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها »(٢٦) ، وعدد منها الكثير فى مختلف المدن المصرية بالصعيد والوجه البحرى ، فضلا عن القاهرة ٠ وعند الفراغ من

---

(٢٤) السخاوى ٠ الذيل على رفع الاصر ٠ ص ٣٧ ، ابن الحاج : المدخل ج٣ ص ١٧٩ ، المقريزى ٠ المواعظ والاعتبار ٠ ج٢ ، ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣٠

(٢٥) القلقشندى صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨

(٢٦) رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٣ (بيروت ، ١٩٦٨) ٠

بناء مدرسة كان يحتفل بافتتاحها بحضور السلطان والأمراء والقضاة والفقهاء والأعيان ، ويعين للمدرسة مايلزمها من موظفين ومدرسين وفقهاء ومؤذنين وقراء وفراشين ، فضلا عن تحديد عدد الطلاب الذين يدرسون فيها(٢٧) • هذا الى أنه كانت تلحق بالمدرسة خزانة كتب يرجع اليها المدرسون والطلاب فى البحث والاستقصاء وتضم أنواعا عديدة من التصانيف والمؤلفات • فاذا أتم الطالب دراسته وتأهل للفتيا والتدريس ، أجاز له شيخه ذلك ، وكتب له اجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الاجازة وغير ذلك •

وجرت العادة فى ذلك العصر أن يوقف مؤسس المدرسة ـ سلطانا كان أوأميرا أو غير ذلك ـ وقفا على المدرسة من أراض ودور وغيرها ، لتتمكن المدرسة من اداء رسالتها ، وتنفق من ريعه على المدرسين والشيوخ والطلاب فضلا عن صيانة مرافقها • وهكذا كانت الأوقاف والأحباس هى التى ثبتت أركان المدرسة ودعمت نظامها ومكنتها من النهوض برسالتها فى عصر سلاطين المماليك(٢٨) •

على أنه اذا كانت المدارس فى ذلك العصر تمثل المعاهد العليا أو الجامعات فى عصرنا ، فان ثمة مؤسسات أخرى أطلق عليها اسم المكاتب نهضت بمهمة تعليم الصغار فى المرحلة الأولى من مراحل التعليم • ويفهم من المصادر المعاصرة أن الهدف من انشاء المكاتب فى عصر المماليك كان تعليم أيتام المسلمين ولذلك سارع الخيرون الى انشاء المكاتب وحبس الأوقاف عليها للعناية بأمر الأيتام وتعليمهم

---

(٢٧) النويرى : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ص ١٥ (مخطوط) ،
ابن تغرى بردى : النجوم ، ج٥ ، ص ٣٨١ •
المقريزى : السلوك ، ج١ ، ص ٥٠٤ •

(٢٨) عبد اللطيف ابراهيم على : دراسات تاريخية واثرية ، مجلد ٢ ، ص ١٤٥ (رسالة لم تطبع) •

مع توزيع الغذاء والكساء عليهم · وقد خصص لكل مكتب مؤدب يساعده عريف يقومان بتعليم الصغار ـ القرآن والكتابة · وكان العريف يعاون الأطفال المتخلفين عن غيرهم ، ويراجع الواح الأطفال فى غيبة المؤدب أو الفقيه(٢٩) ·

* * *

وبعد ، فان عصر سلاطين المماليك فى مصر لم يكن عصر نشاط حربى فحسب ، بل كان أيضا عصر نشاط حضارى واسع النطاق · فالى جانب الرسالة الخالدة التى نهضت بها مصر فى ذلك العصر فى الدفاع عن الوطن العربى ضد الأخطار الكبرى التى هددته من جانب التتار حينا ، ومن جانب الصليبيين والغرب الأوربى أحيانا ·· علينا أن نذكر أن مصر غدت فى ذلك العصر قصبة التجارة العالمية والمعبر الرئيسى لتجارة الشرق فى طريقها الى الغرب ، مما عاد بالثروة التى ساعدت على ازدهار الصناعات والفنون ، وانتعاش العلوم والدراسات ، واقامة المنشآت الدينية وغير الدينية مما لايزال بعضها باقيا يشهد على عظمة مصر فى عصر من أزهى عصورها ·

على أن التاريخ دول ، ولم يقدر لدولة قط عبر التاريخ أن تظل على حال واحد من العظمة والرفعة ، وانما هى تعلو لتهبط ، وترتفع لتنزل ، ثم انها تهبط لتعلو من جديد ، وتنزل لترتفع مرة أخرى بعد حين ، وهكذا تدور عجلة التاريخ على مر العصور وتتابع القرون · ومع تقلب الدول وتعاقبها يظل الشعب المصرى بمعدنه الأصيل ثابتا لا يتغير ولا يتبدل ، قادرا دائما على أن يجدد طاقته الكامنة ، لينجز الكثير ويقدم الكثير ، على مر الأزمنة وتعاقب العصور ·

---

(٢٩) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٦٠٠ ، ج ٧ ص ١٢١ ، النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٠ (مخطوط) ·

١٢ ـ نهاية دولة سلاطين المماليك :

شهد القرن التاسع الهجري ـ الخامس عشر للميلاد ـ تدهورا سريعا في أوضاع دولة المماليك ، وهو تدهور يرجع في المقام الأول الى اختلال نظامهم الاجتماعي والحربي من ناحية ، وسوء سياسة السلاطين الداخلية من ناحية أخرى . فبعد أن كان المماليك يجلبون صغارا وينشئون نشأة قويمة أساسها الطاعة والنظام ، صاروا يجلبون الى مصر كبارا ، بل أن بعضهم جاء بعد بلوغ سن الرشد(٣٠) . ثم ان السلاطين عدلوا عن تسليمهم للفقيه « ليربيهم بالآداب والحشمة والحرمة »(٣١) ، وتركوهم وشأنهم ، كما يسمحوا لهم بالنزول من طباقهم وتهاونوا معهم في أخطائهم . وترتب على ذلك أن فقد المماليك روح النظام والطاعة ، وهي الروح التي ميزت أسلافهم الأوائل ، وحلت محلها روح التمرد والعصيان . فاذا وزع السلطان دراهم الكسوة على مماليكه امتنعوا عن أخذها وطلبوا المزيد ، بل بلغ الأمر ببعضهم أن قتل أستاذه من أجل تحقيق أطماعه الخاصة(٣٢) . وساعد على هذه الفوضى انقسام المماليك شيعا وأحزابا متطاحنة في عهد سلطان واحد ، فنسمع في عهد السلطان المؤيد شيخ عن المماليك الأشرفية والظاهرية والمؤيدية . ولم يقتصر الأمر على الصراع في شوارع القاهرة بين طوائف المماليك ، مما أثار نوعا من الفوضى وترك أثرا سيئا في أوضاع البلاد وخاصة الاقتصادية ، وانما أخذت كل طائفة تتجسس على الأخرى . فاذا مرض مملوك من غير طائفته ، أسرع مملوك آخر الى أخذ اقطاعه

---

(٣٠) سعيد عبد الفتاح عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ١٧٣ .

(٣١) المقريزي : كتاب السلوك ، ج٢ ، ص ٥٢٤ ، حوادث سنة ٧٤١ هـ

(٣٢) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ، ج١ ص ١١٣ ؛ السخاوي : التبر المسبوك ، ص ٣٥٢ .

حيا كان أو ميتا . كذلك أدى عدم انضباط المماليك الى تعرضهم لحريم الأهالي وأولادهم ، حتى أمسوا رمزا للسلب والنهب والاجرام وعنوانا للفوضى وعدم الاستقرار في البلاد(٣٣) . وهذا ما صار اليه المماليك على أيام المقريزى المتوفى سنة ١٤٤١ م (٨٤٥ هـ) ، الذى وصف المماليك على أيامه بأنهم « ليس فيهم الا من هو أزنى من قرد وألص من فأرة وأفسد من ذئب » . أما المؤرخ أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الذى ينحدر من أصل مماليكى والذى توفى سنة ١٤٦٩ م (٨٧٤ هـ) فقد قال عن المماليك فى أيامه بأنهم « ليس لهم صناعة الا نهب البضاعة ، يتقوون على الضعيف ويشرهون حتى فى الرغيف ، جهادهم الاخـــــــراق بالرئيس ، وغزوهم فى التبن والدريس !! »(٣٤) .

هذا الى ان فساد النظام الاقطاعى فى أواخر عصر المماليك أدى الى اختلال نظام الجيش نفســـــه ، لأن الجيش قام على أسس اقطاعية بحتة . وكانت أبرز مظاهر ذلك الخلل تصــــرف الأمراء والأجناد فى اقطاعهم عن طريق البيع والتنازل والمقايضة فمن أراد النزول عن اقطاعه حمل مالا الى بيت المال بحسب ما يقرر عليه ، الأمر الذى أدى الى دخول كثير من الكتاب وأرباب الوظائف الدينية وأرباب الصنائع والحرف ضمن أجناد الجيش(٣٥) .

ومن ناحية أخرى ، فان سلاطين المماليك فى القرن التاسع الهجرى اتبعوا سياسة اقتصـــــادية قاسية ، فتطرقوا فى الاحتكار ـ مثلما فعل برسباى وقايتباى بوجه خاص ـ وأمعنوا فى جمع

(٣٣) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ، ج٢ ، ص ٣٣٤ .
ابن قاضى شهبة : الاعلام ، ج٤ ، ص ١٨٦ .
(٣٤) ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٣٢٩ .
(٣٥) المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج٢ ، ص ٢١٩ .

الضرائب مقدما دفعة واحدة ، فضلا عن التلاعب فى العملة لتستفيد الخزانة من الفارق بين العملة الجيدة والعملة الرديئة ، ومضاعفة المكوس والرسوم ، الأمر سبب ضائقة اقتصادية خطيرة للناس زاد من أثرها انتشار الطاعون انتشارا خطيرا فى البلاد سنة ١٤٩٢ م (٨٩٧ هـ)(٣٦) ٠

وزاد الطين بلة أن جمهورية جنوة أخذت تبحث عن طريق جديد الى الشرق بدلا من طريق مصر ، بعد أن أدت سياسة المماليك الاحتكارية الى ارتفاع أثمان التوابل ارتفاعا غير محتمل ، حتى انها صارت تباع للتجار الأوربيين فى الاسكندرية ودمياط بثمن يفوق أربعين مرة اثمانها المستوردة بها الى مصر ٠ وكان أن نجح البرتغاليون فى نهاية القرن الخامس عشر الميلاد (أوائل القرن العاشر للهجرة) فى الوصول الى الهند عن طريق الطواف حول أفريقيا ، وبذلك حققوا نصرا عالميا جديدا واستطاعوا أن يوفروا للسوق الأوروبية التوابل وغيرها من حاصلات الشرق الأقصى ، بثمن يبلغ ربع الثمن الذى كانت تباع به فى الاسكندرية ودمياط ٠ وسرعان ما اهتزت سلطنة المماليك لذلك الانقلاب المفاجىء فى طرق التجارة ، مما حرم المماليك من المورد الأول الذى استمدوا منه أسباب قوتهم وعظمتهم ٠ وعبثا حاول السلطان الغورى أن يعيد عقارب الساعة الى الوراء اذ انتصر البرتغاليون فى النهاية على الأسطول المماليكى فى موقعة ديو البحرية سنة ١٥٠٩ م (٩١٥ هـ (٣٧) ٠ وهكذا ذبلت تجارة مصر مع الشرق الأقصى والغرب الأوربى جميعا ٠ وبذبول تلك التجارة ذبلت الدلة نفسها ٠ وكان ذلك فى الوقت الذى لاح على

---

(٣٦) ابن اياس ٠ بدائـــع الزهور ، ج٣ ، ص ٢٨٧ (تحقيق محمد مصطفى) ٠

(٣٧) المصدر السابق ٠ ج٤ ، ص ٨٢ ، ٢٨٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٦ ٠

مسرح الشرق الأدنى خطر جسيم قدر له أن يجهز على سلطنة المماليك فى مصر والشام ، وهو خطر الأتراك العثمانيين ·

اما هؤلاء العثمانيون فهم قبيلة من الأتراك اضطروا فى بداية القرن الثالث عشر للميلاد ـ السابع الهجرى ـ الى أن يتحركوا تحت ضغط التتار من اقليم خراسان حتى استقر بهم المقام فى آسـيا الصغرى · ولم يلبث أن أدى انهيار سلطنة سلاجقة الروم فى أوائل القرن التالى الى اتاحة فرصة للعثمانيين فأخذوا يتوسعون بسرعة فى آسيا الصغرى والبلقان حتى سقطت القسطنطينية فى أيديهم سنة ١٤٥٣ م (٨٥٧ هـ) ، وبذلك قاربت الدولة العثمانية فى تاريخها نقطة مفترق الطرق ، فهل تواصل توسعها فى وسط أوربا أم تتجه الى التوسع فى الشرق ؟ وعندما اختار العثمانيون الطريق الأخير صار الصدام بينهم وبين المماليك أمرا لا مندوحة عنه ، اذ كان لابد لاحدى هاتين القوتين اللتين تتزعمان العالم الاسلامى فى الشرق الأدنى من أن تسحق منافستها لتستأثر بزعامة المسلمين فى المنقطة(٣٨) ·

وفى الصراع الذى قام بين المماليك والعثمانيين كان من الصعب أن يصمد المماليك بعد أن اختل نظامهم فى الداخل ، وفقدت دولتهم المورد الأول لثروتها وقوتها · وهكذا حلت الهزيمة بالسلطان الغورى عند مرج دابق ـ قرب حلب سنة ١٥١٦ م (٩٢٢ هـ)(٣٩) · ورغم الشجاعة الكبيرة التى أبدها طومان باى آخر سلاطين المماليك ـ فان السلطان سليم العثمانى استطاع الانتصار عليه ، والسيطرة على مصر · وتروى المصادر أنه عندما وقع طومان باى فى قبضة غريمه السلطان سليم ، فانه واجهه فى شجاعة ، وقال له « الأنفس التى

---

(٣٨) محمد مصطفى زيادة · نهاية السلاطين المماليك فى مصر ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ (بحث نشر فى مجلة الجمعية المصرية للدراسـات التاريخية ، ١٩٥١) ·

تربت فى العز لا تقبل الذل · وهل سمعت أن الأسد يخضع للذئب ؟ لا أنتم أفرس منا ، ولا أشجع منا ، وليس فى عسكرك من يقايسنى فى حومة القتال !! » · وكان أن سيق طومان باى الى باب زويلة حيث شنق سنة ١٥١٧ م (٩٢٣ هـ) ·

وهكذا انتهت دولة سلاطين المماليك ، وهى الدولة التى كانت فيها مصر قوة مستقلة ذات نفوذ عريض فى الشرق والغرب جميعا ، ونشاط واسع فى ميادين الحرب والسلم · وبنهاية هذه الدولة ، دخلت مصر مرحلة أخرى من مراحل تاريخها الحافل الطويل ·

---

(٣٩) ابن زنبل · آخرة المماليك ، ص ١٢٢ ـ ١٣٦ ·

صدر فى هذه السلسلة

١ ــ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د. عبد العظيم رمضان

٢ ــ على ماهــر
اعداد : رشوان محمود جاب الله

٣ ــ ثورة يوليو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر

٤ ــ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د. محمد نعمان جلال

٥ ــ غارات أوربا على الشــواطىء المصرية فى العصــور الوســطى
عطية عبد السميع

٦ ــ هؤلاء الرجال من مصر جـ ١
لمعى المطيعى

٧ ــ صلاح الدين الأيوبى
د. عبد المنعم ماجد

٨ ــ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية
د. على بركات

٩ ــ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامـل
د. محمد أنيس

١٠ ــ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى

١١ ــ مائة شخصية مصرية وشخصية
شــكرى القاضى

١٢ ــ هدى شعراوى وعصر التنوير
د. نبيل راغب

١٣ ــ اكذوبة الاستعمار المصرى للسودان
د. عبد العظيم رمضان

١٤ ــ مصر فى عصر الولاة
د. سيدة اسماعيل كاشف

١٥ ــ المستشرقون والتاريخ الاسلامى
د. على حسن الخربوطلى

١٦ ــ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر
د. حلمى أحمد شلبى

١٧ ــ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى
د. محمد نصر فرحات

١٨ ــ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د. على السيد محمود

١٩ ــ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د. أحمد محمود صابون

٢٠ ــ المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبدالرحمن فهمى
د. محمد أنيس

٢١ ــ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى جـ ١
توفيق الطويل

٢٢ ــ نظرات فى تاريخ مصر
جمال بدوى

٢٣ ــ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى جـ ٢
توفيق الطويل

٢٤ ــ الصحافة الوفدية
د. نجوى كامل

٢٥ ــ المجتمع الاسلامى والغرب
ترجمة : د. عبد الرحيم مصطفى

٢٦ ــ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة
د. سعيد اسماعيل على

٢٧ ــ فتح العرب لمصر جـ ١
ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٨ ــ فتح العرب لمصر جـ ٢
ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٩ ــ مصر فى عهد الاخشيديين
د. سيدة اسماعيل كاشف

٣٠ ــ الموظفون فى مصر
د. حلمى احمد شلبى

٣٦ ــ خمسون شخصية وشخصية
شكرى القاضى

٣٢ ــ هؤلاء الرجال من مصر جـ ٢
لمعى المطيعى

٣٣ ــ مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د. خالد الكومى

٣٤ ــ تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د. يونان لبيب رزق

٣٥ ــ اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكى

٣٦ ــ المجتمع الاسلامى والغرب جـ ٢
ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

٣٧ ــ الشيخ على يوسف
تأليف : د. سليمان صالح

٣٨ ــ فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

٣٩ ــ قصة احتلال محمد على لليونان
د. جميل عبيد

٤٠ ــ الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى

٤١ ــ محمد فريد الموقف والمأساة
رفعت السعيد

٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصور
محمد شفيق غربال

٤٣ ـ رحلة فى عقول مصرية
ابراهيم عبد العزيز

٤٤ ـ الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى
د. محمد عفيفى

٤٥ ـ الحروب الصليبية ج ١
ترجمة : أ.د. حسن حبشى

٤٦ ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٩ : ١٩٥٧
تأليف : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو

٤٧ ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث
تأليف : أ.د. لطيفة محمد سالم

٤٨ ـ الفلاح المصرى
تأليف : د. زبيدة عطا

٤٩ ـ العلاقات المصرية الاسرائيلية
تأليف : أ.د. عبد العظيم رمضان

٥٠ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية
تأليف : د. سهير اسكندر

٥١ ـ تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية
اعداد : د. عبد العظيم رمضان

٥٢ ــ مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر

تأليف : د. الهام محمد على ذهنى

٥٣ ــ أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك

د. محمد كمال الدين عز الدين على

٥٤ ــ الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى

تأليف : الدكتور محمد عفيفى

٥٥ ــ الحروب الصليبية جـ ٢

ترجمة وتحقيق : د. حسن حبشى

٥٦ ــ المجتمع الريفى فى عصر محمد على

د. حلمى أحمد شلبى

٥٧ ــ مصر الاسلامية وأهل الذمة

د. سيدة اسماعيل كاشف

٥٨ ــ احمد حلمى سجين الحرية والصحافة

د. ابراهيم عبد الله المسلمى

٥٩ ــ الرأسمالية الصناعية فى مصر

د. عبد السلام عبد الحليم عامر

٦٠ ــ المعاصرون من رواد الموسيقى العربية

عبد الحميد توفيق زكى

٦١ ــ تاريخ الاسكندرية

أ.د. عبد العظيم رمضان

٦٢ ــ هؤلاء الرجال من مصر جـ ٣

لمعى المطيعى

الفهـــرس

الصفحة

تقديم د . عبد العظيم رمضان 5

الباب الأول :

مصر الاســـلامية من الفتح العربى الى نهاية الدولة الاخشيدية 9

أولا : مصر فى عصر الولاة 11

1 ـ فتح العرب لمصر 19

2 ـ عمرو بن العاص وعودة البطرك بنيامين . . 33

3 ـ الفسطاط وجامع عمرو بن العاص . . . 39

4 ـ الاسكندرية بعد الفتح العربى 47

5 ـ النظام الادارى فى مصر فى عصر الولاة . 53

6 ـ النظام المالى فى مصر الاسلامية . . . 61

7 ـ الجيش والبحرية فى مصر فى عصر الولاة . 71

8 ـ القضاء فى مصر فى عصر الولاة . . . 77

9 ـ مصر والأحداث السياسية والدينية فى العصر الاسلامى 81

الصفحة

١٠ ـ تعريب مصر وانتشار الاسلام فيها فى عصر الولاة	٩٥
١١ ـ الحركة العلمية فى مصر فى عصر الولاة .	١٠٧
١٢ ـ الاقتصاد والمال فى مصر فى عصر الولاة .	١٢١
ثانيا : مصر فى عصر الطولونيون	١٢٩
١ ـ أحمد بن طولون فى سامرا	١٣١
٢ ـ أحمد بن طولون فى مصر	١٣٣
٣ ـ مصر دولة مستقلة	١٣٧
٤ ـ أحمد بن طولون يؤسس امبراطورية مصر الاسلامية	١٦٣
٥ ـ مصر فى عهد خمارويه بن أحمد بن طولون .	١٧٣
٦ ـ الدولة الطولونية بعد خمارويه	١٨١
٧ ـ المصريون والدولة الطولونية	١٨٧
ثالثا : مصر بعد الطولونيين وقبيل الاخشيديين . . .	١٩٥
١ ـ ثورة ابن الخليج	١٩٧
٢ ـ محاولات الفاطميين للاستيلاء على مصر .	٢٠١
رابعا : مصر فى عصر الاخشيديين	٢٠٧
١ ـ أسرة الاخشيد	٢٠٩
٢ ـ محمد بن طغج الاخشيد وتوليه مصر . . .	٢١٣

الصفحة

٣ ـ تثبيت محمد بن طغج فى مصر واتساع سلطانه ٢١٥
٤ ـ الاخشيد والخلافة العباسية ٢١٩
٥ ـ الاخشيد والحمدانيون ٢٢٥
٦ ـ مصر والخلافة بعد وفاة الاخشيد . . . ٢٢٩
٧ ـ علاقات مصر الخارجية فى الأخشيديين . . ٢٣٥
٨ ـ مصر والدولة الاخشيدية ٢٤١

الباب الثانى :

مصر فى عصر الفاطميين ٢٥٥
أولا : مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين ٢٥٧
ثانيا : الحضارة فى عصر الخلفاء الفاطميين ٣٠٧
المصـــادر ٣٣٧

الباب الثالث :

أولا : مصر فى عصر الايوبيين والمماليك ٣٤٣
ثانيا : قيام دولة سلاطيين المماليك ٣٩٥

رقم الايداع ١٩٩٣/٤٨٧١

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 3395 — 7

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



غطت هذه الموسوعة أهم النقاط فى تاريخ مصر الاسلامية ، وبشكل موسوعى . فقد تناولت النظم السياسية والإدارية والمالية والقضائية والحربية والاقتصادية ، كما تناولت العلاقات الخارجية لمصر الاسلامية فى العهود المختلفة ، وتناولت أيضاً الحياة الاجتماعية والدينية والعلمية والثقافية ، وغطت الحركات السياسية والدينية ، فضلا عن الحروب المختلفة التى خاضتها مصر الاسلامية ، خصوصا ضد التتار والصليبيين .

وتشتمل هذه الموسوعة على ثلاثة أبواب :

الباب الأول ، ويشتمل على تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية الدولة الاخشيدية ، وقد كتبته الأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ، ويتناول : مصر فى عصر الولاة ، ومصر فى عصر الطولونيين ، ومصر بعد الطولونيين وقبيل الإخشيديين ، ومصر فى عصر الاخشيديين .

أما الباب الثانى ، فيشتمل على تاريخ مصر الاسلامية فى عصر الفاطميين ، وقد كتبه المرحوم الأستاذ الدكتور جمال الدين سرور . ويتناول تاريخ مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين ، والحضارة فى عصر الخلفاء الفاطميين .

أما الباب الثالث ، فيشتمل على تاريخ مصر فى عصر الا
والمماليك ، وقد كتبه الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح ع
وتتناول : مصر فى عصر الأيوبيين ، ودولة سلاطين المم

مطابع الهيئة المصرية ا

٥٢٥ قرشا